

ما له وما عليه

تأليف

الدكتور عبد الرحمن عميره

الإمام الشعراني المفتري عليه

رسالة دكتوراه

حصل بها صاحبها الدكتور

عبد الرحمن عميره على درجة العالمية

(الدكتوراه) بتقدير امتياز مع مرتبة

الشرف الأولي

اشراف

الإمام الدكتور / عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر الأسبق

رحمه الله

" بسم الله الرحمن الرحيم "

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا إن هدانا الله وصلى الله على سيد الخلق وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، وصل عليه في الأولين والآخرين صلاة تليق بجلال قدره العظيم، إنك أنت الرحمن الرحيم.

أما بعد .. فقد توخيت عند تناولي لهذا البحث أن يكون نصب عيني ثلاثة أمور.

الأمر الأول:

تبيان الجانب الروحي للإسلام وتوضيح أن التصوف روح الإسلام وجوهره منه ينبع واليه ينتسب، وهو لهذا يلتزم بالكتاب والسنة، يلتزم بهما قولا وفعلا ويلتزم بهما سلوكا ومنهجا وإذا كانت الحياة المادية قد شغلت الإنسان وباعدت بينه وبين السماء، فقد آن الأوان، ليتجه بروحه إلى ربه. حتى يخفف من غلواء المادة التي سدت أمامه كل ينابيع الروح وحالت بينه وبين شفافية الفطرة.

إن العالم الآن في مسيس الحاجة إلى أن ينشق من أريج الروح نسمات ونسمات.. لترطب جفاف قلبه، وتزيل حجب نفسه، وتقارب بينه وبين السماء.

يقول الكتاب العالمي " الدوس هكسلي " إن الإنسان الذي يجعل من عقله المجرد إماما وهاديا مبتعدا عن منطقة الروح وإلهاماتها هو إنسان مهما تجمل بحضارة العلم والعقل يرتع في نطاق واحد مع الحيوان البهيمي".

ثم يقول: إنه لا يؤتمن العلم على مصير الإنسان فردا كان أو جماعة.

لان العلم خليق بأن يمسخ الناس آلات قاصرة لا روح فيها. فالإنسان ضائع لا محالة إذا بنى مستقبله على العلم المادي وحده. وإنما سبيل الهداية والسعادة أن يتجه الإنسان إلى الإيمان بالقوى العلوية وأن غاية الغايات للإنسان أن يعقد بين القبس الروحاني الذي فيه وبين الله عز وجل صلة صادقة دائمة.

الأمر الثاني:

أن أقدم للعالم الإسلامي " الإمام الشعراني " بطلا من إبطاله وعلما من أعلامه عاش حياته لدينه موضحاً له ومنافحاً عنه، رجل من رجالات الإسلام الذين طبعوا جبهة التاريخ في فترة من فتراته بالنور والإشراق. فكان لجيله وما بعده من أجيال كالبؤرة المشعة من جرم الشمس، ترسل ضياءها على الجميع فتمنحهم الدفء والحياة.

هذا العالم الجليل والولي الكبير نفس عليه بعض معاصريه فنالوا منه وهم له ظالمون وعليه حاقدون اتهموه بالمروق عن الدين والخروج على رأي الجماعة. ولما لم يجدهم ذلك. دسوا في كتبه ما لم يقله مما هو مخالف للشريعة.

وكان من أوجب الواجبات علينا أن ننصف هذا الرجل ونزيل ما علق بالأذهان عنه ونعمل على إخراج كتبه وتنقيتها مما زيفه المزيفون ودسه الحاقدون وما أكثرهم.

فعلت ذلك وأنا على يقين أن تزكيتي لهذا الرجل ستكون مثار لغط كثير لإن بعض الناس قد تعودوا من رجالات البحث ألا يكونوا على مستوى الحيدة والإنصاف بل عليهم ان يحصوا المثالب هنا كلما ذكروا المحاسن هناك.

يقول العقاد: الناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا. وأن يقرنوا بين الثناء والملام: وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب والتحيز، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ولا يعجبون إلا وهم متحفزون لملام.

والحق أقول إنه لم يحرجني أن أزكي عملاً للشعراني، كلما رأيته أهلا للتزكية وأن انصفه من شانيئه ومن اتباعهم ممن ساروا خلفهم بالتبعية والإقتداء.

وماذا يمكن أن يوجه من ملام لرجل كان خلقه القرآن، وكان يحكِّم السنة وأعمال الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كل ما يأتي وما يدع..؟

وثالث هذه الأمور:

أن نقدم لشباب امتنا العربية القدوة والمثل من رجالات الإسلام ممن تربوا في مدرسة الإسلام ونهلوا من ينابيع القرآن حتى يمكن الإقتداء بهم، وحتى لا تتشتت أنظارهم إلى من حولهم ويعيشون على موائد الغير باحثين عن الدليل ومنقبين عن المنهج.

لقد افتقد الشباب في وطننا العربي " الشخصية الإسلامية " التي تقود وتوجه، وترشد وتربي.. وكان من جراء ذلك، غربة تعاليم الإسلام عن حقل الحياة واقتطاع أجزاء من وطننا العربي الكبير حتى عشنا في خوف ورعب نخشى أن يتخطفنا الناس من حولنا !!

لهذا الجيل الحائر الملتف يمينة. ويسره، ينشد الهدف ويتلمس الوسيلة ويبحث عن الخلاص. ويأمل في تحرير أرضه لنقل لهم مقالة البحارة. في سفينة بالمحيط الأطلسي، للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل، فرغ منها الماء العذب فصاحوا في طلبه، فأجابهم بحارة المحيط، القوا الدلاء حيث انتم، فأعاد المستغيثون طلب الماء، وكان الجواب دائما " القوا الدلاء حيث انتم " حتى إذا القوا الدلاء عادت بالماء عذبا فراتا لذة للشاربين، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون حيث ماءه العذب يصب في صميم المحيط وهم لا يشعرون. لنلق الدلاء حيث نحن، فما ازخر الأعماق عندنا بالكنوز.

وبعد فإن البحث بين أيديكم ويعلم الله ما توخينا إلا وجهه الله في كل سطر وفي كل كلمة وأراني في النهاية اهتف بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا ما قدرنا عليه..فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمن عمر " .

وعلى الله قصد السبيل ،

البـــــــاب الأول

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــــــد

من الحقائق البدهية أن الإنسان وليد عصره وأبن بيئته والظروف التي تحيط بــه تؤثر فيه فيتأثر بها ثم يؤثر فيها بدوره إن كان من أصحاب الرســـــالات الجليلـــة والمبادئ العالية التي تعمل لخير البشرية فتطورها وتدفعها إلى الكمـــال، الكمـــال الذي هو طلبة الإنسان وبغيته من أول أن وضع قدمه على الأرض.

وإذا كانت هذه هي الحقيقة الأساسية في تكوين نفسية المجتمع ونفسية الإنســـان فيه فإن ذلك يدعونا إلى الاهتمام بعرض سريع للبيئة والعصر الذي عـــاش فيـــه الإمام الشعراني رضي الله عنه، من نواحيه السياسية والاقتصاديـــة والاجتماعيـــة والفكرية.

نتبعها بالحديث عن التصوف في هذا العصر، التصوف الذي له صلة وثيقة بإمامنا الذي نترجم له- لنرى بعد ذلك إلى أي حد كانت حياته انعكاساً لأثر هـــذه الحيـــاة فيه، ثم يأتي بعد ذلك دوره مؤثراً وموجهاً لعصره وجيله وما بعده مـــن الأجيـــال حتى عصرنا الحاضر.

الحالة السياسية في عصر الشعراني

استطاعت الدولة العثمانية الاستيلاء على مصر بعد موقعة الريدانية ٩٢٣ هـــ ١٥١٧ م. وفي هذا العهد. عهد الدولة العثمانية تعرض المصريون لنكبات كثـــيرة من اضطهاد وظلم وتنكيل، والسبب في ذلك الوقت من تاريخها كانت تحكم بثـــلاث قوى، يراقب بعضها بعضاً، ويكيد بعضها للبعض الأخر.

أولى هذه القوى الوالي: الوالي الذي يحكم مصر باسم السلطان، وليس له رأي ولا سلطة في حكمه وإنما تنحصر وظيفته في تنفيذ الأوامر التي تأتي إليه مـــن ســـيده السلطان. وكان هذا الوالي يتم تعيينه بعقد يمكن أن يجدد إذا قبل السلطان ذلك وقام الوالي بسداد ما يطلبه منه.

السلطة الثانية الديوان: ويتكون من كبار الضباط والموظفين وكـــانوا مكلفيـــن بحفظ الأمن واستتبابه في البلاد وتنحصر وظيفتهم الأساسية في مراقبة الوالي فـــي

شتى تصرفاته، ولهم حق رفض قراراته وطلب عزله ولقد ذاق الشعب من هؤلاء الجنود الشيء الكثير.

السلطة الثالثة الحكام الإداريون للمديريات: وكانت وظيفتهم جمع الضرائب والإشراف على شئون الأقاليم. وإقامة التوازن بين الوالي والجنود وهم من المماليك الذين دخلوا في حوزة السلطان وأعلنوا الطاعة والولاء وهكذا أصبحت مصر في هذه الفترة من تاريخها يعوزها الحاكم القوي الذي تتجمع السلطة في يده وبالتالي تخضع له سائر القوى. لقد كان هناك نزاع يكاد يكون مستمراً بين المماليك بعضهم مع بعض وبينهم وبين الجنود. ويصور الجبرتي هذا النزاع قائلاً: " لقد كان هذا النزاع يبدو في بعض الأحيان وكأنه حرب داخلية كما حدث بين فرقتي العرب والإنكشارية أو بين فرقتي القاسمية والغفارية. ودامت ثمانين يوماً " ولعلنا نتساءل أين الوالي في هذا النزاع..؟ لماذا لم يباشر مهام وظيفته ويقضي على هذا النزاع..؟ والحقيقة إنه لا يستطيع. ومن هنا لم يفعل شيئاً وانحصرت وظيفته في المراقبة فقط والإشراف من بعيد. ورصْد تلك الحركات ليرفع للسلطان التركي أمرها.

يقول الدكتور توفيق الطويل.. إن الوالي لا يملك القضاء عليها ولا يستطيع أن يفض النزاع بينها لأن القوى تعوزه والسلطان ينقصه (١) ومما لا جدال فيه أن هذا الاضطراب المستمر والنزاع الدائم والفوضى التي شملت ضروب الحياة المختلفة كان لها أكبر الأثر في حياة الشعب المصري. سواء في الناحية الاقتصادية أو الفكرية أو الاجتماعية.

الحالة الاقتصادية

أصبحت مصر محكومة بولاة ترك لا يعنيهم من أمرها ولا يهمهم من شئونها إلا أن تخضع لسلطان الباب العالي. تشبع نهمه ونهم ولاته بما تؤدي إليهم من مال وما تدفع من مكوس وضرائب. وقلنا عند الحديث عن الحالة السياسية أن الوالي يعين بعقد قابل للتجديد ولن يجدد هذا العقد حتى يدفع الثمن باهظاً من مال الشعب

---

(١) التصوف في العصر العثماني ص١٢ دكتور توفيق الطويل.

وأقواته. وقد قرر المؤرخون أمثال الجبرتي وابن اياس ثمن الولاية بما يتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف ريال. هذا بالإضافة إلى الخراج الذي يطلبه السلطان وقدره ستمائة ألف ريال. كل ذلك عدا نفقات الحج والجنود في مصر.

ويقول الرافعي.. كان الوالي وحكام المديريات من أمراء المماليك يجمعون لأنفسهم في فترات الظلم أموالاً لا يقرها عدل، ولا يقول بها عقل. وكما قلنا أن موارد مصر قد قلت في هذا العصر لأسباب كثيرة. سنشير إلى بعضها - في الوقت الذي كثرت فيه وجوه الإنفاق كثرة زادت على كل حد. ويقارن الدكتور توفيق الطويل بين سلاطين المماليك والعثمانيين قائلاً: " كان سلاطين المماليك ينفقون كل ما يصل إلى أيديهم من أموال الشعب داخل البلاد يقيمون المباني الشاهقة والقصور النفيسة التي لا تزال إلى اليوم قائمة تشهد بمهارتهم في فن العمارة، وينفقون كثيراً في حياتهم المترفة التي حفلت بوصفها كتب الرحلات. التي كتبها الأجانب في هذا العصر وكانوا يعطفون على الشعب فيتصدقون على فقرائهم. ويجرون الأرزاق على طلبة العلم من أبنائه ويجزلون العطاء للعلماء من شيوخه فانتفعت البلاد بما قدمته لهم من مكوس وضرائب. أما في العصر العثماني فإن موارد المال فيه قد قلت ووجوه الإنفاق قد كثرت.(١)

قلّت موارد الإنتاج لأسباب كثيرة أهمها: أن الضرائب التي تفرض على البضائع المارة بالبلاد كانت من أهم الموارد في مصر. حيث كان البحر الأبيض المتوسط. هو الطريق الوحيد بين الهند وأوربا.ولكن اكتشاف رأس الرجاء الصالح على يد " فاسكودى جاما " عام ١٤٦٩ م جعل مصر تخسر مورداً فياضاً بالمال.

ومن الأسباب أيضاً وجود النزاع القائم بين السلطات الثلاث واختلال الأمن في البلاد كل ذلك كان من العوامل الحيوية التي حالت بينهم وبين التفكير الجدي في أمر الزراعة التي تعتبر المورد الثاني للدخل. فأهملت مرافق البلاد إهمالاً تاماً. بالإضافة إلى أن الضرائب الباهظة التي كانت تقدر حسب أهواء الملتزمين وتفرض على الفلاح. كان لها أكبر الأثر في إهمال الزراعة الأمر الذي جعل الفلاح يعيش في قلق دائم، وذعر مستمر، حال بينه وبين وفرة الإنتاج كما أن أرضه كانت عرضة للانتزاع منه إذا عجز عن سداد ما يفرض عليه.

أما المورد الثالث للبلاد وهو الصناعة . فيقول ابن اياس حسبنا أن نعلـم أن السلطان التركي قد عاد إلى الأستانة بعد فتح مصر . وفى صحبتـــه نحـــو ألـــف وثمانمائة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والحجـــارين والمرخميـــن والخراطين . هذا وفوق ما غنمه من أموال البلد . حتى بلغ ما نهبه فيما أشيع ألف جمل محملة بالذهب والفضه عدا ما حمله معه من تحف وأســـلحة وأوان صينيـــة ونحاسية ودواب من خيل وبغال . وذلك خلاف ما غنمه وزراؤه وجنوده . حتـــى بطلت في مصر خمسون صناعة وتعطل أصحابها "١" .

إنها عملية اغتصاب وسلب موارد البلاد من أصحابها الشرعيين لتعطى لآخرين من غير حق شرعي . أو سند قانوني . ولم يكن هناك ضمير إنساني أو وازع من ضمير يحول بينهم وبين ذلك .

في هذا الجو الخانق الملبد بالضباب , المليء بالاغتصاب والظلم والاضطـــهاد والسلب وئدت أو كادت كل البواعث التي تدفع إلى النهوض بالصناعة أو القيـــام بأي حرفة أو تشجيع إلى ممارسة إي نشاط .

الحالة الفكرية في عصر الشعراني

سقطت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية تحت زحف التتـــار عـــام ٦٥٦هـــ ١٢٥٨م فانتقلت مراكز العلم من بغداد وبخاري ونيسابور وقرطبـــة وغيرهـــا مـــن مدائن العلم في العصر العباسي إلى القاهرة والإسكندرية . وكان السلاطين الذيـــن يملكون مصر يجرون على العلماء الأرزاق ويجزلون لهم العطايـــا فنشـــأت فـــي مصر نهضة علمية .

---

(١) ابن أياس جـ ٣ ص١٤٩ ، ١٣٣

إذا كانت بغداد معقل الثقافة وملاذ العلماء وكعبة القصاد . وموضع الثقل في الفكر الإسلامي في فترة من فترات التاريخ . واستمرت حقبة من الزمن - ترسل الضياء على من حولها وتشيع الثقافة والفكر من فلسفة وفقه وحديث أصول , فانه بعد الحادثة التاريخية المؤلمة ودخول جحافل التتار إلى أرضها وحرقت أتلفت خلاصة الفكر الإنساني وقمة الثقافة الإسلامية فيها , أصبحت مصر مثوى الفكر الإسلامي وملاذ العلماء العرب وموضع الثقافة الإسلامية .

لأن حكام مصر من المماليك في هذا الوقت كان لهم ميل إلى العلم وتشجيع أهله . كما كان لكثير منهم تمسك بالدين وأصوله لشعورهم أنهم صاروا حماة الإسلام وان هذه هي بلادهم التي يدينون لها بما وصلوا إليه من مجد وسلطان .

ويروى جورجى زيدان في كتابه آداب اللغة العربية . أن العوامل التي جعلت المماليك يهتمون بالثقافة ونشر الدين والقيام بتشييد المساجد والمدارس اعتقادهم أن ذلك مما يقربهم إلى الشعب ويكون من جانب آخر وسيلة لتغطية أعمالهم التي يقترفونها من ظلم واستبداد وسلب يقول " وليس ببعيد أن يكونوا قد اتخذوا من تشجيع العلم وسيلة تقربهم إلى جماهير الشعب وتشفع لهم فيما يأتونه من ظلم واستبداد فجدوا في إنشاء المساجد والمدارس والملاجئ والمستشفيات أغدقوا عليها الأموال وأوقفوا الأوقاف على العلم وأهله . فتفرغ العلماء للدرس والتأليف واستنقاذ التراث العلمي والأدبي لتصنيف الموسوعات الجامعة لشتات الثقافة العربية "١".

ويصور الدكتور طه حسين النهضة العلمية والأدبية وكثرة التأليف وضخامتها بعد سقوط بغداد فيقول " نشأ منذ القرن السابع للهجرة ميل نحو التعليم العام فنرى لاول مرة في التاريخ الإسلامي مؤلفا كالنويرى يحاول أن يشرع شتى

---

(١) جورجي زيدان آداب اللذة العربية جـ٣ ص١١٢

المعارف التي عرفت في عصره من أدبية وعلمية وتاريخية في موسوعة ذات عشرين مجلدا .. ونرى مؤلفا آخر وضعه القلقشندى " صبح الأعشى " عن الأنظمة المختلفة في العالم الإسلامي يقع في ثلاثة عشر مجلدا ونرى ما يشبه هذا في غير هذين الكتابين "١" .

فلما كان العصر العثماني انطفأ الشعاع وامتحنت الثقافة العربية بإلغاء ديـوان الإنشاء الذي احتضن أكابر الكتاب في عصر المماليك وأسهم في الإبقـاء علـى الحياة العربية وآدابها ثم بلغت المأساة ذروتها بفرض اللغة التركية لغـة رسـمية للبلاد. التي يحكمها الترك العثمانيون باسم الإسـلام فتدهـورت الحيـاة العلميـة والأدبية وقلت عناية الحكام بالأدباء والعلماء وساعد الجو السياسي والاجتمـاعي والاقتصادي في عصرهم على وقف التيار العلمي السائر نحو الكمال.

يقول الدكتور طه حسين: لو لا الأتراك لكان الفرد المصري متمشياً من تلقـاء نفسه مع الأذهان الأوربية في العصور الحديثة ولاستطاع أن ينال بـل أن يقـوم بنصيبه من الرقي العام للحضارة "٢".

لقد حاول العثمانيون أن يجعلوا مصر تعيش في عزلة عن العالم الأوربي فـي الوقت التي كانت أوروبا فيه قد استيقظت وأخذت النهضة تسير في كل مرفق مـن مرافق الحياة عندها. فكان المثل الأعلى للعلم في مصر قائما على الدين وما يعيـن على فهمه من دراسات. وكان الناس لا يعرفون علوما أسمى من علوم الديـن ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته ولا رجالاً أخلق بقيادته في حياتـهم الدنيوية والدينية من رجاله وبهذا أصبح زعماؤهم في ميدان السياسة وقادتهم فـي الحياة العامة واساطينهم في مجال العلم هم الفقـهاء وحملـة الشـريعة وأربـاب الطريق. وكادوا يهملون كل ما عدا الدين من ضروب العلم وألوانه. حتى أن كبـار العلماء في الأزهر كانوا يهملون الرياضة إهمالا يكاد يكون تاماً وإذا استعرضنا

١- أبن خلدون طه حسين ص١٦٢ ، ١٦٥

٢- أبن خلدون طه حسين ص٥٧

رأي الشعراني وتصويره لهذا العصر فنراه يقول: " شـــاع الجـــهل بيـــن النـــاس واستفحل أمره في الريف والحضر وعششت السذاجة والخرافة في رؤوسهم. فـــإذا أصاب البلاد قحط كان الحاكم يطلب إلى العلماء والناس الإتجاة إلى الله بالأدعيـــة والأوراد لزواله ويلتمس ممن يرجو فيه الصلاح أن يكون هو الداعي والناس مـــن ورائه يستجيبون (١) يؤمنون.

أما عن دور التعليم في العصر العثماني فتكاد تكون محصورة في الأزهـــر. وقد كان طلابه من رواد الكتاتيب. فإذا قضى الطالب شطراً من التعليـــم فإمـــا أن يقيم حلقة ويمضي في تعليم الطلاب، وأما أن ينطلق إلى الأقاليم والقرى ليقيم هناك " كتابا " ويتولى إرشاد الناس وهدايتهم.

ثانياً: الكتاتيب التي كانت تمد الأزهر بالطلاب وتعلم روادهـــا بعـــض آيـــات القرآن الكريم والقراءة والكتابة وكانت هناك أيضاً مجالس الأدب والعلم تقام فـــي منازل العلماء والأدباء كما قد شاع في الريف نوع من الأدب الشعبي تمثله قصص أبي زيد الهلالي وعنترة وألف ليلة وليلة. يضاف إلى ذلك زوايا الصوفيـــة التـــي كانت تقوم بنشر العلوم الدينية والصوفية في ذلك الحين.

عزلة تكاد تكون تامة. مضروبة على مصر. وخرافات تملأ رؤوس الكثير من أفراد الشعب وخزعبلات تسيطر على عقولهم. وعزل لغة الشعب الأصلية، وفرض لغة غريبة عليه - وعلى تراثه وحضارته ودينه. فأنتجت كل هذه المآثم والآفـــات. ضعفا في الثقافة العامة التي هي زاد الشعب إلى ضيق فـــي آفـــاق الفكـــر. إلـــى نضوب في القرائح وفساد في الأذواق. ولولا بصيص من نور بقـــي يشـــع مـــن جنبات الأزهر يهدي الحيارى ويحفظ العلم والدين واللغة - لاستمرت مصر حقبـــة طويلة في ظلام الجهل وفيافي الضياع.

١- لطائف المنن للشعراني جـ ١ صـ ١٠٦

في هذا العهد. الذي عشش فيه الجهل تعرض المصريون لنكبات كثيرة من اضطهاد وظلم وتنكيل. لقد انتشر طغيان الحكام وبغى الجنود وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوه أكثر من مرة وكثرت الأتاوات التي كانت تفرض عليه. فانقضت الفاقة ظهورهم، وأحرجت المظالم صدورهم، فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التي أثقلت كواهلهم. لقد اشتد الضنك والتعذيب وانتهكت الحريات على أيدي فرق الجند. التي كانت لا تجد لها رادعاً يردعها من خلق أو دين عن هذا الغي أو حاكماً قوياً يحول بينها وبين ما ترتكبه من مفاسد.

لقد كان الحكام في كثير من الأحيان يعجزون عن رفع الظلم عن المظلومين وكان غاية ما يستطيعون أن يعملوه أن يطلبوا من المظلومين إخفاء نفوسهم عن المفسدين. إن الضرائب التي تفرض والأتاوات التي كانت تؤخذ لم تكن تستند إلى جعل معين أو ترتبط بمقدار محدد ولكنها كانت تفرض على حسب أهواء الحكام ونزعاتهم. فإذا عجز الفلاح عن ذلك وكثيراً ما كان يعجز - عرض نفسه لألوان كثيرة من العذاب من ضرب بالمقارع والكسارات وإدخال البوص بين الظفر واللحم ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس كما يقول صاحب المناقب الكبرى "١" الإمام الشعراني، فإنه يصور تلك الحالة البشعة فيقول:" لقد كان الفلاح المسكين والتاجر البائس يزن الخراج خمسة أضعافه، ويتكلف مثل ذلك على الكشاف، والقصاب، ومشايخ العرب، وقطاع الطرق، ثم بعد ذلك هاف قمحه ولم يجد هناك شيئا يأكله هو وعياله وما ثم ملجأ يلجأ إليه "٢".

١- المناقب الكبرى صـ ١٣١

٢- الرسالة للإمام الشعراني صـ ٢

ويقول الدكتور توفيق الطويل مصوراً هذا العصر ومحللاً لهذا التناقض الذي يعيش فيه " إن تاريخ الأديان يقول: إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضاربتان نزعة ترمي إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه ونزعة أخرى ترمي إلى التهاون في تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه. وأن هاتين النزعتين تسيران جنباً إلى جنب في العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد. وبهذا وجد إنحلال الأخلاق في مصر إلى جانب التعصب الشديد بأمور الدين "١".

وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقي شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها كالشذوذ الجنسي من عشق المرد والغلمان.ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الإمام الشعراني رضي الله عنه عن طالب علم اعترف له أنه أحب زوجة شيخه وزنى بها وهي تخادع زوجها وتستغل غفلته ويؤيد هذا الجبرتي بقوله كان هذا الداء شائعاً في هذا العصر وانتشر الزنا بحليلة الجار أو من غاب زوجها حتى لم يسلم منه أحد".

يقول الإمام الشعراني" ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع في الزنا فليحلف بالله على ذلك فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعاً بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم"٢".

ويقول أبن أياس كان أمراؤهم ووزراؤهم يفعلون ذلك وكانوا يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس وغالبهم لا يصوم رمضان ولا يقيم في المسجد صلاة حتى صلاة الجمعة.

وكان للجهل الذي عشش في كل مكان أثره في انتشار البدع والشعوذة ورواج الخرافات فانتشر المرض وكثرت الأوبئة. لإنهم كانوا كثيراً يدفنون الموتى في منازلهم وأخيراً لا نستطيع أن نصور كل ما كان في هذا العصر من ضروب

١- التصوف في العصر العثماني صـ ٣٠

٢- العهود المحمدية للإمام الشعراني صـ ٤١٤

متباينة. وسوأت مختلفة من فقر وجهل ومـــرض ويكفينــا أن نعلــم أن العصــر العثماني كان من أسوأ العصور التي - مرت بها مصر بخاصة وبالبلاد العربيـــة بعامة من ظلم وظلام وجهل وتواكل ورضا بالدون من العيش - فلنستعرض معـــاً التصوف الذي نبت وعاش في هذا العصر - ولنرى كيف انعكست كل هذه السوأت والمفارقات على التصوف. بادئين بنبذة عن حقيقة التصوف في عصر المماليك.

التصوف في عصر المماليك

كان الغالب على رجال التصوف في عصر المماليك. التفقه في الدين والـــتزام أوامره ونواهيه والسير على قواعد الشريعة. واتصـــف صوفيـــة هـــذا العصــر بالصلاح والتقوى والورع والزهد في الدنيا والتعفف عما في أيدي الناس وكـــانت لهم خبرة ودراية كاملة بشئون الحياة. ومعرفة بخبايـــا النفـــوس - هـــذه الأشـــياء مجتمعة أوجدت لهم مكانة ممتازة في قلوب المحبين بخاصـــة والمجتمـــع الـــذي يعيشون فيه بعامة. وتعدى هذا الحب والتقدير من العامة إلى الـــولاة والأمـــراء. فأذعنوا لهم وخضعوا لأوامرهم وأغدقوا الكثير عليهم. ولكن رجال التصوف كانوا يرفضون عطاياهم وإن قبلوها تحت إلحاحهم وزعوها على الفقراء وتنازلوا عنـــها للمعوزين وأصحاب الحاجات.

يقول الإمام الشعراني مصوراً هذا الحب والتقدير الذي كان الأولياء يحظـــون به من الحكام والولاة وأصحاب الأمر والنهي.

" وقد رأيت بعيني السلطان الغوري وهو يقبل يد سيدي محمـــد بـــن عنـــان. ورأيت السلطان طومان باي الذي تولى بعده يقبل بطن رجله. وطلعت مـــرة مـــع سيدي الشيخ ابن الحسن الغمري للسلطان الغوري في شفاعة فقام للشيخ وعضده

من تحت إبطه وقال يا سيدي عززتني في هذا النهار فإني ومملكتي كلها لا تفي حق طريقك"١".

رؤوس الملوك تطأطأ أمام الأولياء. وشفاههم تتسارع لتقبيل أقدامهم وآذانهم تشنف عند سماع كلمة تنطق بها أفواههم.. لماذا فعل الملوك ذلك مع الأولياء؟ والجواب واضح وهو أن هؤلاء الأولياء آتتهم الدنيا فرفضوها وخاطبتهم الحياة فملوها. لانهم كما يقول أبو بكر الكلاباذي (٣٨٠ هـ).

" جعل فيهم صفوة وأخياراً، ونجباء وابراراً. سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى وعزف بنفوسهم عن الدنيا. صدقت مجاهداتهم. فنالوا علوم - الدراسة. وخلعت عليهم معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة. وصفت سرائرهم فاكرموا بصدق الفراسة. ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأثارت أعلامهم فهموا عن الله وساروا إلى الله،واعرضوا عما سوى الله. خرقت الحجب أنوارهم،وجالت حول العرش أسرارهم. وجلت عند ذي العرش إخطارهم. وعميت عما دون العرش أبصارهم. فهم أجسام روحانيون. وفي الأرض سماويون. ومع الخلق ربانيون. سكوت نظار. غيب حضار. ملوك تحت أطمار أنزاع قبائل. وأنوار دلائل. آذانهم واعية،وأسرارهم صافية. ونعوتهم خافية "٢".

أعرضوا عما سوى الله فتهافت عليهم كل شيء.. إنهم ملوك تحت أطمار حقاً. وهم الصوفية الصادقون والأولياء المخلصون،وإنهم الرحمة المهداة التي يبعثها الله لعباده بعد انقطاع الوحي. وختم الرسالات واكمال الدين. ليكونوا الصلة بين السماء والأرض،ويدلوا على شرع الله الذي شرعه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. كلما بعد عنه الناس. ويشيروا إلى هديه ونوره كلما أخطاه الشاردون.

١- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ ١٩

٢- التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي صـ ٤٣

هؤلاء الأولياء والفقراء في العصر المملوكي. كانت كلمتهم مسموعة واشارتهم نافذة. كانوا يهتمون بشئون الخلق. ويتفقدون أمور الدولة ويجابهون الحكام الظلمة. ويقرعون آذانهم بكلمة حق ويرشدونهم إلى طريق الصدق. ويطالبونـــــهم الرفـــق بالرعية والاهتمام بشئون الدولة فان أبوا أن يسمعوا لـــــهم وتمـــادوا فـــي غيـــهم وضلالهم. خوفوهم العذاب والعقاب وأرعبوهم بغضب السماء وبطش الإلـــــه " إن ربك لبالمرصاد"(١) يقول الإمام الشعراني:" كان السلطان فرج بن برقوق يرمـــــي الرمايا على الناس وكان الشيخ شمس الدين الحنفي ٨٤٧ هـــ يعارضـــه. فأرســل وراء الشيخ وأغلظ عليه القول فقال السلطان: المملكة لي أو لــــك فقـــال الشـــيخ: متغيراً رضي الله عنه: لا لي ولا لك المملكة لله الواحد القهار.

ثم قام الشيخ متغير الخاطر فحصل للسلطان عقب ذلك " مرض " كـــاد يـــهلك منه فرجع عن ذلك ورفع ما كان يرهق به كاهل الشعب"٢".

وقصة أخرى مع الإمام الصالح الورع الزاهد شـــمس الديـــن الديـــر وطـــي ٩٢١هـــ حط مرة على السلطان الغوري في ترك الجهاد فأرسل الســـلطان خلفـــه فلما وصل إلى مجلسه قال للسلطان: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فلـــم يـــرد عليه ؟ فقال الشيخ: إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال: وعليكم السلام ورحمـــة الله وبركاته. ثم قال علام تحط علينا بين الناس في ترك الجـــهاد..؟ وليـــس لنـــا مراكب نجاهد فيها فقال عندك المال الذي تعمرها به. فطال بينهما الكلام.

فقال الشيخ: قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان أما تذكر حيـــن كنـــت نصرانياً ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ثم منَّ الله عليـــك بالحريـــة والإســـلام ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق وعن قريب يـــأتيك المـــرض. الـــذي لا ينجح فيه طب ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبراً مظلماً ثم يدسون أنفك هذا فـــي التراب. ثم تبعث عريانا عطشانا جوعانا ثم توقف بين الحكم العدل الذي لا يظلـــم مثقال ذرة ثم ينادي المنادي من كان له حق على الغوري فليحضر. فيحضر

١- سورة الفجر آية رقم ١٤

٢- الطبقات الكبرى للشعراني جـــ ٢ صـــ ١٦١

خلائق لا يعلم عدتها إلا الله فتغير وجه السلطان من كلامه. فقال كاتب السر وجماعة السلطان:الفاتحة يا سيدي الشيخ خوفاً على السلطان أن يختل عقله فلما ولى الشيخ وأفاق السلطان. قال أئتوني بالشيخ.فعرض عليه عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء البرج الذي في دمياط. فردها عليه. وقال أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد ولكن إن كنت أنت محتاجاً أقرضتك وصبرت عليك.

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه: فما رؤى أعز من الشيخ في ذلك المجلس ولا أذل من السلطان فيه"١".

علام تدل هذه القصة والقصة التي قبلها..؟ إنهما تحويان معاني كثيرة وعبراً فاضلة. لما يجب أن يكون عليه العلماء حملة الشريعة وورثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وتدل أيضاً على أن العلماء والفقراء في عصر المماليك. كانوا ملتزمين بأوامر الشريعة سالكين على نهج النبوة عاملين بكتاب الله وسنة رسوله. وكانوا يقومون بالواجب عليهم من النصح للحاكم والرفق بالرعية.

كانوا يطالبون الولاة والحكام بتخفيف الضرائب عن الشعب وكانوا يحاسبونهم على وجوه صرف هذه الضرائب واستجاب الحكام لذلك في هذا العصر. والدليل على ذلك المباني الشاهقة والمساجد الكثيرة والمدارس التي يتعلم فيها أبناء الشعب. وكانوا يجرون الجرايات على مشايخ الدين وطلبة العلم. ويوقفون عليهم الأوقاف ويغدقون عليهم العطايا. وكان العلماء يطالبون الولاة بالجهاد والدفاع عن البلاد والعباد فإذا توانوا أو تكاسلوا أو اعتذروا.. لا يقبلون لهم عذرا. واسمعوهم قارع القول وهددوهم العذاب والعقاب ما دام المال مكدسا في خزائنهم الخاصة.

والعلماء وحملة الشريعة في العصر المملوكي. كانوا لا يخافون إلا الله ولا يرهبون أحداً غيره. إيمانا منهم بأن لكل أجل كتابا " إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "(٢)

١- الطبقات الكبرى جـ٢ / صـ١٦١ والعهود المحمدية صـ ٨٠١

٢- سورة يونس آية رقم ٤٩

ومن هنا لا يرجون من أحد شيئا إلا الله الذي خلقني فهو يهدين. والـذي هـو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين " (١)

والعلماء أيضاً كانوا يقومون بما أمرهم الله به من تذكير النـاس بـأوامر الله واجتنابهم نهيه. وأن كل ما فيه العبد من نعم هو من عنـد الله " وأن - المعـاصي تزيل النعم ".

ويدل على ذلك كله أن العلماء وحملة الشريعة كانوا زاهدين فيما هو في أيـدي الولاة وإلا لما استطاعوا أن يسمعوهم قارع القول ويكون لهم هذا النفوذ الذي تـهيأ لهم. والذي كان بحق يمثل سلطة الشعب الحقيقية أمام هؤلاء الحكام. وبهذا تجلـت أرادة الأمة. حتى في أسود الأيام التي سجل فيـها التـاريخ اسـتكانتها لاسـتعباد الحكام. وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئا آخر. هو رد الظلم وكف البغـي عنه. ودفع بعض العدوان. ذلك أن شيوخ الطريق في العصر المملوكي كانوا حلقة الاتصال بين الشعب المغلوب على أمره وبين حكامه الظالمين المترفين.

حقيقة التصوف في العصر العثماني

إذا ما تركنا العصر المملوكي بما فيه من جوانب مشـرقة. وأنـوار بـاهرة وصور روحية مؤمنة واتجهنا إلى العصر العثماني. رأينا أن انحلال أحوال البـلاد سياسيا واجتماعيا واقتصاديا في أواخر عصر المماليك واوائل العصـر العثمـاني أدى إلى ظهور بعض أدعياء التصوف فقد كثر في طرقهم الأدعياء والمتطفلـون والمتشبهون.

يقول الدكتور/ عبد الحليم محمود " وهكذا في كل ميدان مـن الميـادين نجـد الأدعياء نجدهم في الميدان الديني وفي الميدان السياسي وفـي الميـدان العلمـي ونجدهم كذلك في ميدان التصوف وهدف هؤلاء الأدعياء معروف. إنه - الاسـتفادة من أقصر الطرق. وكما لا يضر الدين ولا يضر العلم أن ينتسب إليه الأدعياء

١- سورة الشعراء آية ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

كذلك فإن الأمر فيما يتعلق بالتصوف"١" والتصوف في هذا العصر وجد فيه الأدعياء بكثرة والمتطفلون وتهيأ لهم سلطان واسع النطاق وتغلغل نفوذهم في شتى الطبقات ومختلف الهيئات. لقد كان عصرا تستعبده الجهالة ويسيطر الاضمحلال على شتى نواحي الحياة فيه. وكان أدعياء التصوف يحبذون الجهل وعدم التعليم فراجت بضاعة الدجل والشعوذة والقعود عن السعي لاكتساب القوت وتحمل المشاق في ميادين العمل.

والإمام الشعراني رضي الله عنه بأسلوبه الممتع وشفافيته المشرقة وإيمانه العميق يحاول أن يعطينا صورة صادقة عن الحالة التي وصل إليها التصوف في العصر العثماني فيقول:" كان التصوف حالا فصار كارا. وكان احتسابا فصار اكتسابا. وكان استتارا فصار اشتهارا. وكان اتباعا للسلف فصار اتباعا للعلف وكان عمارة للصدور. فصار عمارة للغرور. وكان تعففا فصار تعلقا وكان تجريدا فصار ثريدا "٢".

نعم تحول التصوف إلى وظائف يتقاتل عليها طلاب الدنيا وأصبح اكتسابا للرزق عن طريق الدس والخديعة وصار مظاهر وشعارات كاذبة. وركب أصحابه الغرور والصلف والتقاتل على ما في أيدي الناس. والتعلق في الدنيا على حساب الآخرة .

وصاحب كتاب التصوف في العصر العثماني يقول:" حفلت مصر إبان العصر العثماني بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء. واكتظت الشوارع بمواكبهم. والبيوت بولائمهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم. وانتشر الشيوخ والأتباع في الريف والحضر. وتغلغل نفوذهم في المدن وشاع في الأقاليم والقرى. وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام في صدورها عرشه. وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين واستهان بالرأي العام فتخطى أبسط مبادئ العرف. واستعلى على الدين. فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه. وبذلك أضحى الفقراء

١- المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

٢- الطبقات الكبرى صـــ

في مصر إبان هذا العصر. فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة..؟ وذلك أن " روح العصر " بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطــراب الأمن وظلم الحكام. عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمـــــها بين الناس"١".

نعم لقد شاع الجهل بين كثير من أدعياء التصوف في هـــذا العصـــر فكـــانوا ينفرون من التعليم ويجهلون أولى مبادئ الدين. ولا يفقـــهون شـــيئا مـــن تعـــاليم الشريعة ولقد أغنتهم سذاجة الناس وبساطتهم عن التزود بالعلم ومعرفة فنونـــــه أو التبحر في علوم الشريعة. وهذه السذاجة أيضا كانت من الأسباب المباشـــرة فـــي منعهم من التزام الصدق في عبادة الله أو الزهد فيما في أيدي الناس. الزهد الـــذي هو أول أساس يضعه المريد في الطريق - فانغمسوا في أطايب الحياة ونهلوا ممـــا في أيدي الناس وجهلوا أبسط قواعد الطريق.

والإمام الشعراني يصور حالة هؤلاء الأدعياء وانغماسهم في الجهل ودعوتـــهم إلى التحلل من علوم الشريعة. فيقول:" هؤلاء الأدعياء كانوا لا يفكرون في العلـم. بل يدعون انهم أعلم من العلماء وأن عندهم من العلم ما عند جميع النـــــاس. بـــل سمعت بعضهم يقول لما لمته على عدم التردد على العلماء. والله لـــو علمـــت أن أحداً في مصر عنده علم زائد على ما عندي لخدمت نعاله. ولكن بحمد الله تعـــالى قد أعطانا الله تعالى من العلم ما أغنانا به عن الناس. وهـــذا والله جـــهل بنـــص الشارع كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم" من قال أني عالم فقد جـــهل"٢". ويقارن شيخنا بين هؤلاء الأدعياء وبين رجال الفقه فيقول" إن هؤلاء الفقراء الذيـن ظهروا في النصف الثاني من القرن العاشر في الزوايا وعقدوا مجالس الذكر. فـإن الفقهاء بيقين أحسن حالاً منهم وأعلى مقاماً لزيادتهم عليهم في العلم والفـــــهم فـــي الكتاب والسنة وكلام الأئمة"٣" لقد وضع بعض صوفية هذا العصر آداباً ألزموا بها

١- التصوف في العصر العثماني دكتور توفيق الطويل صـــ ٥٠

٢- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية مخطوط صـــ ٨٧

٣- قواعد الصوفية للشعراني وأداب العبودية صـــ

كل من سلك على يديهم وكان بعضها يقضي بمحبة الجهل وعدم التعلم على يد مدرس أو كتاب وتجنب التفكير فيما يعرض له من ظواهر أو يساور رأسه من خواطر وأراء فقضوا بذلك على الحياة العلمية عند أهل الطريق وقتلوا حيوية التفكير في أذهانهم.

وتمادى بعض مشايخ الطريق في احتقارهم العلم. حتى بلغ الأمر بأحد زعماء الطريق من دعاة الجهل أن يسخر من شيخنا الشعراني عندما تطوع في أن يعلمه أصول الدين وقواعد الشريعة قال المناوى رحمه الله " سأل الشعراني الخلوتي عن مسألة في الوضوء فأعلن هذا جهله بها رغم زعامته ورغم ما أصاب من شهرة بين الناس والأمراء فقال له الشعراني: إنك لا تصير صوفياً بغير علم. فقال الخلوتي: علمني فشرع الشعراني في تعليمه ثم زاره مرة ثانية. ليواصل تعليمه فاغلق هذا باب زاويته في وجهه فعاد مرة ثالثة عسى أن يتمكن من تعليمه فأساء الخلوتي استقباله وأغلق الباب في وجهه - وقال لمريديه ساخراً - إن الشيخ الشعراني طلب أن يجعلني فقيهاً وأنا صوفي. قال الشعراني: ففهمت من كلامه. إنه اعتقد أني دعوته إلى أمر فيه نقص. وقد أخذ الخلوتي ومريديه يهزءون بالشعراني. ويقولون إنه يريد أن يجعلنا فقهاء مثله"١".

تكالبهم على الدنيا وطلبها:

وكثر تكالب هؤلاء الأدعياء على الدنيا وتهافتهم عليها وصاروا يسافرون من مصر إلى البلاد الأخرى طلباً للرزق من غير حله وبحثا عن أسبابه. ويتعللون بضيق المعاش وعندهم في مصر ما يكفيهم الكفاية اللائقة بأمثالهم من رجال الطريق، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقبلون جميع ما يعرضه عليهم الظلمة وأعوان السلطان ويطوفون بالبلاد ومعهم مريدوهم وأتباعهم. ويكلفون الناس في هذه الأيام

١- التصوف والإمام الشعراني: عبد الباقي سرور صـ ٣١ وطبقات المناوى الكبرى صـ ٥١٩

التي انتشر فيها الظلم وثقلت المئونة الشيء الكثير. سافر شخص من فقراء مصر إلى بلاد الروم " تركيا "– فأجتمع " بأباش " باشا الوزير وفهم منه أنه جاء يطلب مالاً. فقال له الوزير: أف عليك أيها الشيخ كيف تسافر في سن الشيخوخة من مصر إلى هنا تطلب الدنيا أما كان في مصر وقراها ما يكفيك..؟ مع إنك ترى ربك وهو يرزقك أنت وعيالك من حين ولدت إلى أن صارت لحيتك بيضاء. لم يقطع رزقه عنك يوماً واحداً. فما درى الشيخ ما يقول .

ويروي المؤرخ الحجة " الجبرتي " عن الشيخ السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفائية أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس بدأ حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة وعدم اكتراثه برأي الناس فيه. ومن دلالات هذا إنه اتفق مع محمد البكري على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسيني ويتنازل له في مقابلها عن نظارة وقف الشافعي. فلما تخلى له البكري عن وظيفته وأرسل إليه دفاتر الوقف نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين..؟ بل زاد فطمع في المشهد النفيسي والمشهد الزينبي وباقي الأضرحة وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة الأضرحة على الإيرادات ويسبهم ويهينهم - ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم..؟ واهتم باقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجواري والمماليك والعبيد والجيوش والخصيان والتأنق في المأكل والمشرب والملابس وتعاظم في نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج وكذا الحضور في مجلس وردهم. وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء"١".

إذا كان لنا أن نعلق على كلام الجبرتي؟ وتصوير خيانة هؤلاء.. الأدعياء ونقضهم العهد وتكالبهم على الدنيا وبعدهم عن أبسط مبادئ التصوف وهو الزهد لقد استذلتهم الدنيا فعبدوها. وطلبتهم فانقادوا لها والسبب في ذلك جهلهم بالدين وبعدهم عن مبادئه وقوانينه وتناسيهم قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحذيره من الدنيا: قال يوماً لأبى هريرة " يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما

١- الجبرتي جـ ٤ صـ ٢٠٢ ، ٢٠٤

فيها.؟ فقلت بلى يا رسول الله. فأخذ بيدي. واتى بي وادياً من أودية المدينة فـــإذا مزبلة فيها رؤس أناس وعذرات وخرق بالية وعظام. ثم قال: يا أبا هريرة. هـــذه الرؤس

كانت تحرص كحرصكم. وتأمل كأملكم. ثم هي اليوم عظام بلا جلـــد. ثـــم هـــي صائرة رماداً. وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم. اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثـــم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها. وهذه الخرق البالية كانت رياشـــهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفعها. وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكياً على الدنيا فليبك "١"..

أجل هذه الدنيا في نظر الدين. فمن كان يريدها فليتفضل.

إهمالهم قواعد الدين:

أهمل أدعياء الفقراء في هذا العصر أوامر الدين وتهاونوا في القيام بفرائضـــه وتوخوا التمرد على نواهيه وأوامره. وثاروا على مبادئه وقواعده على ملأ ومسمع من الناس. ويحدثنا الإمام الشعراني رضي الله عنه عن غفلـــة هـــؤلاء الأدعيـــاء وبعدهم عن التوحيد الخالص والإيمان الصادق فيقول:" يتعدى الواحد منهم حـــدود الله في مأكله وملبسه وكلامه وفعله ويقول: إن الله تعالى قد خلق ذلك لي. وبعضـــهم ترك التوبة من سائر الذنوب وقال ليس لي فعل حتى أتوب منه. فهلك مع الـــهالكين وهو لا يشعر. وبعضهم صار يأكل حراماً ويفطر في بيوت المكاسين فـــي مثـــل شهر رمضان ويقول الكل لله تعالى. ليس لاحد معه ملك وأنا عبد. والعبد يأكل من مال سيده وهذا كله زندقة لرفضه الشرائع. ولو أنه كان يؤمن بها لما تجرأ علـــى ذلك"٢".

١- البخاري. يؤيد هذا ما رواه ابن ماجه في سننه عن سهل بن سعد فـــي تشـــبيه الدنيا بالشاه الميتة. أنظر سنن ابن ماجه جـــ٢ حديث ٤١١٠

٢- قواعد الصوفية صـــ ٧٨

هؤلاء الأدعياء يدعون أنه ليس لهم ذنوب حتى يتوبوا منها والرسول عليه الصلاة والسلام يقول:" إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرة"١" وكان يبكي من خشية الله ويرتجف، ويدعو ربه تضرعاً وخيفة في أدبار السجود وأسحار الليل وأطراف النهار ويقول:" والله لو علمتم من الله ما أعلم لخرجتم إلى المقابر تجأرون"٢".

وتروي عائشة رضوان الله عليها " إنه كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه، فقالت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر..؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا"٣".

١- قال حذيفة: كنت ذرب اللسان على أهلي فقلت يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لساني النار فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من الاستغفار؟ فاني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة. وعزاه الحافظ العراقي للنسائي في اليوم والليلة والبيهقي. ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين. ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة.

للطبراني عن أبي موسى ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله تعالى مائة مرة.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله: إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله تعالى في اليوم والليل مائة مرة. أخرجه مسلم وأبو داود وفي رواية لمسلم: توبوا إلى ربكم. فوالله إني لأتوب إلى الله ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة.

٢- عن ابي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى ما لا ترون: وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش. ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لوددت أني شجرة تعضد مدرج في الحديث من كلام أبي ذر ورواه البخاري باختصار والحاكم وصححه والترمذي إلا إنه قال: ما فيها موضع أربع أصابع، أوله عند أحمد والشيخان من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها ورواه الحاكم والطبري من حديث أبي الدرداء وصححه الحاكم واقره الذهبي.

٣- صلى حتى تورمت قدماه.. الشيخان.. والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبه والشيخان عن عائشة. حتى تنفطر قدماه.. والبزار عن أبي هريرة.

هؤلاء الأدعياء لم يقرءوا هذا الكلام قطعا لأنهم جهلاء بالكتاب عمى عن السنة لمعاداتهم العلم والعلماء. ولو قرءوا لا يفقهون لأن على قلوبهم أقفالها. وهم لا يبصرون الحق لأن على أعينهم غطاء سميكا من أكلهم السحت والحرام..؟

وليس هذا فحسب. بل إن بعض طوائف الفقراء في هذا العصر كانوا إذا أقيم مولد السيد البدوي رضي الله عنه أباحوا لأنفسهم نهب المحال التجارية وسرقة أموال الناس والاعتداء عليهم وأكل أموالهم بالباطل قائلين: إن الغربية بلاد السيد البدوي ونحن من فقرائه فكل ما نأخذه حلال لنا فهل هؤلاء الأدعياء أتباع محمد صلى الله عليه وسلم..؟ محمد عليه السلام الذي وجد ثمرة في الطريق فخاف أن يأكلها وقال أخشى أن تكون من ثمار الصدقة.. هل هؤلاء الأدعياء أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. عمر محطم الكسروية والقيصرية عمر الذي حملت إليه كنوز الأرض. يلبس الثوب المرقع من اثنتي عشرة رقعة. ويأكل الخبز دون تغير لون وجهه. وتأخر يوماً عن المسجد فقال له أصحابه: ما حبسك عنا يا أمير المؤمنين..؟ قال: ثوبي كان يغسل وليس لي سواه.

وكان يفترش الأرض وينام على الحصا ويحمل القطران يهنأ به إبل الصدقة ويعمل برجليه في الطين ليعد قطع البناء ورأى إبناً له ذات يوم يأكل الثريد باللحم، فضربه بالدرة وقال:لا احرمه. ولكنني أمنعه عن نفسي وعن أبنائي فمطالع الفتن في شهوات الطعام.

وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله (٩٣٢ هـ) أول من نادى بإبطال هذه البدع في مولد السيد البدوي"١".

ويقول الإمام الشعراني على لسان أحمد الزاهد: إن الملامتية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية، والبسطامية، والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة في عصره. لان أفعالهم يكذبها طريق أشياخهم الذين كانوا يلتزمون الصدق والزهد والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة"٢".

١- الطبقات الكبرى جـ٢ صـ١٢٢

٢- قواعد الصوفية صـ١٧٥

لقد كان الفلاحون وبقية أفراد الشعب يعيشون في ضنك وفقر وعذاب فكل من أراد أن يفر من هذا العذاب يدخل في سلك القوم ليصير شيخا يسلك المريدين ويدعو إلى الطريق. وبالتالي يتركون حرفهم التي يقتاتون منها ويعيشون في الزوايا. كلاً على الناس والمحسنين يأكلون من الصدقات وأوساخ الناس بعد أن كانوا يقتاتون من حرفهم. ويحاول شيخنا دائما أن يكون سوط عذاب. حتى كرهوا أسمه وأفزعهم صوته وأرعبهم كلامه الذي يوجهه لهم دائما. يقول:" إن بعض فقراء الأحمدية والبرهامية. قد قنعوا بلبس الزي وجهلوا فرائض الوضوء. وشروط الصلاة ومثل هؤلاء ليسوا شيوخا بإجماع المسلمين.

هؤلاء الأدعياء قد فشا الجهل بينهم وتمردوا على قواعد الدين وعرف الناس وكانوا يرون نفوسهم طبقة فوق الناس. وجماعة مصطفاة. وما داموا كذلك. فالتكاليف الدينية قد سقطت عنهم بالكلية فجازلهم ما حرم على غيرهم. فأهملوا الصلاة. وتركوا الصيام وامتنعوا عن القيام بأي شيء من فرائض الدين. وشعائر العبادات. وبالتالي لا يتقيدون بشيء من أوامره ولا يتقيدون باجتناب نواهيه. ولا يخضعون لقيوده. ولا يتناهون عن محرماته. بل كانوا يأتون جميع الرذائل ويرتكبون جل المفاسد على أساس أن هذا حلال لهم. واستباحوا الحرمات على مرأى ومسمع من الناس. فإذا أراد المخلصون من رجال التصوف أن يرشدوا هؤلاء إلى التصوف الصادق والطريق الصحيح كان نصيبهم الاستهزاء والتندر والنيل منهم ورميهم بكل نقيصة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد في العصر العثماني. بل إن بعض الأدعياء كان يسير في الشوارع أمام الناس عاريا من ملابسه وبعضهم يتكلم بكلام لا يصح أن يقال. والسذج من الناس يفرحون بهم ويعتبرون أن ذلك عيد عندهم. اعتقادا بأن السماء لا ترزقهم إلا ببركة هؤلاء. يقول الإمام الشعراني عن رجل يسمى الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس على كرسي المساجد أيام الجمع وغيرها ويقرأ أمام الناس ما يزعم أنه قرآن وقد سمعه الشعراني يقول على طريقة قراءة القرآن." وما أنتم في تصديق هود بصادقين. ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين". ثم

يعقب على ذلك قائلا اللهم أجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان..؟

ويعلق الشعراني قائلا: ولم أسمع أحدا ينكر عليه شيئا من حاله بل يرون ذلك عيدا عندهم"١".

وكان زميله إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ويخطب الناس قائلا:" السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طالون والحمد لله رب العالمين" فيحصل للناس بسط عظيم كما يقول أستاذنا الشعراني"٢": هؤلاء الأدعياء لم يسلموا من حملات الاستنكار التي كانت تشن عليهم من رجالات التصوف الصادقين تارة كما بينا في حملات سيدي محمد الشناوي وشيخنا الشعراني وغيرهما من أولياء الله.

كما إنهم كانوا موضع نقد العامة والتجار وغيرهم. حتى أن بعض رجال العامة كانوا يسخرون منهم علنا. يقول أستاذنا الشعراني رضي الله عنه" وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى..؟ فلان الآخر عمل شيخا. كأنهم لا يسلمون له بما يدعي لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها. والتلذذ بمطاعمها وملابسها ومناكحها والسعي على تحصيلها حتى أني قلت لبعض التجار. لم لا تجتمع بالشيخ الفلاني؟ فقال أن كان الشيخ شيخا فأنا الآخر شيخ فإنه يحب الدنيا كما أحبها ويسعى في تحصيلها كما أسعى. بل هو أشد سعيا على الدنيا لانه يسافر إلى الروم" بلاد الترك" في طلبها وأنا لم أسافر وربما أكل الدنيا بصلاحه. وأنا لم أكلها بصلاحي. فأنا أحسن حالا منه. فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبني"٣".

ويتحدث عن شيخ أخر من أدعياء التصوف ويصور لنا استخفاف الناس بهم –

١- الطبقات الكبرى جـ ١ صـ ١٦٠

٢- الطبقات الكبرى جـ ٢ صـ ١٢٤

٣- لطائف المنن صـ ٣٠ جـ ٢ والعهود المحمدية.

والسخرية من أعمالهم حتى صاروا مضغة في الأفواه لتكالبهم على الدنيا واستهتارهم بأمور الدين. وانحرافهم عن طريق الصواب. فيقول:

" وقع لبعض المغفلين أنه جهز أبنته فاحتاج إلى طراحة ولحاف وليس معه مال. فأتى التاجر بكيس فيه شعر من رأس شيخه رهنا عن الثمن فسخر به التاجر. وقال لو أتيتني بإردب من شعر شيخك ما أخذته بجديد فمكث أهل السوق يضحكون على ذلك ويسخرون منه مدة طويلة "١". إنها العقليات المتناقصة والأفكار المتباينة في هذا العصر.. رجل يعتقد في شيخه ويحتفظ له بكل ما يلقيه سواء أكان شعرا أو ظفرا أو غير ذلك - ويعتقد أن هذا أثمن ما يقتني ويحتفظ به.ولكنه العوز والحاجة التي دفعته إلى أن يضحي ولو لبعض الوقت بما يحتفظ به من أثر شيخه. وهو في نيته أن يسرع بسداد ما استدانه حتى يسترد هذا الكنز الثمين من نفحات شيخه. والتي يكمن فيها كل الخير والبركة وتحميه من تقلبات الدهر وعواصف الزمان. وفي الجانب الآخر رجل متفتح لا يؤمن بتلك الخزعبلات ولا تهزه تلك الخرافات وهو يؤمن بأن النافع والضار هو الله. والطريق إليه واضح لا يحتاج إلى أثار أو مخلفات. وأن الشيوخ الحقيقيين والأولياء الصالحين لا يتركون أثار أو مخلفات تبلى وعروضا تفنى ولكنهم يربون رجالا ويصنعون أبطالا ويدلون على أقوم الطرق وأهدى السبل إلى الشريعة وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين فرفض ما عرضته عليه العقلية البالية والتفكير المتخلف وقال له في أسلوب الواثق من نفسه الساخر منه ومن شيخه" لو أتيتني من شعر شيخك ما أخذته بجديد".

وفي هذا العصر كثرت شفاعات الفقراء عند الحكام وأصحاب الأمر والنهي وكان الولاة لا يردون لهم طلبا في الغالب. وتفاجئنا كتب الطبقات عند ترجمة الفقراء ورجال التصوف " عبارة " وكانت لا ترد لهم شفاعة".

وكان الفقراء الصادقون يرفعون عن كاهل المظلومين الكثير مما يثقل كواهلهم

١- لطائف المنن صـ ٣٠ جـ ٢ والعهود المحمدية.

من ظلم الحاكمين - ولكن الأدعياء في هذا العصر كانوا يتخذون من هذه الشفاعات حرفة وتجارة ومكسبا رخيصا إما عن طريق المظلومين المغلوبين على أمرهم وإما عن طريق الولاة ليكمموا بها أفواههم: فلا يتحدثون عن ظلمهم ولا يشيعونه في مجالسهم ويروي الإمام الشعراني عن شيخ من الأدعياء في هذا العصر.. دخل رجل على شيخ العرب محمد بن بغداد ليشفع عنده في مظلوم. وأغلظ القول على شيخ العرب فصبر هذا عليه حتى فرغ ثم قال: محمد بن بغداد لأصحابه سرا" أيش " قلتم فيمن يلقي عليه الإكسير فينقلب معنا على من جاء يشفع فيه ؟

فقالوا كيف..؟ فقال هاتوا ورقة ودواة.. فكتب له خمسة قناطير عسل وخمسة وعشرين إردبا من القمح محمولة إلى زاويته فلم يلبث الشيخ في الحال أن تحول عن ذلك المظلوم. وصار يقول: الحق مع شيخ العرب..؟ وأنت " مالح الرقبة " تنهي إلى الفقراء خلاف الواقع..؟ ثم رده من غير قبول شفاعة"[١].

ويعقب الإمام الشعراني على ذلك. فيقول: إنهم جماعة يلبسون الصوف ويأخذون في أيديهم السبحة. وألسنتهم كالعقارب. وأفواههم كأفواه التماسيح وبطونهم كالسفن. ثم بعد ذلك يدعون الطريق فإياك وإياهم. " ولا يقف الأمر عند هذا الحد. وليس هذا فحسب بل إن بعض الأدعياء الذين ينتسبون إلى بعض الطوائف أمثال طائفة الأحمدية والبرهامية والقادرية يأخذون العهد على المرأة بآداب طريقتهم ثم يصيرون يدخلون عليها في غيبة زوجها. ويعلق الإمام الشعراني منتقدا ذلك فيقول:" وهذا من المنكر الصريح ومن قال من الفقراء نحن بحمد الله محفوظون من مثل ذلك فتقول له: لا يخلو حالك من أمرين: إما أن يكون قلبك ساذجا لا حذر عندك من الوقوع في محظور. أو حاذقا تدرك الأمور. فإن كنت ساذجا عمل عليك إبليس الحيلة كما عمل على أبيك آدم حين حلف له إنه لمن الناصحين. وإن كنت حاذقا تدرك الشينة فأنت من حزب إبليس فوقوعك في

١- العهود المحمدية صـ ٨٠٠

الفواحش من أقرب ما يكون.

ولكن هؤلاء المدعين. لم تكن لهم عيون يبصرون بها ما يقعون فيه من المنكر ولا يفقهون أن هذا أثم لأن على قلوبهم أقفالها. والدليل على ذلك تماديهم فيما هـــم فيه وإلا لكان في قول الرسول صلى الله عليه وسلم رادع يردعهم وحاجز يمنعهم. ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم " ما اجتمـــع رجل وامرأة إلا كان الشيطـــان ثالثهما"١" وروى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" إياكم والخلـــوة بالنساء فو الذي نفسي بيده ماخلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما ولأن يزاحم الرجل خنزيرا متلطخا بطين أو حماة. خير له من أن يزاحم منكبه امرأة لا تحـــل له"٢".

ولقد شاع هذا الأمر في هذا العصر وكثر. مما جعل أحد العلمـــاء الأفـــاضل يؤلف كتابا كاملا ينزل فيه باللائمة على هؤلاء الذيـــن يـــتزينون بـــزي الفقـــراء ويفعلون أفعال الخارجين عن الشريعة. والإمام هو سيدي محمد الغمري وكتابـــه " العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان " حط فيه على المطاوعة أشد الحـط وكذلك على الفقراء الأحمدية الذين يأخذون العهد على النسوان ويصـــير أحدهـــم يختلي بهن في غيبة أزواجهن وتقول له يا أبي ويقول لها: يا أبنتي. وقال: الإمـــام محمد الغمري: إن ذلك خارج عن قواعد الشريعة. وإن من استحل ذلـــك أخطـــأ واستدل بقوله تعالى للصحابة في حق زوجات النبي صلى الله عليه وســـلم.." وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبـــهن"٣"وقـــال كيف يدعي جاهل وجاهلة- ونفوسهما عافه على محبة الحرام كالذباب على العسل - أن مثل ذلك لا يضره ويضر الصحابة".

١- وفي رواية البخاري إياكم والدخول على النساء وذكر في كنوز الحقائق فـــي حديث خير الخلائق.

٢- رواه الإمام البخاري وروى الحكيم في كتاب أسرار الحج عن سعد بن مسعود إياكم ومحادثة النساء فإنه لا يخلو رجل بامرأة ليس لها محرم إلا هم بها.

٣- سورة الأحزاب آية رقم ٥٣

ويؤيد هذه الروايات ويؤكدها المؤرخ الحجة الجبرتي. فيروي عن الشيخ العليمي. أن الناس كانوا يحسنون الاعتقاد في ولايته. ويجتمع عنده النساء والرجال. وتنشأ عن اختلاطهم مفاسد عظيمة فاستاء الجنود لذلك وانطلقوا إليه وانهالوا عليه بسيوفهم حتى اجهروا عليه وقد قال فيه" حسن الحجازي شاعر العصر:

ونساء مع رجال	جالسات بالبدية
سلط الله عليه	بعد هذا حاكميه
قتلوه مع ثلاث	بحسام صالتيه
طول ليل ونهار	اجل فسق تبتغيه
لثلاث بعد عشر	من جماد الثاني فيه
وكفى الله البرايا	شره مع تابعيه"١"

إن التصوف هو لب الشريعة الإسلامية. الشريعة الإسلامية التي إبتعثت البدو الأميين من صحاريهم ليكونوا هداة عالميين في ساحات العلم والحضارة وما إلى العلم والحضارة وقوادا فاتحين في ميادين الحرب والجهاد وما إلى الحرب والجهاد. قد تحول في مصر في أواخر عهد المماليك والعثمانيين أو حوله الأدعياء إلى مجموعة ضخمة هائلة من البدع والخرافات والأساطير الذليلة. حولوه إلى مجموعة هائلة من الغموض والإبهام والتحلل من الأخلاق والتمرد على الآداب والشعبذة السمجة الوقحة وتستر الدجالون والمشعوذون والمتحللون وراء التصوف يتخذونه شعارا ودثارا وحماية لهم وباسم هذا التصوف الزائف ارتكبت كما رأينا أبشع الجرائم ضد الدين ونهبت الأموال وهتكت الأعراض وهدمت الفرائض وأهدرت الآداب ونزل الإمام الشعراني في الميدان مهاجما ومدافعا ومرشدا وهاديا. من أجل تنقية التصوف وبعده عن الدروشة والخزعبلات وعودته إلى ينابيعه الأولى يهدي إلى الحق ويرشد إلى الصواب ويخرج الناس من حمأة الطين إلى إشراقة السماء.

١- التصوف في العصر العثماني دكتور توفيق الطويل صـ

خاتمـــة

بعد هذا العرض السريع لعصر الإمام الشـــعراني مـــن نواحيـــه السياســـية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. عرضنا صورة مجملة عـــن التصـــوف فـــي العصر المملوكي ورأينا كيف اتصف في هذه الفترة بالصدق والجد. وتقيد بالكتـاب والسنة وابتعد عن الشعوذة والبدعة. حتى كان أواخر هذا العصر وبداية العصـــــر العثماني فاجأنا تحول التصوف إلى مجموعة من الخزعبلات والأباطيل ودس فيـــه ما ليس منه. حتى ادعاه الجهلة وطلاب الدنيا.

ثم يأتي الفصل الثاني من هذا الباب لنقدم فيه حياة إمامنا الشـــعراني أصلـــه، ونسبه ومولده ونشأته. مجاهداته في طلب علوم الشريعة وسلوكه في طلب الحقيقـة وشيوخه في الطريقين ثم نختم هذا الباب بذكر آثاره من مؤلفـــات وكتـــب أثـــرت المكتبة العربية، ونماذج من الرجال الذين تخرجوا في مدرسته وتربوا على يديـــه. ممن كان لهم في طريق التصوف قدم وفي علوم الشريعة باع طويل.

الفصـــــل الثـــــاني

الإمـــــام الشعــــراني

أصله ونسبه

هو أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، الإمام العامل العابد الزاهـد الفقيه الصوفي، يرتفع نسبه إلى الإمام محمد بن الحنفية بن علي بن أبـي طـالب رضي الله تعالى عنهما.

ولقد أرخ لنفسه في كتابه " لطائف المنن " فقال: " أحمـد الله تعـالى حيـث جعلني من أبناء الملوك فأني بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن علـي بـن أحمد بن علي بن محمد زوفا بن الشيخ موسى المكني فـي بـلاد البهنسـا بـأبي العمران. جدي السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنـه"١" هـؤلاء السلاطين كانوا في المغرب الأقصى فقد هاجر كثير مـن البيـت العلـوي مـع المهاجرين إلى المغرب فرارا من المعارك الطاحنة المتتابعة التي كانت تدور بيـن البيت العلوي وبين الأمويين من جانب وبينهم وبين أبناء عمومتهم العباسيين مـن جانب آخر.

في هذه البلاد البعيدة استقر بهم المقام وظفروا بحب الجماهير وأقاموا لـهم ملكا وسلطانا. وأسسوا لهم دولة وأنشئوا لهم حضارة كل ذلك من تأسـيس دولـة ومن إنشاء حضارة وغير ذلك لم يصرفهم عن الدين ولم يشـغلهم عـن حفظـه والدعوة إليه، فجمعوا بين أيديهم السلطنة والملـك والولايـة الدينيـة والزعامـة الروحية.

وكان الملك في مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بني زغلة، وإلى تلك القبيلـة ينتسب عبد الوهاب الشعراني، وكان جده أحمـد الزغلي سلطان تلمسان، وقـد

١- لطائف المنن جـ ١ صـ ٣٣ للإمام الشعراني.

تصوف أحد أبناء هذا السلطان وهو موسى المكني في بلاد البهنســا بأبي العمران وآثر طريق الله وقربه على الملك وعزه والسلطنة ومجدها، وسلك الطريق على يد الإمام أبي مدين التلمساني.

يقول الإمام الشعراني مؤرخا ومصورا لمسلك جده في التصوف " كان جــدي السابع الذي هو السلطان أحمد سلطانا بمدينة تلمسان في عصر الشيخ أبي مديــن المغربي ولما اجتمع به جدي موسى قال له الشيخ أبو مدين لمن تنتســب..؟ قــال والدي السلطان أحمد، فقال: إنما عليت نسبك من جهة الشرف.. فقال أنتسب إلـــى السيد محمد بن الحنفية فقال له: ملك وشرف وفقر - أي تصـــوف - لا يجتمعــن. فقال يا سيدي قد خلعت ما عدا الفقر فرباه، فلما كمل في الطريق أمره بالسفر إلـى صعيد مصر وقال له أسكن بناحية (هو)"١" فإن بها قبرك فكان الأمر كما قال"٢".

سلك الشيخ موسى طريق القوم على يد شيخه أبي مدين. بعد أن خلع عنه كـل ما عدا الفقر كما تقول رواية الشعراني. ولما كمل في الطريــق وأصبــح يصلــح لتربية المريدين أرسله شيخه إلى صعيد مصر. ليدل علــى طريــق الله ويــهدي الحائرين إلى باب السماء.

متى جاء الشيخ موسى إلى مصر..؟ وفي أي تاريخ أستقر به المقام في بلــده (هو)..؟ إن كتب التاريخ تصمت ولم تحدثنا عن ذلك ولكن المعــروف أن الشــيخ أذعن لشيخه وأخذ للأمر عدته وسافر إلى مصر وفي البلدة التي عينها لــه ألقــى عصا التسيار وأسس بها زاويته لتكون كالمنارة التــي ترســل الضيــاء لهدايــة الحائرين في سدف الظلام وتعيد الناس إلى مرفأ الأمان وتدخلــهم إلــى طريــق التقوى. وأصبحت تلك الزاوية مركزا من مراكز التصوف ومدرسة كبرى تخــرج فيها على يد الشيخ الكثير من رجال الله، حتى كان عام ٧٠٧ هـ أنتقل فيه الشيخ

١- إحدى مدن مديرية قنا.

٢-

إلى جوار ربه، واستمرت تلك الزاوية تؤدي عملها حاملة لواء العلـــم والمعرفــة مرشدة إلى أقوم الطرق، داعية إلى أنبل السبل حتى مطلع القرن التاسع الـــهجري الذي أزمع فيه عميد أسرة الإمام الشعراني أن يهاجر من تلك البلدة، وليس ذلـــك بعجيب فإن أولياء الله كثيرا ما كانوا يتركون أماكنهم وأوطانـــهم مـــهاجرين إلـــى أوطان وأماكن أخرى، إذعانا لأمر شيخهم أو تنفيذا لهاتف أو بأمر الله عن طريــق الرؤيا في المنام. وهكذا هاجر عميد الأسرة إلى ساقية أبي شعرة بالمنوفية وأســس بها زاوية جديدة للعلم والعبادة والدعوة إلى طريق الله. واستمر على ذلـــك حتـــى وفاته عام ٨٢٨ هــ ودفن بمهجره.

وكان حفيد هذا الشيخ - الذي أنتقل من " بلدة هــو " إلى ساقية أبي شعرة هو (أحمد) والد سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنهما - على حظ من العلـم والمعرفة التي كانت سائدة في هذا العصر وتدرس بالأزهر، وعلى جــــانب مــن العلوم الربانية التي أختص بها رجال التصوف، وأستمر يؤدي رسالته حتى وفاتــه عام سبع وتسعمائة للهجرة ودفن مع والده في زاويته بساقية أبي شعرة.

مات الإمام (أحمد) والد سيدي عبد الوهاب الشعراني وهو صغـــير فكفلــه أخوه عبد القادر. وكان متصوفا ورعا منصرفا عن دنياه مشغولا بخدمة المعوذيــن والمحتاجين.

في هذه الأسرة العريقة في المجد، التليدة في الســلطنة الحافظــة لكتــاب الله والداعية لدينه، وبين هذه الأنوار المتلألئة من الإيمان والورع والتقوى والتفاني في حب الله والعمل على خدمة عبيده ولد الإمام الشعراني رضي الله عنه.

" مولـــده ونشأتـــه "

يختلف المؤرخون اختلافا بينا في تاريخ مولد الإمام الشعراني رضي الله عنه فصاحب المناقب الكبرى يحدد هذا التاريخ بعام تسع وتسعين وثمانمائة بعد الهجرة وصاحب النور السافر يحدده بعام سبعة وتسعين وثمانمائـــة بعد الهجرة النبويـــة.

في حين أننا نجد اتفاقا كاملا في تحديد هذا التاريخ عند تلميذ الإمام الشعراني " عبد الرؤف المناوي " وعلي مبارك والمستشرق شاخت. فإنهم يحددونـــه بعـــام ٨٩٨ هـــ.

الأمر الذي يجعلنا نأخذ بالرواية الأخيرة لأن المناوي هو تلميـــذ الشـــعراني. وصديقه وهو بعد هذا أكبر المؤرخين الصوفيين بعد الإمـــام الشـــعراني. واتفـــاق المناوي مع المؤرخ علي مبارك وهو أدق من أرخ لتلك المرحلة ويؤيد الروايتيـــن أيضا المستشرق " شاخت " وقد أخذ بهذه الرواية أيضا وأعتمد عليها المرحوم عبد الباقي سرور عند تأريخه لمولد الشعراني.

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في تاريخ مولده. وهو ما نلحظه دائمـــا عنـــد ترجمة عظماء الرجال - فإنهم يتفقون جميعا على تحديد مكان الولادة. في دار جده لأمه بقرية من إقليم القليوبية تسمى " قلقشندة " ثم جيء به إلى بلد أبيه وهي ســـاقية أبي شعرة بإقليم المنوفية بعد أربعين يوما مـــن ولادتـــه وإليـــها أنتســـب فســـمي بالشعراني أو الشعراوي كما ورد في بعض كتبه ومؤلفاته.

" طفولـــــة الإمـــام الشعـــراني "

قضى الإمام الشعراني طفولته بالريف، وفيه حفظ القرآن الكريم ومتون بعض الكتب مثل كتاب أبي شجاع والأجرومية وغير ذلك وحللهما على أخيه الشيخ عبـــد القادر بعد وفاة والده كما يقول عن نفسه. " ومما من الله تبارك وتعالى بـــه علـــى وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثماني سنين وواظب على الصلـــوات الخمس في أوقاتها "(١)

فالإمام الشعراني لم يشتغل بغير العلم في طفولته ولم يكن هناك حائل يحـــول بينه وبين ذلك - ولكن المستشرقين " كرويمـــــر " ونيكاسون يقولان باشتغاله في

١- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـــ ٣٣ جـــ ١

مطلع حياته بالحياكة.، ولعلنا نتساءل قبلنا المرحوم عبد الباقي سرور من أين جاء المستشرقان السابقان بذلك ومن أي المصادر استقيا هذه الرواية.؟

وللحقيقة والتاريخ أننا لم نعثر على ما يؤيد هذا الرأي أو يسنده والمستشرق " فولرز " يسخر من هذا القول قائلا:" إن حياة الشعراني كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم فلم يكن من الميسور أن يجد وقتا يحترف فيه عملا "(١)

والإمام الشعراني يقول عن نفسه في صراحة وصدق " إن من منن الله علي أنه لم تكن هناك عوائق دنيوية تعوقني عن طلب العلم والعبادة وكانت القناعة عن الدنيا باليسير سداى ولحمتي وهذه القناعة أعفتني عن الوقوع في الذل لأحد من أبناء الدنيا ولم يقم لي أنني باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوي منذ بلغت ولم يزل الحق تعالى يرزقني من حيث لا أحتسب إلى وقتي هذا. وعرضوا علي آلف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئا وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة فأنثرهما في صحن جامع الغمري فيلتقطهما المجاورون "(٢).

ليس هناك عوائق دنيوية تعوقه عن طلب العلم والعبادة، وليست هناك حرفة أو صناعة، بل حرفته القرآن وصناعته عبادة الله فلا حياكة ولا صناعة كما يقول المدعون بلا دليل يؤيدهم أو سند يؤيد دعواهم.

ويقول في موضع آخر " ومما من الله تبارك وتعالى به علي " كثرة توجهي إلى الله تبارك وتعالى في تسهيل رزق عيالي الذي قسمه لي من غير حصول منه في طريقه للخلق، فيسخرهم الله تبارك وتعالى لي فضلا منه ونعمة وما فعلت ذلك إلا بعد أن غلب على ظني أنه تبارك وتعالى لم يقسم لي عمل حرفة من خياطة أو تجارة أو ضفر خوص أونحو ذلك "(٣)

١- التصوف والإمام الشعراني، عبد الباقي سرور صـ٢٠

٢- لطائف المنن للإمام الشعراني صـ ٤٩

٣- لطائف المنن جـ١ صـ ١٤٤ للإمام الشعراني

هذا هو الإمام الشعراني رضي الله عنه أصدق من يؤرخ لنفسه يقول في صراحة صريحة ووضوح لا لبس فيه. إن الله تعالى لم يقسم له عمل حرفة من خياطة وتجارة وخلافه.

أما الدكتور توفيق الطويل فيدعي أن الطفل الصغير " الشعراني " سافر مع أبيه إلى القاهرة وطلب والده من الإمام الجليل " جلال الدين السيوطي رضي الله عنه أن يجيز أبنه فأجازه السيوطي بكافة مروياته وهو في غضون العاشرة من عمره وألبسه خرقة الصوفية في روضة المقياس وهو لا يزال صبيا.

والحقيقة أن والده رضي الله عنه قد مات وماتت أيضا والدته قبل حضوره إلى القاهرة كما يقول الشعراني نفسه " ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي حفظ متون الكتب فحفظت أولا أبا شجاع ثم الأجرومية في بلاد الريف وحللتهما على أخي الشيخ عبد القادر بعد وفاة والدي."(١)

لقد مات والده رحمه الله في عام سبعة وتسعمائة بعد الهجرة وحضر الطفل اليتيم إلى القاهرة عام عشرة وتسعمائة أي بعد وفاة والده بثلاث أعوام وأجازه الإمام السيوطي له - في هذا السن. وإلا لكان الإمام الشعراني نفسه أول من يؤرخ لتلك الواقعة وهو حريص على ذلك - ولكننا لم نجد في كتابات الإمام ما يؤيد ذلك أو يثبته فلنتابع رحلتنا مع الطالب النجيب الطلعة في رحلته إلى مدينة المعز.

" الإمـــام الشعراني في الطريق إلى القاهرة "

هناك أناس يتولاهم الله برعايته، ويحوطهم بعنايته ويكلؤهم بعطفه وحبه ويجردهم من كل شيء يمكن أن يقيهم غوائل الدهر ونكبات الأيام. ويحررهم من الخلق جملة. ويتولى هو تربيتهم ورعايتهم. إنه يصنعهم على عينه ويؤدبهم بأدبه.

١- لطائف المنن جـ١ صـ٣٣ للإمام الشعراني

وفي الحديث الشريف " أدبني ربي فأحسن تأديبي "(١) موسى عليه السلام يلقى في اليم بإشارة من ربه ولكن العناية ترعاه. والرعاية تحرسه ولن يضيع أمرؤ بين رحمة الله ورعايته. فرباه عدوه - وحفظ بين يدي طالبه. والرسول صلى الله عليه وسلم يتيم ولكن أعتز به الآباء الصيد والأصول الأمجاد. وفقير ولكن حييت باسمه الدنيا وفاضت عليها الخيرات يتيم ولكنه تحدى الجميع وانتصر على عصابات الشرك. فلا إله إلا الله ولا دين إلا الإسلام.

والأولياء هم ورثة الأنبياء، يرعاهم الله ويصونهم ويربيهم تربية خاصة " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة "(٢)

والإمام الشعراني رضي الله عنه عاش كما يعيش الأنبياء وتربى كما يتربى الأولياء يتيما من الوالدين محروما من حنانهما وسار في حياته يجابه الدنيا بمفرده. ويلقاها وحيدا إلا من رحمة ربه - يقول عن نفسه " ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي تربيته تعالى لي في النوم واليقظة برؤيتي للعبر في الدنيا فلا يقع بصري على شيء إلا أعتبر به من صبر وضجر وزهد ورغبة وشهود وغفلة" (٣)

أمره كافله(٤) الذي كفله بعد وفاة والده - يوما بالوقوف على من يقوم الرماح على الناس فوقف فقال له ما رأيت..؟ فقال ما رأيت شيئا. فقال: يا ولدي أما تنظر أنه لا يعرض على النار إلا المعوج وأما المستقيم فلا يعرضه على النار..!؟ فأخذت من ذلك العبر (٥)

١- رواه العسكري عن علي. وابن السمعاني عن ابن مسعود وفي الدر زواه الفضل بن ناصر وصححه. وفي اللآلي المنثورة للحافظ ابن حجر معناه صحيح لكن لم يأت عن طريق صحيح.

٢- سورة يونس آية رقم ٦١، ٦٢، ٦٣

٤،٣ - لطائف المنن للإمام الشعراني جـ ١صـ ٧٠

٥- أخوه العالم الصوفي في الشيخ عبد القادر.

" نفر من الدنيا وأبنائها فلم يتمن شيئا مما بأيديهم، بل قد كان يرى الدنيا كلها سموما باطلة. وافانين خادعة. ومصايد لأصحاب النفوس الصغيرة الذين يتباغضون عليها ويتقاتلون من أجلها وينقبضون لفقدها وينشرحون لوجودها.

يقول عن نفسه" قمت ليلة فوجدت قساوة في قلبي لم أعرف لها سببا فقيل لي في المنام إن أردت حياة قلبك التي لا موت بعدها فأخرج عن الركون إلى الخلق ومت عن هواك وأرادتك فهناك يحييك الله عز وجل. حياة لا موت بعدها ويغنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده ويريحك راحة لا تعب بعدها ويعلمك علما لا جهل بعده. ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها ويرفع قدرك في قلوب عباده فلا تحقر بعدها. قد ذهبت أيام المحن بأجمعها وأتت أيام المنن بأجمعها وهناك يتحرك عليك الحساد من كل مكان فعليك بالصبر"١".

لقد كان يفر في جميع الشدائد إلى الله تعالى ولا يعتمد على أحد من الخلق ولا يركن إليهم مطلقا. لأن الله بيده ملكوت كل شيء فهو الذي يعطي ويمنع ويحيي ويميت. ومات عن هواه وإرادته حتى كان الذهب والفضة يطرحان عليه في جامع الغمري فيلقي بهما في صحن المسجد ولا يلتفت إليها كما يروي عن نفسه. وآمن إيمانا خالصا بأن نفسه في يد القدرة الإلهية كالطفل الصغير في يد الظئر. أو كالميت في يد الغاسل. أو كالصولجان في يد الفارس إنه التسليم الكامل لله والتوكل عليه. إسلام الوجه لله تعالى وإسلام الإرادة له في قيامه وجلوسه، في نومه ويقظته في حديثه وصمته في غضبه ورضاه، وهذا هو المسلم الكامل. وهل الإسلام غير هذا...؟ إسلام الوجه لله. وإخلاص النية له. في كل ما يأتي المرء وما يدع..

وشاء الله أن ينتقل سيدنا وإمامنا رضي الله عنه من الريف إلى الحضر ينتقل من أرض الجفاء والجهل إلى أرض اللطف والعلم.

١- لطائف المنن جـ ١ صـ ٧٠

وفي الحديث الشريف " من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتـــى أبواب السلطان أفتتن " (١)

انتقل إلى القاهرة ومعه أخوه العالم الصوفي الورع الشيخ عبد القـــادر وهــو يدين لأخيه هذا بالكثير من التوجيه والحب الصادق والرعاية الكاملة. ويديـــن لـــه فوق ذلك بالحضور إلى القاهرة حيث تفتحت أمامه الآفاق وعرف الدنيا وعرفته.

أين القى رحله عند حضوره من الريف..؟ بعض المراجع تشـــير إلـــى أنـــه حضر إلى الأزهر وأقام فيه فترة يحددها البعض بخمس سنوات تلقى فيـــها العلــم على يد شيخه " علي الشوني " رضي الله عنه ويأخذ بهذه الرواية الدكتور توفيـــق الطويل فيقول:" وقد غادر قريته إلى القاهرة في مطلع العام الحادي عشر من ذلــك القرن. وفيها أصاب فيضا من العلم على كثرة من شيوخ القاهرة في صدر شـــبابه وأقام بالجامع الأزهر ملازما شيخه " علي الشوني " نحو خمس سنين ". ثم غـــادر الأزهر بمشورة شيخه إلى جامع الغمري عام ٩١٦ هـــ ولبث بـــه ســـبعة عشـــر عاما.(٢)

إن الإمام الشعراني رضي الله عنه يصمت عن تلك الفترة ولا يتحدث عنـــها. لماذا أهمل الشعراني تأريخ فترة حياته بالأزهر ولم يحدثنا عنها..؟ مع إنها كـــانت فترة عبادة وتبتل وتعليم... قد يكون هناك سبب أو عدة أسباب حالت بينـــه وبيـــن الحديث عنها.. لقد تحدث عنها في كتابه لطائف المنن - الذي يعتبر بحق ترجمـــة صادقة لحياته أنه أراد أن يترجم في هذا الكتاب عن نفسه حتى يريح من يريـــد أن يبحث عن مناقبه عن الفحص عنها والتتبع لها وربما زاد في هذه المناقب أو نقص ويقول أيضا والإنسان مهما بلغ من البحث والتنقيب لا يبلغ إلى مرتبة ما يذكـــره

١- رواه الطبري في الكبير عن ابن عباس، ومن بدا جفا ورواه الإمام أحمد فـــي مسنده عن ابن البراد.

٢- الشعراني - وتوفيق الطويل صـــ ١٨

الإنسان عن نفسه إذا كان صادقا، فإن غاية ما يحكيه الإنسان عن غيره إنما هــو الظن لا اليقين "١"..

وإذا كان ذلك كذلك... فلماذا أهمل تلك الفترة..؟ إننا نقول ونعلم أنه حــورب من بعض الأزهريين حربا لا هوادة فيها ولا رحمة. اتهموه بإفساد العقائد وبــالكفر والزندقة وهاجموه بكل سلاح ودسوا له في كتبه ما لم يقله.. أيكون هذا هو الدافــع وراء إهماله تأريخ تلك الفترة..؟

أم أنه جاء من الريف مباشرة إلى جامع الغمري، وكان المســجد فــي ذلــك الوقت منارة للعلم ومثابة للطلاب وكانت الحياة فيه على غرار الأزهر وغيره مــن المساجد التي تحولت في العالم الإسلامي إلى معاهد علمية تجرى عليــها الأرزاق من الأوقاف والهبات على من يلازمها ويتخصص للعلم فيها.

يقول المقدسي " إن المساجد في القاهرة تحولت إلى معاهد عامرة بــالطلاب. حتى أنه أحصى في المسجد الجامع بالقاهرة في وقت العشاء مائة وعشرة مجلســا من مجالس العلم"٢".

إننا نميل إلى الرأي الأول وهو بقاؤه فترة بالجامع الأزهر وانتقاله بعدها إلــى مسجد الغمري رضي الله عنه ويؤيد هذا الرأي أن صاحب المناقب يقــول:" كــان رضي الله عنه مواظبا على قيام الليل بالقرآن كله وكان يصلي به كثيرا في ركعــة واحدة في الجامع الأزهر وانتقاله بعدها إلى مسجد الغمري رضي الله عنه ويؤيــد هذا الرأي أن صاحب المناقب يقول:" كان رضي الله عنه مواظبا على قيام الليــل بالقرآن كله وكان يصلي به كثيرا في ركعة واحدة في الجــامع الأزهــر بجــانب المنبر وهو دون البلوغ"٣" وجرت عادة أبناء الريف عند انتقالهم إلى القــاهرة. أن تكون وجهتهم الجامع الأزهر.

١- المقــــدمــــــــــة صــ ٢ جــ ١

٢- التصوف والإمام الشعراني صــ ٢٣

٣- المنــــاقب الكبــــــــرى صــ ٤٠

" الإمام الشعراني في جامع الغمري "

يقول على مبارك في ترجمة الإمام الشعراني" هاجر إلى القـــاهرة المعزيـــة وسنه أثنتا عشرة سنة فأقام بالجامع الغمري سبع عشرة سنة يتعلم ويعلم وحفظ فيه العلم وشرح الكتب وسلك طريق الصوفية ورتب مجلس الصلاة على النبي صلـــى الله عليه وسلم في سنة ثماني عشرة وتسعمائة ثم تحول من جامع الغمـــري إلـــى المدرسة المعروفة بأم خوند بخط كافور الإخشيدي"١".

ويحدثنا الإمام الشعراني عن تلك الفترة فيقول:" أقمت في جامع سيدي أبـــي العباس الغمري (وحنن) الله تعالى على شيخ الجامع وأولاده فكنت بينهم كـــأني واحد منهم آكل مما يأكلون وألبس مما يلبسون فلا يجازيهم عنـــي إلا الله تعـــالى. فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها وحللتها على الأشياخ ولـم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فـــي المعـــاصي معتقـــدا عنـــد النـــاس يعرضون على كثيرا من الذهب والفضة والثياب فتارة أردها وتارة أطرحها إباحـة في صحن الجامع فيلتقطها المجاورون"٢".

إنه يحدثنا أنه حفظ القرآن وهو ابن ثمان سنوات وحفظ في الريـــف متـــون الكتب أمثال أبي شجاع والأجرومية وحللهما على يد أخيه الشيخ عبد القادر بعـــد وفاة أبيه وعندما جاء إلى مصر - تناول الكثير من الكتب بالشـــرح والاســـتظهار وكان محفوظ الظاهر من الوقوع في المعاصي والناس يعتقدونه ويبجلونه وتقـــدم إليه الهدايا فيرفضها ويغدق عليه الذهب والفضة فيطرحها في صحـــن المســـجد. وكان بين أولاد الشيخ كواحد منهم يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبســـون إذا كـــان ذلك كذلك فلماذا أنتقل إلى مدرسة أم خوند - وما الداعي إلى هذا الانتقال..؟

١- الخطط التوفيقيـــة جـ ١٤ صـ ١٠٩

٢- لطائف المنن والأخلاق جـ ١ صـ ٣٣

هنا تختلف الروايـات التاريخيـة اختلافا بينا وتتباين تباينا كبيـرا فصاحب (النور السافر) يقول: إن الشعراني أخذته حالة وجد ذات يوم فصـاح باسـم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد وكاد يتصدع منها بيت الشـيخ أبـى الحسـن الغمري وكان على كثب منه فاستقر عند صاحب الصوت حتـى إذا عرفـه هـم بالرحيل إلى بيت آخر ولكن الشعراني كان قد سبقه إلى هذا الرحيل تاركـا وراءه كل ما يملك وولى وجهه شطر " بين الصورين " حتى حط رحاله بمدرسة أم خوند وأقام تجاهها ستة أيام. فرأى في منامه أن رسول الله صلوات الله عليه قد أذن لـه بالإقامة بها فدخلها مع أسرته"١".

هذه إحدى الروايات وهي تتفق في جوهرها مع ما يرويه صـاحب الخطـط التوفيقية فيقول:" تحول من مسجد الغمري إلى المدرسة المعروفة بأم خوند بخـط كافور الإخشيدي لأن جماعة من أهل مسجد الغمري حسدوه على اجتماع النـاس عليه في مجلس الصلاة فتعصبوا عليه وبسطوا ألسنتهم في شأنه واسمعوه غليـظ القول وتحالفوا على المصحف ألا يحضروا معه مجالس الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم "٢".

هذا العبقري العابد، الشاب الطلعة، السالك سبيل الله، المتـهجد الليـل كلـه بالقرآن، والتالي له في ركعة، معتقدا لدى الصغـير والكبـير ويؤمـن بولايتـه وصلاحه كل من يراه، فيعرضون عليه الذهب والفضة والثياب فـلا يقبلـها، وإن ألحوا عليه طرحها في صحن الجامع تعففا وزهـدا، وحولـه أصحـاب المسـجد الحقيقيين يرون أن القلوب تنفر عنهم إلى هذه العبقرية، وتنفض من حولهم لتجتمـع حول هذا الملهم، لتبذل له كل ما تستطيع فبدأ الحسد يدب في قلوبهم، والحقد يمـلأ نفوسهم، وتبدأ بوادر هذا الحسد تظهر ورؤس الحقد تطـل مـن بيـن جوانحـهم فيتحالفون على المصحف، ألا يحضـروا معه مجلس الذكر والصـلاة على النبـي

١- النور السافر صـ ١٤٠

٢- الخطط التوفيقية جـ ١٤ صـ ١٩

صلى الله عليه وسلم.

وهناك رواية أخرى عن انتقال الإمام الشعراني من مسجد الغمري تأتي عن طريق الغرب. عن طريق المستشرقون - والمستشرقون دائما وكما نعلم يتصيدون المناسبات وإن لم يجدوا المناسبة اختلقوها - ليغمزوا رجالات الإسلام ويلقوا على حياتهم ظلالا من الشكوك والريب، ويصوروهم بتصاوير حياتهم ويقيسوهم بمقاييسهم، وتبعهم في ذلك تلامذتهم من أبناء الشرق، لقد قالوا: إن الشعراني غزا قلبه حب ابنة شيخ المسجد وكان يلتقي بها في غفلة عن أعين الرقباء..؟؟ ولكن ذلك لم يدم طويلا، فقد انكشف أمره.. ووشوا به إلى والدها الذي غضب غضبا شديدا وأمر بإخراجه من المسجد..

إن انتقال رجال الله من مكان إلى مكان ليس لهم فيه تدبير ولا غرض، فقد يكون الانتقال الهام من الله أو بإشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم إن هذا الانتقال قد يكون تدرج في مقامات، وقد تنتهي مهمة شيخ في مكان فيطالب بالانتقال إلى غيره.. وقد يهيئ الله له الأسباب التي تدعوه إلى الانتقال.. لهذا يجب أن نصرف النظر عن غمزات المستشرقين وأهواء المدعين وأقاويلهم التي يمليها الهوى والحقد، ونلجأ إلى الشعراني فهو الفيصل في هذه القضية ولنستمع إليه مصورا هذا النزاع وشارحا الظروف التي مر بها حتى تم إخراجه من جامع الغمري قائلا:" وذلك أن جماعة من أهل جامع الغمري آذوني كثيرا بغير إذن الشيخ أبي الحسن الغمري وحلفوا على مصحف انهم لا يحضرون معي في مجلس الذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، وصاروا يضربون كل من جلس عندي من المجاورين، ولم يبق معي في السهر سوى الناس الغرباء، فرأى الشيخ (أحمد) المذكور النبي عليه السلام وهو يقول له " قل لعبد الوهاب ينتقل إلى مدرسة أم خوند بخط بين الصوريين فإنها مباركة"١"

١- الطبقات الصغرى للشعراني صـ ٣٨ والمناقب الكبرى صـ ١٤٠ ، صـ ١٤١

وقال أيضا:" ثم إن جماعة ممن آذوني اجتمعوا ودعوا أناسا وأوقدوا قناديل كثيرة وجلسوا تجاهي يرفعون أصواتهم علي بما نحن فيه فانتقلت وجلست في مجلسهم وقلت لهم كلنا في الخير سواء، فمنعوني من الذكر معهم فقلت لهم: اخفضوا أصواتكم فلم يرضوا.. فأصبحت منتقلا إلى مدرسة أم خوند فحصل فيها راحة عظيمة"١".

لم يدافع الإمام الشعراني عن نفسه ولم ينتصف لها ولكنه ترك المسجد وليس في ذهنه مكان يلجأ إليه أو مأوى يمكن أن يأوى إليه.. ولكنه هاجر إلى أرض الله وفر إليه كمال قال تعالى: (ففروا إلى الله) "٢" ثم اتجه إلى مدرسة أم خوند وأذعن للأمر وكما كان اتهام ذي النون المصري رضي الله عنه - عاملا في انتشار اسمه وعلو مكانته. وكثرة المعتقدين في ولايته. كان انتقال الإمام الشعراني رضي الله عنه من سمجد الغمري إلى مدرسة أم خوند يمثل دورا جديدا من أدوار حياته، وكان هذا الانتقال ضرورة طبيعية اقتضتها حياة الإمام الشعراني، فقد آن الأوان أن يستقل بنفسه وأن ينفرد بمجالسه العلمية لتربية المريدين، وارشاد السالكين ويرسل نداءه في سمع الزمان فيتردد صداه في أربعة أركان الأرض.

انتقل الإمام الشعراني إلى مدرسة أم خوند، انتقل بعد أن تحمل الأذى صابرا وتلقى السخرية والاستهزاء راضيا، لم ينتقل بنفسه فرارا من هذا العذاب ولم يرحل من المسجد سخطا على قضاء الله أو تبرما بما حل به، ولكنه انتقل بإشارة ورحل بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قيل إنه بقي خارج المدرسة ستة أيام ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالدخول.

لقد كان في انتقاله من المسجد إلى المدرسة خيرا كثيرا، تفتحت أمامه الدنيا وأصغت لصوته الآذان، وكما نعلم أن الإمام الشعراني راضى نفسه على الطريق الصوفي وهو في مسجد سيدى الغمري، ولكنه في مدرسة أم خوند دخل التصوف

١- المصدر السابق صـ٣٩

٢- سورة الذاريات آية رقم ٥٠

من أوسع أبوابه، وسلك الطريق على غوث الرجال وبطل الأبطال في عصره أستاذه " الأمي " على الخواص لقد التقى به وعلى يديه تذوق حلاوة الطريق. وعب من بحره حتى ارتوى وأحاطت به أنواره. فتحقق بالمقامات وأصبح من أصحاب الأحوال إن حياته في مدرسة أم خوند، هي المرحلة العليا التي أعدته لتلك الغاية وهيأته لتلك المهمة، وجعلت نفسه كالبؤرة المشعة من جرم الشمس ترسل ضياءها ودفأها على من حولها، فتعيد إليه الحياة بعد الموت وترشده إلى الهدى بعد الضلال.

إنها مرحلة من مراحل التربية الكبرى، تربية من نوع خاص - ليكون صاحبها جديرا بالمهمة العظمى التي يكلف بها ويناط بأعبائها، والتي اقتضتها ظروف العصر الذي يعيش فيه وملابسات الحياة في تلك الأيام.

في مدرسة أم خوند، أتسعت دائرة معارفه، وطارت شهرته وصار اسمه يتردد على كل لسان، وتلهج به كل الشفاه، وسعت إليه الدنيا فرفضها وركعت بين يديه فنبذها، وأصبح ربانيا في نفسه سنيا محمديا في تفكيره وسلوكه وحياته.

ووقف الكبراء على بابه وجاءه الولاة وتهافت إليه أصحاب الأمر والنهي، الكل يلتمس نوره ويقتبس شعاعه ويطلب شيئا من فيض علمه ويفترش الأرض بين قدمه.

إن الإمام الشعراني، طراز فريد من الرجال، أفرغت فيهم الحياة أفضل ما تملك من أحساس وشعور، عبوا من روح الإسلام، وأوقفوا حياتهم على اجلاء تعاليمه، فكانوا للدنيا نورا بدد ظلامها، وهديا أزال ضلالها، وكانوا لدينهم سندا وحصنا، ولتعاليمه عزا وعونا.

الشعراني " الصغير " الطفل الطلعة، يستظهر القرآن الكريم في سن السابعة ويقيم الصلاة في سن الثامنة، ويستظهر بعض متون الكتب في قريته وتلك هي حصيلة المثقف في القرية المصرية في ذلك الحين، فإذا تم له ذلك تطلع إلى القاهرة موطن الثقافة والعلم الكبير وقبلة الناس في ذلك الوقت ومنتهى أمل كل طالب، يريد أن يثقف نفسه، وينمي عقله ويتطلع إلى مكانة مرموقة في دنيا الناس.

جاء من القرية في جعبته القليل من العلم واليسير من المعرفة وفي الجامع الأزهر ألقى رحلة، فبهرته الأضواء، وأخذت بلبه الأنوار، أضواء الثقافة وأنوار المعرفة، لقد وجد في متناول يده المكتبة العربية بما تحويه من كنوز المعرفة. وما تزخر به من زاد للعقول، فعكف عليها يعب منها ولا يرتوي ويختزنها في عقله زادا ينمي عقله ويفتح ذهنه، ويعده ليكون في المستقبل عالم الإسلام الذي لا يضارع وأستاذ الثقافة - في عهده - الذي لا يصاول، وإذا ألقينا نظرة على ما حصله " الشعراني " من معرفة وما عكف على قراءته من هذه المؤلفات يأخذنا العجب ويجبرنا على التقدير له والاحترام والإكبار لعقليته، إنه يحدثنا عن قراءاته في الفقه ودراساته لأصوله، فيبهرنا بما قرأ ويأخذنا الإعجاب بما حصل.

لم يكتف بأن يقرأ فرعا واحدا من فروع الفقه، أو أن يتخصص في مذهب معين منه، ولكنه يبهرنا بقراءته للمذاهب الأربعة مجتمعة واستيعابه للفقه الإسلامي بأشكاله وأنماطه كلها، لقد كان يقرأ كل مذهب على حدة. فإذا اتقنه فهما واستنباطا واستوعب مسائله وتفريعاته وتعمق في فهم أصوله، أنتقل إلى مذهب آخر وهكذا، حتى استوعب المذاهب الأربعة وأصبح موسوعة كبرى في الفقه الإسلامي.

يقول المستشرق الأستاذ " ماكدوفالد " إن الشعراني كان رجلا دراكا نفاذا واسع العقل، وأنه كان يجمع بين أعظم المميزات تضادا وأنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ، كان عقله من العقول النادرة الخلاقة في الفقه بعد القرون الثلاثة

الأولى في الإسلام"١".

أما الإمام الشعراني فيترجم لحياته فيقول:" ومما من الله علي مطالعتي لكتب أئمة المذاهب الثلاثة زيادة على مذهبي، وذلك أنني لما تبحرت في مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأرضاه احتجت إلى معرفة المسائل المجمع عليها بين الأئمة أو التي اتفق عليها ثلاثة منهم وذلك لأجتنب العمل بما منعوه وأمتثل أمرهم فيما أمرونا به، وأن لم يكن مذهبي، فأعمل بما أجمعوا عليه، واتفق عليه ثلاثة منهم، على وجه الاعتناء والأكيد أكثر مما أنفرد به واحد أو اثنان، لأن ما أجمعوا عليه ملحق بنصوص الشارع صلى الله عليه وسلم "٢".

إن قراءته للفقه الإسلامي وتبحره في معرفة مسائله، كان الدافع إليه رغبة نبيلة حتى يكون على بينة من أمور دينه فيبتعد عن كل ما منعوه ويمتثل أمر الأئمة الأربعة فيما نادوا به وهو بذلك محب لأئمته محتاط لدينه ممتثل أمر نبيه سائر على شريعته ونظرة إلى الموسوعات الفقهية التي قرأها في مذهب الأحناف والكتب التي استظهرها واستوعب مسائلها تدلنا على أن هذا الإمام كان طالبا مجدا وقارئا لا يمل من القراءة وباحثا عن المعرفة يطلبها أنى كانت مهما تحمل في سبيل ذلك من مشاق أو لاقى من صعاب لقد قرأ:

١- كتاب شرح الكنوز.
٢- وكتاب شرح مجمع البحرين والحدادي.
٣- كتاب فتاوى قاضيخان.
٤- كتاب شرح القدوري.
٥- كتاب شرح البزازية والخلاصة.
٦- شرح الهداية وتخريج أحاديثها للحافظ الزيلعي وهذا الكتاب كافل بأدلة الحنفية كلها.

١- الشعراني إمام التصوف في عصره صـ ١٤٤ للدكتور توفيق الطويل.
٢- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني جـ ١ صـ ٤٢ .

هذا قليل من كثير، لما قرأه من كتب السادة الأحناف ولا شك أنه كانت تقابلـــه مشكلات وتعترضه صعاب، وتستعصي عليه بعض المسائل، فكان يستعين بعمالقـة العلم في عصره وأساطين المذهب في ذلك الوقت، ليبينوا له ما غمض ويوضحـوا له ما استغلق، ومن أساتذته الأحناف ممن استعان بهم في فهم معضلات المسائل.

١- الشيخ نـــور الدين الطرابلسي.
٢- الشيخ شهـاب الدين بن الشلبي.
٣- الشيخ شمس الدين الغزي الكبير.

وغيرهم كثير رضي الله عنهم، وأخيرا انتهى من فهم هذا المذهب واســتيعاب مسائله، حتى أصبح كأحد علماء المذهب فهما وإدراكا له، لقد عرف حيله ونوادره وقارن بينه وبين مذهب الإمام الشافعي الذي هو مذهبه، فنزل بالأئمة على أولئـك الذين يتشاحنون ويتجادلون ويعتقدون أن هناك خلافا بين الأئمة الأمر الذي يولـد بينهم البغضاء ويوجد عندهم الشحناء، وهو قد بحث ونقب وقارن وفصل فلم يـر خلافا لأن كلا الإمامين يستقي من بحر الشريعة ويتبع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فمحال أن يكون بينهما خلاف، أو يوجد بين أراءهم تناقض.

" قراءته في مذهب الإمام مالك وثمرة هذه القراءة "

انتهى الإمام الشعراني من مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وأتجه إلـى مذهب الإمام مالك، وكعادته دائما يلجأ إلى أمهات الكتب في هذا المذهب، ويعكـف عليها دارسا لها مستوعبا لأصولها فاهما لفروعها.

يقول الإمام الشعراني عن نفسه " لقد طالعت من كتب السادة المالكية المدونـة الكبرى ثم اختصرتها وهي عشر مجلدات.

وطالعت كتاب الموطأ وشروح رسالة ابن أبي زيد وشرح مختصـر الشـيخ خليل، وطالعت كتب ابن عرفة، وابن فرحون، وكانت مطالعتي للمدونة بإشارة من

رسول الله صلى الله عليه وسلم"١".

إن هذه الموسوعات الفقهية التي عكف كبار العلماء وأساطين الفقهاء عليها لتأليفها وتدوينها، ليس من السهل اليسير أن يقرأها الإنسان بنفسه دون أن - تعترضه أشياء تدق على فهمه، أو أن يستوعب كل ما فيها بملكاته وحدها، دون أن تستعصي على عقله، لهذا لجأ إلى العلماء الذين سبقوه إلى فهمها وإلى فقهاء المالكية الذين تخصصوا فيها ليحلوا له ما استعصى على عقله ويبسطوا له ما دق على فهمه.

لجأ إلى الشيخ شمس الدين اللقاني، والشيخ شمس الدين الخطاب، والشيخ عبد الرحمن الأجهوري، وغيرهم رضي الله عنهم، وعندما لجأ إليهم وضحوا له كل ما أراده وبينوا كل ما طلبه، حتى صار كأنه واحد منهم فهما للمذهب وفقها لمسائلة ومن اجل هذا كان يعامل هؤلاء العلماء بكل أدب، ويحتفظ لهم بالكثير في قلبه من الوفاء والإجلال إنهم في نظره، أساتذة له ومعلمون وواجب المتعلم أن يؤدي حقوق المعلم، كما كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يحتفظ بالأدب مع الإمام مالك رضي الله عنه. وهؤلاء العلماء هم خلفاء إمامهم فيجب أن يبجلهم ويحترمهم. كما كان إمامه يبجل إمامهم ويحترمه وحتى لا يكون أشر الناس كما كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول:" أشر الناس اللئيم إذا أرتفع جفا أقاربه.وأنكر معارفه. ونسي فضل معلمه"٢".

وهو لم ينسى فضلهم بل كان دائما معهم على المحجة البيضاء وعلى صفاء النية ووفاء القلب، وكان يلجأ إليهم ليجيزوا كتبه ويشهدوا بالتزامها للكتاب والسنة، لقد كان الحسدة كثيرا ما يدسون في كتبه ومؤلفاته ما لم يقله، ويتهموه لذلك بالكفر والزندقة وبأنه مارق عن تعاليم الدين، فكان هؤلاء العلماء له نعم النصير، لقد عرفوا خلقه وتمسكه بدينه، ومعرفته بكتاب ربه فكانوا يجيزون مؤلفاته - بعد

١- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني جـ ١ صـ ٤٢

٢- لطائف المنن والأخلاق جـ ١ صـ ٢٢٨

قراءتها لالتزامه بالكتاب والسنة وكانوا معه ضد الحسدة وضد المارقين عن الدين والأدعياء الطالبين للدنيا بكل طريق.

" قراءته لمذهب الإمام أحمد بن حنبل ورأيه في المذاهب الأربعة "

أما قراءته في مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، لقد قرأ كتاب الخرقي وعدة مختصرات، حيث أن الإمام أحمد رضي الله عنه لم يدون له مذهب وكان يقول:" استحيي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتكلم في معنى كلامه، فقد لا يكون مراده وكان يقول أيضا:" أو لأحد كلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم..؟ هذه هي قراءاته في الفقه ودراسته له، تعمق في أصوله وفهم لفروعه، ومعرفة مسائله، فماذا كانت نتيجة هذا البحث..؟ وما هي ثمرة تلك السباحة في كتب الفقه الإسلامي..؟ وماذا يمكن أن توصله تلك القراءة..؟ إن الإمام الشعراني يجيبنا عن تلك الأسئلة بقوله:" كثرة توجيهي وتقريري لجميع مذاهب المجتهدين حيث تبحرت في علومهم حتى كأني في حال تقريري لها واحد منهم وربما ظن الداخل علي وأنا أقرر في مذهب ذلك الإمام أنني حنفي أو حنبلي أو مالكي، والحال أنني مقلد للإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه وذلك لإحاطتي بمنازع أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم وإطلاعي على أدلتها"١".

ونستخلص من ذلك أن هذه السياحة في كتب الفقه كان الدافع لها أهدافا نبيلة وأغراضا سامية، منها كما ذكرنا التوفيق بين المذاهب الأربعة حيث أن الجميع يستقي من بحر الشريعة إنها عملية توحيد لفقه المسلمين، والقضاء على النزاع بين أبناء الشريعة الواحدة، فإن كان هناك خلاف بين أدلة العلماء فإنما ذلك راجع إلى عملية التخفيف والتشديد أو الرخصة والعزيمة وهذا لا يسمى خلافا ولكنه تشريع لأن ما يطيقه قوي لا يتحمله الضعيف ولو طالبناه بذلك لكان في ذلك تحجير على

١- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني جـ١ صـ ٤٣

الأئمة وتحميل الفرد ما لا يطيقه والدين يسر لا عسر ومن هنا تأتي مرونة الفقـــه الإسلامي وصلاحه لكل الأفراد.

ثانياً: حرص الإمام الشعـــــراني على أن يتلقى العلم وأن يتفقه في المذاهب على رجالها في ذلك العصر، ليس المقصــــود منه التعليم فقط ولا معرفة ما دق على ذهنه أو استغلق على فهمه لا غير بل كان ذلك التزاما بطريقة الصوفية في تلقي المريد المعرفــــة على شيخ لما في ذلك من حصول (البركـــة) والإلهام، ودعوة لهؤلاء الرافضين الجلوس أمام شيخ ومفضلين جهلهم على تلقي العلم على غيرهم أن يعودوا لتلقي العلم على يد هؤلاء الرجال أن روح التربية في مذهب " الشعرانـــي " تتقيد بشيخ وترتبط برجال، رجال يشع من قلوبهم النور ويهيأ عقله لاستقاء المعرفة، إنها تربية وسلوك أكثر منها شيء آخر.

ثالثاً: لقد كان يرمي الشعراني من دراسته للمذاهب الأربعة وتبحره في دراســـــة الفقه الإسلامي أن يصل إلى مرتبة الاجتهاد والحصول على فهم جديـــد في الشريعـــة الإسلاميـــة، وهذا مـــا توصل إليـــه نتيجـــة لتلك السياحـــــة.

وأخيراً لم تكن دراسته للفقه واستيعابه لتلك الموسوعات للعلم فقط.. لم تكـــن هذه الدراسة.. ليصاول العلماء ويجادل الفقهاء لم تكـــن للدنيـــا والتفـــاخر بـــها.. والتطاول على الأقران والأنداد.. إن كل ذلك لم يخطر ببال شيخنا.. ولم يكن لـــــه في برنامجه نصيب.

ولكن هذه الدراسة وتلك السياحة كانت للعمل والتطبيق كانت للعبادة والتبتــــل وماذا يكون طلب العلم والعكوف عليه إلا عباده وقربه إلى الله تعالى..؟ وأخــــيراً أكد للأمة الإسلامية أنه لا خلاف بين أصحاب المذاهب الأربعـــة لأنـــهم علمـــاء مخلصون وأتقياء ورعون وأتباع مقتدون وأمناء لا يخونون.

يقول الإمام الشعراني: لما صنفت كتب أدلة المذاهب رأيت جميع المجتهدين لا يخرجون عن السنة في شيء إنما هم بين مشدد ومخفف فمنهم من أخذ بما ينـــص

عليه الحديث والقرآن ومنهم من أخذ بمفهومهما ومنهم من أخذ بما استنبط منهما ذلك المفهوم ومنهم من أخذ بالقياس الصحيح على الأصل الصحيح فكانت مذاهبهم رضي الله تعالى عنهم منسوجة من الشريعة المطهرة سداها ولحمتها منها"١".

" الإمام الشعراني وقراءته في التفسير والحديث والتاريخ واللغة "

وإذا كان الإمام الشعراني أصبح عالما لا يضارع وفقيها لا ينافس على مستوى الفقه الإسلامي كله، فأنه لم يكتف بذلك بل عكف على كتب التفاسير ليطلع على أقوال العلماء وما استنبطوه من كتاب الله وما فهموه من كلامه، عكف عليها بقلب المؤمن الخاشع وبعزيمة العالم الصابر الدءوب، وأخذ يلتهمها واحدا بعد الآخر.

إنها القراءة الجادة الملهمة المتأنية، وليست القراءة السطحية المستعجلة عاش الإمام الشعراني في كتب التفاسير وسجل لنا في كتاب المنن - الذي يعتبر ترجمة صادقة لحياته - قائمة ضخمة من كتب التفاسير. قدم لنا الحصيلة المهولة التي استطاع أن يعكف عليها من هذه الكتب مشفوعة بعدد مرات قراءتها، إنه لم يكتف بقراءتها مرة وبعضها لم يكتف بقراءتها مرتين. إنها مناهل عذبه وعيون ثرة بالفهم المتنوع لما يحويه كتاب الله. وكل عالم يرزقه الله فهما معينا محدودا كرزقه. أنه لم يكتف بقراءته للقدماء ولا للمتوسطين ولا لعلماء عصره. ولكن كان كالنحلة التي تأخذ من كل الزهر وتنتقل على كل الثمر وتهب الرحيق المصفى عسلا شهيا سائغا للشاربين.

يقول الإمام الشعراني طالعت غالب التفاسير المشهورة فطالعت تفسير:

١- " البغوي " مرة.

٢- " تفسير الخازن " ثلاث مرات.

١- لطائف المنن والأخلاق جـ١ صـ ٤٣

٣- " تفسير ابن عادل " سبع مرات.

٤- " تفسير الكواش " عشر مرات.

٥- " تفسير ابن زهرة " مرة.

٦- " تفسير القرطبي " مرتين.

٧- " ابن كثير " مرة.

٨- " تفسير البيضاوي " خمس مرات.

٩- " تفسير ابن النقيب المقدس مرة وهو مائة مجلدة ما طالعت أوسع منه.

١٠- " تفسير الإمام الواحدى البسيط "

١١- " تفسير الجلال السيوطي الكبير المسمى بالدر للمنثور " ثلاث مرات.

١٢- " تفسير الزمخشري بحواشيه " مرة وأعظمها حاشية الطيبي.

١٣- " تفسير الانتصاف لأبن المنير " وهو مبين لمواضع الاعتزال منه.

١٤- " كتاب الأنصاف للعراقي " الذي جعله حكما بين الكشاف والانتصاف. وهذا الكتاب اختصره ابن هشام في مؤلف وطالعته كذلك.

قدم لنا الإمام الشعراني، هذه الحصيلة الضخمة من قراءته لكتب التفاسير وهي حصيلة تدل على أن هذا الرجل لم يقرأ رغبة في القراءة، ولم يتفقه رغبة في الفقه، ولكنه كان يفتش عن أمر يجهله وحقيقة يريد أن يحيط بها، فنراه يقرأ ويرصد ما يقرأه، وتناول جل التفاسير التي زخرت بها المكتبة العربية في ذلك الوقت. والمعروف أن رجال التفسير لكل منهم طريقة ومنهجا في تناوله لكتاب الله. فبينما نرى بعض المفسرين يعتمد على أن كتاب الله يفسر بعضه بعضا. فما خفي في هذه السورة أو تلك الآية، ممكن أن يوضحه البيان وتدل عليه الآيات في سورة أخرى، والبعض الآخر يعتمد في التفسير والتبيين على أسباب النزول وملابسات الحوادث نرى آخر يوجه جل اهتمامه إلى اللغة والبيان وتوضيح المفردات وبيان إعجاز القرآن.

الإمام الشعراني يقرأ للجميع، يقرأ لمن يؤيد مدارس الاعتزال ليرى إلـــى أي حد يمكن أن يصل العقل وما هي حدوده، ويقرأ لمن يؤيد السنة والجماعة، يقـــرأ لمن يعتمد على أن القرآن يفسره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتقـد أن السنة هي التفسير الكامل لكتاب الله تعالى، يقرأ لكل هؤلاء يقرأ ليبحث عن هـــذا المجهول في عقول العلماء وليفتش عن هذا البعيد عمن حجته الحواشي واسـتغلقت عليه الأضابير، ورأى إزاء ذلك كله، أنه مطالب بمهمة ضخمة، هذه المهمة تلقـــي عليه أعباء ثقالا ألا وهي البحث عن وسيلة لإنقاذ الأمة الإسلامية في عهده.. وهذا البحر الزاخر من الكتب يسيطر على حياتهم، لقد وجد التفاسير حشيت بالكثير مـن الخرافات والإسرائيليات، وفي وجودها خطر علـى الأمـة الإسـلامية، إن هـذه الإسرائيليات التي تملأ كتب التفاسير تحجب الأمة الإسلامية عن كتاب ربها إنـــها تلغي عقولهم عن رؤية ما في آيات الله تعالى من عظـات وعـبر، ورأى أنـه لا علاج لذلك إلا بعودة الأمة الإسلامية إلى كتاب الله مباشرة تستخلص منه برنامجـا يقود حياتها وينظم سلوكها، وهذا ما دعا إليه ورصد حياته من أجله.

وبعد أن قد فعل ذلك في كتب التفاسير، وعرف أراء علمائها المتباينـة، فـهل أهمل السنة..؟ وهل ابتعد عن كتب الأحاديث الكتب التي حفظت لنا ما صدر عـن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقريـــر...؟ هـل كـان الإمـام الشعراني بعيدا عنها وكيف يكون ذلك..؟

إن للسنة الإسلامية منزلة رفيعة في نفوس المسلمين، إنـها البيـان الواضـح لمجمل القرآن الكريم، وهي الكشف المبين لكلياته وقد خص الله جل شـأنه نبيـه محمدا صلى الله عليه وسلم بهذه الخصوصية، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مـا نزل إليهم ولعلهم يتفكرون"١".

١- سورة النحل آية رقم ٤٤

فهي النبراس الذي تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتدي به المسلمون في كل شئون حياتهم" تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي"١".

من هنا جاء اهتمام إمامنا واحتفاله بكتب السنة، فعكف عليها ونهل من ينابيعها واستلهم أنوار صاحبها عليه الصلاة والسلام، إنه يعرف أن السنة هي الكشاف الواضح لآيات الله تعالى والتفسير المبين لكتاب رب العالمين، إنها خلاصة الفكر الإنساني الذي تربطه بالسماء أسباب، إنها الدستور الخالد للحياة الدنيا بكل ما فيها من جوانب رحاب، والعمل بها جواز المرور لجنة الخلد والحياة الآخرة.

يقول الإمام الشعراني موضحا ما قرأه من كتب السنة وما اطلع عليه " طالعت من كتب وأدلة المذاهب ما لا أحصى له عددا فمن جملة ما قرأته:

١- الكتب الستة الصحاح.

٢- صحيح ابن خزيمة.

٣ - صحيح ابن حبان.

٤- مسند الإمام أحمد.

٥- موطأ الإمام مالك.

٦- معاجم الطبراني الثلاثة.

٧- كتاب جامع الأصول لابن الأثير.

٨- الجامع الكبير للشيخ جلال الدين السيوطي.

٩- الجامع الصغير وزيادته وهي عشرة آلاف حديث لا يكاد يخرج من الشريعة عن أحاديث هذه الكتب شيء إلا نادرا، فهي أجمع كتاب صنف بعد سنن البيهقي في الأدلة.

١٠- كتاب المنتقى من الأحكام لابن تيميه وهي أصل مسودة كتابه المسمى " بكشف الغمة عن جميع الأمة ".

١١- كتاب الهدى النبوي لابن القيم ثم أختصره.

١٢- دلائل النبوة للبيهقـــــي.

١٣- كتاب المعجزات والخصائص للشيخ جلال الدين السيوطي.

ولا نستطيع أن نسجل هنا كل ما قرأه من كتب الأحاديث أننا نكاد نقول إنـــه قرأ كل ما وجد في عصره من كتب الأحاديث وكل ما حوته المكتبة الإسلامية مـن هذه الذخائر، ولم يكن يكتفي بالقراءة فقط، ولكنه يلخص ويبوب ويحقق ويصنف.

وإذا كان للعالم الحق في أن يتبحر في علوم الشـــريعة، وأن يعـرف الفقـه والتفسير والحديث والأصول، إذا كان هذا هو الواجب الأول لكل عـــالم يريـد أن يتصدر لهداية الناس، فإن هذا يقتضيه أن يكون على بينة ودراية باللغة العربيـــة، وذلك بأن يعرف أصولها ولهجاتها وإعرابها وصرفها ونحوها واشتقاقها وهذا مـــا فعله الإمام الشعراني فطالع من كتب اللغة صحاح الجوهري والقاموس، والنهايـــة لابن الأثير، وكتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووي.

وكان في هذا العصر لكي تكمل ثقافة العالم أن يحيط خـــبرا بأبنـــاء البلـدان وحوادث التاريخ وأخبار الأمم، حتى يستطيع أن يضرب الأمثال ويقارن بين مـــن أطاعوا وعصوا، ويعرف انحطاط الأمم وزوالها وأسباب انتصار الشعوب وبقائها، فدرس التاريخ وعكف على كتب السير والتاريخ، ومن الأسفار التي قرأها في هـذا العلم، سيرة ابن هشام وسيرة ابن إسحاق، وسيرة الكلبـــي وســـيرة ابـــن الحســـن البكري، وسيرة الطبري، وسيرة الكلاعي وسيرة ابن سيد الناس، وســـيرة الشـــيخ محمد الشامي التي جمعها من ألف كتاب وهي أجمع كتاب في السير وغير ذلـــك كثير.

وبعد.. لقد تتبعنا رحلة الشعراني طالب العلم منذ خروجه من قريتـــه حافظـــا للقرآن الكريم وبعض متون الكتب وبينا أنه ألقى رحلة بالجامع الأزهـــر فبهرتـــه أضواء المعرفة وأخذت بلبه أفانين الثقافة فعكف على المكتبة الإسلامية، يعب منها ولا يشبع وينهل منها ويطلب المزيد، وتكلمنا عن دراسته للفقه بمذاهبه الأربعـــة، حتى فهم أصوله وفروعه، وفقه مسائله واستنباطاته، ولم يكتف بذلك، بل قرأ جل

التفاسير في عصره وكل ما حوته المكتبة الإسلامية في ذلك الوقت واستطاع أن يستظهر الأحاديث سندا ورواية، ثم عكف على كتب التاريخ وأخبار العمران وعرف جل الحوادث وأخبار الأمم ولم يكتف بما حصله من علوم الشريعة، بل عكف على كتب اللغة حتى عرف مفرداتها ومشتقاتها وتعمق في فهم غريبها ولهجاتها، فأصبح في ذلك العصر عالم الشريعة الذي لا يضارع وفقيه الأمة الذي لا يصاول لقد كان العلماء عيالا عليه والأساتذة طلابا عنده وكانت زاويته مركز العلم والثقافة ومنارة الهداية والإرشاد، هذا هو الشعراني طالب علوم الشريعة.. فمن هو الشعراني سالكا طريق الحقيقة ؟ إن هذا هو الجانب الأهم في سلوكه. الجانب المشرق وإن كانت كل جوانبه نورا وإشراقا.

" الإمام الشعراني في طريق الحقيقة "

خمس سنوات قضاها الإمام الشعراني بالأزهر قارئا للعلم ودارسا للشريعة ومنقبا وباحثا عن المعرفة، وسبعة عشر عاما قضاها بجامع سيدي الغمري استظهر فيها أكثر المعارف الموجودة في عصره، واستطاع في تلك الفترة أن يلتهم المكتبة الإسلامية بكافة فروعها وتخصصاتها، كما بينا سابقا " لقد كان صاحب صبر وجلد على الاستظهار دءوبا ومفتشا عن المعرفة ومنحه الله ذاكرة قوية تعي ولا تنسى شيئا وتحفظ كل ما تلتقطه ولا تهمله، يقول عن نفسه:" وكان ذهني بحمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه، حفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض " مختصر الروضة " لكونه أجمع كتاب في مذهب الإمام الشافعي فحفظت منه إلى أثناء.. باب القضاء على الغائب " أواخر الكتاب " فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخلق، خارج باب بزويله.

فقال لي مكاشفا " قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشيء ".

يقول الإمام الشعراني " فما قدرت بعد ذلك على حفظ لوح واحد منـــه لكنـــي طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة وكنت أقرأ محفوظي للمنـــن فـــي الشـــرح وانظر كل شيء توقفت في فهمه حتى صار شرحه للشيخ زكريا نصب عيني"١".

رجل من أصحاب الأحوال من هو هذا الرجل ..؟ وكيف تم اللقاء بينهما ؟ هذا اللقاء هل سبقه ترتيب سابق ..؟ أم إنه تم مصادفة ..؟ إن الإمام الشعراني رضـــي الله عنه لم يحدثنا عن هذا الرجل ولم يفصح عن شخصيته ويتركنا في هذه الحـيرة ولا يذكر عنه إلا إنه من أصحاب الأحوال، ويغلب على الظن أنه لم يذعن لـــرأي صاحبه هذا الذي يأمره بأن يكتفي بما حصله من المعـــارف ليسـلك طريــق الله ويترك ما بيده من كتب الشريعة ليتجه إلى علم الحقيقة، وهل ثم طريقة توصل إلى الله تعالى غير ما بيده من العلم ..؟

هكذا كان يردد الإمام الشعراني بينه وبين نفسه، ويستمر فـــي تلـك الحـيرة ويعيش في هذا القلق فترة، لا ندري أطالت تلك الفترة أم قصرت ..؟

وأخيرا يلتقي بصاحبه الشيخ أحمد البهلول "٢" رضي الله عنـــه، فقـال لـه مكاشفا: أقبل على الأمر، وهو الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد علمته.

الأمر إذا جد لا هزل فليأخذ للأمر أهبته ويهيئ للطريق عدته، ولكـــن هـذا الأمر أيمكن أن يبت فيه بنفسه ويتخذ رأيا قاطعا بمفـــرده ..؟ لا لابـد مـن رأي أساتذته ومشاورة أشياخه لينفذ ما يشيرون عليه به.

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه " فشاورت في ذلك مشايخي، فقـالوا: لا تدخل طريق القوم ألا بعد تبحرك وشرح محفوظاتك كلها على الأشياخ فإذا فهمتـها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم وكان أشياخي كلهم من الجـــامعين بيـن العلـم والعمل"٣".

١- لطائف المنن للشعراني جـ١ صـ ٣٤

٢- كان من أرباب الأحوال توفي عام ٩٢٨

٤- لطائف المنن جـ ١ صـ ٣٤

إن هذا الطريق ليس بالسهل اليسير ولا بالقريب المنال ولا يستطيع الدخول فيه كل من يطلبه ولا يفتح أبوابه لكل راغب في ولوجه، لابد إذن من التبحر في علوم الشريعة وفقه أصولها ومن هنا قالوا: " تفقه في دينك ثم أدخل الطريق "

هكذا كان أشياخه وتلك كانت طريقته، ولقد أتبع ما أمروه به ونفذ ما شاروا عليه، الفقه مقدمة للتصوف والتبحر في علوم الشريعة شرط جوهري، لمن يريد أن يسلك هذا الطريق.

وإلا فهو مدع مكابر لا يطلب الطريق ولكن يتلاعب بها. فإن أراد أن يكون صادقا وراغبا وعاقدا النية على ذلك فعليه أن يشرح محفوظاته أولاً.

يعيها بفهم وتبحر فيها بعلم فعندها تفتح له الطريق أبوابها ويدخلها من أيها شاء.

وأذعن للأمر وهل يملك غير ذلك ..؟ وأطاع أوامر أشياخه وعكف على كتب الشريعة شارحا لها واعيا لمعانيها وأحس أن الحقيقة تناديه وأن السماء تطلبه فأخذ الأهبة إليها وجد في تحصيلها بمفرده من غير شيخ يدله أو مسلك يبين له معارج الطريق ويشرح له أحوالها ومقاماتها فعكف على كتب القوم وأخذ يطالعها ويغوص في معانيها قرأ الرسالة القشيرية وعوارف المعارف وقوت القلوب لأبي طالب المكي وكتاب الأحياد للإمام الغزالي رضي الله عنه"١".

وهذان الكتابان، الأخيران من واد واحد ولقد نصح الإمام الشاذلي بقراءتهما فقال عن قوت القلوب عليكم بالقوت فإنه قوت وقال عن الكتابين كتاب الأحياء يورثك العلم وكتاب القوت يورثك النور"٢".

قرأ الإمام الشعراني هذه الكتب وأخذ يعمل بما يتفقد له من طريق الفهم ثم بعد ذلك يبدو له خلاف ذلك فيترك الأول ويعمل بالثاني فكان كالذي يدخل طريقا لا يدري هل ينفذ منه أم لا.

١- لطائف المنن جـ١ صـ ٤٩

٢- أبو الحسن الشاذلي د.عبد الحليم محمود صـ ٥٤

وأخذ نفسه بالمجاهدة، فكان يسهر الليل والنهار وحرم نفسه من لذيذ الطعام وترك الدنيا وما فيها.. ولنستمع إليه مصورا هذه الفترة.

" ومن جملة ما جاهدت به نفس من غير إشارة شيخ أنني كنت جعلت لي حبلا في سقف الخلوة محررا على عنقي إذا جلست ولا يصل إلى الأرض لو أضجعت فكنت أجعله في عنقي من العشاء إلى الفجر فمكثت على ذلك سنين، ولم يكن لي بحمد الله علاقة دنيوية تعوقني عن المجاهدة والوصول إلى المقصود سوى كثرة وجود الملل في أعمالي وأن كانت العلل لا تنقطع عن العهد"١".

هذا هو الإمام الشعراني وتلك بعض مجاهداته، قيام بالليل للذكر والعبادة، وتهجد حتى الفجر في التضرع والرجاء وتعطيل لكل شهوات النفس وإفساح المجال للروحانية المضيئة والزهد في الطعام والشراب والاكتفاء بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى قويت روحانيته وضعفت بشريته وتوارت ترابيته قويت الروحانية فطلبت الصعود إلى عالمها، والاتصال بخالقها وكادت تتلاشى بشريته وضعف مفعولها وتعطلت مقاومتها واستكانت لشفافية الروح.

ويطيب لي أن أترك الإمام الشعراني يصور لنا بأسلوبه الممتع وشفافيته المشرقة وبساطته في التعبير صورة أخرى من صور مجاهداته ويكشف النقاب عن مرحلة من مراحله مريدا سالكا الطريق ومهاجرا يجد السير إلى ربه.

وكنت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ثم أصلي الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار ثم أصلي الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلي الظهر ثم أذكر إلى العصر ومن صلاة العصر إلى المغرب ومن صلاة المغرب إلى العشاء، وهكذا فمكثت على ذلك سنة، وكنت كثيرا ما أصلي بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر وربما صليت بالقرآن كله في ركعة، وكان نومي غلبة تخطف رأس خطفة بعد خطفة وخفقة بعد خفقة وكثيرا ما يغلب على النوم فأضرب أفخاذي بالسوط وربما نزلت بثيابي في

١- لطائف المنن للشعراني جـ١ صـ ٤٩

الماء البارد في الشتاء حتى لا يأخذني النوم"١" قال تعالى: (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون)"٢".

إن من يقرأ هذا الكلام يحس للوهلة الأولى أن الإمام الشعراني كان صوفيا كاملا، فقد زاول التصوف بفطرته عندما كبح جماح نفسه ووقف أمام شهواته يذبحها شهوة شهوة أمام مجاهداته لقد رغب عن الحلال المباح وأقبل بهمته على ذكر الله ليل نهار وعكف على كتب الصوفية قراءة وعملا فألزم نفسه بمبادئهم وتعشق حياتهم وأتبع نهجهم وعرف من طريقتهم أن احتمال شدة الألم أخف عليه من احتمال الغفلة عن الله تعالى بنوم أو سهو أو غيره، لأن مبني طريقهم على الحضور الدائم مع الله إنها طريق الصحوة طريق اليقظة، إنها التعفف عن أكل الشهوات ورياضة النفس على الجوع والحرمان، وفي الحديث القدسي " يا داود حذر وأنذر قوم أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا محجوبة عني ".

وفي رواية أخرى " يا داود إن أهون ما أنا صانع بعبدي إذا آثر هواه على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي "٣".

لقد بلغ الإمام الشعراني في الزهد مرحلة أن تساوي لديه الذهب والتراب والتزم بقول سيدي أبى الحسن الشاذلي رضي الله عنه في شأن الدنيا " الدنيا ابنة إبليس فمن قبض منها فوق ضروراته صار صهرا له وكثر تردد إبليس إليه لأجل ابنته"٤".

١- لطائف المنن جـ صـ ٥٠

٢- سورة الذاريات آية رقم ١٧ ، ١٨

٣- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ ٥٧ مخطوط

٤-الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية للشعراني مخطوط صـ ١٣٥

فربط الدنيا في صرة وألقى بها في بحر الأياس، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم " الدنيا جيفة وطلابها كلاب "١" فماله هو والدنيا ..؟ أن من يزاحم عليها نجسته كلابها وخربشته واشغلت فكره وكدرت وقته فيعجز عن السير في الطريق ومن هنا نرى أن الإمام الشعراني لم يكتف بذلك فترك العمران وساح في الجبال والبراري يقول عن نفسه " ثم حبب الله تبارك وتعالى لي الجبل المقطم ثم المساجد المهجورة في القرافة ثم الخراريب في مصر وأقمت على سور باب الفتوح في القصر المطل على خرابة الأحمدى نحو سنة، وما من فقيه حق له القدم في الطريق أولا بعد سياحه وذلك لأن الأنس بالخلق حجاب عظيم فلابد من قطع هذا الحجاب أما بالمجاهدة وأما بجذبه الهبة "٢".

كل هذه المجاهدات وتلك السياحات والقواعد التي قعدها لنفسه والتزم بها لم تدخله الحضرة مع كمل الرجال وأصحاب الأحوال.. ولم يفتح له وتساءل بينه وبين نفسه لماذا لم يفتح له..؟ ولأي شيء تمتنع الحضرة عليه ..؟

أهناك جهاد أكبر من هذا الجهاد وطريق معبده غير هذا الطريق، ومسلك آخر يمكن أن يرتقيه حتى يصل ..؟ الجواب نعم .. إن هذا الطريق لا يطرق بغير دليل ولا يفتح فيه الباب لطالبيه بغير " شيخ ".

وكل رجال التصوف الصادقين سلكوا هذا الطريق ومعهم الدليل لقد سلك الإمام الشاذلي رضي الله عنه على يد شيخه وأستاذه ابن مشيش رحمه الله، وسلك الإمام العز بن عبد السلام رضي الله عنه على يد الشيخ أبى الحسن الشاذلي وسلك الإمام الغزالي رضي الله عنه على يد الشيخ ابن محمد البازاغاني، فلابد له من شيخ يدله على الطريق ويفتح له مسالكها حتى يخرجه من رعونات نفسه ويباعد بينه وبين العلل في أعماله.

١- حديث صحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري والجامع الصغير للسيوطي.

٢- لطائف المنن للإمام الشعراني صـ ١٤٩ جـ ١

فليكن البحث عن شيخ مطلبه والتنقيب عن مسلك وسيلته وألهمه الله الاجتمـاع بأهل الطريق، وأتصل بالعديد منهم وألقى رحله في النهاية عند ثلاثة منهم، طلـب منهم الإفادة فأفادوه واستشارهم على الطريق فدلوه يقول راويا عن نفسه " وممـا من الله تبارك وتعالى به علي بعد ذلك إلهامي بطلب الاجتمـاع بـأهل الطريـق وانقيادي لهم فاجتمعت بحمد الله تبارك وتعالى على خلائق لا تحصى مـن أهـل الطريق فلم يكن لي وديعة عند أحد منهم سوى هؤلاء الثلاثة وهم سـيدي علـي المرصفي وسيدي محمد الشناوي وسيدي علي الخواص رضي الله عنهم فسـلكت على يدي الأولين كل واحد شيئا يسيرا وكان فطامي بحمد الله تعالى على يد سيدي علي الخواص أعنى الفطام اليسير المعهود بين القوم وإلا فالحق أنه لا فطام حتـى يموت العبد"١".

هذه هي المرحلة الثانية للإمام الشعراني سالكا الطريق كانت المـرة الأولـى مجاهدا مع نفسه وسائرا فيها بنور بصيرته وقلبه، قطع أشواطا كثيرة ولكنـه لـم يصل وسار دروبا متشعبة ولكنه لم ينفذ، وبدأت المرحلة الثانية سالكا الطريق على هدى من أقطابها متلقيا المعرفة على أساطين أربابها.

لقد ألتقى بأستاذه وشيخه الشيخ نور الدين المرصفي رحمه الله تعالى، وتلقـن عليه الذكر ثلاث مرات متفرقات، المرة الأولى كان شابا في أول مراحل الشـباب ودخل على شيخه بعد صلاة العصر وطلب منه أن يسلكه في الطريق وأن يلقنـه الذكر بحال قوى، فأذعن الشيخ لمريده ظاهرا وتألم منه باطنا ..؟؟ أن على المريـد أن يسمع فقط وأن يستسلم لا غير ولكن هذا المريد جاء يطلـب ويـأمر.. يريـد ويشترط أن يكون تلقين الذكر بحال قوى..؟؟

فقال الشيخ بسم الله الرحمن الرحيم يا ولدي وأطرق ساعة ثم رفع رأسه مـن اطراقته وقال يا بني قل " لا إلـه إلا الله " فما استتمهـا الشيـخ إلا وقد غاب " الشعراني " عن الوجود وعن شيخه فما استفاق إلا بعد مدة.

١- لطائف المنن للإمام الشعراني جـ ١ صـ ٥١

وأحس " الشعراني " أنه أساء الأدب مع شيخه فمكث على هذا الحـــال مـــدة مطرود لا يستطيع الاجتماع به لسوء أدبه معه وذلك في طلبه " أن يلقنـــه الذكـــر بحالة قوية " وعاد مرة أخرى إلى شيخه فقيرا من كل شيء مطيعا لكل أمر مسلما له نفسه وطلب منه التلقين فسمع منه أيضا قول " لا إله إلا اللـــــه " ثلاث مـــرات فغاب عن الوجود كذلك وعن نفسه.

يقول الإمام الشعراني " فرأيت في تلك الليلة كأن الشيخ بيده ثلاث " ميـــابر " فغرزها في جلدي إلى آخرها فلما أفقت ذكرت له ذلك فقال الحمد لله الذي أظـــهر أثره"١".

المرة الثالثة لقنني حين لقن الشيخ أبا العباس الحريثي رضي الله عنه لكونـــــه أصفى قلبا مني وأكبر سنا وأعرف بمقام الرجال ثم لازلت أتردد بصحبتـــه مـــدة حياة الشيخ رضي الله عنه"٢".

وقرأ الإمام الشعراني على شيخه المرصفي رسالة القشيري ولزمه حتى مـــات رحمه الله عام ألف وثلاثين وتسعمائة للهجرة .. ثم يأتي بعد ذلك دوره مع شـــيخه محمد الشناوي. وقد تلقن " الشعراني " الذكر عنه وأخذ العهد منه وألبسه الخرقـــة وأجيز منه بتربية المريدين في جمع حاشد من الناس وكان ذلك الأمر إليه بتلقيـــن المريدين ليلة مات أبانها الشيخ وشاع في الناس هذا النبـــأ فـــأقبلوا علـــى الشـــيخ الشعراني يلتمسون منه أن يلقنهم الذكر ويأخذ في تدريبهم وتسليكهم "٣" فأستشـــار في ذلك أستاذه " علي الخواص " فأبى عليه شيخه ذلك.

ورأى بثاقب فكره وعمق شفافيته أن الناس في هذا العصر شغلتهم الحياة الدنيا وتكالبوا عليها، وتركوا طريق الله، فالعمل معهم لا يجدي، وتســـليكهم الطريـــق لا يفيد ...؟؟

١- الطبقات الكبرى صـــ١١٦ جـــ ٢ ، والمناقب صـــ ٥٩
٢- الطبقات الكبرى صـــ١١٦ ، المناقب ٥٩ ، رحلة النابلسي ١٠٩
٣- الطبقات الكبرى صـــ١٢١ ، المناقب صـــ٦٢

وبعدها تبدأ المرحلة الثالثة لإمامنا " الشعراني " عندما التقى بسيد العـــارفين ومربي السالكين، الغوث البطل " علي الخواص " رضي الله عنه، التقى به وكـــان في هذا اللقاء الخير كله وتتلمذ على يديه فبذ العلماء وصاول المفكريـــن وجـــادل المدعين وانتصر عليهم.

التقى العالم البحر الفقيه المحدث بالعالم الرباني " الأمي " هـــذا هـــو حكـــم الظاهر أما حكم الحقيقة، فلقد كان الخواص عالما وكان الشعراني سالكا.

علم الأول كان الوهب، وعلم الثاني كان الكســـب، والعلـــم الحقيقـــي عنـــد الصوفية، العلم الذي يقول صاحبه بملء فيه، إنه علمي هو علم الفتح لأنه خـــاص بصاحبه أما علم الكسب فهي ليست علوم صاحبها إنما هي علوم الكتـــب أو كمـــا يقول الخواص علوم الرجل حقيقة " هو ما لم يسبق إليه ".

وأما من كان علمه مستفادا من النقل فليس ذلك له بعلم إنمـــا هـــو صـــاحب لصاحب العلم.

والشعراني يقول " إن من منن الله عليه أن كان وصوله وفتحة على يد أمـــي لا يعرف القراءة والكتابة" ويقول في وصف هذا الأمي " رجل غلب عليه الخفاء فـــلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنـــا بـــلا شـــك والكامل في العرفان صار غريبا في الأكوان ولذلك كانت طريقته غريبـــة لعلـــو مراقيها، أنه أمرني في أول اجتماع عليه ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنـــها علـــى المحاويج ففعلت وكانت كتبا نفيسة " كشرح الرومي " والمطلب والخادم والقوت " وغيرها مما يساوي عادة مالا كثيرا فبعتها وتصدقت بثمنها فصار عندي التفـــات إليها لكثرة تعبي وكتابة الحواشي والتقيدات عليها حتى كأني سلبت العلم"١".

لقد أمره في أول اجتماع له بالتخلص من كل شيء يرمز إلى الدنيا حتى ولـــو كانت كتب العلم والمعرفة، إنها تربطه بالأرض وحطامها وتجعله يتمسك بالدنيـــا، فتخلص منها بالبيع وتصدق بثمنها، ولكن قلبه ظل متعلقا بها ملتفا إليها، والقلب إذا

١- لطائف المنن جـ١ صـ٥٢

تعلق بحطام الدنيا حجب عن نفحات ربه وعلى العهد أن يتعرض لـــهذه النفحـــات لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " إن لربكم في أيام دهركم نفحات إلا فتعرضـوا لها"١".

هذه النفحات لا تنزل على القلوب التي أغرتها الشهوات وامتلكتها المغريـــات وفي الحديث القدسي " إن الله لا يحب أن يرى في قلب عبده سوى محبته "٢".

ومن هنا تأتي فائدة الشيخ في الطريق الصوفي وتتضح الحاجة إليه لقد تخلص الإمام الشعراني من كتبه ولكن نفسه بقيت متشوقة لها راغبة فيها وهذا أيضا مـــن المعوقات في الطريق إلى الله.

يقول الإمام الشعراني: فقال لي سيدي علي الخواص أعمل على قطع التفـــاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل فأنهم قالوا " ملتفت لا يصل " فعملـــت علـــى قطـــع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله تعالى من ذلك"٣".

إنها التربية الإسلامية السليمة والتوجيه النابع من مدرســـة القــرآن الكريــم، والأسس المستقاة من المنهج الذي وضعه الرسول صلـــــى الله عليـــه وســـلم، إن المدرسة الإسلامية لا تكتفي بإلقاء الأوامر كما تفعل بقية المدارس الأخرى، والتـــي تدعي التقدم والحضارة، وتترك الإنسان بعدها في صراع مع نفسه وصراع مع ما ألقى إليه من أوامر وما صدر من تعليمات.

إن المدرسة الإسلامية تلقي بالأمر وتضع الحلول لتنفيذه وتوجه أصحابها ولكن في حدود الطاقة البشرية والملابسات الإنسانية، إنها المدرسة الوحيدة التي تصـــل الإنسان بالله ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته فيسير بجسمه علـــى الأرض وهو متجه بروحه إلى السماء.

١- رواه الطبري في الكبير عن محمد بن مسلمة وذكره السيوطي فـــي الجـــامع الصغير.

٢-

٣- لطائف المنن جـــ ١ صـــ ٥٢

رمى الإمام الشعراني الدنيا كلية من يده ورماها أيضا من قلبه واتجه إلى ربه، اتجه إليه فقيرا من كل شيء وحيدا بغير صاحب غريبا بغير أهل فارا إليه يرجـــو رحمته متشوقا ومتعطشا يطلب بصيصا من نوره يرشده إلى الطريق وجرعة مـــن ري تباعد بينه وبين الظمأ، أمره سيده بالعزلة عن الناس والبعد عنهم فاعتزلـــهم، ولكن بقيت في نفسه بقية من الرعونات واعتقاده أنه خير من الناس، وهذه الخيرية لا تليق بالسالكين ولا تصح من الطالبين، إنها الذنب الذي أخرج به إبليـــس مـــن الجنة " أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين "١".

ويطيب لنا أن نتابع الإمام الشعراني في رحلته سالكا مع شيخه يقول:" فـأمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي فصرت أهرب من الناس وأرى نفسي خيرا منهم، فقال لي: أعمل لي قطع رؤية أنك خير منهم فعملت في المجاهدة مدة حتـــى صرت أرى أن أذلهم خيرا مني، ثم أمرني بالخلطة والصبر على أذاهـــم وعـــدم مقابلتهم فعملت على ذلك حتى قطعته فرأيت حينئذ أني صرت أفضل مقاما منـــهم فقال لي أعمل على قطع ذلك فعملت على قطعة مدة حتـــى قطعتـــه ثـــم أمرنـــي بالأشتغال بذكر الله تبارك وتعالى سرا وعلانية وكل خاطر خطر لي مما أمرنـــي بترك أكل الشهوات مطلقا فتركها حتى صرت أكاد أصعد بالهمـــة فـــي الـــهواء وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية، ثم أمرني بالتوجه إلـــى الله تبـــارك وتعالى في أنه يطلعني على أدلتها الشرعية، فلما أطلعت عليها وصار لوح قلبـــي مسوحا من العلوم النقلية لاندراجها في الأدلـــة ترادفـــت علـــى حينئـــذ العلـــوم الوهبية"٢".

هذه هي مسالك الطريق ومراتبها كما أجتازها الإمام الشعراني وحددهـــا لـــه أستاذه " علي الخواص " لقد أمره في أول اجتماعه به وأول خطوة حددها له رمى

١- سورة الأعراف آية رقم ١٢

٢- لطائف المنن جـ ١ صـ ٥٢

الدنيا وعدم الالتفات إليها والقرار إلى الله " ففروا إلى الله "١" والعزلـــة عن الناس " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله "٢" وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنـــا نبيا) وأمره بالاستكانة والخضوع لله تعالى، ولقد فعل الإمام الشعراني كل ذلـــك، ولكنه أحس أنه خير من الناس فأمره أن يعمل على تلاشي تلك الخيرية وأن يبعـــد عن نفسه الكبر والعجب والخيلاء والحسد وبقية الأمراض الباطنة، إنـــها عمليـــة تصفية، إنها تطهير لكل ما يعلق بالبدن أو يرتبط بالروح حتى يدخـــل الحضــرة الإلهية وهو طاهر متطهر من كل شيء.

فإذا انتهت الخطوة الثانية واجتازها بنجاح وبتوفيق مـــن الله فعليـــه أن يبـــدأ بالخطوة الثالثة في الطريق إلى الله، وهذه المرحلة الأخيرة هي التوجـــه إلـــى الله بالكلية، أن يتجاهل كل ما عداه وأن يعمل دائبا على الاشتغال بذكره، قال تعالى: " اذكروني أذكركم "٣".

والمراد بالذكر انكشاف الحجب للعبد وأنه بين يدي ربه عز وجل وهو تعـــالى يراه " أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "٤" فمتى داوم العبد على هذا المشهد فهو جليس لله تعالى، فإن غاب عن ذلك خرج من حضرة الله تعالى.

لقد اجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب وجاذب الخير وأنيس المســـتوحش ومنشور الولاية.

١- سورة الذاريات آية رقم ٤٩

٢- سورة مريم آية رقم ٤٨

٣- سورة البقرة آية رقم ١٥٢

٥- أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى وأياك ودعوة المظلوم الطـــبراني عـــن أبـــي الدرداء وحسن السيوطي سنده وضعيفه المندري وقال الحافظ الهيتي: الرجل الذي مـــن النخع لا أعرفه " أعبد الله ولا تشرك به شيئا وأعمل كأنك تراه وأعدد نفسك في الموتـــى رواه الطراني والبيهتمي وعن معاذ: قال الحافظ العراقي رحالة ثقات وفيه انقطاع " أعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك وأحسب نفسك في الموتى واتق دعوة المظلـــوم " في الحلبة عن زيد بن أرقم ".

روى الشيخان وغيرهما مرفوعا ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من انفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا - عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى، قال ذكر الله"١".

والإمام الشعراني دأب على ذكر الله واستمر على ذلك ليل نهار حتى صارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية " ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعني على أدلتها الشرعية فاستجاب الله له، لأنه في حضرته ومن كان كذلك: إذا دعا ربه أجابه وإذا استعان به أعانه عندها صار لوح قلبي ممسوحا من العلوم النقلية لاندراجها في الأدلة فترادفت على حينئذ العلوم الوهبية "٢".

لقد وجد الإمام الشعراني بحر العلم متمثلا في شيخه وهذا البحر مبسوط الرحاب عميق القاع أمواجه الكشف الصحيح وعبابه التعريف الإلهي " عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما"٣" والخواص كان من أولياء الله وعبدا من عبيده وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، كان أميا ولكنه بذ العلماء وكان لا يقرأ ولكن عينيه اللوح المحفوظ، لم يتعلم في معهد ولم يتلق العلم على أستاذ بل جاءته الفيوضات الربانية والتجليات الإلهية من عند ربه " ومن يتق الله يجعل له فرقانا "٤" واتقوا الله ويعلمكم الله "٥".

والإمام الخواص كان من الأتقياء ومن عباد الله المخلصين، كان من أولئك النفر الذين يرسلهم الله على فترة من الزمن فيكونون للبشرية كالرحمة المهداة يخفقون من غلواء المادة ويهدون إلى الشفافية والروحانية ويرشدون الضال

١- لطائف المنن جـ١ صـ٥٢ الحديث رواه الشيخان وابن ماجه والإمام أحمد.

٢- لطائف المنن والأخلاق جـ١ صـ٥٢ في مسنده.

٣- سورة الكهف آية رقم ٦٤

٤- سورة الأنفال آية رقم ٢٨

٥- سورة البقرة آية رقم ٣٨٢

ويدلون إلى النبع لقد أهدى الإمام الشعراني إلى النبع والتقى بالبحر بحـــر شـــيخه فغطس فيه خمس مرات، ومن حق المريد أن يغترف من بحر المعرفـــة الخـــاص بشيخه، فلما هم بالسادسة استحال البحر حجرا، وقد وجد الإمام الشعراني في كـــل مرة غاص فيها صيدا ثمينا من المعرفة الربانية والإلهام الإلهي والعلم اللدني ففـــي المرة الأولى وجد خزانة على بابها قفل ففتحها بقول:" لا إله إلا الله " فوجد فيـــها عجبا وجد العلوم التي برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العـــالم علـــى اختـــلاف طبقاته من الصديقية الكبرى إلى آخر درجات الولاية، وتلك الخزانة تشتمل علـــى علوم لا تحصى ولا تدرك لا بتعريف من الله عز وجل ووجد علوم تلك الخزانـــة مرتبة منسقة وعلى كل علم اسمه ولقد أخرج الشعراني كما يقول جميع تلك العلـوم من الخزانة وجعلها من جملة ذخائره ومعارفه وأضافها إلى ما عنده.

فلما غطس في المرة الثانية وجد خزانة أخرى على بابها قفلان فلمـــا غطـــس ففتحها باسم الله فوجد فيها جملة من آيات القرآن العظيم من أول سورة الحاقة إلـــى آخر القرآن، وجد تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوبة وهو علم لا تدركه العقـول ولا يستفاد من كتب.

وأخرج الشعراني أيضا علوم تلك الخزانة وأضافها إلـــى معارفـــه وذخـــائره وضمها إلى ثروته وكنوزه"١".

وهكذا بمضي الشعراني مصورا لنا بحار شيخه ومعارفه اللدنية شارحا للخزن المملوءة بالكنوز التي عثر عليها في تلك البحار وما فيها من علوم استحوذ عليـــها واستفاد بها.

والمراد بالخزن وأقفالها وما كتب عليها وطرائق فتحها هو فيما نعتقد الرمـــز إلى أسرار الذكر وأسرار أسماء الله الحسنى وفتوحات تلاوتها"٢".

١- الشعراني إمام التصوف في عصره صـــ ٤٢ وكتاب الدر المكنون والجوهـــر المصون صـــ ٢٠ مخطوط وفي المناقب الكبرى صـــ ٥٦، صـــ ٥٧ .

٢- الشعراني إمام التصوف في عصره صـــ ٤٢

لقد فتحت الأبواب المغلقة وأوتي الفهم العظيم لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتوالت عليه العلوم الوهبية، بنور قذفه الله تعالى في قلبه هذا النور هو أكثر المعارف الربانية ولعلنا نتساءل .. كيف تم هذا الفتح ..؟ ومتى كان ..؟ وفي أي الأماكن ..؟

ويجيبنا الإمام الشعراني على ذلك بقوله، كان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل، فبينا أنا واقف هناك وإذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي كل باب أوسع مما بين السماء والأرض فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث واستنبط منهما الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك، حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين.. فكتبت من ذلك نحو مائة كراسة فعرضت بعض ذلك على سيدي علي الخواص، فأمرني بغسله وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب وعلوم الوهب منزه عن مثل ذلك، فغسلتها وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر وقال بينك وبين علم الوهب الخاص ألف مقام.. قال له أستاذه: هذا علم مخلوط بفكر وكسب، وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك علم الوهب منزه عن التعمل والتكسب أنه العام الذي لا يحتمل وجهين فهو علم خالص نقي لا يقبل التأويل، لأنه العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي علوم لا تخرج عن الشريعة قيد أنملة ولا تضيف إلى ما جاء به خاتم النبيين معتقدا جديدا، لان الشارع صلى الله عليه وسلم جاء بكمال الدين وبإتمام النعمة وإنما هذه العلوم الوهبية تأتي فقط بالفهم الجديد لكتاب الله تعالى وسنة رسوله.

ومن قبل الإمام الشعراني كان حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه، لقد مر الإمام الغزالي بتلك التجربة وعاش تلك المرحلة، مترقبا علوم الوهب متطلعا إلى فيوضات الله تعالى وحاول جهده أن يتخلص من الفكر وأن يبتعد عن التعمل ولكن هيهات، إنها علوم لا تأتي عن طريق المعاناة ولا يدينها التدبير والانتظار فقط ولكنها من عند الله... والله يختص برحمته من يشاء من عباده.

يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه مصورا تلك المرحلة واصفا تلك التجربة " لما أردت أن أنخرط في سلك القوم وأشرب من شربهم نظرت في نفسي، فرأيت كثرة حجبها، ولم يكن لي شيخ إذ ذاك، فدخلت الخلوة، واشتغلت بالذكر والرياضة أربعين يوما، فإنقدح لي من العلم ما لم يكن عندي أصفى وأرق مما كنت أعرفه، فإذا فيه قوة فقهية، فرجعت إلى الخلوة، واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فإنقدح لي علم آخر أرق وأصفى مما حصل عندي أولا ففرحت به ثم نظرت فيه فإذا فيه قوة نظرية، فرجعت إلى الخلوة ثالثا أربعين يوما فأنقدح لي علم آخر هو أرق وأصفى، فنظرت فيه فإذا فيه قوة ممزوجة بعلم علم ولم ألحق بأهل العلوم اللدنية.

فعلمت أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى ولم أميز عن النظار إلا ببعض الأمور"١" هل وقف الإمام الغزالي عند هذا الحد ..؟ هل اكتفى بما وصل إليه ..؟ الجواب لا .. لم يقف الإمام الغزالي عند هذا الحد، ولم يقنع بما وصل إليه، ولكنه جاهد وجاهد وصفى قلبه ونفسه على يد شيخه محمد البزاغاني حتى وصل إلى مرحلة لا توصف ولا تكتب ولكنها تحس وتذاق وكل ما عبر به عنها قوله:

قد كان ما كان لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخير

وكذلك الإمام الشعراني جاهد نفسه وصفى قلبه وتوجه إلى ربه وكان يعرض ما يفتح به عليه على أستاذه فيطالبه بأن يطلب ما فوقه حتى فتح الله تعالى عليه بعلم (آداب العبودية) فلما عرضه على شيخه قال له: لقد تم أمرك وعلا قدرك وشاع ذكرك روى قلبك عن ربك فاكتب ما شئت"٢".

١- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية للشعراني مخطوط صـ٣٠٥

٢- المناقب الكبرى للمليجي صـ١٠٥

روى قلبك عن ربك.. هذه صورة الفتح"١" وهذا هو العلم اللدني علم الوهب.. العلم القريب العهد من الله كما عبر الشيخ عز الدين بن عبد السلام عندما سمع كلام العارف بالله الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

وبعد، لقد تتبعنا الإمام الشعراني في المرحلة الأولى من حياته طالبا مجدا، يتفقه في دينه ويعرف شريعة ربه، ثم كانت المرحلة الثانية: طالبا العلم اللدني، فارا إلى ربه، عزوفا عن الدنيا زاهدا فيها حتى عرف ربه وانهالت فيوضات الله عليه.

وتتمة لهذا الموضوع يقتضينا البحث أن نتناول في الفصل الثالث من هذا الباب شيوخه وأثاره، فتترجم لبعض هؤلاء الشيوخ ممن كان لهم أعمق الأثر في حياته، سواء في مرحلته الأولى أو في المرحلة الثانية وحرصا من أن يطول بنا الأمر ونخرج عن الإيجار الذي ألزمنا به أنفسنا سنقصر حديثنا على ستة منهم ممن لازمهم في حياتهم وقضى عشرات السنين في صحبتهم وهم:

١- الشيخ نور الدين الشوني.
٢- الشيخ زكريا الأنصاري.
٣- الإمام شمس الدين الديروطي.
٤- الوالي الكبير علي الخواص.
٥- الشيخ نور الدين المرصفي.
٦- الشيخ محمد الشناوي.

ثم نختم هذا الفصل بذكر بعض أثاره وأهم كتبه ومؤلفاته.

١- الفتح هو عبارة عن فتح عين الفهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات والأخبار إذ الولى لا يأتي قط بشرع جديد وإنما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب والسنة الذي لم يكن يعرف لاحد من الأمة قبله.

الفصـــــل الثـــــــالث

الشيخ نور الدين الشوني

هو العالم الجليل والمربي الكبير الشيخ نور الدين الشوني من شونى بلدة بنواحي طنطا، بلد السيد البدوي رضي الله عنه، تربى ببلدته صغيرا وكانت حرفته وهو صغير رعي الغنم .. وكان يحب الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان من عادته في هذا السن المبكر أن يدفع غذاءه للأطفال الذين يرعون الغنم معه ليصلوا معه على الرسول صلى الله عليه وسلم .. يقول عن نفسه كنا نقطع غالب النهار في الصلاة على رسول الله عليه وسلم.

ولم يلبث في قريته كثيرا حتى انتقل إلى مقام سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه - ولكنه متى انتقل ..؟ وفي أي عام ..؟ وكم كان سنه في ذلك الوقت ..؟

إن كتب التراجم تصمت عن ذلك ولا تشير إليه، وعندما انتقل إلى مقام السيد البدوي رضي الله عنه أنشأ فيه مجلس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاب أمرد، فاجتمع في ذلك المجلس خلق كثير وكانوا يجلسون فيه من بعد صلاة المغرب ليلة الجمعة إلى أن يسلم على المنارة لصلاة الجمعة ثم بعدها انتقل إلى القاهرة ألقى رحله بها، ولكننا لا نستطيع أن نحدد أيضا تاريخ هذا الأنتقال، ويحكي قصة انتقاله إلى القاهرة بنفسه فيقول: " إنه خرج يشيع جماعة مسافرين إلى مصر فخرجت به المركب من غير قصد منه فلم يقدر أحد على رجوعهما إلى البر فقال توكلنا على الله "١" جاء إلى مصر فأقام بها أولا في تربة السلطان برفق بالصحراء، وأنشأني في الجامع الأزهر مجلس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك في عام سبع وتسعين وثمانمائة وكان رضي الله عنه يقوم من التربة كل ليلة جمعة إلى الأزهر ويرجع فلما عمر السلطان

١- الطبقات الكبرى للإمام الشعراني جـ٢ صـ ١٥٤

طومان باي .. العادل .. تربته نقله إليها وأعطاه وظيفة " المزملات " بـــها فكـــان يسقي الناس طول النهار فأقام بها سنين عديدة، ثم دخل إلى مصر وتزوج بها ولـــه من العمر تسعون سنة وكان لم يتزوج قط.

ثم انتقل إلى مدرسة السيوفية التي وقع لسيدي عمر بن الفارض مـــع شـــيخه البقال فيها ما وقع فأقام بها إلى أن مات في سنة أربع وتســـعمائة ودفـــن بالقبـــة المجاورة لباب المدرسة القادرية بخط السورين.

التقاء الإمام الشعراني بشيخه الشوني

جاء الإمام الشعراني إلى مصر من قريته في سنة عشرة وتســـعمائة فـــالتقى بالشيخ شهاب الدين الطويل المجذوب رضي الله عنه، فقال له أنت ابـــن الشـــوني كيف حال أبوك ..؟ يقول الإمام الشعراني وكنت لا أعرف قط من هو الشـــوني، فما كان إلا نحو سنتين فأخبرني شخص أن رجلا يسمى الشيخ نور الدين الشـــوني من الصالحين في تربة العادلية امض بنا نزوره فلما دخلنا عليه رحب بي أكثر من أصحابي وقال لي: " ايش" قال لك الشيخ شهاب الدين ..؟ فأخبرتـــه فقـــال هـــو صاحب الإطلاع وإن شاء الله يحصل لك من جهاتنا نصيب مـــن الخـــير، فكنـــت أحضر معه المجلس نحو سبع سنين"١".

ثم أراد الشوني أن يفطمه عنه. أراد الشوني لابنه الشعراني أن يستقل بـــأحد المجالس فأمره أن يجمع له جماعة في الجامع الذي يقيم فيه ويحيـــي بـــهم ليلـــة الجمعة بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذعن الإمام الشعراني للأمر وقام به خير قيام وأخذ ينوع في مجلس الصلاة على الرسول صلى الله عليه وســـلم فكان يقرأ وجماعة سورة .. " إنا أعطيناك الكوثر " ألف مرة وأخبر شيخه بذلـــك ففعلها بمحله بالجامع الأزهر.

١- الطبقات الكبرى للإمام الشعراني جـــ صـــ

يقول الإمام الشعراني عن أستاذه الشوني كان رضي الله عنه حسن العشـــرة جميل الخلق كريم النفس حسن السمت كثير التبسم صافي القلب ممسوحا كبـــاطن الطفل وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو غم لا يقر له قرار حتى يرتفع.

وقد أقام الشعراني في خدمة أستاذه وشيخه أكثر من خمس وثلاثيـــن ســـنة حتى توفي إلى رحمة الله تعالى.

الشيخ زكريا الأنصاري الخزرجي

هو زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي القاهري الأزهري الشافعي " زين الدين أبو يحيي " عالم شارك في الفقه والفرائض والتفسير والقراءات والتجويد والحديث والتصوف والنحو والتصريف والمنطق والجدل.. ولد بسنيكة عام ٨٢٦ هـ ١٤٢٣ م كما يروي صاحب معجم المؤلفين ونشأ بها ثم تحول إلى القاهرة.

ترجم لنفسه فقال جئت من البلاد وأنا شاب فلم أعكف على أحد من الخلق ولم أعلق قلبي به وكنت أجوع في الجامع كثيرا فأخرج بالليل إلى قشر البطيخ الذي كان بجانب الميضة وغيرها فأغسله وآكله إلى أن قيض الله لي شخصا كان يشتغل في الطواحين فصار يتفقدني ويشتري لي ما أحتاج إليه من الكتب والكسوة ويقول يا زكريا لا تسأل أحدا في شيء ومهما تطلب جئتك به فلم يزل كذلك سنين عديدة فلما كان ليلة من الليالي والناس نيام - جاء لي وقال لي: قم فقمت معه فوقف لي على سلم الوقاد الطويل. وقال لي: أصعد هذا فصعدت إلى آخره فقال لي تعيش حتى يموت جميع أقرانك وترتفع على كل من في مصر من العلماء وتصير طلبتك شيوخ الإسلام في حياتك حين يكف بصرك. فقلت ولابد لي من العمى .. قال ولابد لك .. ثم انقطع عني فلم أراه من ذلك الوقت.

يقول: ثم تزايد على الحال إلى أن عزم على السلطان بالقضاء فأبيت وقال: إن أردت نزلت ماشيا بين يديك أقود بغلتك .. إلى أن أوصلتك إلى بيتك فتوليت القضاء وأعانني الله على القيام به ولكني أحسست من نفسي أني تأخرت عن مقام الرجال فشكوت إلى بعض الرجال فقال: ما ثم إلا تقديم إن شاء الله تعالى. فإن العبد إذا رأى نفسه متقدما فهو متأخر. وإن رأى نفسه متأخرا فهو متقدم فسكن روعي"١".

١- الطبقات الكبرى للإمام الشعراني جـ ٢ صـ ١١١

وكان رضي الله عنه عالما ملتزما بعلمه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـــر وينزل بالأئمة على الحكام. دخل مرة على السلطان قايتباي. فأغلظ له القول حتـــى أصفر لونه فتقدم إليه وقال له إنما أفعل ذلك معك شفقة عليك وسوف تشكرني عند ربك وأني والله لا أحب أن يكون جسمك هذا فحمه من فحم النار فصار ينتفـض - كالطير.

ويقول أيضا كنت أقول له أيها الملك تنبه لنفسك فقد كنـــت عدمـــا فصـــرت وجودا وكنت رقيقا فصرت حرا وكنت مأمورا فصرت أميرا وكنت أميرا فصـــوت ملكا.. فلما صرت ملكا تجبرت ونسيت مبدأك ومنتهاك"[١].

يقول الإمام الشعراني عنه .. إنه أحد أركان الطريق في الفقه والتصوف وقـد خدمته عشرين سنة فما رأيته قط في غفلة ولا اشتغال بما لا يعنـــي لا ليـــلا ولا نهار.. وكان يصلي سنن الفرائض قائما. ويقول لا أعود نفسي الكســـل وكـــان لا يأكل إلا من خبز الخانقاه " وقف سعيد السعداء " ويقول واقفها كان مـــن الملـــوك الصالحين وأوقف وقفها بأذن النبي صلى الله عليه وسلم.

قراءات الإمام الشعراني عليه

يقول الإمام الشعراني - قرأت عليه شرحه على رسالة القشـــيري فـــي علـــم التصوف وقرأت شرحه على الروض إلى باب الجهاد. وقرأت عليه تفسير القـوآن العظيم للبيضاوي مع حاشية الطيبي على الكشاف وحاشية السيد وحاشـــية الشـــيخ سعد الدين التفتازاني وحاشية الشيخ جلال الدين السيوطي إلـــى ســـورة الأنبيـــاء وقرأت عليه شرح آداب البحث له وحاشيته على جمع الجوامع وطالعت عليه حال تأليفه لشرح البخـــاري فتح البـــاري للحافظ بن حجر وشرح البخـــاري للكرماني

١- الطبقات الكبرى للإمام الشعراني جـــ ٢ صـــ ١١٢

وشرحه للعيني الحنفي وشرحه للشيخ شهاب الدين العسقلاني"١".

وكف بصره رضي الله عنه عام ٩٠٦ هجرية وله كتب وتصانيف كثيرة منها:

١- فتح الرحمن في التفسير ط
٢- تحفة الباري على صحيح البخاري ط
٣- فتح الجليل تعليق على تفسير البيضاوي خـ
٤- شرح ايساغوجي في المنطق ط
٥- شرح الفية العراقي في مصطلح الحديث خـ
٦- شرح شذور الذهب في النحو
٧-تحفة نجباء العصر في التجويد
٨-اللؤلؤ النظيم في لزوم التعلم والتعليم " رسالة " ط
٩- الدقائق المحكمة في القراءات ط
١٠- فتح العلام في الحديث خـ
١١- تنقيح تحرير اللباب في الفقه ط
١٢- غاية الأصول في أصول الفقه ط
١٣- لب الأصول اختصره من جمع الجوامع ط
١٤- اسنى المطالب في شرح روض الطالب في الفقه أربعة أجزاء ط
١٥- الغرر البهية في شرح البهجة الوردية في الفقه " خمسة أجزاء " ط
١٦- منهج الطلاب في الفقه.

هذا ما ذكره صاحب كتاب الأعلام. وذكر صاحب كتاب معجم المؤلفين أن جملة مؤلفاته ٤١ مؤلفا تقريبا.

وكانت وفاته رحمه الله عام ٩٢٦ هجرية ١٥٢٠ ميلادية.

١- الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢ صـ ١١٨

من أساتذة الإمام الشعراني كان واعظا بالجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغوري. وكان رضي الله عنه مهابا عند الملوك والأمراء يعتقده العامة والخاصة كان مجاهدا متصفا بالتقوى والورع آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر وكان مجلس وعظه بالأزهر الشريف يحضره العلماء والأمراء وكبار الدولة وكان إذا مر في شوارع مصر يتزاحم الناس على رؤيته وتقبيل يده والتمسح بثيابه.

هاجم مرة السلطان الغوري في تركه الجهاد وأخذ يشنع عليه ويؤلب الشعب ضده فأرسل السلطان إليه فلما وصل إلى مجلسه حيا السلطان بتحية الإسلام"١".

وكان رضي الله عنه يختفي إذا شاء في بيته أو غيره وذكرت والدته إنها كانت تضع ما يأكل وما يشرب فيأكله وهي لا تراه إنما تسمع كلامه فقط. وكان شجاعا مقداما في كل أمر مهم.

وخرج عليه مرة قطاع الطريق وهو في بحر دمياط فخاف أهل المركب فقال لهم الشيخ لا تخافوا. ثم أشارا إليها فتسمرت في الماء فلم يقدروا أن يحركوها. فاستغفروا وتابوا.

صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار ولم يساعده أحد وإنما كان يتاجر وينمي تجارته. ولم يأخذ قط معلوم وظيفة من وظائف الفقهاء وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس وقبول صدقاتهم ويخبرهم إنها تسود وجه قلوبهم.

١- أنظر الرسالة صـ ١٤

كتبه ومؤلفاته

له الكثير من الكتب والمؤلفات ومن أهم هذه المصنفات:

١- شرح مناهج النوري في الفقه.
٢- شرح الستين مسألة في الفقه.
٣- القاموس في الفقه.
٤- شرح قطعة من الإرشاد لابن المقري رضي الله عنه.

صفاتـــــــــه

كان رحمه الله متواضعاً مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير وكان يحبـــهم ويبرهم ولم يصده ما وصل إليه من العلوم والمعارف والشهرة مـــن أداء بعــض حقوقهم.

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه .." رأيت الشيخ شمس الدين الديروطـــي مرة راكبا فنزل وقبل يد أعمى تقوده ابنته. فقلت له من هذا ..؟ فقال هذا اقرأنـــي وأنا صغير حزبين من القرآن رضي الله عنه فما أقدر أن أمر عليه وأنا راكب"١.

يقال: إنه أخبر والدته أن يموت في تلك الرقدة. فقالت له من أين لـــك علــم هذا..؟

فقال أخبرني بذلك الخضر عليه السلام فكان كما قال توفي رضي الله عنه في ربيع الأول سنة احدى وعشرين وتسعمائة وله من العمر نيف وخمســون ســنة - رحمه الله ودفن بزاويته بدمياط.

١- الطبقات الكبرى للإمام الشعراني جـ ٢ صـ ١٦٥

كان رضي الله عنه أميا لا يكتب ولا يقرأ ومع ذلك فكان يتكلم على معـــاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاما يتحير فيه كبار العلماء.

حرفتـــه

كان رضي الله عنه في مبدأ حياته طوافا يبيع الصابون والجمـــيز والعجــوة وكل ما وجد. ثم فتح دكان زياته سنين عديدة ثم ترك كل ذلك واستعان بصناعـــة ضفر الخوص على حياته واستمر فيها إلى أن مات رحمه الله تعالى وكان لا يـأكل شيئا من طعام الظلمة وأعوانهم ولا يتصرف في شيء من دراهمهم في مصـــالح نفسه أو عياله. وإنما يضعه للنساء والأرامل والشيوخ والعميان والعـــاجزين عـــن الكسب ومن ارتكبتهم الديون فيعطيهم من ذلك ما قسم.

وورمت عيناه مرة ورما شديدا وهو يضفر الخوص فأتاه شـــخص بدراهــم وقال يا سيدي أنفقها واسترح من هذه الحرفة حتى تشفى عيناك فردها وقـــال والله أنا في هذا الحال ولا تطيب نفسي بكسب نفسي فكيف بكسب غيري ..؟

وكان من عاداته أن يكنس المساجد وينظف بيوت الخلاء. ويحمـــل القمامـــة ويخرجها إلى الموضع الذي توضع فيه. وكان يفعل ذلك احتسابا لوجه الله تعـــالى كل يوم جمعة.

وكان رضي الله عنه يعظم أرباب الحرف النافعة في الدنيا كالسقاء والزبـــال والطباخ والفخراني ومقدم الوالى ومقدم أمير الحج والمعداوي والطوافيـــن علـــى رؤسهم بالبضائع وهي أغلب الحرف التي كانت منتشرة في ذلك العصر ونفهم من ذلك أنه كان يشجع الاحتراف ويحض عليه - ويكره البطالة والكسب والعكوف في

الزوايا والمساجد لانتظار عطايا الناس وصدقاتهم وكان رضي الله عنه أيضا يكرم العلماء لأنهم حملة الشريعة ويعظم أركان الدولة لأنهم القــائمون بحفـظ الأمــن واستتبابه وكان من عاداته إذا علم أن أحدا من أرباب الدولة أو غيرها أنه قــاصد للسلام عليه - يذهب إليه قبل أن يأتي.

وكان له معرفة بالطب وأنواع الأدوية وطرق معالجــة بعـض الأمـراض المستعصية كالاستسقاء والجذام والفالج وغيرها من الأمراض المزمنة فكل شــيء أشار باستعماله يكون فيه الشفاء بمشيئة الله تعالى.

رأيه في العلم والعلماء

كان رضي الله عنه يقول لا يسمى عالما عندنا إلا من كان علمه غير مستفاد من نقل أو صدر بأن يكون " خضري المقام " وأما غير هذا فإنما هو حاك لعلــم غيره فقط. فله أجر من حمل العلم حتى أداه - لا أجر العالم والله لا يضيــع أجــر المحسنين "١".

ثم نراه يضع قاعدة على الفرد أن يستعملها ويطبقها على نفسه ليتبين له عمــا إذا كان ما يحمله من العلم هو علمه حقيقة أم أنه علم مكتسب لغيره وليس له منــه إلا أجر الحمل والتبليغ.

يقول رضي الله عنه من أراد أن يعرف مرتبته في العلم يقينا لاشك فليرد كـل قول حفظه إلى قائله وينظر بعد ذلك فما وجده معه فهو علمه وأظــن أن لا يبقــى معه إلا شيء يسير لا يسمى به عالمـا"٢". وكان يقول لا يصير الرجــل عندنا

١- لطائف المنن صـ ٣٨ جـ ١ والطبقات الكبرى صـ ١٣٦ جـ ٢

٢- المصدر السابق صـ ٣٨ جـ ١

معدودا، من أهل الطريق إلا أن كان عالما بالشريعة المطـهرة مجملـها ومبينـها ناسخها ومنسوخها خاصها وعامها ومن جهل حكما واحدا منها سقط عـن درجـة الرجال"١".

وكان رحمه الله ينظر إلى هؤلاء الرجال في عصره ممن جلسـوا لارشـاد الناس، على إنهم يرشدون الناس إلى بعض أمورهم وليسوا مسـلكين حقيقـة لأن المسلك لو أنفرد في جميع الوجود لكفى الناس كلهم من العلم في سائر ما يطلبونه.

وكان رضي الله عنه يقول في معنى قول الإمام أحمد بن حنبـل رضـي الله عنه حين رأى رب العزة جل جلاله في منامه، فقال: يا رب بـم يتقـرب إليـك المتقربون قال يا أحمد: بتلاوة كلامي.

قال يا رب: بفهم أم بغير فهم ..؟

قال يا أحمد: بفهم وبغير فهم.

يقول سيدي علي الخواص: المراد بفهم ما يتعلق بعلماء الشريعة. وبغير فـهم مـا يتعلق بعلماء الحقيقة.

فإن العلماء مالهم آله لفهم كلام الله تعالى إلا بالفكر والنظر وأمـا العـارفون فطريقتهم إلى فهمه الكشف والتعريف الإلهي وذلك لا يحتاج إلى تفهم فقيل له فمـا تقول فيمن يقرؤه من العوام من غير فهم ..؟

فقال: قد صح أن له بكل حرف عشر حسنات إن فهم قوله وبغير فهم مسألتان والله أعلم.

وكان رضي الله عنه يقول إذا حفت العناية الإلهية عبدا صار كـل ذرة مـن عمره تقاوم ألف سنة من عمر غيره وإذا تخلفت العناية عن عبد صار كـل ألـف ذره من عمره لا تساوي ذرة من عمر غيره.

١- المصدر السابق صـ ١٣٦ جـ

التقى الإمام الشعراني به... فأحبه ولازمه طيلة عشر سنوات لم يفارقه وهـــو الذي رسم له الطريق إلى التصوف وبين له مزالقها ومقاماتها وفتح لـــه دروبـــها ومنافذها. يقول عنه الإمام الشعراني: إنه رجل كان الغالب عليه الخفاء فلا يكـــاد يعرفه بالولاية إلا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك والكامل إذا بلـــغ مقام الكمال في العرف صار غيبا في الأكوان ولذلك كانت طريقته غريبـــة لعلـــو مراقبها وقربها من الرسول صلى الله عليه وسلم"١".

يقول عبد الباقي سرور " لقد صنع الخواص عبد الوهاب الصوفـــي - وعبـــد الوهاب خلد بتصوفه أي الجانب الذي تولاه الخواص. وحسب الخواص هذا عنـــد من لا يعرفه. ولقد عاش الشعراني طوال حياته الصوفيـــة وعـــاء مـــن أوعيـــة الخواص فالخواص إمامه وهاديه وأستاذه وملقنه ومربيه والخواص هـــو معـــراج الشعراني وسلمه الذي صعد عليه إلى أبواب الفتح وسموات المنح ومناطق الإلـــهام والنور. وليس في هذا ما ينقص الشعراني بل في هذا مفخرتـــه - لأن بـــه كـــان خلوده"٢".

آثـــــاره

لقد كان الشعراني وعاء من أوعية الخواص هكـــذا يقـــول صـــاحب كتـــاب التصوف الإسلامي .. وهذا الكلام كله حق وصدق .. لقد حفظ الإمام الشـــعراني أكثر ما تكلم به أستاذه وكما قلنا لازمه عشرة أعوام وكان ثمرة ذلـــك أن أخـــرج الإمام الشعراني ثلاثة كتب تحمل أسم أستـــاذه الخواص وليس له فيها إلا التبويب

١- لطائف المنن والاخلاق جـ ١ صـ ٢٧

٢- التصوف الإسلامي والشعراني صـ ٣٧

والحفظ وهم:

١- دور الغواص على فتاوي سيدي على الخواص ط

٢- كتاب الجواهر والدرر الكبرى ط

٣- كتاب الجواهر والدرر الصغرى

رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته بقدر ما قدم للإسلام والمسلمين.

الشيخ نور الدين المرصفي

الشيخ علي بن خليل المرصفي ثم المدني الشافعي " نور الدين أبو الحسن " كان من الأئمة الراسخين في العلم والعمل. كان رضي الله عنه في بداية أمره أميا وأجتمع بابن سيدي محمد رضي الله عنه وهو ابن ثمان سنين ولم يأخذ عنه شيئا فلما كبر اجتمع بابن أخته سيدي محمد رضي الله عنه وأخذ عنه الطريق واجتمعت عليه الفقراء في مصر وصار هو المشار إليه فيها لانقراض جميع أقرانه. وكان رضي الله عنه من شأنه إذا كان يتكلم في دقائق الطريق وحضر أحد من القضاة إلى مجلسه ينقل الكلام إلى مسائل الفقه إلى أن يقوم من كان حاضرا، يقول ذكر الكلام بين غير أهله عورة.

التقى به الإمام الشعراني رضي الله عنه فقرأ عليه رسالة القشيري رضي الله عنه بعد أن قرأها الشعراني على الشيخ زكريا الأنصاري وتلقن عليه الذكر ثلاث مرات متفرقات.

قيل له مرة لم لم تجعل لك درسا في الطريق بجامع الأزهر ..؟ فقال ليس ذلك من أخلاق القوم. إنما كان الجنيد ومن بعده يدرسون علم القوم في قعر بيوتهم خوفا أن يسمع أحد من القوم كلاما لا يفهمه فيقع فيهم فيهلك وذلك لدقة مداركهم "١".

وكان رضي الله عنه يقول: " إذا رأيتم المريد يقرأ على قبور الموتى. ويأخذ من النساء على ذلك معلوما فانفضوا ايديكم منه. ومن ترخص وعمل برخص الشريعة في ذلك من غير حاجة فهو من أبناء الدنيا. وأبناء الدنيا لا يفلحون في طريق الآخرة "٢".

١- الكواكب السائرة صـ ٢٢٩

٢- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية صـ ٨٣

وكان يحث المريد على أن يذكر ربه بشدة وعزم وإخلاص حتى تطوي لـــه مقامات الطريق، ويقول في ذلك: إذا ذكر المريد ربه بشدة وعزم - طويـــت لـــه مقامات الطريق بسرعة من غير بطء - فربما قطع في ساعة ما لا يقطعه غـــيره في شهر وأكثر وكان يقول السالك من طريق الذكر كالطائر المجد إلى حضـــرات القرب والسالك من غير طريق الذكر كالزمن "١" الذي يزحـــف تـــارة ويســكن أخرى. مع بعد المقصد فربما قطع مثل هذا عمره كله ولم يصل إلى مقصوده"٢".

وله مؤلفات ومصنفات كثيرة منها:

١- المقنع والمورد العذب لمن يشرب ويكرع.

٢- منهج السالك إلى أشرف الممالبك.

٣- كشف غوامض المنقول في مشكل الآيات والآثار وأخبار الرسول.

٤- مباني الطريق في مبادئ التحقيق"٣".

توفي رحمه الله نيف وثلاثين وتسعمائة ودفن بزاويته بقنطرة الأمـــير حســن بمصر وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه.

١- الزمن: الشيخ الكبير الضعيف المقعد.

٢- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية صـــ ٨٨

٣- معجم المؤلفين جـــ ٧ صـــ ٨٨

الشيخ محمد الشناوي

هو محمد الشيخ الصالح العالم المربي المسلك العارف بالله تعالى شيخ الفقـراء بالشرقية أخذ الطريق عن الشيخ محمد بن أبي الخمائل السروي وكان مـن أهـل الأنصاف والأدب.. يقول عن نفسه: ما دخلت قط على فقير إلا وأرى نفسي دونه. وكان الشيخ أمين الدين النجار رضي الله عنه يقول: " يموت الأدب في الفقراء بعد موت محمد الشناوي".

كان أهل البلاد بالغربية مجمعين على اعتقاده وكـان يلقـن كلمـة التوحيـد لرجالهم ونساؤهم في أي بلد دخل إليه، وقال كلمته المشهورة .. أشعلنا فـي هـذه البلاد نار التوحيد فلا تنطفئ. إن شاء الله تعالى إلى يوم القيامة. كان رضـي الله عنه يقضي ليله ونهاره في عبادة الله تعالى هو وجماعته بحيث كان إذا ختم القرآن أفتتح الذكر فإذا فرغ الذكر أفتتح القرآن ودام على ذلك مدة حياته وكان من عاداته الاهتمام بأمر المسلمين صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم وكان يسعى في قضـاء حوائجهم والسير على راحتهم.

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه: كان سيدي محمد الشناوي هـو الـذي أبطل جعل الشعير واعمال السخرة في بلاد ابن يوسف لأنه كان يموت بسبب ذلـك خلق كثير ولأن ابن يوسف هذا كان رجلا عنيدا ظالما وملتزما بتلك البلاد وكـان عليه ان يقدم جعل الشعير للسلطان وما تحتاج إليه البلاد وكان يجمع من اجل ذلـك خلقا كثيرا ويأخذهم غصبا من جميع البلاد فيموتون من العطش والجوع وعندمـا علم محمد الشناوي بذلك تعرض له واغلظ له القول شفقة على الفقراء والمسـاكين ولكن ابن يوسف لم يستمع له واستمر سادرا في ظلمـه فأرسـل الشـيخ محمـد الشناوي إلى السلطان في تركيا وأمره بإبطال تلك السخرة فأذعن السلطان لأمـره وأمر بإبطال زراعة الشعير وإذا كان الشيخ محمد الشناوي يهتم بـأمر المسـلمين وشئون دنياهم وتفقد أحوالهم فهو أكثر اهتماما بأمر دينهم وحرصا على تنقيته من

البدع والخرافات فيروى أنه هو الذي نادى بإبطال البدع التي كانت تقام في مولـــد السيد البدوي رضي الله عنه من نهب أمتعة الناس وأكل أموالهم بغير حق حيـــث كان الفقراء يجتمعون من كل صوب في مولد السيد البدوي وكـــانوا يعتقــدون أن جميع ما يأخذونه من بلاد الغربية حلال ويقولون إن هذه البلاد بلاد سيدي أحمـــد ونحن من فقرائه ومن البدع التي كانت تقام في هذا المولد أنـــهم كـــانوا يطلعــون بالدف والمزمار فأبطل ذلك كله وجعل عوضه مجلس الذكر.

وقد عاش للإمام الشعراني أستاذا وعاش له الشعراني تلميذا أكثر من عشـــر سنين ولقن الإمام الشعراني الذكر وأذن له بتلقين الذكر لمريديه وكان ذلـــك عـــام اثنتين وثلاثين وتسعمائة وهي ليلة وفاته وكان يهتف بهذا البيت:

أهيم بليلي ما حييت فإن مت

أو كل بليلي من يهيم بها بعدي

ودفن بزاويته بمحلة روح وقبره بها ظاهر يزار رحمه الله رحمة واسعة.

آثار الإمام الشعراني ومؤلفاته

" الكتب المطبوعة "

إذا كان العالم الصوفي أبو طالب المكي"١". قد وضع كتابه القيم " قوت القلوب في معاملة المحبوب " كمنهاج للتصوف وطريق لإنارة القلوب.

وجاء بعده أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري"٢" فوضع رسالة في التصوف سماها " الرسالة القشيرية " وقال في مقدمتها" إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام " فهي إذن منشور عام لإصلاح المتصوفة في ذلك الحين.

وبعد القشيري جاء إمامنا الغزالي"٣" فوضع كتابه الخالد " أحياء علوم الدين " وكانت هذه الكتب موضع اهتمام رجال التصوف على السواء. حتى قال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى " كتاب الأحياء يورثك العلم وكتاب القوت يورثك النور " إذا كان ذلك كذلك. فإن الإمام الشعراني قد وضع كتابه القيم.

١- لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الأطلاق.

وكتاب المنن يعتبر بحق فيصلا بين التصوف الصادق الذي يرتكز على الخلق المحمدي. وبين أدعياء التصوف الهابطين بأخلاقهم وأعمالهم إلى ما ينكره الإسلام ويبرأ منه الإيمان ولا يرضى عنه الخلق الكريم.

ويبين الإمام الشعراني الدوافع التي حدت به إلى تأليف هذا الكتاب فيقول:
" كان الباعث لي على تأليفها ورقمها في هذه الطروس أمور: أحدهما ليقتدي بي أخواني فيها فيتخلقوا بها ويشكروا الله تعالى على ذلك. وقد مكثت متخلقا بها عدة سنين " وقد شيدت منن هذا الكتاب وأخلاقه بجملة من أخلاق سيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ إبراهيم المتبولي وجملة من أخلاق سيدي علي الخواص.

١- توفي عام ٣٨٦ هـ

٢- توفي عام ٤٦٥ هـ

٣- توفي عام ٥٠٥ هـ

وجملة من أخلاق أخي الشيخ الصالح أفضل الدين الأحمدي رضي الله عنهم.

وإنما خصصت تشييد الكتاب بأخلاق هؤلاء الأشياخ الثلاثة دون غيرهم لما تواتر عن أصحابهم أنهم كانوا يقولون إن مشايخنا أخذوا طريقهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"١" أن المتصفح لكتاب " المنن " يرى أنه دعوة إلى الأخلاق المحمدية ونداء قوي لجمع الشاردين إلى حظيرة الدين. ونفير مجلجل في آذان الحيارى ليعودوا إلى رحاب الشريعة. إنه النموذج والقدوة لأصحاب الهمم العالية. والحافز والمشجع لمن يتعللون " بعدم القدرة " على التخلق بهذه الأخلاق يقول صاحب كتاب " التصوف الإسلامي والإمام الشعراني " والمنن من الناحية الموضوعية أعظم كتاب أخلاقي في تاريخ العربية. بل لعله أعظم كتاب للمثاليات الإيمانية الصوفية في تاريخ التعبد الإنساني.

فلقد رسم الشعراني في كتابه الفذ الخطوط العليا العريضة للآداب الإسلامية من وجدانية ونفسية وعملية. كما رسم الخطوط العريضة الواضحة لما يقابلها من سيئات منحدرة هابطة إلى أسفل. وما يحف بها من شهوات وما يلوذ بها من أحقاد النفس ودسائس القلب. وما يعترك في الطبع الإنساني من غل وحسد وشهوات"٢".

وهذا الكتاب مقسم إلى مقدمة وستة عشر بابا وخاتمة ضمن كل باب جملة صالحة من الأخلاق الحسنة والنعم الجليلة. أما المقدمة: فذكر فيها جملة صالحة لمن يريد أن يسلك طريق القوم واعتبرها كالدهليز الذي يدخل منه المريد إلى صحة اعتقاد العارفين وقلة الاعتراض عليهم.

وترجم في هذه المقدمة لأستاذه العارف بالله " سيدي علي الخواص " باعتبار أن ما في هذا الكتاب من أخلاق ورثها عنه عن طريق التربية والمتابعة.

١- لطائف المنن والأخلاق صـ ٤

٢- التصوف الإسلامي والإمام الشعراني صـ ١١٥

وألح على هؤلاء الراغبين في مطالعة هذا الكتاب أن يبـــدأوا بالمقدمـــة وإلا فبعيد عليهم أن ينتفعوا بشيء من أخلاق هذا الكتاب " وهو جزءان:

الجزء الأول في ٢٣٥ صفحة.

الجزء الثاني في ٢٣٣ صفحة .. وطبع أكثر من مرة.

٢- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية.

وضع الإمام الشعراني هذا الكتاب ليكون وسيلة لكشـــف هـــؤلاء الأدعيـــاء المتصدرين إلا بعد تبحره في علوم الشريعة وفقهه لأصولـــها. وتخلقـــه بـــأخلاق صاحبها " محمد صلى الله عليه وسلم ". وإلا فهو مدع مكابر مضلل يحب الدنيـــا ويعمل لها. ويتخذ الدين تجارة لحيازتها.

يقول في مقدمة هذا الكتاب " هذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثالـــه. ولا أظن أحدا نسج على منواله. ضمنته جميع العهود التي بلغتني عن رســـول الله صلى الله عليه وسلم من فعل المأمورات وترك المنهيات.

وكان الباعث لي على تأليفه ما رايته من كثرة تفتيش الأخوان على ما نقـــص من دنياهم. ولم أر أحدا منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلا.

فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم فوضعت لهم هذا الكتاب المبيـــن لكل إنسان على ما نقص من أمور دينه فمن أراد من الأخوان أن يعرف ما ذهـــب من دينه فلينظر في أي عهد ذكرته له في هذا الكتاب ويتأمل نفسه يعرف يقينا مـــا أخل به من أحكام دينه فيأخذ في التدارك أو الندم والاستغفار"١" فالعهود المحمديـــة يعتبر فيصلا بين أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو القدوة والمثل لكـــل مسلم. وبين أخلاق هؤلاء الشيوخ المتصدرين لقيادة مواكب التصوف الزائف حتى يظهر الحق. وينبلج الصبح ويكف هؤلاء الأدعياء عما هم فيه.

والكتاب مقسم إلى قسمين قسم المأمورات وقسم المنهيات وهو مطبوع وتبلـــغ صفحاته الألف.

١- الأنوار القدسية في العهود المحمدية المقدمة صـــ ٥

٣- الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية.
والكتاب مقسم إلى ثلاث أبواب وخاتمة
الباب الأول في آداب العبودية على الإطلاق
الباب الثاني في آداب طلب العلم النافع
الباب الثالث في آداب الفقراء والمساكين
والخاتمة في بيان جملة من المقامات الساقطة عند العبيد الخلص وهي عمدة الرسالة.

وسبب وضع هذا الكتاب فيما يرويه الشعراني عن نفسه يقول " تحرك عندي خاطر قوى يطلب مقامات الأولياء رضي الله عنهم وازدريت جميع ما أنا فيه وتكدر لذلك عيشي بما في ذلك عدم الرضا بما قسمه الله تعالى. حتى خفت سوء الخاتمة والمقت والغضب. فخرجت على وجهي فبينما أنا بالفسطاط مقابل الروضة بمصر أخذتني حالة بين النائم واليقظان فسمعت هاتفا أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول: على لسان الحق سبحانه وتعالى:

" عبدي لو أطلعتك على جميع الكائنات وعدد الرمال واسم كل ذرة منه والنباتات واسمائها وأعمارها والحيونات وأعمارها وأنسابها إلى أصولها من الوحش والطيور والحشرات وسائر الدواب وكشفت لك عن ملكوت السموات والأرض والجنة والنار وما فيهن ظاهرا وباطنا وأنزلت المطر بدعائك وأحييت الميت وأجريت على يدك جميع ما أكرمت به عبادي المؤمنين لست من عبوديتي في شيء"١" وهي أول ما سطره بعد الفتح وأقرها أستاذه الخواص وهي مطبوعة على هامش الطبقات الكبرى.

٢- لواقح الأنوار في طبقات الأخيار " الطبقات الكبرى وهي في جزأين:
الجزء الأول في ١٧٧ صفحة
الجزء الثاني في ١٧٢ صفحة

١- الأنوار القدسية في آداب العبودية صـ٣ جـ١ على هامش الطبقات الكبرى.

٥- الطبقات الصغرى. وهي تكملة للطبقات الكبرى وترجم فيها لشيوخه وعلماء القرن العاشر الهجري.

٦- " البحر المورود في المواثيق والعهود" وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة عند صدوره ودس فيه الحسدة أمورا تخالف ظاهر الشريعة. وكان هذا مدعاة إلى أن يضع في كتبه دائما ما يؤكد به أنه سني محمدي لا يخرج عن الشريعة قيد أنملة.

٧- الأنوار القدسية في قواعد الصوفية.

وهو مقسم إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

أ- المقدمة في بيان عقيدة القوم.

ب- الباب الأول في ذكر نبذة من آداب المريد مع نفسه.

جـ- الباب الثاني في ذكر نبذة من آداب المريد مع إخوانه وأصحاب شيخه.

د- الباب الثالث في ذكر نبذة من آداب المريد مع الشيخ.

هـ- الخاتمة في بيان آداب لا تختص بالشيخ والمريد بل هي عامة مع جميع الخلق.

وهي في جزءين الجزء الأول طبع بتحقيق عبد الباقي سرور والجزء الثاني لم يحقق بعد.

٨- الرسالة.

وهي رسالة في بيان جماعة سمو أنفسهم بالصوفية ادعوا الولاية كذبا وضلالا وقصدوا بذلك سلب أموال ضعفاء العقول من الصناع وأرباب الفلاحة.

وهي مطبوعة طبع مصر سنة ١٢٩٧ هـ

٩- كشف الغمة عن جميع الأمة..

وهو في جزءين خاص بالعبادات وجملة من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٠- الميزان الشعرانية.

وهو في جزءين وفق فيه بين أقوال المذاهب الأربعة. كتب عنه " جلد تسهير " في مجلة الدراسات الإسلامية جـ ٣٨ صـ ٦٧٨ وقد ترجم إلى الفرنسية. وقد قمنا بحمد الله بتحقيقه وطبعه طباعة جيدة في مكتبة عالم الكتب بيروت لبنان.

١١- كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان.

وهو عبارة عن أسئلة في التوحيد والعقائد تقدم بها إليه مسلمو الجان وأجابهم عليها. كتب عنه fiugel في مجلة الدراسات الشرقية جـ٢٠ صـ٣ karng في مجلة Mser جـ ١١ صـ ٢٦٥ ومكدونالد.

١٢- المنح السنية على الوصية المدبولية - طبع مكة عام ١٣١٠ هـ

١٣- منح المنة في التلبس بالسنة - طبع حجر القاهرة ١٢٩٧ هـ

١٤- الجواهر والدرر الكبرى.

١٥- الجواهر والدرر الصغرى.

١٦- درر الغواص على فتاوي علي الخواص.

١٧- اليواقيت والجواهر.

وهو في جزءين شرح لما أغلق من الفتوحات المكية وبيان ما فيها من العلوم الربانية وتصحيح عقيدة الشيخ وهي للإمام الأكبر محي الدين بن العربي.

١٨- الكبريت الأحمر في بيان علم الشيخ الأكبر وهو مطبوع على هامش اليواقيت والجواهر كتب عنهما Fiugel في مجلة الدراسات الإسلامية جـ ٢١ صـ ٢٧١

١٩- مدارج السالكين إلى رسم طريق العارفين.

٢٠- تنبيه المغتربين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا سلفهم الطاهر.

يقول عنه " وضعت هذا الكتاب كالميزان الذي يتبين به الرابح من الخاسر والمحق من المبطل والصالح من الطالح فأعرض يا أخي ما فيه من الأخلاق على كل من طلبت أن تصحبه من هؤلاء المشايخ الظاهرين في هذا الزمان فإن وجدته متخلقا به فاصحبه واقتد به وقبل رجله وأن وجدته غير متخلق به فأضرب عنه صفحا من غير ازدراء له وكل أمره إلى الله تعالى.

٢١- زبدة العلوم المشهورة " المسمى بالدرر المنثورة " - طبع طرسبورنبج.

" الكتب والآثار المخطوطة "

٢٢- مختصر إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى إرشاد صحبة الأمراء وتسمي بالمنن الصغرى.

توجد نسختان في مكتبة طلعت حرب تحت رقم ١٠٨٢ ، ورقم ٩٥٠

٢٣- القواعد للكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية.

أ- نسخة في مكتبة طلعت حرب تحت رقم ٨٩٣

ب- نسختان أخريان في المكتبة العامة تحت رقم ٥٢١،١٣٤ فرغ من تأليفها عام ٩٦١ هـ.

٢٤- وصايا الإمام الشعراني.

توجد نسخة في مكتبة طلعت حرب تحت رقم ١٠١٨

٢٥- سلوك المحققين. ذكر في كتاب الوصايا صـ ١٣

٢٦- منتخب الكبريت الأحمر في علم الشيخ الأكبر نسخة تحمل رقم ١٣٤٠ طلعت حرب ضمن مجموعة.

٢٧- تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس نسخة تحمل رقم ١٤٣٥ طلعت حرب.

٢٨- حقوق أخوة الإسلام نسخة تحمل رقم ٩٣١ طلعت حرب.

٢٩- الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع نسخة تحت رقم ٩٢١ ضمن مجموعة مكتبة دار الكتب.

٣٠- أسرار الشريعة أو أسرار الدين. ذكر في كتاب الأجوبة المرضية صـ ٧٥

٣١- الأنوار

يوجد أربع نسخ في دار الكتب تحمل الأرقام ٢٠٤،١٢٢،١٢١،٢٨ م

٣٢- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية.

توجد ثلاث نسخ بدار الكتب تحمل رقم ١٤،١٩٣،٢٥ م. توجد نسخة بمكتبة الأزهر تحمل رقم ٨٠١ حليم ٣٣٤٣٥ .

٣٣- طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى وبالعباد.

ذكر في كتاب الأجوبة المرضية وهو في أربع مجلدات كما ذكر الإمام الشعراني.

٣٤- هادى الحائرين إلى رسول أخلاق العارفين.

ذكر في الأجوبة المرضية صـ ١٥٩

٣٥- إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين.

توجد نسخة بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٣٢، توجد نسختان بمكتبة الأزهر الأولى تحمل رقم ٧٩٦ حليم والثانية تحمل رقم ٨٧١ مجاميع الجوهري وهي في مجلدين.

٣٦- بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القيم من الآداب والأخلاق.

توجد نسخة بدار الكتب تحت رقم ٣٩، توجد نسخة بمكتبة الأزهر تحمل رقم ٨٤٥ حليم. وهي في مجلدين.

٣٧- الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم.

توجد أربع نسخ بدار الكتب تحت أرقام ٧٨٤،(١،٢٠،٩٢) مجاميع.

٣٨- حزب الشيخ عبد الوهاب الشعراني ضمن مجموعة تحمل رقم ١٦٣٤ بدار الكتب.

٣٩- ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى.

تحمل رقم ٤١١ مجاميع دار الكتب.

٤٠- رياض الصالحين. تحمل رقم ٩٧٠ دار الكتب.

٤١- سير المسير والتزود ليوم المصير. تحمل رقم ٢٠ مجاميع دار الكتب.

٤٢- سواطع الأنوار القدسية فيما صدرت به الفتوحات الملكية. توجد نسخة تحمل رقم ١٤٦ م دار الكتب.

٤٣- الفتح المبين في ذكر شيء من أسرار الدين. توجد نسخة تحمل رقم ٧٩٤ دار الكتب.

٤٤- القول المبين في الرد عن الشيخ محي الدين. توجد نسخة تحمـــل رقـم ٩ مجاميع.

وقد ذكر صاحب شذرات الذهب في أخبار من ذهب الكتب الآتية.

٤٥- مختصر تذكرة القرطبي وهو مطبوع

٤٦- مختصر سنن البيهقي الكبرى.

٤٧- البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير.

٤٨- معجم الأكباد في مواد الأجتهاد، ذكر أيضا في مقدمة الميزان.

٤٩- لوائح الخزلان على من لم يعمل بالقرآن.

٥٠- حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام.

٥١- البرق الخاطف لبصر من عمل بالهواتف. ذكر في كتاب الجوهر المصون.

٥٢- فوائد القلائد في علم العقائد.

٥٣- الاقتباس في القياس.

٥٤- منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق.

وقد ذكر في كتاب بهجة النفوس والأحداق.

أما صاحب كتاب المناقب الكبرى فزيادة على ما ذكر يذكر الكتب الآتية:

٥٥- مختصر لرائد القلائد في معرفة العقائد.

٥٦- كتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول.

٥٧- كتاب لباب الأعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب.

٥٨- كتاب مختصر السيدي النبوي.

٥٩- كتاب وصايا العارفين لعوام التجار والفقراء والمؤمنين.

٦٠- كتاب التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص.

٦١- كتاب مختصر المدونة للإمام مالك.

٦٢- كتاب المذاخر والمآثر في بيان علماء القرن العاشر.

٦٣- كتاب الأجوبة عن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين.

٦٤- القول المبين في دليل لبس الخرقة والتلقين.

٦٥- كتاب نسخ مبايعة السيد والنصارى.

٦٦- كتاب الإشارة في شرح حديث الاستخارة.

٦٧- كتاب الميزان الدرية المبنية لعقائد الفرق العلية.

٦٨- كتاب القواعد السنية في توحيد أهل الخصوصية.

٦٩- كتاب الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية وهي أكبر مؤلفات الأخلاق.

٧٠- كتاب مختصر تذكرة السويدي في علم الطب.

٧١- كتاب الفلك المشحون في بيان أن التصوف هو ما عليه العلماء العاملون.

٧٢- كتاب في ربع العبادات على مذهب الصوفية.

٧٣- كتاب في تفسير الأحلام.

٧٤- كتاب في تفسير القرآن على وجهي الشريعة والحقيقة لم يسبق مثله"١".

ويذكر على مبارك في كتاب الخطط التوفيقية بأن الكتب التي رآها للشعراني تزيد على السبعين كتابا.

ويذكر " بروكلمان " له أكثر من ستين كتابا مخطوطا في دور العلم العالمية.

لقد عكف الإمام الشعراني على التأليف في شتى فروع المعرفة. وترك عددا لا يحصى من المؤلفات " كما ذكرنا " وازدانت المكتبة الإسلامية بما قدم لها من كتب في كل علم وفن في التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والنحو والطب والكيمياء والأخلاق وغيرها. وقد استغرق بعضها خمس مجلدات ووقع الكثير منها في مجلدين وكما رأينا لا يزال أكثر هذه المؤلفات مخطوطا وموزعا على دور الكتب في بلدان العالم. رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما كتب وقدم من خير للإسلام والمسلمين.

١- المناقب الكبرى صـ ٧١ محمد محي الدين المليجي.

البـــاب الثاني

الفصل الأول

تكلم الصوفية قديما وحديثا عن التصوف. وعرفوه بتعريفات مختلفة وقسموه إلى مدارس ومذاهب متباينة، تختلف في أورادها وأشكالها وتتفق في غاياتها وأهدافها.

وعلى كثرة التعاريف التي أدلى بها رجال التصوف وأرباب الأحوال في هذا الشأن. فإن أيا من هذه التعاريف منفردا لا يفي بالغرض ولا يعطينا الصورة المتكاملة عن حقيقة التصوف. ولكنها في مجموعها تدل عليه وتشير إلى حقيقته وتبين غاياته وأهدافه.

وإذا أردنا أن نستعرض بعض هذه التعاريف. عند هؤلاء الرجال ونقف على مدلولاتها فإن هذا يكون مدعاة لإطالة البحث وتشعب طرقه.

فالتصوف عند بعضهم إلهام وبصيرة.

وعند البعض الأخر " العلم الإلهي أو العلم الوهب ".

ويقول الإمام الطوسي: لبعض المشايخ في التصوف ثلاثة أجوبة: جواب بشرط العلم، وهو تصفية القلوب من الأكدار واستعمال الخلق مع الخليقة واتباع الرسول في الشريعة، وجواب بلسان الحقيقة، وهو عدم الأملاك والخروج من رق الصفات والاستغناء بخالق السموات، وجواب بلسان الحق، أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم، وصفاهم من صفاتهم، فسموا صوفية"١".

ويعرفه الإمام أبو بكر الكتاني رحمه الله بأنه:" صفاء ومشاهدة"٢" ويقول الإمام الشعراني رحمه الله. التصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس"٣".

١- كتاب اللمع للإمام الطوسي: تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ ٤٨

٢- المنقذ من الضلال للإمام الغزالي تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ ١١٣

لطائف المنن والأخلاق، ومقدمة الطبقات الكبرى للشعراني، والأجوبة المرضية مخطوط.

وعلم التصوف عنده. علم انقداح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بهدى الكتاب والسنة. فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها.

وطريق القوم " عند الشعراني " مشيدة بالكتاب والسنة ومبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء. وأنها لا تكون مذمومة إلا أن خالفت صريح القرآن ، و السنة أو الإجماع.

والطريق الصوفي في عرف الصوفية. هو وسيلة إلى الله تعالى والمريد هو سالك هذا الطريق. أو هو المسافر إلى ربه. والذي يسير فيه خطوة خطوة ومرحلة بعد أخرى ومقاما تلو مقام حتى يصل إلى غايته.

هذا الطريق ليس بالسهل اليسير أو القريب المنال لكل من أراده أو حدثته نفسه بالدخول فيه. ولكنه طريق مليء بالصعاب متشعب المسالك كثير المنحنيات تحف به الأهوال. ويتربص بسالكيه أعداء أشداء فهو في حاجة إلى إرادة وعبادة. وطبيعة خاصة ونفس طلعة ترغب وترجو. وتعمل وتجاهد، جهادا أكبر كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر "١". ومن هؤلاء الأعداء الشيطان والنفس والهوى وهم جميعا من عوامل الغواية والفتنة.

كيف الوصول إلى هذا الطريق ..؟ وما السفينة التي يمكن أن توصلنا إلى مرفئه ..؟ حتى نستطيع أن نلقي رحلنا على شاطئه.

أيمكن أن نمتطي صهوة العقل ونسير في بحوثه واستنتاجاته حتى نصل ..؟ أم نسلك طريق العلم في ملاحظاته واستقراءاته ..؟ أم أن التصوف في أبراج بعيدة وآفاق عالية، لا يصل إلى أبوابه العقل. ولا يستطيع أن يقترب منه العلم ..؟

١- البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف، ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر بلفظ " قدمتم خير مقدم تم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه ".. قال السيوطي في جامعه ضعيف.

فعلينا إذن بسلطان الروح في إشراقة وشفافياته وإلهامه. لعله يكون أكـــثر درايـــة ومعرفة بهذا الطريق، وإذا لم يكن سلطان الروح هو الطريق والوسيلة إلى بحـــر التصوف فهل هناك ثمة وسيلة أخرى غير هذه ..؟.

إن طريق التصوف ليست بالطريق المجهولة التي لم تطرق، ولكنها معـــارج كمل الرجال وسبيل الأولياء الأبطال.

والإمام الشيخ محي الدين بن العربي رضـــي الله عنـــه، يـــرى أن طريـــق الوصول، الإيمان والتقوى قال الله تعالى:" ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنـــا عليهم بركات من السماء والأرض"١".

أي أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات وأســـرار الجـــبروت وأنوار الملك والملكوت.

وقال تعالى:" ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتســـب"٢" والرزق " عند الإمام ابن العربي " نوعان روحاني وجسماني.
قال الله تعالى: " واتقوا الله ويعلمكم الله "٣".

أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائط. من العلـــوم الإلهيـــة"٤" الإيمـــان والتقوى هما طريق الوصول إلى علم القوم، والمعراج الذي يرتقيه كل من يريـــد أن يسلك هذا الطريق، ويؤيد ذلك قوله تعالى:" ألا ن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون "٥".

١- سورة الأعراف آية رقم ٩٦
٢- سورة الطلاق آية رقم ٢،٣
٣- سورة البقرة آية رقم ٣٨٢
٤- مقدمة الطبقات الكبرى للشعراني صـــ٥
٥- سورة يونس آية رقم ٦٣

فإذا ما تركنا إمام العارفين وحجة الواصلين " الإمام ابن العربي "رضي الله عنه . واتجهنا إلى رجل آخر من رجال التصوف ألا وهو الحكيم الترمذي لنستطلع رأيه في هذا الشأن . فإننا نراه يقول :

" إن طريق القوم لا تنال بالنظر الفكري ولا بضرورات العقول وإنما هي نور في القلب يحدث فيه بواسطة اتباع الكتاب والسنة فيدرك الأمور يقينا لاظنا ولا تخمينا ([1]) "

الطريق الصوفي آذن لا ينال بالفكر ولن يصل إليه العقل ولن يحصله صاحبه بقراءة الكتب وحفظ النقول ، وإنما هو عبادة وسلوك وجهاد وهجرة ، واتباع للكتاب والسنة . اتباع لهما نهجاً وسلوكاً فقها وعملا ، عندها تظهر الثمرة ، ألا وهي نور في القلب يهدي أعماله ويحكم تصرفاته . نور في القلب نتيجة اتباع الكتاب والسنة هذا النور هو الإيمان والتقوى .

إن العبد ما دام يلتزم أوامر السنة ويجتنب نواهيها امتلأ قلبه بالنور ، فأضاء ما حوله ، هذا النور هو مفتاح أكثر المعارف كما يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه.

نعم إذا امتلأ القلب بالنور أرتفع كل حجاب بين العبد وربه وخلع عليه الحق سبحانه من علمه ما شاء .

والإمام الشعراني رضي الله عنه يرسم لنا منهج الوصول ويبين لنا المسلك الذي يجب أن نلتزمه حتى نصل فيقول :

" هذا الطريق لا يوصل إليه إلا بأحد سبيلين ، إما بالجذب الإلهي وإما بالسلوك على يد شيخ صادق ، ومن لم يدخل من أحد هذين الطريقين فمحال أن يصل إلى شيء من هذا "([2]) .

المسلك الأول لدى الإمام الشعراني رضي الله عنه هو طريق الجذب الإلهي الذي قبل فيه " جذبه من جذبات الحق توازي عمل الثقلين " ([3]) .

---

[1]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية للشعراني صـ ٨٦ + مخطوط .

[2]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـ ٢٥ جـ١ .

[3]- عوارف المعارف تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف .

المسلك الثاني عنده عن طريق السلوك علي يد شيخ حتـــى يســتطيع أن يدخل المريد في سلسة القوم ، فبصير كأنه حلقة من حلق السلسلة الحديــد ، فــإذا تحرك في أمر تحرك معه سائر السلسلة فإن كل ولي بينه وبين رسولﷺ صلـــة كأنه واحد من حلق السلسلة ، بخلاف من لا شيخ له . فإن حكمـــه حكــم الحلقــة المنفصلة ، إذا تحرك في أمر يدهمه لا يتحرك معه أحد لعدم ارتباطه بأحد .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور عبد الحليم محمود : لابد في التصوف مـــن شرط جوهري هو " التأثير الروحي " أو بتعبير أدق البركـــة وهـــي لا تتـــأتي إلا بواسطة " شيخ " ومن هنا كانت " الطرق " ومن هنا كانت السلسة ، وهل السلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخاً فيؤثر بدوره في مريـــد أو مريدين " [٤] .

والإمام الشعراني يكاد يتفق في منهجه هذا وفي تحديد الطريق مع الإمـــام السهروردي رحمه الله حيث يقول :

" قوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف ، وقوم منهم خصوا بالهدايـــة بشرط مقدمه الإنابة " .

فالاجتباء المحض غير معلل بكسب . وهذا حال المحبوب المـــراد يبادئـــه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتهاده .

فأما الطريق الأخر طريق المريدين وهم الذين شرطوا لهم الإنابة فقـــال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [٥] .

يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر وظمأ الهواجر وهذا حال السالك المحب المريد ، وجمع الطريقين [٦] .

قال تعالى : (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب [٧]) .

وهناك مقامات وأحوال ومجاهدات يجتازها المريد وهو سالك في طريقـــه إلى الله تعالى في رحلته إلى ربه ، وفراره إلى مولاه .

٤- المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود صـــ .

٥- سورة العنكبوت آية ٦٩ .

٦- عوارف المعارف على هامش الأحياء صـــ١١٣ ، ١١٦ جـــ١ .

٧- سورة الشورى آية ١٣ .

فما هو الحال .. ؟ وما المقام وما حقيقتهما عند
الإمام الشعراني .. ؟ رضى الله عنه . ولماذا سمى الحال حالاً والمقـــام مقامـــاً ،
وهل هناك خلاف جوهري بينهما .. ؟

تمهيـــــــد

******

الراغب في طريق الله . والسالك المجد إليهما .. ترد علـــى قلبـه معـان وخواطر . وتتغاير عليه أمور وأوصاف .

اتفق رجال التصوف والسالكون طريق الله . على تسـمية البعـض منـها بالأحوال . والبعض الأخر بالمقامات .

هذه الأوصاف .. وتلك الأمور إذا ثبتت واستمرت ولازمت العبد فلم تفارقه وأصبحت ومنهجاً وصارت له مقاماً يقوم به سميت مقاماً .

يقول الإمام الغزالي ﷺ : ومثال ذلـك صفـرة ثابتـة لا تـزول باقيـة لا تفارق ([8]) .

إما إذا كانت عارضة سريعة الزوال تأتي ثم تمضي وتحل سميت حالاً .

ومثالها صفرة الوجل سريعة الفناء وصفرة المرض تمر بعد فترة وتنتقـل بعد حين .

ومقامات الطريق . يصل العبد إليها بالجهاد والمثابرة مجاهدة النفس عـن رغباتها . ومجاهدة الشيطان بالبعد عن وساوسة وجهاد العبد ليتلزم بحدود الشـرع . فيأتي الأوامر وينتهي عن النواهي . مجاهدة النفس حتى تفطم عـن المألوفـات وتحمل على خلاف هواها في جميع الأوقات .

الراغب في طريق الله يحتمل الأذى والمكـارة . ويتجـرد مـن الـهوى والرغبة. ويعطل إرادته لا رادة ربه . ويلغي اختياره لاختيار مـولاه . لا يرجـو ولا يطلب . فر من دنياه إلى أخرته . ومن أخرته إلى ربه (وعجلت إليك ربـي لترضى ([9])).

إذا كان ذلك كذلك فما معنى المقام .. ؟ وما حقيقـة الحـال عنـد رجـال التصوف .. ؟

---

[8]- إحياء علوم الدين جـ٤ صـ١٠٤ .

[9]- سورة طه آية ٨٤ .

المقـــــــــام

****

يقول : أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي : معنى المقام : مقــــام العبد بين يدي الله تعالى فيما يقوم فيه من العبـــادات والمجــاهدات والرياضـــات والانقطاع إلى الله عز وجل ([10]) .

قال تعالى : (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) ([11]). وقال : (وما منا إلا له مقام معلوم ([12]) .

فالمقام عند " الطوسي " ما يتحقق العبد به من التوبـــة والزهــد والــورع والخوف والرجاء .. إلخ .

ويقول الإمام القشيري رضي الله عنه:

" المقام ما يتحقق به العبد من منازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصـــرف ويتحقق به بضرب تطلب . ومقاماة تكلف .

ويقول أيضاً : الأحوال مواهب والمقامات مكاسب . الأحوال تأتي من عين الجــود والمقامات تحصل ببذل المجهود " ([13]) .

من هنا نرى أن " الإمام القشيري " يتفق مع أستاذه " الطوســـي " فــي أن العبد لا يصل إلى المقام إلا بـــالعمل والمثـــابرة .. ولا يتحقــق بـــه إلا بالجـــهاد والمداومة .

المقام يصل العبد إليه بعد تصفيه النفس عن كل ما يشغله عن ربه . وتنقيــة القلب أن يحصل فيه غير مولاه .

إذا داوم العبد على ذلك من التصفية والتنقية من التطـــهر والتبتــل تحقــق بالمقامات وسار في طريق الله .

المقام إذن من كسب العبد بتوفيق مولاه وحسن تأييده .

---

[10]- كتاب اللمع للإمام الطوسي تحقيق د. عبد الحليم محمود صـــ٦٥ .

[11]- سورة إبراهيم آية ١٤ .

[12]- سورة الصفات آية ١٦٤ .

[13]- الرسالة القشيرية ـــ تحقيق د. عبد الحليم محمود صـــ١٩١ جـــ١ .

يقول الإمام القشيري والسهروردي : تداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب ([١٤]) .

و" الإمام الشعراني " يتفق مع المدارس الصوفية الصادقة التي سبقته في حقيقة المقام " بأنه الشيء الذي يتحقق به العبد من التوبة والزهد والورع والخوف والرجاء ([١٥]) .

ويرى أن الحال مقدمه للمقام . والشيء عنده قد يكون حالاً فإذا دام واستمر صار مقاماً .

ويتحقق العبد بالمقام عند " إمامنا الشعراني " : إذا دوام على الجهاد . وصفي نفسه وقلبه من شواغل الحياة . ودوام على ذكر ربه . واتبع ما أمر به . وتوكل عليه . وعكف ببابه . ورضى بقضائه . وصبر على بلوائه . والتزم بكتاب ربه . عملاً ومنهجاً وسلوكاً . واتبع الرسولﷺ . والتزم بسنته قولاً وفعلاً وتقريراً . عندها تتوالي عليه الإمدادات وتظهر عليه التجليات ويتحقق بالمقامات .

الحال

****

يقول : " أبو نصر عبد الله بن علي السراج " الحال ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار .

وقد حكى عن الجنيد رحمه الله : أنه قال الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم ([١٦]) .

أما " الإمام الشعراني " فيرى : أن الحال معنى يرد على القلب من غير تعمد منه ولا اجتلاب ولا اكتساب ([١٧]) .

[١٤]- عوارف المعارف للإمام السهروردي على هامش الإحياء صـ٨٣ جـ٤ .

[١٥]- لطائف المنن للإمام الشعراني . والطبقات الكبرى للشعراني .

[١٦]- كتاب اللمع للإمام الطوسي . د. عبد الحليم محمود صـ ٦٦ .

[١٧]- الرسالة القشيرية تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ١٩٢ جـ١ .

ويقول " العارف بالله أحمد بن عجيبة الحسنى " إعمال الجسم بالمجـــاهدة . والأحوال حركة القلب بالمكابدة والمقامات سكون القلب بالطمأنينة ([18]) .

ويفسر " الإمام السهروردي " حقيقة الحال بقوله : الحال سمى حالاً لتحولــه والمقام مقاماً لثبوته واستقراره ([19]) .

يقول الإمام الشعراني : الأحوال مواهب لا تكتسب ولا يتحقق بـــهما إلا ذو قلب سماوي ([20]) .

فهي مواهب من الله تتحول وتذهب وتجيء .

ولذا قال بعض المشايخ الأحوال كإسمها . يعني أنها كما تحل بالقلب تـزول في الوقت وانشدوا :

لو لم تحل ما سميت حالاً   وكل ما حال فقد زالا([21])

وقد روى النبيﷺ أنه قال : " خير الذكر الخفى " ([22]) .

وقد قيل إن الحال صار مقاماً ([23]) .

وقد تحقق " الإمام الشعراني " بالكثير من الأحوال والمقامات مـــن التوبـــة والزهد والتجريد والخوف والرجاء .. إلخ .

تحقق بكل ذلك وأكثر منه . ولكنه تطلع إلى مقامات أعلى ودرجات أكـــبر فخاطبته العناية وألهمته الرعاية . فزهد في كل ذلك . وفر إلى ربه عبداً خالصـاً . ولا يرجو ولا يطلب ولا يريد ولا يختار .

وبناء على ما سبق يقتضينا الأمر أن نتناول الطالبين وأحـــوال الراغبيـــن ورأى إمامنا " الشعراني " في المقامات والأحوال .

---

[18]- أيقاظ الهمم في شرح الحكم صـــ١٠٠ .

[19]- عوارف المعارف للإمام السهروردي على هامش الأحياء صـــ٨٣ جـــ٤ .

[20]- لطائف المنن صـــ١٢٠ والطبقات الكبرى للشعراني .

[21]- الرسالة القشيرية صـــ١٩٣ .

[22]- الإمام أحمد وابن حيان وأبو عوانه في صحيحهما . والبيهقي في الشعب عن سعد ابن أبي وقاص وصححه السيوطي قال الحافظ الهيثمي ابن عبد الرحمن وثقة ابن حبان وضعفه معين وبقية رجالة رجال الصحيح .

[23]- لطائف المنن والطبقات الكبرى .

مقام التوبـــة

****

قال الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ([٢٤])

وقال النبي ﷺ : " الندم توبة "

قال " أبو يعقوب بن حمدان الموسى رحمه الله " : أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله " التوبة " وسئل " الموسي " عن " التوبة " فقال : التوبة الرجوع من كـــل شيء زمه العلم إلى ما مدحه العلم ([٢٥]) وسئل " سهل بن عبد الله " عن " التوبـــة " فقال : ألا تنسى ذنبك وسئل " الجنيد" رحمه الله عن " التوبة " فقال : هي نســـيان ذنبك يقول " الإمام الطوســـي " فقـــال : أجـــاب " الموســـي " رحمـــه الله عـــن " التوبة " : أجاب عن توبة المريدين والمتعرضين والطالبين والقـــاصدين . وهـــم الذين تارة لهم وتارة عليهم .

والذي قاله " سهل بن عبد الله " أيضاً فكذلك .

وأما ما أجاب به الجنيد عن " التوبة " . أن ينسى ذنبه . أجاب عـــن توبـــة المحققين لا يذكرون ذنبهم لما غلب على قلوبهم من عظمته تعالى ([٢٦]) .

وحقيقة " التوبة " في لغة العرب الرجوع : يقال تـــاب أي رجـــع فالتوبـــة الرجوع عن كل ما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه يقـــول " الإمـــام الغزالي " رحمه الله : " فإن التوبة عن الذنوب . بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب . مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين وأول أقدام المريدين ([٢٧]) .

ويتفق " الإمام السهروردي " رحمه الله مع " الغزالي " . في أن " التوبـــة " أصل كل مقام . وقوام كل حال .

---

[٢٤]- سورة النور آية ٣١ .

[٢٥]- عوارف المعارف على هامش الإحياء صـــ٢٢٩ جـــ٤ .

[٢٦]- كتاب اللمع لأبي نصر السراج الطوسي . صـــ٦٨ تحقيق د. عبد الحليم محمود وزميله ـــ والرسالة تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وزميله صـــ٢٥٩ جـــ١ .

[٢٧]- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي صـــ٢ جـــ٤ .

ومفتاح كل خير : وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء . فمن لا أرض له لا بناء له . ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام ([٢٨]) .

ويرى ... أن " التوبة " في مبدأ أمرها تفتقر إلى أحوال . ومن هذه الأحوال الزجر : ويعتبره مفتاح " التوبة " . ثم يأتي بعده حال الانتباه .

قال " أبو زيد " : علامة الانتباه خمس . إذا ذكر نفسه افتقر . وإذا ذكر ذنبه استغفر . وإذا ذكر الدنيا اعتبر . وإذا ذكر الآخرة استبشر . وإذا ذكر المولى اقشعر ([٢٩]) .

وحقيقة " التوبة " عند " الإمام الشعراني " رجوع العبد إلى الله تعالى بقلبه في أكثر حالاته . حتى لا يكون غافلاً عن ربه ونفسه . وهي الرافعة لحكم المعاصي المتجددة في كل يوم وليلة كما رفعت الشهادتان حكم الشرك الخفي ([٣٠])

إذا كانت التوبة عند رجال التصوف رضوان الله عليهم : العودة من كل شيء ذمة العلم ما مدحه العلم . وإذا كانت صفة للمؤمنين وشعاراً يدل عليهم ويرمز لصفاء قلوبهم لأنها تتضمن محاسبتهم لأنفسهم . المحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس . ورعاية الحقوق . وإيثار المهمات . وإذا كان من آثار التوبة ونتائجها . التطهر من الذنوب الظاهرة كالاعتداء والظلم والسلب . والتطهر من الذنوب الباطنة من الحقد والحسد وسوء الطبع . إلى آخر هذه العلل والأمراض .

فإن " التوبة " عن " الشعراني " شيء جديد . إنها العودة إلى الله تعالى . عودة العبد إلى ربه . بالإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق . وانتباه القلب عن رقدة الغفلة . قال بعض رجال التصوف . الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى التيقظ . وإذا عاد العبد إلى ربه . إذا اتجه إليه بكليته صفت روحه وطهر قلبه وخلصت نفسه وتفتحت بصيرته وبصره إلى نور ربه وحقيقة مولاه . وهذا أول مقام من مقامات الطالبين وضابط التوبة عند "

---

[٢٨]- عوارف المعرف للإمام السهروردي على هامش الإحياء صـ٢٠٤ جـ٤ .

[٢٩]- المصدر السابق صـ٢٠٧ جـ٤ .

[٣٠]- منح المنن في التلبس بالسنة للشعراني صـ٧ ، ٨ ولطائف المنن صـ٦٥ ت ٢ واليواقيت والجواهر صـ١١٨ جـ٢ .

الشعراني " الرجوع عما كان مذموماً في الشرائع إلى ما كان محموداً فيـها ([31]) . فهي " التوبة " عن الكبائر . ثم المكروهات . ثم من رؤية الحسنات ثم من رؤيـة أنه صار معدوداً من فقراء الزمان ([32]) . يقول ذو النون المصري . توبة العـوام من الذنوب . وتوبة الخواص من الغفلة ([33]) .

يقول " الإمام القشيري " : سمعت " محمد بن أحمد بن محمـد الصوفـي " يقوْل : سمعت " عبد الله بن محمد التيمي " يقول : شتان ما بين تائب يتـوب مـن الزلات . وتائب يتوب من الغفلات . وتائب يتوب من رؤية الحسنات ([34]) .

يقول " الإمام الشعراني " : المريد الصادق يكثر من الاستغفار في اليـوم ـ والليلة . وفي كل حركاته وسكناته سواء علم أنه أذنب أم لم يعلم .

قال الله تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسـهم ذكـروا الله . فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلى الله ولم يصروا على ما فعلـوا وهـم يعلمون) ([35]) .

وقال تعالى : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) ([36]) .
فأمره الله تعالى بالاستقامة . وأمره بالتوبة وجميع أتباعه من أمته .

ويرى " الإمام الشعراني " : أن دليل الاستقامة في التوبة ودليل الصدق فيها أن يجد العبد التائب في قلبه لذة لا يقدر قدرها . فمن لم يجد في قلبه هذه اللذة بعـد توبته كاذب . فيطالب بتجديد التوبة مرة أخرى . وباب التوبة مفتوح لكل لاجـئ إلى الله تعالى .ويتكاتف " الإمام القشيري عن " الشيخ أبي علي الدقاق " رحمـه الله قوله تاب بعض المريدين . ثم وقعت له فترة . فكان يفكر وقتا لو عاد إلى توبتـه كيف حكمه .. ؟

---

[31]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ٥٣ .
[32]- المصدر السابق صـ٥٤ .
[33]- عوارف المعرف على هامش الإحياء جـ٤ صـ٢٢٨ .
[34]- الرسالة القشيرية صـ٢٦٠ جـ١ .
[35]- سورة آل عمران آية ١٣٥.
[36]- سورة هود آية ١١٢ .

فهتف به يا فلان أطعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأمهلناك وإن عدت إلينا قبلناك ([٣٧]) . والذي يرويه " الإمام القشيري يؤيده " الشعراني " ويبشر به مصداقاً لقوله تعالى : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جمعياً) ([٣٨]) .

التوبة لدى إمامنا " الشعراني " : إسلام جديد . والإسلام يجب ما قبله . وهو بهذا يضيف معنى جديداً إلى حقيقة التوبة . هذا المعنى الجديد . إبعاد المريد عن كل ما يشغله ويلهيه عن ربه . حتى لا يكون غافلاً عنه .

فالتائب . راجع ومنيب إلى ربه . وإذا صحت " التوبة " صحت الإنابة قال " إبراهيم بن أدهم " . إذا صدق العبد في توبته صار منيباً . لأن الإنابة . ثان درجة " التوبة ".

قال " أبو سعيد القرشي " . المنيب : الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله .

وإذا كانت " التوبة " الرجوع إلى الله تعالى إلى ربه في كل حالاته . في كل نفس من أنفاسه . وكل خلجه من خلجاته . يذكره فلا ينساه . ويراقبه ـ لأنه معه ـ في كل ما يأتي وما يدع . إذا فعل العبد ذلك . حق له أن يزهد فلا يملك ويفر فلا يطلب . ويتحقق بمقام الزهد . لأن " التوبة " النصوح تزكي النفس . وتجلو مرآة القلب فيرى قبح الدنيا . فيحصل الزهد .

---

[٣٧]- الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود جـ١ صـ٢٥٧ .

[٣٨]- سورة الزمر آية ٥٣ .

مقام الزهـــــــد

****

قال الله تعالى : (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرا) ([٣٩]) .
قيل هم الزاهدون .

والرسول ﷺ يقول : (إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدا في الدنيـــا ومنطقـــا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة) ([٤٠]) .

وفي الأثر : من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمـــة فـــي قلبه وانطق بها لسانه . وللعلماء ورجال التصوف آراء في الزهد ، وكلمات فـــي حقيقته قد تتباين فيما بينهم ، وتختلف حسب تحقق كل منهم بمقامه ومشربه يقـول " الإمام الطوسي " رحمه الله :

" الزهد مقام شريف أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، ومـــن لـــم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده لأن حب الدنيا رأس كل خطيئـــة والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة " ([٤١]) .
قال بعض السلف : لم يفتكم أصحاب محمدﷺ بكثرة صيام ولا صـــــلاة إلا أنـــهم كانوا أزهد في الدنيا .
وسئل " الجنيد " رحمه الله عن " الزهد " فقال : تخلي الأيدي من الأملاك وتخلـــي القلوب من التتبع ([٤٢]) .

وسئل " الشبلي " ([٤٣]) رحمه الله . فقال لا زهد في الحقيقة لأنـــــه إمـــا أن يزهد فيما ليس له . فليس ذلك بزهد . أو يزهد فيما هو له . فكيف يزهد فيه وهـو معه وعنده ([٤٤]) .. ؟

---

[٣٩]- سورة القصص آية ٦٠ .
[٤٠]- رواه ابن ماجة وأبو نعيم في الحلية ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي خلاد .
[٤١]- كتاب اللمع للإمام الطوسي ، تحقيق د. عبد الحليم محمود صـــ٧٢ .
[٤٢]- الرسالة القشيرية تحقيق د. عبد الحليم محمود صـــ٢٩٥ جـــ١ وعوارف ـــ المعارف جـــ٤ صـــ٢٣٢ .
[٤٣]- الشبلي بغدادي المولد والمنشأ وأصله من اسروشية صحب الجنيد في عصره وكان شيخ وقته حالا وظرفا وعلما مالكي المذهب عاش سبعا وثمانين سنة ومات ٣٣٤ هـــ وقبره ببغداد .
[٤٤]- عوارف المعارف هامش الإحياء جـــ٤ صـــ٢٣٢ .

ويعرف " الإمام الغزالي "ﷺ " الزهد " قائلاً : " الزهد " عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة . أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى . وهـي الدرجة العليا (٤٥) . ويؤيد ما يقوله " الغزالي " ما يروى عن الرسولﷺ سـائلاً حارثة .

كيف أصبحت يا حارثة ـ ؟

قال أصبحت مؤمناً حقاً .

فقال ﷺ : لكل حقه حقيقة . فما حقيقة إيمانك ـ ؟

قال : عزفت نفسي عن الدنيا . فاستوى عندي ذهبها ومدرها وكأني أنظـر إلى أهل الجنة يتنعمون . وكأني انظر إلى النار في النار يعذبـون . وكـأني أرى عرش ربي بارزاً . من أجل ذلك أسهرت ليلـي وأظمـأت نـهاري فقـال لـه النبيﷺ: عرفت فالزم (٤٦) .

ويجلي " الإمام الغزالي " ذلك بقوله : بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعـزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين . وزكاه رسولﷺ . إذ قال عبـد نـور الله قلبـه بالإيمان .

ولما سئل رسول ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى فمن يرد أن يهديـه يشرح صدره للإسلام . وقيل له ما هذا الشرح .. ؟ قال : إن النور إذا دخل فـي القلب أنشرح له الصدر وانفسح . قيل يا رسول الله . وهل لذلك من علامة : قـال نعم : التجافي عن دار الغرور والإنابة شرطاً للإسلام وهـو التجـافي عـن دار الغرور (٤٧) وإذا ما تركنا هؤلاء الرجال واتجهنا إلى إمامنا " الشعراني " نرى أن الزاهد عنده يمر بثلاث مراحل .

المرحلة الأولى : أن يزهد العبد في الحرام . ويزهد مما فيه شبهة ويفتـش عن الحلال الخالص ويبحث عنه ويدعم بتقديمه للمريديـن صـورة عـن حياتـه الخاصة بقوله ـ لقد بلغت في الزهد مقاماً حتى لو أمطرت السماء ذهبـاً وصـار

٤٥- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي صـ١٥٤ جـ٤ .

٤٦- روى الحديث بسند ضعيف البزار عن انس والطبراني في الكبير .

٤٧- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي صـ١٥٨ جـ٤ .

الناس يحثون في أحجارهم ما تحركت مني شعره واحدة لخوفـــي مـــن الوقـــوف للحساب . وكذلك إذا مررت على تلال الذهب والفضة ماطاطأت رأسي لآخذ منها ديناراً واحداً زيادة على قوت يومي . وكان الناس يعرضون علـــيَّ كثـــيراً مـــن الذهب والفضة والثياب فتارة أردها . وتارة أطرحها إباحة فـــي صحـــن الجـــامع فيلتقطها المجاورون ([48]) .

استوى عنده الذهب والتراب والفضة والحجـــر والغنـــى والفقـــر والمنـــع والعطاء ثم تأتي المرحلة الثانية وهو أن يزهد في الدنيا ويبغضها لأنها مبغوضـــة لله تعالى لا لعلة أخرى من راحة بدن أو تخفيف حساب وقد أوصى الله تعالى إلـــى داود عليه السلام : يا داود أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به لنفســـك الراحـــة . وأمـــا انقطاعك إليَّ فقد تعززت به على عبادي . ولكن انظر هل واليـــت لـــي وليـــاً أو عاديت لي عدوا ([49]) ؟

ومن رأى " الشعراني " أن من زهد في الدنيا لأجل ما ينالـــه مـــن نعيـــم الآخرة فليس بزاهد . كامل . لأنه تعويض باق عن فإن . وكل ذلك جملـــة مـــن معاملة الأكوان فلم تخلص له معاملة الله تعالى : وإنما تخلص له معاملـــة الله . إذا لم يرد له ملكا لشيء في الدارين حتى يزهد فيه .

فالزاهد في المرحلة الثانية .. يزهد فيما سوى الله تعالى . إنه الانسلاخ من الدنيا بالكلية . والفرار إلى الله وإلغاء الارادة والاختيار .

ويستوي عنده الغر والذل والظهور والخمـــول والمـــدح والـــذم والرفعـــة والسقوط .

قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم . إن حب الدنيا رأس كل خطيئـــة وفـــي المال داء كبير .

قالوا : يا روح الله ما دؤاه .

قال : لا يعطي حقه .

قالوا : فإن أعطى حقه .

---

[48]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـــ٣٣ جـــ١ .

[49]- رواه أبو نعيم في الحلية وابن الخطيب وذكره السيوطي في جامعة الصغير عن أبن مسعود .

قال : يكون فيه فخر وخيلاء .

قال : يشغله استصلاحه عن ذكر الله [٥٠] .

فإذا تخطي هذه المرحلة وهي أن يترك الدنيا جملة وينسلخ منها بالكليـــة ، تأتي المرحلة الثالثة وهو أن يزهد في كل شيء يشغله عن ربه ويبعده عن مولاه . وإمساك الدنيا من غير ميل إليها .

لأن معنى . ازهد في الدنيا يحبك الله . أي لا يتعلق قلبك يحب شيء من الكونين إلا بإذن من الله تعالى . لا أنك تترك إمساك الدنيا التي تستر بها نفسك فإن ذلك يخالف ما كان عليه السلف الصالح من الصحابـــة والتـــابعين والعلمـــاء العاملين .

وقد مدح الله تعالى الساعين إلى الدنيا المنقبين في فجاجها من غـــير ميـــل إليها . قال الله تعالى :

(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) [٥١] .

فمدحهم على القيام بالتجارة والأسباب وأخيراً أن ذلك لا يلهيهم عن ذكر الله .

إن " الزهد " لدى إمامنا " الشعراني " . يتفق مع حقيقـــة الزهـــد عنـــد ـــ المدرسة الشاذلية . التي ترى أن " الزهد " عدم ميل القلب إلى حطـــم الدنيـــا ولا مانع من جمعها والسعي في تحصيلها . للإنفاق علـــى المحتـــاجين وســـد حاجـــة المعوزين يقول العارف بالله الإمام " أبو الحسن الشاذلي ﵁" تعالى عنه :

" إن الزاهد في الدنيا يثاب مرتين . الأولى برميها بعد أن فتح عينه علـــى محبتها تبعاً لجمهور الناس . الثاني بأخذها بعد رميها وخروج محبتها من قلبـــه . فقد رماها هذا بإذن وأخذها بإذن . فإن لسان إشارة الحقيقة تقول للمؤمن " وما تلك بيمينك أيها المؤمن " ..؟

فيقول : هي دنياي أنفق منها على نفسي وعيالي وإخواني والواردين عليّ . فيقال له : (ألقى ما في يمينك فيلقيها فيراها حية تسعى كعصا موسى).

---

[٥٠]- الطريق إلى الله . أو كتاب الصدق . للعارف أبي سعيد الخراز . تحقيق . الدكتور محمود صـــ ٥٠ .

[٥١]- سورة النور آية ٣٧ تكملة الآية " وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار " .

فيقول له : خذها ولا تخف . كما وقع لموسى على نبياً وعليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأزكى السلام فهو ممتثل أمر الله تبارك وتعالى في الحالين لا اختيار معه ([٥٢]) .

والزهد عند هؤلاء الرجال ترك الدنيا من قلوبهم ولا مانع من بقائها في أيديهم . لأنهم ما داموا في الدنيا فهم في حاجة إلى الزاد اليسير الذي يحفظ به ماء وجوههم . حتى لا يكونوا كلا على الناس . إن المذموم من محبة الدنيا إنما هو إذا كان بحكم الطبع لا بحكم تحبيب الله تبارك وتعالى له ذلك لغرض صحيح لأن ذلك غير مذموم بل هو محبوب شرعاً . ومن هنا كان بعض أكابر الأولياء يحبون المال حباً جماً لينفقوه في مرضاة الله تعالى لا ليبخلوا به على أحد من عباده ونقل عن بعضهم أنه كان يقول : إنما أحببت المال لأفوز بلذة خطاب الله تعالى بقوله : (اقرضوا الله قرضاً حسناً) فإنه لم يخاطب بذلك إلا أهل الجدة وكثرة الأموال .

يقول " الإمام السهروردي " : إن الزاهد اختار الزهد وأراده وإرادته تستند إلى علمه وعلمه قاصر .

فإذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختباره كاشفه الله تعالى بمراده . فيترك الدنيا بمراد الحق . لا بمراد نفسه . فيكون زهده بالله في شيء من الدنيا لا ينقص عليه زهده . والزاهد هذا . استوى عنده وجود الدنيا وعدمها إن تركها تركها بالله وإن أخذها أخذها بالله ([٥٣]) .

ويتفق " الإمام الشعراني رضي الله عنه" مع " الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ([٥٤]) فيما يروي عنه أنه قال الزهد على ثلاثة أوجه .

ترك الحرام . وهو زهد العوام .

والثاني : ترك الفضول من الحلال . وهو زهد الخواص .

---

[٥٢] - لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني جـ١ صـ٨٨ وقواعد الصوفية الشعراني جـ١ .

[٥٣] -عوارف المعارف للإمام السهروردي على هامش الإحياء جـ٤ صـ٢٣٥ .

[٥٤] -أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي إمام المذهب الحنبلي واحد الآئمة الأربعة أصله من مرو وكان والده والي بسرخس وولد ببغداد صنف المسند سجنه المعتصم لامتناعه عن القول بخلق القرآن ١٦٤-٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م

والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد ــ العارفين [55] .

يقول العارف بالله على بن وفا :

ترحل عن مقام الزهد قلبي   فأنت الحق وحدك في شهودي

أأزهد في سواك وليس شيء   أراه سواك ياسر الوجود [56]

إذا وصل العبد إلى ذلك . إذا تحقق بهذا المقام عند " الشعراني " فزهد في الزهد . وألغى إرادته واختياره . واستوى عنده وجود الدنيا وعدمها . فــهو لا يذمــها ولا يمدحها . ولا يفرح بها إن أتت ولا يحزن عليها إذا أدبرت . وأصبح شغله الشاغل ربه . يريد بإرادته ويدبر بتدبيره . ويختارة ويشاء بمشيئته . طالبة " الشـــعراني " بالتصفية والتنقية حتى يصل إلى مقام التجريد .

---

[55] -الرسالة القشيرية ــ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . ودكتور بن الشريف صــ٢٩٧ جــ١ .

[56]- لطائف المنن للإمام الشعراني .

مقام التجريـــد

****

التجريد عند الصوفية على ثلاثة أقسام : تجريد الظاهر فقط أو الباطن فقـط أو هما معا :

فتجريد الظاهر . هو ترك الأسباب الدنيوية وخرق العوائد الجسمانية .

والتجريد الباطني . هو ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية وتجريدهما معاً . هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية أو تقول : تجريد الظاهر هـــو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله وتجريد الباطن . وهو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله وتجريدهما هو إفراد القلب والقالب لله (٥٧) .

يقول " الإمام الشعراني "رضي الله عنه .تحققت بمقام التجريد في الباطن . فليس لـــي بحمد الله تعالى علاقة في الدنيا أطلبها وأتاسف على فواتها لعدم شـــهودي ملكـــي لشيء من الكونين ومن كان كذلك فقد صح له مقام التجريد (٥٨) .

إذا قطع العبد علاقته بالدنيا . ونفض يديه منها بالكلية ولم يتأســـف علـــى فواتها إن تركته . إذا شهد أن كل ما في الكونين ملك لله تعالى . فهو الذي يعطـــي ويمنع وهو الذي يعز ويذل . إذا وصل العبد إلى هذا حق له مقام التجريد .

والتجريد عند إمامنا " الشعراني " مرحلتنان :

الأول التجريد من الثياب الظاهرة . وله شروط :

يقول " الإمام الشعراني " : تجريد الإنسان من ثيابه الظاهرة من أشق شيء علـــى نفوس أصحاب الرعونات خوفاً من احتقار الناس لهم ونسبتهم إلى خفـــة العقـــل . كما جربته في نفس أول مجاهدتي .. لكن إذا كمل حال الســـالك وتســـاوي عنـــده الجوع والعرى واضدادهما فله أن يتجرد عن اللبـــاس لتســـاوي الأمـــور عنـــده في نفسه (٥٩) .

الثاني لبس الثياب .

٥٧- إيقاظ الهم في شرح الحكم صـــ١٦ للعارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني .

٥٨- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـــ٧٢ جـــ٢ .

٥٩- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـــ٧٢ جـــ٢ .

يقول " الإمام الشعراني "رضي الله عنه : ثم يترقى في ذلك إلى أعلى منه وهو لبسه الثياب أسوة بأهل حرفته . طلبا لعدم التميز وخلوصا من شبكة الرياء وخوفاً من دخوله ([٦٠]) في حديث من لبس ثوب شهرة في الدنيا البسة الله تعالى ثوب نار في الآخرة ([٦١]) .

ولكن متى يتجرد الإنسان من الثياب الظاهرة ويحق له ذلك .. ؟

يقول " الإمام الشعراني " لا تتجرد عن ثيابك الظاهرة . قبل تجريد قلبك من الشهوات النفسانية وكلاب الصفات المعنوية ونجاسات القاذورات الدنيوية وجميع الصفات الشيطانية فتهلك في نفسك من حيث لا تشعر ([٦٢]) .

مقام التجريد تصفية وتطهير من الترابية الأرضية . تطهير من وسوسة إبليس ومن همزات الشياطين . إنه إفراد القلب والقالب لله .

إذا تحقق العبد بذلك . إذا وصل إلى تلك المرحلة . طول المجاهدة والمثابرة بالتصفية والتنقية حتى يتحقق بمقام الصديقية .

---

[٦٠]- المصدر السابق صـ٧٢ جـ٢ .

[٦١]- وفي رواية البسة ثوباً مثله ثم يلهب فيه النار رواه أبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

[٦٢]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـ٧٢ جـ٢ .

مقام الصديقية والشهادة

****

قال تعالى : (وأذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) ([٦٣]) .

وقال تعالى : (وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) [٦٤]() . والصديقية مقام من مقامات الطريق . ومرتبة من مراتب الولاية .

و" الصديقية " عند " الإمام الشعراني "رضي الله عنه . أسم لترك المناهي جملة فكل من أحكم ترك المناهي وانقادت نفسه إلى الموت وقطع المألوفات وخرج عن المواثق والعوائد وغلط الطبع واستحكام الشهوات قلت أوجلت فقد استقام مع الله تعالى على حد الاستقامة الممكنة لا مثاله .

إن الشريعة الإسلامية هي مجموعة الأوامر والنواهي أوامر تلقي للعبد لتربيته وانفتاع مسالك قلبه حتى يرق حجابه . فيتصل بربه ، أوامر تلقي من خالق الإنسان فتوضح له طريقه ، وتحدد له معالمة ، وتبين له طريق الخير ، وتدله على أقرب السبل الموصلة إلى ربه ، أوامر من رب الأرباب لخليفته في الأرض ليعمر الكون بعزمه ويدبر الحياة بعقله ويصل إلى السماء بروحه .

والجانب الأخر من الشريعة مجموعة النواهي . وهو أن يقف العبد عند حدود لا يتعداها وقواعد لا يتخطاها أو ما نهى الدين عنه وحث على البعد منه قد يقبله العقل بسهولة لاكتنافه الضرر الذي يعود عليه إن تعدي ما نهى عنه لأنه يتمشى مع المنطق ويتوافق مع التجربة وعرف الحياة والناس وقد يكون بعض ما نهى الدين عنه تجدله العقول القاصرة تفسيراً ولا يصل المنطق البشري إلى وضع حلول له . ولكننا يجب أن نلتزم بما نهى الدين عنه . لأن الدين ليس أمراً بشرياً وليس عقلاً عبقرياً ولكنه وحي إلهي . قال " الإمام علي " كرم الله وجهه .

لو كان الدين بالعقل لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظهره ([٦٥]) .

---

[٦٣]- سورة مريم آية ٥٦ .

[٦٤]- سورة المائدة آية ٧٥ .

[٦٥]- الإسلام والعقل دكتور عبد الحليم محمود .

والواجب على العبد أن يكون على حد الاستقامة تنفيذا لأمر ربه مخاطباً رسـوله الكريم (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) ([66]) .

أول من تحقق بمقام " الصديقية " . أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأعطى من مقام التسليم والتصديق حظه الأوفر وأطلق عليها اسم الخلة في حديث .

" إن الله تعالى يتجلى في الآخرة لثلاثة محمد وإبراهيم وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم ([67]) "

وحقق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

(إنما مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ، إشارة إلى تحقيق الخلة ([68]) التي هي تسليم النفس والمال والولد لله رب العالمين) .

وأما طريق الشهادة التي حرص " الإمام الشعراني " على تحصيلها بأعماله : فهي التزام الأوامر وانسحاب ذلك الحكم على مراتب الدين كله وفي سائر الأعمال ، وأول من تحقق بهذا المقام " عمر بن الخطاب رضي الله عنه ".

فإنه لم يدع باباً من المناهي اتقنه " أبو بكر " بتركه إلا أخذ " عمر رضي الله عنه في مقابلة ذلك وجها محموداً وإن لم يؤمر بمشرعاً فلذلك شبهه رسول الله ﷺ بموسى الكليم في التكلم بقوله :

" إن يكن في أمتي محدثون " فعمر بن الخطاب رضي الله عنه "([69]) .

ولقد كان " عمر رضي الله عنه " مع فعله سائر المأموارت يمضي إلى بيت حذيفة بن اليماني ، ويقول له : يا حذيفة أنت كنت صاحب سر رسول ﷺ الله . وكنت تعرف المنافقين وتعدهم على عهد رسول الله ﷺ فانظر ما في من النفاق . فعرفني به فيقول : والله يا " أمير المؤمنين " لا أعلم فيك نفاقا ، فيقول : أنظر

---

[66]- سورة هود آية ١١٢ .

[67]_

[68]_

[69]- رواه الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري في صحيحة عن أبي هريرة رضى الله عنه ورواه الإمام أحمد في مسنده والنسائي والترمذي عن عائشة رضى الله عنها وهو صحيح .

وحقق النظر فيبكي حذيفة ويبكي " عمر رضي الله عنه ". فلا يزالان يبكـــان حتـــى يغشـــى عليهما . أما " حذيفة رضي الله عنه ". فمن سماع الكلام من سيدنا عمر . وأما " عمر رضي الله عنه " فخوفاً أن يكون في نفاق لا يشعر به . مع علمه أنه مقطوع له بالخير والرضـــى من الله تعالى والشهادة بأنه من أهل الجنة (٧٠) بقوله تعالى :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) (٧١) .

وهو من أهل البيعة بلا شك .:

و"الإمام الشعراني رضي الله عنه " : جاهد نفسه وفر إلى ربـــه ، فتحقـــق بمقـــام " الصديقية " و" الشهادة " وظهرت أثارهما على يديه . فبارك الله في طعامه وأتـــاه الرزق من حيث لا يحتسب وألهم بما لم يعلم ، وسمع تسبيح الجمادات ، وباركتـــه عناية ربه ، وحفته رعاية مولاه .

قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنـوا وكانوا يتقون)(٧٢) .

و" الصديقية " تقتضي الرضا عن الله تعالى .

٧٠- الأنوار القدسية في آداب العبودية للشعراني جـ٢ جـ٢٣ على هامش الطبقات الكبرى .

٧١- الفتح آية ١٨ .

٧٢- سورة يونس آية ٦٢،٦٣ .

مقام الرضـــا

****

قال الله تعالى : (ورضوان من الله أكبر)([٧٣]) .

وقال الرسول ﷺ : (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا)([٧٤]) .

وقيل كتب " عمر بن الخطاب " إلى " أبي موســـى الأشـــعري رضـــى الله عنهما ": " أما بعد فإن الخير كله في الرضا . فـــإن اســـتطعت أن ترضـــى وإلا فاصبر " . ويقول " الإمام أبو نصر السراج الطوسي " : الرضا مقام شريف وقـــد ذكر الله عز وجل الرضا في كتابه فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) ([٧٥]) .

والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا . وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكـــم الله عز وجل ([٧٦]) .

ويقول " ابن عطاء الله السكندري " : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى العبد . لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى ([٧٧]) .

والنفس إذا رضيت عن الله استسلمت له وانقادت لحكمه واذعنـــت لأمـــره فاطمأنت لربوبيته وقرت بالاعتماد على ألوهيته .. خامدة لأحكامه مفوضة له فـــي نقضه وإبرامه ([٧٨]) .

يقول " الإمام القشيري رضي الله عنه " .

" اختلـــف العراقيـــون والخراســـانيون فـــي الرضـــا : هـــل مـــن الأحـــوال أو من المقامات .. ؟ .

فأهل " خراسان " قالوا : " الرضا " من جملة المقامات . وهو نهاية التوكـل ومعناه أنه يقول مما يتوصل إليه العبد باكتسابه .

---

[٧٣]- سورة التوبة آية ١١٩ .

[٧٤]- رواه مسلم عن العباس ورواه أحمد في مسنده والترمذي .

[٧٥]-سورة المائدة آية ١١٩ .

[٧٦]- كتاب اللمع للطوسي تحقيق د. عبد الحليم محمود صــ٨٠ .

[٧٧]- المصدر السابق صــ٨٠ .

[٧٨]- التنوير في إسقاط التدبر صــ٢٣٥ .

وأما " العراقيون " : فإنهم قالوا " الرضا " : من جملة الأحوال وليس ذلك كسبا المعبد . بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال . ويمكن الجمع بين القولين فيقال : بداية " الرضا " مكتسبة للعبد وهي من المقامات . ونهايته من جملة الأحوال . وليست بمكتسبه ([٧٩]) .

ويقول : " ذو النون المصري " : ثلاثة من أعلام " الرضا " ..

ترك الاختيار قبل القضاء .

وفقدان المرارة بعد القضاء .

وهيجان الحب في حشو البلاء ([٨٠]) .

إذا كان " الإمام القشيري " وضع آراء العلماء في تعريف " الرضا " ووفق بينهم على الوجه الذي ذكرناه فإن رابعة العدوية تضع بين أيدينا حقيقة " الرضا " فيما يروى " الإمام الغزالي " رحمه الله :

قال " الثوري " يوماً عند رابعة اللهم أرضى عنا .

فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله " الرضا " وأنت غير راضى ؟

فقال : استغفر الله .

فقال : " جعفر بن سليمان الضبعي " فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى . ؟

قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة ([٨١]) .

ويؤيد ذلك ما يقوله " أبو سليمان الداراني " : " الرضا " ألا تسأل الله تعالى الجنة ولا تسعيذ به من النار ([٨٢]) .

والذي يتضح من آراء رجال التصوف أن " الرضا " عندهم هو التسليم الكامل لله سبحانه وتعالى والانقياد المطلق لإرادته إنه إسلام الوجه إلى خالق الأرض والسماء وموجد الحياة والموت والإتجاه إليه في الغنى والفقر في العطاء والمنع في الحياة وما بعد الحياة .

---

[٧٩]- الرسالة القشيرية تحقيق د. عبد الحليم محمود وزميله صـ٤٢٢ جـ٢ .

[٨٠]- المصدر السابق صـ٤٢٥ جـ٢ .

[٨١]- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي جـ٤ صـ٢٤٨ .

[٨٢]- الرسالة القشيرية جـ صـ .

و " الرضا " عند " الإمام الشعراني " مقام من مقامات السالكين ولا يتحقق العبد به إلا بعد اجتيازه ثلاث مراحل :

فالمرحلة الأولى :

تتحقق بكتمان العبد ما يقع عليه من مصائب ونكبات فلا يشكو للخلق جملة عدوا أو صديق بل يرضى بما وقع له ويعتبران ذلك من نعم الله سبحانه وتعالى .

ولذا قال " الإمام الشعراني "رضي الله عنه الواجب على العبد أن يكتم ما يصيبه الله تعالى به في باطنه من البلايا والمحن عن الخلق فلا يذكر ذلك لعدو أو صديق ويحذر من الشكوى للخلق ولو قُطّع وقرض لحمه بالمقاريض ([83]) .

قال تعالى : (ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور) ([84]) .

المرحلة الثانية :

اعتقاد العبد أن ما ينزل عليه من البلايا والمحن لا يخلو عن ثلاثة أشياء إما أن يكون مكفرات ، أو عقوبة على ذنب سلف أو لرفع درجات وزيادة حسنات.

ويؤكد " الإمام الشعراني " ذلك بالرواية عن نفسه قائلا : " ومما أنعم الله تعالى على توالي الآلام على جسدي واعتبار أن هذا من أكبر نعم الله عز وجل لأن ذلك البلاء إن كان عقوبة على ذنب سلف فهو خير ، وإن كان كفارة فهو خير وإن كان رفع درجات فهو خير ولا يخلو البلاء عن هذه الأحوال الثلاث " ([85]) .

والدليل الرابع على ذلك قول " رابعة العدوية رضى الله عنها " :

عندما سألت متى يكون العبد راضيا ؟

فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ([86]) .

المرحلة الثالثة :

تساوى المصيبة والنعمة عند المريد لعلمه بأن الكل من عند الله ، قال تعالى : (قل كل من عند الله) ([87]) .

---

[83]- لطائف المنن والأخلاق للشعراني جـ١ صـ٧٧ .

[84]- سورة الشورى آية ٤٣ .

[85]- لطائف المنن والأخلاق للشعراني جـ١ صـ٧٨ .

[86]- الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود جـ٢ صـ٤٢٤ .

[87]- سورة النساء آية ٧٨ .

قال رويم : " الرضا " إن لو جعل الله جهنم على يمينه ما سأل أن يحولـــها إلى يساره ([88]).

وقال " النوري " : " الرضا " سرور القلب بمر القضاء ([89]) .

وعندما تحقق " الإمام الشعراني رضي الله عنه " بمقام " الرضا : ترجم ذلك عن نفسه قـائلاً : علمت يقيناً عندما تحققت بمقام " الرضا " أن لكل أجل كتاباً ، ولكل بلية غايـــة ومنتهى ونفاذ لا يتقدم شيء ولا يتأخر وأوقات البلاء لا تنقلب عافيـــة ، وأوقـات البؤس لا تنقلب نعمة وأوقات الفقر لا تنقلب غني وإن عجزت عن الوصول إلـــى مقام " الرضا " بالقضاء صبرت ــ وانتظرت الفرج إلى أن يبلغ الكتاب أجله ([90]).

والذي يقوله الشعراني يتفق مع ما يروي عن " يحيـــي بـــن معـــاذ رضي الله عنه " عندما سئل متى يبلغ إلى مقام " الرضا " .. ؟

قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به .

يقول : إن أعطيتني قبلت . وإن منعتني رضيت . وإن تركتنـــي عبـــدت .. وإن دعوتني أجبت ([91]) .

ويقول " ابن شمعون " الرضا " ثلاثة . " الرضا " بالحق . و الرضا لـــه والرضا عنه .

فالرضا به : مدبراً ومختاراً .

والرضا عنه : قاسماً ومعطياً

والرضا له : إلها وربا

وسئل أبو سعيد . هل يجوز إن يكون العبد راضياً ساخطاً .. ؟

قال : نعم راضياً عن ربه . ساخطاً على نفسه . وعلى كل قـــاطع يقطعـــه عن الله ([92]) .

---

[88]- الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٤٢٤ .

[89]- الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٤٢٤ .

[90]- آداب العبودية جـ٢ صـ٥٤ ولطائف المنن جـ١ صـ١٨٣ .

[91]- عوارف المعارف على هامش الأحياء جـ٤ صـ٢٥٧ .

[92]- المصدر السابق جـ٤ صـ٢٥٨ .

ولئن كان التسليم لله تعالى في جميع الأمور ينافي في الاعتراض على الحق فيما فعلوه مخالفاً للشرع . ؟

ويرى " الإمام الشعراني " : أن الواجب على العبد أن يسلم لله تعالى فيما يفعله في خلقه راضياً به مشاهدا أن ناصيتهم بيده . ولكن ذلك منازع لخلقه فيما خالفوا فيه أمره . والعبد في فعله ذلك مقتدياً بالأنبياء والرسل في مجاهدتهم الكفار مع علمهم عليهم الصلاة والسلام . إن ما جاهدوا الكفار لاجله بقضاء الله وقدره لأنه خلقه ومع علمهم أن الكفار ما خرجوا عن الإرادة السابقة فيهم ([93]) .

فإن اعترض معترض بقوله : قد وردت الآيات والأخبار بقضاء الله تعالى ـ فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى .. فكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد .. ؟

يقول " الإمام الشعراني " : إن المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى . من حيث أنه فعله واختياره وإرادته . فيرض به من هذا الوجه . تسليماً للملك إلى مالك الملك وراضياً بما يفعله فيه .

ووجه إلى العبد . من حيث أنه كسبه ووصف كونه مقوماً عند الله وبغيضا عنده . حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت . فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ([94]) والرضا يقتضي المحبة .

---

[93]- الأنوار القدسية في آداب العبودية للإمام الشعراني جت٢ صـ .

[94]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية للإمام الشعراني مخطوط صـ٢٨٥ .

مقام المحبـــة

****

قال الله تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) ([٩٥]) .

وقال أيضاً : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ([٩٦]) .

وروى " الإمام أحمد " من حديث " معاذ بن جبل رضي الله عنه " قول الرسول ﷺ : (اللهم إني أسألك فعل الخيرات . وترك المنكرات . وحب المساكين وإن تغفر لـي وترحمني . وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون . وأسألك حبك وحب مـن يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك)([٩٧]) .

وروى عن ابن سارية قال : كان رسول الله ﷺ يدعو بقولـه : (اللـهم أجعل حبك أحب إلى من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي)([٩٨])

فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام . طلب خالص الحب وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى بكليته .

والحب هو أصل الإسلام وجوهره وروح التصوف ومنبعه ، الحـب فـي الإسلام قطب رحاه ومشرق أنواره .

والمحبة يجب أن تكون خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ .

قال الله تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) ([٩٩]) .

وقوله : (يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) ([١٠٠]) .

وأختلف رجال التصوف " المحبة " أهي حال أم مقام فعند " الإمام الطوسي " حـال وليست مقام .

وهي عنده ثلاث مراتب .

---

[٩٥]- سورة المائدة آية ٥٤ .

[٩٦]- سورة آل عمران آية ٣١ .

[٩٧]- وفي رواية الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطي اللهم أرزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك اللهم ما رزقتني مما أحب فأجعله قوة لي فيما يجب .

[٩٨]- رواه النسائي وأبو علي الموصلي وابن منبع .

[٩٩]- سورة المائدة آية ٥٤ .

[١٠٠]- سورة البقرة آية ١٦٥ .

محبة العامة : وهذه " المحبة " عنده تتولد من إحســـان الله تعــالى إليـــهم وعطفه عليهم .

والدليل على ذلك قول الرسولﷺ .

(جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء ([101]) إليها) .

ثانيا : محبة الصادقين والمتحققين .

وهي تتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته .

والثالث : محبة الصديقين والعارفين .

وتولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة . فكذلك أحبـــوه بلا علة ([102]) .

وإذا كانت المحبة عند " الإمام الطوسي " حالاً تأتي للعبـــد بـــلا تعمـــل أو تصنع أو بذل مجهود فأنها عند " الإمام السهروردي " حال ومقام أو حـــــب عـــام وحب خاص .

يقول : قد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات . فيكون النظـــر إلـــى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعه الروح وهو الحب الذي فيـه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه وهذا الحب يكـــــون من ــ الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل .

ولما صحت محبتهم هذه ، أخبر الله تعالى عنـــهم بقولـــه : (أذلـــة علـــى المؤمنين) ([103]) . لأن المحب يذل لمحبوبه .

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال ([104]) .

---

[101]- رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان وابن عدى في الكامل عن ابن مسعود رضى الله عنه .

[102]- كتاب اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود صـــ٨٦ .

[103]- سورة المائدة آية ٥٤ .

[104]- عوارف المعارف للإمام السهروردي صـــ٢٦٤ ، جـــ٤ على هامش الإحياء .

وإذا كان الحب عند " الإمام الطوسي " ــ حالا وليس مقاما ، فإن " الإمـــام الشعراني " يرى أن الحب حال ومقام ، متفقا بذلك مع " الإمام السهروردي في أن " المحبة " مقام وحال .

فالمحبة عنده مقام يصل العبد إليه بالمجاهدة والمثابرة بالتصفيـــة والتنقيـــة حتى يتحقق فيه قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١٠٥)

والمحبة أيضا حال هبة من الله تعالى تأتي للعبد بلا تعمل ولا كسب .

قال تعالى : (يجتبي إليه من يشاء) (١٠٦) .

ويتفق " الإمام الشعراني " مع قطب العارفين " الإمام أبي الحسن الشـــاذلي في حقيقة المحب ، وهو الذي يحمي قلبه من محبة أحد غير الله تعالى ، هو الـــذي يقف حارسا على باب قلبه ، يطرد عنه الشيطان ووساوسة والنفس وهـــو اجســـها والهوى وأمراضه .

يقول " الإمام ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه " المحب على الحقيقة مـــن لا سلطان على قلبه من غير محبوبة ولا مشيئة له غير مشيئته (١٠٧) .

ويصور " الإمام الشعراني رضي الله عنه " ، حالة قلبه عند تحققـــه بـــهذا المقـــام قائلا : " ومما أنعم تبارك وتعالى به على حمايته لقلبي أن تقيم فيه محبة أحد مـــن الخلائق إلا عن إذنه وقد ضمن الله عز وجل حراسة كل قلب فيه غيره ، فيعطـــي ذلك العبد سيف التوحيد والعظمة والجبروت ، ويجعله بواب قلبه فكل من دنا مـــن ساحة صدره لباب قلبه قطعت رأسه .

فإذا تمكن العبد من حراسة قلبه ، ضربت حول قلبـــه ســـرادقات الغـــيرة وخنادق ، العظمة وسلطان الجبروت ، وأقام الحق جل وعلا ، دون قلب ذلك العبد حراسا من جنده كيلا يخلص الشيطان أو النفس والهوى فلا ينقص له رأس مـــال بإقبال الخالق عليه ولا بترادف نعم الدنيا عليه (١٠٨) .

١٠٥- سورة العنكبوت آية ٦٩ .

١٠٦- سورة الشورى آية ١٣ .

١٠٧- كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه لابن عطاء الله السكندري صـــ٥١ .

١٠٨- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني جـــ١ صـــ٨٠ .

بتوحيد الله التوحيد الخالص . وبمعرفته الثابتة . تمتلأ القلوب بالمحبـة وإذا كان العبد كذلك وتحقق بمقام المحبة ، هرب الشيطان من قلبه وكـان بمنـآ عـن وساوسه قال تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) ([109]) .

هذا العبد المحب إذا أقبلت الدنيا عليه بالمال والولد لا تضره وتشغله عـن ربه لأنها في يده وليست في قلبه ، وإذا أقبل الخالق عليه وأتته الدنيـا صـاغرة مرغمة تغدق عليه العز والجاه والمجد والسلطان . كان في شغل عنها لأنه يقلبـه مع ربه .

قال تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبـهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) ([110]) .

وإذا كان ذلك فهل للمحبين أوصاف عليهم ، واشارات تشير إلـى تحققـهم بالمحبة .. ؟ .

إن " المحبة "ــ كما نعلم ــ أمر خفي كامن في القلوب فكيف يعـرف .. ؟ والشوق نار في الدماء ــ ولا دخان ــ فمن أين يكشف .. ؟

ونقول : إذا كانت الرائحة الزكية تدل علـى وجـود المسـك ، وظـهور الحشائش الخضر في الصحراء المجدبة يدل على وجود الماء . فإن هناك أوصاف للمحببين تكشف عنهم ودلائل ظاهرة تشير إليهم .

---

[109]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني جـ١ صـ٨٠ .

[110]- سورة الحجر آية ٤٢ .

صفات المحبين

****

سأل جماعة من المشايخ الجنيد رضي الله عنه عن أوصاف المحبين .. ؟

فبكى وقال :

" كيف اصف عبداً ذاهباً عن نفسه ، متصلاً بذكر ربه ، قائماً بأداء حقوقه ناظراً إليه بعين قلبه ، قد أحرق قلبه نار هيبته ، وصفا شربه من كأس ورده وانكشف له الجبار من استار غيبه .. ؟ فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله ، وهو بالله ولله ومع الله " [1] .

المحب عند الجنيد يذكر ربه فلا ينساه ، ويؤدى ما عليه من واجبات فلا يهمل أو يتكاسل ، إذا كان ذلك ، انكشفت أمامه الحجب ، فأصبح ربانياً في عمله وتركه في نومه ويقظته .

ويصور ابن القيم – في كتابه طريق الهجرتين – صفات المحبين فيقول : إنهم قوم امتلأت قلوبهم من معرفة الله . وعمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة في أجزائهم ، قد أنساهم حبه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به عمن سواه ، ففنوا بحبه عن حب سواه ويذكره عن ذكر من سواه فحينئذ يكون الرب سبحانه ، سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت عرش الرحمن [2]

المحبين عند ابن القيم عرفوا الله تعالى حق المعرفة عرفوه في غضبه ورحمته ، في عظمته وكبريائه في بهائه وجلاله ، في تفضله وتكرمه، فامتلأت قلوبهم بحبه ، فلم يبق فيها لغيره موضع ولا لسواء مكان .

عندها تحققوا بالعبودية الكاملة وبالحب الخالص فأنطبق عليهم ما نادي به رب العزة جلا وعلا :

---

[1] – إيقاظ الهمم في شرع الحكم لابن عجيبة صـ ٥١٠ .

[2] – كتاب طريق الهجرتين لابن القيم بتصرف .

(عبدي أحببني تكن ربانياً تقول للشيء كن فيكون) [٣] .

فإذا ما تركنا الإمام الجنيد والإمام ابن القيم واتجهنا إلى قمة أخرى من قمم الشوامخ ألا وهو الإمام ابن الفارض " سلطان العاشقين وإمام المحبين . فيصف الحب أنا وصف من عرف فأمن وعاش فجرب ، عرف الحب وسعد به فيقول :

هو الحب فأسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختاره مضنى به وله عقل

وعش خاليا فالحب راحته عنا

وأوله سقم وآخره قتل

ولكن لدى الموت فيه صبابة

حياة لمن أهوى على بها الفضل

نصحتك علما بالهوى والذي أرى

مخالفتي فأختر لنفسك ما يحلو

فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به

شهيداً وإلا فالغرام له أهل

فمن لم يمت في حبه لم يعش به

ودون اجتناء النحل ما جنت النحل [٤]

والدكتور مصطفى حلمي من الرجال الذين أحبوا ابن الفارض وعاشوا له يجلون فكرته ويوضحون أراءه ويستخرجون كنوزه ويصور لنا الحب الإلهي عند ابن الفارض بقوله :

الحب عن ابن الفارض ، حب يسمو بالنفس الإنسانية إلى أقصى ما تستطيع أن تسمو إليه ، من صفات ونقاء وجلاء .

---

[٣]- وفيما أخرجه الإمام البخاري رضى الله عنه في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى : من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه . وما يزال عبده يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذ بي لاعيذنه .

[٤]- ديوان ابن الفارض .

فإذا هو يجردها من علائقها الحسية ويبرؤها عن شوائبها الشهوية ويحررها من قيودها المادية ويطهرها من هو أجسها ووساوسها الخفية .

وإذا هي تصفو وتنقي وتسمو وترقي وإذا هي تستحيل إلى روح لطيفة خالصة تستطيع إن تتصل بالملأ الأعلى والمبدأ الاسمي وأن تشهد من الجمال المطلق ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ([5]) .

أما المحب الصادق عند الإمام الشعراني فله علامات تدل عليه وإشارات تشير إلى حقيقته منها :

" أن يكون ذا أشواق وأتواق واحتراق ولهف وأسف وشغف وحزن وانين ووجد ونحول وذبول وأرق وقلق وسهر وسهاد ودهشة وحيرة وضني وبكاء وخشوع وخضوع ودموع ونيران وبوح وكتمان وسر وإعلان ([6]) .

وهو يلتقي في تعريفه للمحب مع قطب وقته سيدي إبراهيم الدسوقي القرشي المكني بأبي العينين . في قوله نظماً :

ألا قل لمن يدعي حبنا
ويزعم أن الهوى قد علق
فلو كان فيما ادعى صادقاً
لكان على الغصن بعض الورق
فأين النحول وأين الذبول
وأين الدموع وأين الأرق
وأين المخاض لبحر الهلاك
إذا لمعت ناره بالغسق
فهم شاخصون إلى ضوئها
وقد احدقوا حولها بالحدق
إلى أن ترنم حاديهم
ببيتين قالهما من سبق

---

[5]- سلطان العاشقين الإمام ابن الفارض الدكتور محمد مصطفى حلمي صـــ .

[6]- لطائف المنن والأخلاق صـــ جـــ .

تولع بالعشق حتى عشق

فلم استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة

فلما توسط فيها غرق

فحطوا حبال مراسيهم

وغطوا فغطاهموا وانطبق

ثم من بعد هذا لابد من شروط يجب أن تتوافر في المحبين حتى يتحقق الصدق في دعواهم فمن ذلك :

أن يكونوا على الشريعة البيضاء لا تلبيس عندهم ولا تخليط

فالذي يخالف الأوامر ولا يجتنب النواهي لا يكون صادقاً في دعواه المحبة لأن المحب مطيع لحبيبه منفذ لأوامره مبتعد عن نواهيه . والمحب لا يشك فيما وعد الله أو أوعد به في الدار الآخرة وكيف يشك محب في محبوبه .. ؟

ومن شروط المحب الإخلاص والصدق :

(رجال صدقوا ما عاهدوا والله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) ([٧])

ومنها الصبر على البلاء والرضا بالقضاء .

والمحبة عند رجال لا تأتي إلا بذكر الله وتوحيده قال تعالى : (فاذكروني أذكركم) ([٨]) .

والتوحيد ينظف القلب من الشهوات من الغل والحسد من همزات الشيطان ومن وسوسته ، وكل هذه الأشياء تحجب العبد عن ربه وتحول بينه وبين مولاه .

أما إذا خلى القلب من الشهوات وصفيت نفس العبد من الأهواء كان القلب بيتاً لحب الرب . كما ورد في الحديث القدسي :

(ما وسعني أرضى ولا سمائي . ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن) ([٩]).

---

[٧]- سورة الأحزاب آية ٢٣ .

[٨]- سورة البقرة آية ١٥٢ .

[٩]- قال الحافظ العراقي . لم أر له أصلاً .

إذا خرجت الشهوات من القلب . وحل فيه توحيد الله وحبه . صار محـــلا للمعارف والموارد الغيبية والأسرار والعلوم .. فيعرف ولا يجـــهل ويرضـــي ولا يسخط ويذكر ولا ينسى قال بعضهم :

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي
وهل أنسي فاذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً
فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس
فما نفذ الشراب وما رويت ([10])

[10]- الرسالة القشيرية صــ٦٢٠ جــ٢ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وزميله .

حال الشوق

****

قال الواسطي في قوله تعالي : (وعجلت إليك ربي لترضى) (1) .

قال : شوقاً واستهانة بمن وراء .

قال هم أولاء على أثرى (2) من شوقه إلى مكالمة الله .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه :

(أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك) (3) .

فالشوق من الأحوال في المحبة . ولا يكون المحب إلا مشتاقاً والشوق : ليس من كسب العبد وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين .

يقول الإمام الطوسي رحمه الله .

الشوق : هو لعبد قد تبرم ببقائه شوقاً إلى لقاء محبوبه (4) .

ويقول الإمام القشيري رحمه الله .

الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب . وعلى قدر المحبة يكون الشوق (5)

وسئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال : احتراق الاحشاء وتلهب القلوب وتقطع الاكباد .

وسئل أيضاً عن الشوق فقيل له : الشوق أعلى أم المحبة ؟ .

فقال المحبة . لأن الشوق منهما يتولد (6) .

ويرى الإمام السهروردي أن الشوق من المحبة كالزهد من التوبة . إذا استقرت التوبة ظهر الزهد . وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق (7) .

1- سورة طه آية ٨٤ .

2- سورة طه آية ٨٤ .

3- النسائي والحاكم عن عمارة وسنده صحيح وأوله اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحييني ما علمت الحياة خيراً لي .

4- اللمع للطوسي صـ٩٤ تحقيق دكتور عبد الحليم محمود .

5- الرسالة القشيرية صـ٦٢٦ تحقيق دكتور عبد الحليم محمود .

6- لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه لابن عطاء الله السكندري صـ٥٢ .

7- عوارف المعارف للإمام السهروردي صـ٢٧٥ جـ٤ إحياء .

ولقد أنكر بعضهم حال الشوق . وقال إنما يكون الشوق لغائب ومتى يغيب الجيب عن الجيب حتى يشتاق .. ؟

والإمام الشعراني رحمه الله . ينكر إلغاء الشوق ويرى أن الشوق كائن في المحبين لا وجه لا نكاره .

ويرى أن شوق المشاهد واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة .

ويؤيد رأي الإمام الشعراني رحمه الله قول أبي يزيد . لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة . كما يستغيث أهل النار من النار ([8]) .

وفي معناه انشدوا :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته   حتى يعود إليه الطرف مشتاقاً .

حـــال الأنـــس

******

سئل ذا النون المصري رحمه الله عن الأنس فقال :

" هو انبساط المحب إلى المحبوب "([9]) .

وقيل معناه : قول الخليل عليه السلام : (أرني كيف تحيي الموتى) ([10]) .

وقول موسى عليه السلام . (أرني أنظر إليك) ([11]) .

وعند الإمام الطوسي : معنى الأنس بالله تعالى :" الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به . ولا يتهيأ أن يعبر عنه بأكثر من ذلك " ([12]) .

وروى أن مطرف بن شخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

" ليكن انسك بالله . وانقطاعك إليه . فإن لله عباداً استأنسوا بالله وكانوا في وحدتهم أشد استئناساً من الناس في كثرتهم " ([13]) .

---

[8]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صـ .

[9]- عوارف المعارف السهروردي صـ .

[10]- سورة البقرة آية ٢٦٠ .

[11]- سورة الأعراف آية ١٤٣ .

[12]- اللمع للطوسي تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ٩٦ .

[13]- عوارف المعارف صـ ٢٨٠ .

وقالت رابعة كل طيع مستأنس وانشدت :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي   وابحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم منى للجليس مؤانس   وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي ([١٤])

ولكن متى يكون الأنس .. ؟ ومتى يتحقق العبد به .. ؟ يقول الإمام الشعراني رحمه الله : إن الأنس لا يكون إلا عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد . وكمال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس .

ويرى الإمام الشعراني : أن الإنسان لا يأتي إلا بجنسه والحق تبارك وتعالى ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجه من الوجوه .

وإنما يكون الأنس بما منّ الله تبارك وتعالى على العبد من لذة التقريب ونحوه لا بالله عز وجل ([١٥]) .

والأنس بالله لا يصح عند المحققين ــ كما يرى الشعراني ــ وإنما يأنس العبد ويلتذ بملاطفات الحق تبارك وتعالى لقلبه .

لانتقاء المجانسة بينه وبين ربه تبارك وتعالى والله أعلم .

حـال القـرب

****

قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) ([١٦]) .

وقال أيضاً : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ([١٧]) .

وقال تعالى لنبيه : (واسجد واقترب) ([١٨]) .

وفي الحديث عن رسول ﷺ (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ([١٩]) .

---

[١٤]- المصادر السابق صـ٢٨١ .

[١٥]- لطائف المنن والأخلاق جـ١ صـ ١٤٦ والأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية مخطوط صـ٢٨٠ .

[١٦]- سورة البقرة آية ١٨٦ .

[١٧]- سورة الواقعة آية ٨٥ .

[١٨]- سورة العلق آية ٨٥ .

[١٩]- هذا الحديث رواه الإمام مسلم وأبو داود والنسائي ولفظه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا فيه الدعاء . وقريب منه ومناسب لمعناه ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم

يقول الدكتور عبد الحليم محمود وللسجود في الجو الإسلامي أهمية كبرى .. إنه يدخل الإنسان الجنة . يروى الإمام مسلم رضى الله عنه – في صحيحه عن أبي فراس – ربيعه بن كعب الأسلمي – خادم رسول الله ﷺ – من أهل الصفةرضى الله عنه – قال :

(كنت أبيت مع رسول – ﷺ – فأتيه بوضوئه وحاجته . فقال سلني – فقلت أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال : أو غير ذلك .. ؟ قلت : هو ذلك .

قال أعني على نفسك بكثرة السجود .

يقول الإمام الطوسي رحمه الله : وحال القرب لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه فتقرب إلى الله تعالى بطاعته . وجمع همه بين يدي الله تعالى بدوام ذكره في علانيته وسره ([٢٠]) .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه . فأنظر ماذا يقرب من قلبه .. ([٢١]) ؟

وقال النصر بازي : باتباع السنة تنال المعرفة . وبأداء الفرائض تنال القربة وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة ([٢٢]) .

ولكن متى يكون العبد قريباً من ربه .. ؟ ومتى يتحقق بهذا الحال .. ؟

يقول الإمام الشعراني : يكون العبد قريباً من ربه . إذا قسى قلوب عباده عليه وأطلق ألسنتهم بذمة . وكفّ ألسنتهم عن حمده والثناء عليه ومنعهم عن السعي أليه أو الالتقاء به .

في المستدرك . عن عمر بن عبسه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الأخر فإن استطعت أن يكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن .

[٢٠]– اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ٨٤ .

[٢١]– عوارف المعارف للسهروردي صـ٢٨٦ .

[٢٢]– الرسالة القشيرية تحقيق دكتور عبد الحليم محمود .

ويرى الإمام الشعراني : أن العبد لا يقربه الحق جل وعلا وهو يرى نفعاً أو ضراً من غيره . فأحسن الظن بربك وأنظر إلى من هو ناظر إليك . وأقبل على من هو مقبل عليك ([٢٣]) .

يقول الإمام القشيري : أول رتبة في القرب . القرب من طاعته والاتصاف في جميع الأوقات بعبادته .

وقال صلى الله عليه وسلم : مخبراً عن الحق سبحانه وتعالى .

(وما يقترب إليّ المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم . ولا يزال العبد يتقوب إليّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه) ([٢٤]) .

فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبي يبصر وبي يسمع .

حال الحياء

****

الحياء على قسمين خاص وعام .

فأما العام . فما أمر به الرسول ﷺ في قوله :

(استحيوا من الله حق الحياء . قالوا : إنا نستحي يا رسول الله : قال ليس ذلك : ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى . والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة . ترك زينة الدنيا . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) ([٢٥]) .

وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه . إنه قال :

---

[٢٣]- الأجوبة المرضية عن الأئمة الفقهاء والصوفية مخطوط صـ٢٨٠ .

[٢٤]- فيما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه " من عادي لي ولبا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه . وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به . وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمش بها ولئن سألني لأعطيته ولئن استغاذ بي لاعيذنه

[٢٥]- رواه الإمام أحمد في سنده والترمذي والحاكم في مستدركه ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود .

إني لاغتسل في البيت المظلم فأنطوي حياء من الله ([26]) .

وقال السري السقطي : احفظ عني ما أقول : إن الحياء والأنس . يطوفان بالقلب فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا وإلا رحلا ([27]) .

والحياء إطراق الروح إجلالا لعظيم الجلالة . والأنس التذاذ الروح ـ بكمال الجمال . فإذا اجتمعاً فهو الغاية في المنى والنهاية في العطاء .

وانشد بعضهم :

اشتاقه فإذا بـدا	أطرقت من إجلاله
لا خيفة بل هيبـة	وصيانة لجماله
الموت في أدبـاره	والعيش في إقباله
وأصد عنه إذا بـدا	وأروم طيف خياله ([28])

هذه بعض أحوال المحبين . تحقق بها الإمام الشعراني فكان مشتاقاً إلى ربه أنيسا بكرمه وفضله . غارقاً في نعمه وتفضله عليه . قريباً منه بعيداً عن كل ما يبعده عن مولاه . حيي منه . يخشى أن يراه في غير ما أمره أو يبتعد عن حضرته .

أو أن تمر عليه خطرات النفس وأمراض القلب فتبعده عن ربه أو تحول بينه وبين حضرة مولاه .

[26]- عوارف المعارف للسهروردي صـ٢٨٢ .

[27]- المصدر السابق صـ٢٨٨ .

[28]- عوارف المعارف للإمام السهروردي صـ ٢٨٨ جـ ٤ إحياء .

مقام الرحمة

****

قال تعالى : (محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ([1]) .

ويقرر الرسول ﷺ حقيقة الدعوة المحمدية بقوله : (أنا رحمة مهداه) ([2])

والإسلام يهتم بالرحمة ويربي اتباعه عليها ومن هنا كانت الرحمة مقاماً يتحقيق به الطالبون ويجد في تحصيله الراغبون .

والإمام الشعراني متبع لسنن الرسول ﷺ مقتد بأفعاله ، فالزم نفسه بشروط وقواعد سار على منوالها ومن هذه الشروط ، وكما يروى عن نفسه ألا يخرج من بيته إلا إذا أحسن القدرة على أن يتحمل الأذى من الناس .

وتحمل الأذى عنهم .

وجلب الراحة لهم .

وإذا نزلت بالمسلمين نازلة ، وحل بهم مكروه ، أو إذا تلفت زراعتهم ، وقل إنتاجهم تبعاً لذلك فإن الإمام الشعراني يأخذ نفسه بشيء من فطمها وبعدها عن المشتبهات يقول عن نفسه :

" لا أكل ولا أشرب ، ولا أجامع ولا أضحك ، إذا جنى أحد جناية يؤذي بها الناس ، وإذا نزل على أهل مصر بلاء شاركتهم فيه حتى يزول أو يخف .

الإمام الشعراني رضي الله عنه لبنة من جسم الأمة الإسلامية أنه حلقة من الحلقات التي تربط المسلمين برباط الآلفة والمحبة فإذا أصاب هذا الجسم شيء أصيب الشعراني بالسهر والحمى كما يروى عن سيد الخلق صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) ([3]) .

---

[1] - سورة الفتح آية ٢٩ .

[2] - ابن سعد والحكيم عن أبي صالح مرسلا ورواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضى الله عنه والإمام السيوطي في الجامع الصغير

[3] - رواه الإمام أحمد في سنده والإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير وهو صحيح .

وأصحاب هذه المقام لم يزل أحدهم مريضاً لتواصل وجـــود البـــلاء فـــي الوجود على اختلاف طبقاته ، فلا يستريح إلا في وقت لم يتوجه إليه المكروب ولم يبلغه أن أحداً في بلاء ولا عقوبة يتعين عليه مساعدته فيها ، هذا هو حظـــه مـــن الراحة في الدنيا .

يقول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ـ للجيش المسافر خـــارج الحـــدود لنشر دين الله ، وتأديب عصابات الشرك والكفر ـ سيروا على بركة الله وأنا أبـــو العيال حتى تعودا .

أقام نفسه مقام الأب ، والأب رحيم بأبنائه عطوف عليهم يبذل كل ما يملـــك في سبيل إسعاد بنيه .

ويروى عنه أيضاً ، أنه كان إذا نزل بالمسلمين هـــم أو بـــلاء أو أصيبـــوا بمرض ، يعاد كما تعاد المرضى ، وكذلك كان على هذا الطريق الإمام على كـــرم الله وجهه والإمام عمر بن عبد العزيز والإمام الشعبي وغيرهم رضى الله تعـــالى عنهم .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه هؤلاء الصحابة والتابعين :

" كانوا إذا نزل بالمسلمين البلاء لا يأكلون ولا يضحكون ولا ينامون ، كـــل ذلـــك ليس إلا لما يجدونه في نفوسهم من تحمل هموم المسلمين ومصائبـــهم ، وإن لـــم يصرحوا لهم بذلك ، ولا يزول كربهم حتى يرتفع البلاء " [4] . (1)

وهم في ذلك متابعون للرسول - صلى الله عليه وسلم في قوله : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منـ[هم]

والإمام الشعراني رضي الله عنه يروى تحقيقه بمقام الرحمة عن طريق رؤيا رآهـــا ليقول :

" قد رأيت في واقعة وأنا شاب ، أنني في أرض بوار واسعة وعليها ســـور شاهق ، نحو السحاب ، وليس له باب ، وأنا خلف الشيخ نور الدين الشوني ، شيخ مجالس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مصر وقراها ، بـــل وجميـــع أقطـــار الإسلام ، بمقتضى إنه أول من وضع صورتها .

٤- لطائف المنن والأخلاق صـ١١٣ جـ١ .

٥ - رواه الطبراني مرفوعاً

فبينما نحن نمشي إذا نزل من السماء قربة من ماء في سلسلة من ذهب إلى إن وقفت بقدر ما يصلها الفم فقط من القائم ، فشرب نور الدين منها ثم أعطـــاني الفضلة ثم جاوزته ماشياً وتركته حتى غاب عني ، فنزل شيء يشبه اللوح وهـــو في سلسلة من فضة على إن وقفت بقدر ما يصل إليه الفم كذلك ، فرأيت فيه ثلاث عيون تتفجر ماء بارداً ، أحلى من السكر ، ورأيت مكتوباً على العين العليا مستمد هذه العين من العرش . وعلى العين السفلي مستمد هذه العيـــن مـــن الكرســـي . فالهمني الله تبارك وتعالى ، إني أشرب من عين العرش ، فقصصت ذلـــك علـــى الشيخ شهاب الدين الهرامزى الواعظ المعبر .

فقال لي : تتخلق بالرحمة على جميع العالم ، لأن الحق تعالى ما ذكر إنـــه استوى على العرش إلا باسمه الرحمن ([٥]) .

لقد كان الرسول ﷺ . (لا يرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح)

وأبناء أمته من بعده على شاكلته مصداقاً لقوله عليه السلام :

(رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) ([٦]) .. والرحمة تقتضـــي الخوف .

---

[٥]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني صــ٦٥ جــ١ .

[٦]- رواه الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما عن أنس ورواه الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري والإمام مسلم والإمام الترمذي وأبي داود عن عباده بن الصامت .

ورواه الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري والإمام مسلم والبيهقي في سننه عن أبي هريرة رضى الله عنهم وهو صحيح .

مقام الخوف

****

قال الله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ([7]) .

وقال الرسولﷺ . عن عائشة رضى الله عنها . قالت قلت يا رسول .. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله ([8]) .

أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر .. ؟

قال لا : " ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبله الله منه" ([9]) .

ويعرف الإمام القشيري الخوف بقوله : هو معنى متعلقه في المستقبل لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب . ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل في المستقبل .

والخوف من الله تعالى . هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى أما في الدنيا وإما في الآخرة .

وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالى : (وخافون إن كنتم مؤمنين) ([10]) .

ومدح المؤمنين بالخوف فقال : (يخافون ربهم من فوقهم) ([11])

وأما الإمام الطوسيرضي الله عنه فإن يقسم الخوف على ثلاثة أنواع فيقول قد ذكر الله تعالى الخوف وقرنه بالإيمان بقوله :

(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

فهذا خوف الأجلة .

وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ([12]) .

فهذا خوف الأوساط .

---

[7]- سورة الرحمن آية ٤٦ .

[8]- سورة المؤمنين آية ٦٠ .

[9]- اللمع للطوسي تحقيق دكتور عبد الحليم محمود صـ١١٨ .

[10]- سورة آل عمران آية ١٧٥ .

[11]- الرسالة القشيرية تحقيق دكتور عبد الحليم محمود صـ٣٠٧ .

[12]- سورة الرحمن آية ٤٦ .

وقال : (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) ([١٣]) .

فهذا خوف العامة ([١٤]) .

والإمام بن عجيبه يتفق مع الإمام الطوسي في تقسيم العباد بالنسبة للخوف إلى أهل بداية وأهل وسط وأهل نهاية .

فأهل البداية ينبغي لهم تغليب جانب الخوف . وأهل الوسط ينبغي لهم أن يعتدل خوفهم ورجائهم . وأهل النهاية يغلبون جانب الرجاء . ويعلل ذلك بقوله .

أهل البداية إذا غلبوا جانب الخوف جدوا في العمل .

وأهل الوسط انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم فعبادتهم قلبية فلو غلبوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح ، والمطلوب عبادة البواطن .

وإما الواصلون : فلا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركا فهم ينظرون إلى تعريف الحق وما يجري به سابق القدر فيتلقونه بالقبول والرضا ([١٥]) .

وإذا كان الإمامان الجليلان الطوسي وأبن عجيبة ، قد بينا لنا أحوال الخائفين ومراتبهم في الخوف : فإن الإمام الغزالي رضي الله عنه . يضع بين أيدينا نتيجة الخوف وثمرته بقوله :

" الخوف باعث إلى الخير بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث إلى الخير بطريق الرغبة " ([١٦]) .

وأما الخوف عند الإمام الشعراني رضي الله عنه ، فهو يحيط بالمؤمنين ويملأ قلوبهم ما داموا في دار الدنيا ، وذلك لأسباب كثيرة منها عدم العصمة ، وجبلة الإنسان التي تجعله يضعف أمام المشتهيات والمرغوبات وأيضاً وجود إبليس كما قال تعالى على لسانه : (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصون) ([١٧]) .

ومن هنا نرى إمامنا يحذر مريدية بقوله :

---

[١٣]- سورة النور آية ٣٧ .

[١٤]- كتاب اللمع للطوسي تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود صـ٨٩ .

[١٥]- إيقاظ الهمم في شرح الحكم لأبن عجيبة صـ١٠٦ .

[١٦]- إحياء علوم الدين للغزالي صـ .

[١٧]- سورة الحجر آية ٤٠ .

" اياك أن تستبعد وقوعك في أكبر الكبائر . ولو توالت عليك المراقبة أناء الليـــل وأطراف النهار " ([18])

" لأن باب العصمة مسدود على غير الأنبياء فلا أمان لنا مادمنا فـــي هـــذه الدار ، وقد أغوي إبليس خلقا كثيراً حين ظنوا بأنفسهم الخير " ([19]) قال تعالى :

(فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ([20]) .

ويؤيد ما يدعو إليه الإمام الشعراني حاتم الأصم بقوله :

" لا تغتر بموضوع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، فلقـــى آدم عليه السلام فيها ما لقى ، ولا تغتر بكثرة العبادة ، فإن إبليس بعد طول تعبده لقى ما لقى ، ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فأنظر مـــاذا لقـــى ، ولا تغتر برؤية الصالحين ، فلا شخص أكبر قدرا من المصطفى صلى الله عليه وسـلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه ([21]) .

وإذا كان الخوف عند الإمام الغزالي باعثاً إلى الخير ، فإنـــه عنـــد الإمـــام الشعراني يؤدي إلى الاستقامة واتباع أوامر الدين ، وإذا استقام العبد ، وأدى أوامر ربه ، نتيجة الخوف من عقابه كان بمناة عن الوقوع في المعاصي . مصداقاً لقـول عمر رضي الله عنه :

" رحم الله صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه " : لو كنت له كتاب الإدمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبوديـــة ، أداء لما عرف من حق الربوبية فالعبد خائف من ربه مراقب لمولاه ، في كل نفس مـن أنفاسه وفي كل حركة من حركاته ، ولا يستطيع العبـــد إن يدعـــي العصمـــة أو الامتناع من الوقوع في المعاصي الظـــاهرة والباطنـــة إلا أن صـــارت حضـــرة الإحسان مقره ، لا يبرح منها ليل نهار كالأنبياء والملائكـــة وإلا فـــهو معـــرض للوقوع إذا خرج منها في وقت من الأوقات .

---

[18]- لطائف المنن للشعراني صـــ٨٧ و ٩٦ .

[19]- المصدر السابق صـــ٩٦ .

[20]- صورة الأعراف آية .

[21]- الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود صـــ٣١٤ جـــ١ .

ويرى الإمام الشعراني أن أحداً لا يحفظ إلا ما دام يعبد الله كأنه يراه ويعتقد هو أنه بين يدي الله تبارك وتعالى وأنه تعالى يراه .

يقول الرسول ﷺ :

(أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ([٢٢]) .

والخوف يقتضي الرجاء .

[٢٢]- اعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى ، وإياك ودعوات المظلوم رواه الطبراني ، وحسن السيوطي سنده ، وضعفه المنذري ، وقال الحافظ الهيثمي ، الرجل من النخع لا أعرفه ، اعبد الله ولا تشرك به شيئاً وأعمل كأنك تراه فإنه يراك وأعدد نفسك في الموتى رواه الطبراني والبيهقي عن معاذ ، قال الحافظ العراقي : رجاله ثقاب وفيه انقطاع أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وأحسب نفسك في الموتى ، واتق دعوة المظلوم ، رواه أبو نعيم في الحلية عن زبد بن أرقم .

مقـــام الرجـــاء

****

قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحـــاً ولا يشـــرك بعباده ربه أحداً) ([23]) .

وفي الحديث عن أبي الدرداء . عن نبي الله ﷺ . عـــن جـــبريل عليه السلام . قال : قال عز وجل : (عبدي ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفـــرت لك على ما كان منك . ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بمثلـــها مغفرة فاغفر لك ولا أبالي) .

والرجاء عند الإمام الطوسي رحمه الله على ثلاثة أقسام :

رجاء في الله .

ورجاء في سعة رحمة الله .

ورجاء في ثواب الله .

فالرجاء في ثواب الله وفي سعة رحمته . لعبد مريد قد سمع من الله ذكـــر المنن فرجاه . وعلم أن الكرم والفضل والجود من صفات الله فارتاح قلبـــه إلـــى المرجو من كرمة وفضيلة والراجي الله تعالى : هو عبد تحقق في الرجـــاء فـــلا يرجو من الله شيئاً سوى الله ([24]) .

ويعرف الإمام القشيري الرجاء بقوله :

" يعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل " .

ويفرق بين الرجاء وبين التمني بقوله :

" التمني يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجـــد وبعكســـه صـــاحب الرجاء . فالرجاء محمود . والتمني معلوم " ([25]) .

وهكذا يتفق الإمام القشيري مع حجة الإسلام الغزالي في أن الرجاء بـــاعث إلى الخير وداع إليه بطريق الرغبة .

---

[23]- سورة الكهف آية ١١٠ .

[24]- كتاب اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود صـــ ٦١ .

[25]- الرسالة القشيرية تحقيق دكتور عبد الحليم محمود صـــ ٣١٨ جـــ١ .

وفي حديث زيد الخيل ما يدل على ذلك . إذ قال لرسول الله ﷺ . جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد .. ؟

قال الرسول ﷺ كيف أصبحت .. ؟

قال : أصبحت أحب الخير وأهله . وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه . وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه . فقال الرسول ﷺ : هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها . ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت . فقد ذكر الرسول ﷺ . علامة من أريد به الخير ([٢٦]) فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير وطلب ذلك وألح عليه بدون عمل فهو مغرور .

وفي بعض التفاسير " أن الرسول ﷺ دخل على أصحابه من باب بني شيبه . فرآهم يضحكون .

فقال : أتضحكون .. لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ([٢٧]) .

ثم مر . ثم رجع القهقري . وقال نزل عليه جبريل عليه السلام وأتى بقوله : (نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم) ([٢٨]) .

والرجاء عند الإمام الشعراني رحمه الله .. يجب أن يكون على سبيل إظهار الذل والمسكنة لا طلبا لوقوع ما يرجوه . وهذا عنده رجاء العارفين . رضى الله عنهم .

---

[٢٦]- إحياء علوم الدين للغزالي صـ جـ٤ .

[٢٧]- عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أني أرى مالا لا ترون . واسمع ما لا تسمعون . اطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم ألا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرش . ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله . والله لوددت أني شجرة تعضد والله لوددت اني شجرة تعضد مدرج الحديث من كلام إلى ذر . ووراه البخاري بأختصار والحاكم وصححه والترمذي إلا أنه قال : ما فيها موضع أربع أصابع . وأوله عند أحمد والشيخان من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة رضى الله عنها ورواه الحاكم والطبراني من حديث أبي الدرداء وصححه الحاكم واقره الذهبي .

[٢٨]- سورة الحجر آية ٤٩ .

لأنهم على بصيرة من أمرهم فلا رجاء عندهم لشيء وحلاوة المنع عندهـــم كحلاوة العطاء .

إذا تحقق العبد بهذه المقامات وأصبحت له سلوكاً ومنهجاً افاض عليه العليم الخبير الفيوضات من عنده والتجليات من لدنه . فلا يرجو ولا يخاف . ولا يزهــد ولا يطلب بل يصبح عبداً خالصاً من الهوى والرغبة ، ساجداً لأمر ربـــه ، راض بمشيئة مولاه .

والإمام الشعراني رضي الله عنه ، زهد في مقامات الطـــالبين وفـــر مـــن أحـــوال الراغبين ، وتحقق بالعبودية الخالصة . فما حقيقة العبودية الصادقة التي يتحقق بها العبيد الخلّص لدى إمامنا الشعراني .. ؟

الفصل الثاني

مقـــام العبودية

****

يقول الله تعالى :

(وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون) ([٢٩]) .

ويقول الرسول ﷺ :

(إنما أنا عبد الله أكل كما يأكل العبيد) ([٣٠]) .

والإمام القطب الرباني أبن عطاء الله السكندري يقول :

" أجل مقام أقيم فيه مقام العبودية . وكل المقامات إنما هي كالخدمة لهذا المقـــام . والدليل على أن العبودية أشرف مقام قول الله سبحانه وتعالى :

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) ([٣١]) .

(وما أنزلنا على عبدنا) ([٣٢]) .

(كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا) ([٣٣]) .

أما ذو النون المصري رضي الله عنه فيعرف العبودية بقوله :

" أن تكون أنت عبده في كل حال كما أنه ربك في كل حال " ([٣٤]) بمعنـــى أن تترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار . وإذا كان مقام العبودية الذي هو اشـــرف المقامات لا يتم إلا بترك التدبير فحقيق على العبد أن يكون له تاركاً وللتســـليم لله تعالى وللتفويض له سالكاً .

ويفرق الشيخ زروق رضي الله عنه بين أوصاف الربوبية وبين أوصـــاف العبوديـــة فيقول :

أوصاف الربوبية أربعة تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية :

---

[٢٩]- سورة الذاريات آية ٥٦ .

[٣٠]- حديث صحيح أخرجه الترمذي ورواه البخاري .

[٣١]- سورة الإسراء آية .

[٣٢]- سورة الأنفال آية ٤١ .

[٣٣]- سورة مريم الآيتان ٢،١ . التنوير في إسقاط التدبير لأبن عطاء السكندري صـــ١٠٠ تحقيق الأستاذ موسى محمد على .

[٣٤]- الرسالة القشيرية صـــ جـــ .

أولها من العبد الفقر ومن الله الغني .

الثاني من العبد الذل ومن الله العز .

والثالث من العبد العجز ومن الله القدرة .

الرابع من العبد الضعف ومن الله القوة .

فمن استغنى بالله افتقر إليه . ومن افتقر إلى الله استغنى به ومن تعزذ بالله ذل له . ومن ذل له تعزز به ([٣٥]) .

ومن هنا نرى أنه ليس بين الربوبية والعبودية جامع بوجه من الوجوه . فصفات العبودية الذل والعجز ورؤية التقصير في جميع الأحوال ويفرق الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله . بين العبادة والعبودية والعبودة . ويرى أنها مراحل يسلكها العبد في الطريق إلى ربه فيقول : العبودية أتم من العبادة . فأولا عبادة . ثم عبودية ثم عبودة .

فالعبادة للعوام من المؤمنين . والعبودية للخواص . والعبودة لخاص الخاص . ويقول أيضاً : العبادة لأصحاب المجاهدات . والعبودية لا رباب المكابدات . والعبودية صفة أهل المشاهدات .

فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة . ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية . ومن لم يبخل عليه بروحه . فهو صاحب عبودية ([٣٦]) . ويقول الإمام الشعراني رضي الله عنه .

العبودية هي المرادة من العبد . وإنها أقرب الطرق إلى الله ـــ لأنها محض ذل وخضوع ـــ وأخلص مراتب الأنبياء والصديقين . ولذلك لما خير رسول ﷺ . بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً اختار العبودية . وقوله : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ([٣٧]) . أي لا افتخر بالسيادة وإنما الفخر لي بالعبودية لله تعالى . ولا جلها كان الإيجاد ([٣٨]) .

---

[٣٥]- إيقاظ الهمم في شرع الحكم للعارف بالله أحمد محمد بن عجيبة صـــ٣١٤ .

[٣٦]- الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وزميلة صـــ جـــ .

[٣٧]- الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه وفي رواية لأبي داود ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال :
" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع " .

[٣٨]- الأنوار القدسية في آداب العبودية للإمام الشعراني على هامش الطبقات الكبرى صـــ٩٠ جـــ٢ .

قال تعالى : (وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون) ([٣٩]) .

فالعبد ما خلق بألا صالة ليكون لله عبدا . فيكون عبدا دائما . فإذا خلع الله عليه خلعة السيادة وأمره بالبروز فيها برز عبدا في نفسه سيدا عند الناظر إليه فتلك زينة ربه وخلعته عليه .

قيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه . في تسمح الناس به وتبركهم .
فقال : ليس بي يتمسحون . إنما يتمسحون بحلية ربي الذي حلاني بها أفأ منعهم ذلك .. ؟ وذلك لغيري .. ([٤٠]) .

وللعبودية عند الإمام الشعراني آداب على العباد الخلص إن يتحلوا بها ويتصفوا بأوصافها فبقدر ما يعطي العبد يأخذ وبقدر ما يتخلق يتحقق فمن أراد أن يمده الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه ويسند أموره إلى سيده .

آداب العبودية

****

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه :
من شأن العبيد أن لا يقفوا مع شيء من المواهب التي منحهم السيد وينسون حقوقه عليهم من وجوب التوجه إليه دائما لأن جميع ما يطلبه العبد في الدنيا والآخرة لا يبرز إلا من خزائن سيده .

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) ([٤١]) .
والعبد إنما وظيفته امتثال الأمر واجتناب النهي إجلال لله تعالى لا طمعا في شيء ولا خوفا من شيء .

وليس من الأدب أن يطلب العبد أجراً على عمله .. لأنه يعمل لنفسه فكيف يطلب أجرا لها .. ([٤٢]) ؟ .

---

[٣٩]- سورة الذاريات آية ٥٦ .

[٤٠]- الأنوار القدسية في آداب العبودية للإمام الشعراني على هامش الطبقات الكبرى صـ٩٢ جـ٢ .

[٤١]- سورة الحجر آية ٢١ .

[٤٢]- سورة الصافات آية ٩٦ .

والعبد إنما وظيفته امتثال الأمر واجتناب النهي إجلالا لله تعالى لا طعماً في شيء ولا خوفاً من شيء .

وليس من الأدب إن يطلب العبد على عمله .. لأنه يعمل لنفسه فكيف يطلب أجرا لها .. ([1]) ؟

(والله خلقكم وما تعملون) ([2]) .

والعبد لا تسلم له عبادة واحدة بلا خلل ونقص وسؤ أدب فكيف يطلب ثواباً .. ؟ وهو إنما يستحق بفعلها على الوجه المذكور العقاب والمقت فمن الأدب أن يرى جميع ما يأتي إليه سبيل العبودية والذل والخضوع من الطاعات كله نقص وقلة أدب ([3]) .

قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) ([4]) .

وقال الرسول ﷺ : (سبحانك لا نحص ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مع أنه صلى الله عليه وسلم . قام حتى تورمت قدماه) .

يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه :

" إن العبد ليسجد السجدة . وفيها من الخشوع والخضوع ما يظن أنه بلغ بها إلى أعلى عليين . ولو قسمت ذنوبه في تلك السجدة على جميع أهل الأرض لأهلكتم أجمعين " ([5]) .

ومن الأدب : الرضا عن الله تعالى في كل حالة يكونون عليها فلا يكون عندهم سخط لشيء مما يجريه عليهم ولا ازدراء لما أعطاه كائناً ما كان . قال تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ([6]) .

---

[1]- لطائف المنن والأخلاق جـ١ صـ١٣١ .

[2]- سورة الصافات آية ٩٦ .

[3]- آداب العبودية للإمام الشعراني صـ١٧ جـ١ .

[4]- سورة الزمر آية ٦٧ .

[5]- الأنوار القدسية في آداب العبودية صـ٣٣ جـ١ .

[6]- سورة المائدة آية ١١٩ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (ذاق طعم الإيمان مـــن رضـــى بـــالله ربـــا وبالإسلام دينا وبمحمد نبياً) ([٧]) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (اعبد الله بالرضا . فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير) .

يقول العارف بالله ابن عطاء الله السكندري ..

من رضى بالله : استسلم له .

ومن رضى بالإسلام : عمل له .

ومن رضى بمحمد ﷺ : تابعه .

يقول الإمام الشعراني : " الحق سبحانه وتعالى أعلم بمصالحهم منهم فلا يفعل بـــهم إلا خيراً .

قال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ([٨]) .

فالحكمة الإلهية كاملة .. لا يقتضي أن يعطي العبد ما أعطى من أعلى وأدنـــــى . فلو أعطي غير ذلك فسد حاله . كما يشير إليه الحديث القدسي .

إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لفســـد حالــــه وإن مـــن عبادي من لا يصلح له إلا الغني ولو أفقرته لفسد حاله ([٩]) . ويرى أن طلب العبـد

---

[٧]-رواه الإمام مسلم عن العباس بن عبد المطلب ورواه أحمد في سنده والترمذي .

[٨]- التنوير في إسقاط التدبير تحقيق الأستاذ موسى محمد على الموشى صـــ٥٨ .

[٩]- إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى : جزء ٦ صـــ١٠٤ تفسير الخازن . الحديث : أخرجه احمد بن عبد الله الصالحي . عن أبي عمر بكر بن محمد المزني عن أبي بكر محمد بن سعيد الدمشقي عن صدقه بن عبد الله عن هشام الكتاني عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله عز وجل قال : يقول الله عز وجل :

من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وأني لأغضب لا وليائي كما الليث الحرد وما تقرب إلى عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلى بالنوافل حتى احبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره ساءته ولابد له منه ، وإن من عبادى المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه إلا يدخله عجبا فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغني ولو افقرته لا فسده . ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو اغنيته لا فسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن يصلح إيمانه إلا الصحة ولو اسقمته لا فسده ذلك . وإن من عبادي المؤمنين لمن يصلح له إلا السقم ولو أصححته لا فسده ذلك إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير .

وأخرجه كذلك الإمام القرطبي تحت تفسير قول الله تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغو في الأرض) سورة الشورى آية ٢٧ .

الانتقال من الحالة التي هو فيها اختيار غير ما اختار الله له . وهو مؤذن بأنه يدعي أنه أعلم بمصالحه من الله وكفى جهلاً وكفراً .

ودليل ذلك قوله تعالى : (أعطي كل شيء خلقه ثم هدى) ([10]) .

وأيضاً قوله تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة . سبحان الله وتعالى عما يشركون) ([11]) .

ومن آداب العبودية : أن لا يشهدوا لهم ملكا لشيء لا باطناً ولا ظاهراً .

يقول الإمام الشعراني : القاصر من الفقراء يغلب عليه شهود الملك لله تعالى من قطع النظر عن ملك الخلق أصلاً . ولا يرى تحريم شيء من غصب وربا ونحوهما .

والكامل من الفقراء من يشهد الملك لله رب العالمين مع شهود نسبة الملك للعبد لا يحجبه هذا عن هذا ؛ لأنه يشهد أن ملك العبد بتمليك الله تعالى له فضلاً منه ونعمة فليس هو بملك حقيقي . إنما هو نسبة شرعية يحرم غصبه وسرقته بغير طريق شرعي فلم يخرج عن ملك الله بنسبته إلى عبده ([12]) .

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :

" أحذر من دعوى الملك لشيء من باطنك وظاهرك لأن كل عبد ادعي ملكا حقيقة فليس بمؤمن لأن الله تعالى ([13]) قال :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ([14])

فالمؤمن من باع نفسه لله تعالى . بمعنى أنه لم يبق عنده منازعة فيما هو له تعالى : ومن آداب العبودية : إن يروا جميع النعم التي بأيديهم لوجهين وجه نعم . ووجه بلاء ومحنة . فربما أتت النعم في المحن .

---

[10]- سورة طه آية ٥٠ .

[11]- سورة القصص الآية ٦٨ .

[12]- الأنوار القدسية من آداب العبودية للشعراني صـ٢٧ جـ١ ولطائف المنن للشعراني صـ١٦٣ جـ١ .

[13]- لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن للإمام ابن عطاء الله السكندري .

[14]- سورة التوبة آية ١١١ .

يقول الإمام الشعراني : فالعبد يعطي الوجهين حقهما . فيرى وجه النعمة ويعترف بعجزة عن القيام بشكرهما . ويراها من وجه البلاء والمحنة . فيخاف المكر ــ والاستدراج ([15]) .

قال تعالى : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ([16]) .

وما دامت البلايا أكثر من النعم في الدنيا . فإنه ما من نعمة ينعم الله بها على عبده تكون خالصة من البلاء .

فإن الله تعالى يطالبه بالقيام بحقها من الشكر عليها وإضافتها إلى من يستحقها بالإيجاد . وأن بصرفها في المواطن الذي أمر الحق تعالى أن يصرفها فيه .

وكذلك في الرزايا . يتضمنها من التكليف ما تضمنه النعم من طلب الصبر عليها ورجوعه إلى الحق تعالى في رفضها وتقبلها بالرضا والصبر ([17]) .

الذي هو يحمي النفس عن الشكوى إلى غير الله لأن العبد يشتكي إلى غير مشتك إليه لأنه لا يقدر على رفع ما نزل بك إلا من أنزله .

ومن آداب العبودية : إن يتأدب العبد مع الله تعالى . ولا يتكلم إلا فيما يعلم فيؤمن بالمتشابه من كلام الله تعالى . ويقف على حد ما يعلمه الله منه . ولا يخوض فيه من غير تحقيق .

والعلم بالحكم من كتاب الله تعالى كاف لمن يريد العمل .

ووقوف العبد عن الخوض فيما لا يعلم من الدين هو الحق .

وقد سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن آية :

فقال : لا أعلم .

فكأن السائل استبعد ذلك : فقال أبو بكر رضي الله عنه :

" أي سماء تظلني أو أي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لم يرد " ([18]) .

---

[15]- آداب العبودية للإمام الشعراني صـ٣٠ جـ١ .

[16]- سورة القلم آية ١٤ .

[17]- المصدر السابق صـ٣١ .

[18]- الأنوار القدسية في آداب العبودية صـ٥٧ جـ١ .

ويرى الإمام الشعراني : إن لا يحل التكلم على معنى ذلك إلا لمن يصـــدق عليه قوله تعالى حقه في الحديث القدسي .

فبي يسمع . وبي يبصر وبي ينطق " ([19]) .

فالتسليم أولى من التأويل لأن غالب الناس لبسوا من أهل الفـــهم عـن الله تعالى لجهلهم وبعدهم بحظوظ أنفسهم عن فهم كلام ربهم . وقد وبخ الله تعالى مـن هذا حالة فقال ([20]) :

(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغـــاء الفتنـــة ابتغـــاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله) ([21]) .

والطريق إلى فهم كتاب الله العمل بما شرعه الله تعالى من التقوى والعمل . فإنه يفتح له باب العرفان . لأن الحق حينئذ يتولى تعليمه تعالى :

(واتقوا الله ويعلمكم الله) ([22]) .

" ومن كان الله يعلمه فهم كل شيء " ([23]) .

ومن آداب العبودية : التسليم لله تعـــالى فـــي جميـــع الأمـــور ولا ينافيـــه الاعتراض على الخلق فيما فعلوه . مخالفا للشرع . فهو مسلم لله تعالى في جميـــع ما يفعله في خلقه راض به مشاهد أن ناصيتهم بيده . منازع لخلقه . فيما خـــالفوا فيه أمره . ولذلك جاهدت الأنبياء والرسل في الكفار مع علمهم عليـــهم الصـــلاة والسلام بأن ما جاهد وهم لا جلة بقضاء الله وقدره . لأنه خلقه ومع علمـــهم بـــأن الكفار ما خرجوا عن الإرادة السابقة فيهم ([24]) .

يقول الإمام الشعراني . وأعلم إن من المحال أن يأتي مؤمن معصية توعـد الله تعالى عليها بالعقوبة إلا ويجد بعد الفراغ الندم على ما وقع منه . وفي الخير .

---

[19]- سبق تخرج هذا الحديث .

[20]- المصدر السابق صـ٥٨ .

[21]- سورة آل عمران آية ٧ .

[22]- سورة البقرة آية ٣٨٢ .

[23]- الأنوار القدسية في آداب العبودية صـ٧٨ .

[24]- المصدر السابق صـ٦٤ .

" الندم توبة " .

فلا يتصور ترك الندم للمؤمن العاصي . فلابد أن يكره المخالقه ولا يرضى بها .

فهو مؤمن بأنها معصية ويصدق عليه قوله تعالى :

(خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا) ([٢٥]) .

فالعمل الصالح إيمانه بأنها معصية . والعمل السيئ كونه فاعلا لها ([٢٦]) .

ويرى الإمام الشعراني : أن العبد أصغر قدراً وأحقر من أن يخالف الله سبحانه وتعالى باطناً وظاهراً ومستقبلاً بلا إرادة سابقة لأن ذلك إنما يكون للعبد المستقبل بما يفعل وذلك محال .

فجميع الخلق . ولو ادعوا الألوهية تحت القهر والقضاء السابق لا يخرجون عنه قال تعالى :

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه . فجعلناه سميعاً بصيراً . انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كافورا) ([٢٧]) .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى :

" الشيطان كالذكر . والنفس كالأنثى . وحدوث الذنب بينهما كحدوث الولد بين الأب والأم . لا أنهما أوجداه ولكن عنهما كان ظهوره " ([٢٨]) .

يقول العارف بالله ابن عطاء الله السكندري :

ومعنى كلام الشيخ هذا :

إنه كما لا يشك عاقل أن الولد ليس من خلق الأب والأم ولا من إيجادهما ونسب إليهما لظهوره عنهما . كذلك لا يشك مؤمن أن المعصية ليست من خلق الشيطان والنفس بل كانت عنهما لا منهما . فلظهورها عنهما نسبت إليهما :

---

[٢٥]- سورة التوبة آية ١٠٢ .

[٢٦]- الأنوار القدسية في آداب العبودية صـ .

[٢٧]- سورة الدهر آية ٣ .

[٢٨]- التنوير في إسقاط التدبير تحقيق موسى محمد علي صـ ١٤٤ .

فنسبة المعصية إلى الشيطان والنفس . نسبة إضافية وإسناد . ونسبتها إلـــى الله نسبة خلق وإيجاد . أنه خالق الطاعة بفضله . كذلك هو خالق المعصية بعدلـــه (قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) ([٢٩]) .

وقال سبحانه وتعالى : (الله خالق كل شيء) ([٣٠]) .

وقال أيضاً : (هل من خالق غير الله) ([٣١]) .

وقال سبحانه أيضاً : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ([٣٢])

يقول ابن عطاء الله رحمه الله . والآية القاصمة للمبتدعة المدعيــن . أن الله يخلق الطاعة . ولا يخلق المعصية قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) ([٣٣]).

فإن قالوا : قد قال الله تعالى : (إن الله لا يأمر بالفحشاء) .

الجواب : فالأمر غير القضاء .

فإن قالوا : قد قال الله تعالى :

(ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ..) ([٣٤]) ؟

الجواب : فهو على التفصيل تعليم للعباد التأدب معه . فأمرنا أن نضيـــف المحاسن إليه . لأنها اللائقة بوجوده . والمساوي إلينا لأنها اللائقة بوجودنا قيامـــاً بحسن الأدب . كما قال الخضر عليه السلام .

(فأردت أن أعيبها) ([٣٥]) .

وقال : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) ([٣٦]) .

وقال إبراهيم عليه السلام :

(إذا مرضيت فهو يشفين) ([٣٧]) .

---

[٢٩]- سورة النساء آية ٧٨ .

[٣٠]- سورة الزمر آية ٦٢ .

[٣١]- سورة فاطر آية ٣ .

[٣٢]- سورة النحل آية ١٧ .

[٣٣]- التنوير في إسقاط التدبير صـــ١٤٦ .

[٣٤]- سورة النساء آية ٧٩ .

[٣٥]- سورة الكهف آية ٧٩ .

[٣٦]- سورة الكهف آية ٨٢ .

[٣٧]- سورة الشعراء آية ٨٠ .

ولم يقل الخضر : فأراد ربك أن يعيبها كما قال :

(فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) .

فأضاف العيب إلى نفسه والمحاسن إلى سيده .

وكذلك إبراهيم عليه السلام لم يقل :

(فإذا مرضني فهو يشفين) بل قال :

(وإذا مرضيت فهو يشفين) .

فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه . مع أن الله تعالى هو فاعل ذلك حقيقة وخالقه .

فقوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله) أي خلقا وإيجادا وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي إضافة وإسنادا كما قال عليه السلام :

(الخير بيديك والشر ليس إليك) ([38]) .

فقد علم عليه السلام . أن الله خالق للخير والشر والنفع والضر ولكن التزم أدب التعبير ([39]) .

[38]- هذا الحديث رواه الترمذي في صحيحه .

[39]- التنوير في إسقاط التدبير صـ ١٤٨ ، ١٤٩ وآداب العبودية للإمام الشعراني صـ .

مقامات السالكين الساقطة بالعبودية

****

قال تعالى : (يا أهل يثرب لا مقام لكم فأرجعوا) وإن إلى ربك المنتـــهى يرى الإمام الشعراني : أن جميع المقامات سقطت عنـد العبيـد الخلـص فلذلـك استراحوا من صلاح الأعمال وسيئها . وما يشوب كمالها . لأن من سلك من بـاب العبودية من الذل والإفلاس ظاهرا وباطناً وعدم الحظوظ ورؤية التقصـير . فـي جميع أحواله لا يحتاج إلى علاج شيء من ذلك . لأنه يرى أعلى أحوالـه نقصـاً بالنسبة لما يستحقه جلال الله تعالى .

وأعلى طوائف العبيد عنده من لا مقام له . وهو يرى أن أصحاب المقامات انحضرت هممهم إلى غايات ونهايات فإذا وصلوا إلى تلك الغايات تجددت لهم فـي قلوبهم غايات أخرى . تكون تلك الغايات التي وصلوا بها بدايـة لـهذه الغايـات الآخر.

فتحكم عليهم الغايات بالطلب . ولا يزال لهم هذا الأمر دائماً وأما العبيد فما لهم هذا الحكم . لأن الحق مشهودهم . إذا علم العبد كان دائماً على عدم الاستقرار في طلب مقام من المقامات ليكون مع الحـق تعـالى . كمـا أن الله معـه قـال تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) ([40]) .

والإمام الشعراني يصور لنا فترة من فترات التطلع . التي تمر بها النفـس البشرية عندما تريد وتطلب .. وترجو وتلح وتظن أن العمـل . والعمـل وحـده يوصلها إلى غايتها ويدنيها من طلبتها ويحقق لها ما تريد .

يقول الإمام الشعراني : تحرك عند خاطر قوى . بطلب مقامات الأوليـاء رضى الله عنهم . وازدريت جميع ما أنا فيه وتكدر لذلك عيشى . بأن فـي ذلـك عدم الرضا بما قسمه الله تعالى . حتى خفت سـؤ الخاتمـة والمقـت والغضـب فخرجت على وجهي فبينما أنا بالفسطاط مقابل الروضة بمصر . أخذتني حالة بين النائم واليقظان .

---

[40] سورة الحديد آية ٤ .

فسمعت هاتفا أسمع صوته ولا أرى شخصه . يقول علـــى لســـانه الحـــق سبحانه وتعالى : (عبدي لو أطلعتك على جميع الكائنات وعدد الرمال . واسم كـل ذرة منه والنباتات وأسمائها وأعمارها والحيوانات وأعمارها وأنسابها إلى أصولـــها من الوحش والطيور والحشرات وسائر الدواب . وكشـــفت لـــك عـــن ملكـــوت السماوات والأرض والجنة والنار . وما فيهن ظاهراً وباطناً . وأنزلـــت المطـــر بدعائك وأحييت الميت وأجريت على يدك جميع ما أكرمت به عبـــادي المؤمنيـــن لست من عبوديتي في شيء) ([٤١]) .

يقول الإمام الشعراني رحمه الله . " فما أستتم هذا الكلام وبقى عندي شـــهوة نفسي لمقام من مقامات الأولياء لا في الدنيا ولا في الآخـــرة فحمـــدت الله تعـــالى شكراً على ما أولى " ([٤٢]) .

إن العبيد الخلص لا يطلبون ولا يتطلعون . وهـــم دائمـــاً يلفـــهم الرضـــا ويشملهم الاطمئنان في كل أحوالهم وفي جميع تصرفاتـــهم إن العبيـــد الخلـــص . حضرتهم العبودية المحضة فهم في ستر مقامهم وحالهم لربهم لا لأنفسهم .

فعلم إن أعلى طوائف العبيد من لا مقام له . وذلك لأن المقامـــات حاكمـــة على من كان فيها والرجل من له الحكم لا من يحكم عليه . فلنذكـــر جملـــة مـــن أحوال السالكين ومقاماتهم الساقطة بالعبودية .

لأن العبودية هي المرادة من العبد وأنها أقرب الطـــرق إلـــى الله وأخـــص مراتب الأنبياء والصديقين .

فمن ذلك : رؤية العبد أنه تاب مما سوى الله تعالى .

لأن رؤيته هذه تسترقه . فيخرج عن العبودية . فيتوب عن هذه الرؤيـــة امتثـــالاً لأمر الله تعالى .

(أن لا يتخذ من دونه وكيلاً) .

---

[٤١]- الأنوار القدسية في آداب العبودية جـ١ صـ٣ على هامش الطبقات الكبرى للشعراني .

[٤٢]- المصدر السابقة جـ١ صـ٣ .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه : إذا وقف العبد مع ما منح من العطاء حجب عن المانح ([٤٣]) .

وقد قال الشبلي رضي الله عنه .

" حد التوبة إن لا تشهد في الدارين سوى الله تعالى " ومن ذلك التفكر في ملكوت السماوات والأرض يشهد الحق سبحانه وتعالى فيه .

يرى الشعراني : " إنه طلب لحاله ما . يكون مع الحق سبحانه وتعالى . والعهد يشهد سيده دائماً في كل مكان بلا مكان فهو دائم الوقوف بين يديه لا يطلب منه شيئاً لا بلسانه ولا بقلبه إلا على وجه الذل والفقر " ([٤٤]) .

عبودته محضة لا ترجيح فيها للعطاء على المنع يوجه فمتى ترجع عنده العطاء على المنع . أو السعادة على الشقاء فهو حظ نفسه لم يبرح . مع ما في ذلك من التحكم على الله تعالى فإن كان ولابد من التفكر فالتفكر في نفسه لقوله تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) ([٤٥]) .

ولعله تعالى أحالنا في معرفته على معرفة فوسنا لعلمه أنا لا ندرك ولا نعلم حقيقة نفوسنا . ونعجز عن معرفتنا بنا فنعلم انا به أعجز ([٤٦]) .

وكيف يحيط الحادث بالقديم .. ؟

كيف يستطيع من يفني أن يكشف النقاب على من لا يفنى ([٤٧]) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا ([٤٨]) .

فذات الله سبحانه وتعالى لا تدرك بالفكر والعقل . لأن كل دليل عقلي يقبل الشبهة .

---

[٤٣]– الأنوار القدسية في آداب العبودية للإمام الشعراني جـ٢ صـ٩٣ .

[٤٤]– المصدر السابق جـ ٢ صـ٩٤ .

[٤٥]– سورة الذاريات آية ٢١ .

[٤٦]– الأنوار القدسية في آداب العبودية جـ٢ صـ٩٩ .

[٤٧]– المنفذ من الضلال تحقيق دكتور عبد الحليم محمود .

[٤٨]– رواه أبو الشيخ عن أبي ذر .. وفي رواية تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله تعالى فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة الأف نور وهو فوق ذلك أبو الشيخ في العظمة عن أبي عباس .

وفي رواية تفكروا في آلاء الله تفكروا في الله . رواه الطبراني في الأوسط ورواه ابن عدى في الكامل ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر .

قال تعالى : (ولا يحيطون به علما) ([49]) .

وغاية المعرفة العجز عن المعرفة . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه . والمراد بذلك : العجز عن الحكم على الله تعالى بما لا ينبغي له فقط بطريق دليل العقل . قيل لأبي الحسين النوري رحمه الله : بم عرفت الله تعالى .. ؟ فقال : بالله : فقيل فما بال العقل ؟ قال العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ([50]) .

إما من أخذ العلم من الله لا من دليله ونظره فهذا لا يعجز عن حصول العلم بالله لأن علمه موهوب من حكيم حميد .

ومن ذلك الحزن :

فالعبد لا يحزن على فوات شيء لأنه لو قسم له ما فاته . فإن الوقت الذي قسم له فيه طاعة لا يمكن خلوه عنها والوقت الذي قسم له فيه بطالة من كسل وخمول وغيرها لا يمكن خلوه عنها .

ووقت النوم لا يكون يقظة . ووقف اليقظة لا يكون نوما وغير الولي لا يكون وليا وهكذا .

ففي الحقيقة لم يفته شيء قسم له ثم فاته . حتى يحزن عليه . وإنما هو توهم على غير حاصل ([51]) .

ويرى الإمام الشعراني : إن الحزن يعطل وظيفة الوقت الحاضر عن كمال الإقبال والعبد مأمور بالإقبال على الله تعالى في كل نفس . ولو في أسبابه فيشهد إقامة الله له فيها .

وأعلم أن من حزن على شيء من الدنيا والآخرة لاستعباد إن إيجاد ضد ما وقع له كان أولى . فقد تعرض لمقت الله تعالى . لأن الحزن سؤ أدب معه تعالى . لأنه طلب لما لم يقسمه له . وصاحبه مع نفسه . فلو كان مع ربه رضى بكل حالة

---

[49]- سورة طه آية ١١٠ .

[50]- اللمع صـ٦٣ .

[51]- المصادر السابق صـ١٠٤ جـ٢ .

برزت على يديه ، يقول الإمام القشيري .. من كان في شياء الدرضا وبرد الموافقة فأني يكون له حزن ([٥٢]) ؟

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه :

" وأعلم أنه ليس في هذا الذي قررناه . ترك للأمر بالعمل لأن ذلك لا يصح والأمر بالعمل باق على وجوبه في كل وقت .

وكل شيء برز بعد الأمر والنهي من الموافقة أو المخالفة هو السابق في علم الله تعالى .

والواجب على العبد أن يعطي كل ما برز على يديه حقه . فما فيه مخالفة للأمر يتوب ويستغفر منه . وما فيه موافقة له يحمد عليه ومن فهم معنى قوله ﷺ : (كل ميسر لما خلق له) حقق هذا الأمر ([٥٣]) .

ومن ذلك الخوف والرجاء :

أما الخوف : فالمطلوب فيما يكون على سبيل الإجلال والتعظيم لله تعالى وتعظيم كل إنسان وإجلاله بحسب رتبته ومعرفته بالله تبارك تعالى .

قال صلى الله عليه وسلم : " أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه "

يقول الإمام القشيرية : من صفات لولى أن يكون له خوف . لأن الخوف ترقب مكروه يحل في المستقبل أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف . والولي أين وقته ليس له مستقبل فيخلف شيئاً . وكما لا خوف له ولا رجاء له . لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل أو مكروه يكشف ([٥٤]) .

وأما الخوف المعلول . فهو لأهل الحجب . والعبد الكامل لا حجاب له عن سيدة . ولا مراد له مع مراده . فكيف يخاف لعلة من عقاب أو غيره .. ؟

ولأن في خوفه هذا احتراز على النفس لدفع مكروه عنها في زعمه . ولا يخفي عجزه عن دفع ذلك عنها مع ما في ذلك من سؤ الأدب مع الله تعالى ([٥٥]) .

---

[٥٢]- الرسالة القشيرية صـ٥٢٥ جـ٢ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . سورة يونس الآيتان ٦٢-٦٣ .

[٥٣]- الأنوار القدسية في آداب العبودية جـ٢ صـ١٠٦ .

[٥٤]- الرسالة القشيرية صـ٥٢٥ <ت٢ .

[٥٥]- آداب العبودية جـ٢ صـ١٠٧ .

وأما الرجاء : فالمطلوب منه أن يكون على سبيل إظهار الـــذل والمســـكنة لاطليا لوقوع ما يرجوه .

هذا رجاء العارفين رضى الله عنهم لأنهم على بصيرة من أمرهــــم . فـــلا رجاء عندهم لشيء وحلاوة المنع عندهم كحلاوة العطاء .

ولأن في طلبه الوقوع لما يرجوه . معارضة للحق وتحجيراً عليه في ملكـــة مع ما فيه من سؤ الأدب مع الله تعالى . لأنه طلب لما لم يستحق وجوده وقســـمته له .

ويقول الإمام الشعراني رضي الله عنه : فهو رعونة نفس واختيار لحظها والعبد ليس له مع الله سبحانه وتعالى إرادة ولا اختيار .

قال تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ســـبحان الله تعالى عما يشركون) ([٥٦]).

يقول العارف بالله ابن عطاء الله السكندري رحمه الله .

في هذه الآية : الزم العبد بترك التدبير . وانفراده سبحانه وتعالى بالاختيار وتنزيـــه الله أن يكون لهم الخيرة معه ([٥٧]) . قال تعالى : (لم للإنسان مــــا تمنـــى .فللـــه الآخرة والأولى) ([٥٨]) .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه : فمن ادعى أن له إرادة واختيار مع الله تعـــالى حقيقة فهو مشرك . مدع للربوبية بلسان حالة . وأن تبرأ من ذلك بمقاله .

ويرى إنه بأس بهذا الشهود بقصد الاعتراف لله تعالى بالحجة البالغة عليه ([٥٩]) .

وأيضاً ليس من الاختيار المذموم عنده الاختيار الذي هو ملازم الفعل . لأن ذلك من لازم العبودية إذ لا يصح امتثال الأمر واجتناب النهي إلا بعد توجه القلـــب للفعل أو الترك . فلا يتصور لنا فعل من غير اختيار إلا فــــي المكـــره وحركـــة المرتعش .

---

[٥٦]- سورة القصص آية ٦٨ .

[٥٧]- التنوير في إسقاط التدبير تحقيق الأستاذ موسى محمد علي وزميله .

[٥٨]- سورة النجم الآيتان ٢٤، ٢٥ .

[٥٩]- آداب العبودية صـــ١٠٨ صـــ٢ .

يقول الإمام الحسن الشاذلي رضي الله عنه: :

" لن يصل الولي إلى الله تعالى ومعه تدبير من تدبيراته . أو اختيار من اختياراته " ([60]) .

ومن ذلك الزهد في حظوظ الدنيا والآخرة .

لأن رؤية العبد كونه زاهدا فيها . يحجبه عن سيدة ولأن العبد ناظر إلى تصرف سيده في العطاء والمنع والأخذ والترك . فلا يرى إنه ترك شيئاً وأخذ شيئاً ولأنه لا يصح .

إن يزهد فيما قسم له . وما لم يقسم له يحتاج في تجنبه إلى الزهد فيه . لأنه ليس له .

فالزاهد قسم الله له عدم الميل إلى تحصيل ما لم يطلبه فإراحة من التضييق في معيشته من الأزل بالنسبة لما لم يحصل له الحكمة يعلمها ([61]) .

وسئل الشبلي عن الزهد فقال لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد . أو يزهد فيما هو له . فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده ([62]) ..؟

ويرى الإمام الشعراني رضي الله عنه . إن جميع ما يرى الزاهد إنه تركه من الدنيا بتقد بركونه لا يساوي عند الله تعالى جناح يعرضه يعوضه . فلا يصلح إن يكون تركه كبير قربة إلى الله تعالى . إلا من حيث اتيانه بصورة الصفة المحمودة عنده تعالى ([63]) .

قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) ([64])

إن القلب السليم : هو الذي لا تعلق له بشيء دون الله تعالى وقال بعضهم : " لو كلفت إن أرى غيره لم أستطع . لأنه لا غير معه حتى أشهده معه " ([65]) .

---

[60]- لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه .

[61]- آداب العبودية صـ١١٣ جـ٢ .

[62]- عوارف المعارف على هامش الإحياء جـ٤ صـ٢٣٢ .

[63]- لطائف المنن والأخلاق للشعراني جـ١ صـ١٠٥ .

[64]- سورة الشعراء الآيتان ٨٨،٨٩ .

[65]- التنوير في إسقاط التدبير صـ٣٦٩ .

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التبتل .

وهو الانقطاع إلى الله تعالى دون غيره من الأنام . على وجه الارث عنه صلى الله عليه وسلم .

وهذا يفهم منه إنه العبد نازع إلى طلب قرب ووصول وطلب الحق من جهة مخصوصة وحال مخصوص . سواء كان بالخلوة والجوع أو غيرهما .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه : العبد الكامل لا طلب له في سكونه وحركته وعزلته ومخالفته ([٦٦]) .

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :

" من أقبح الذنوب عند بعض أهل الله تعالى التعلق بالطاعات والاوراد لنيل قربة أو غير وقد جف القلم بما هو كائن فلا تقوى تقي تزيده ولا فجوز فاجر بنقصه فاعبد الله مخلصاً له الدين إلا لله الدين الخالص ([٦٧]) .

وأعلم إنه ليس في هذا ترك للأمر بالعمل لأن ذلك لا يصح والواجب على العبد إن يعطي كل ما برز على يديه حقه فما فيه مخالفة للأمر يتوب ويستغفر منه وما فيه موافقة له يحمد عليه ومن فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

(كل ميسر لما خلق له) حقق هذا الأمر .

فدعوة المتبتل : إنه خرج عن كل ما سوى الله إلى جهل محض . لأنه يتخيل لأن العالم بمعزل عن ذلك . والله بمعزل عن العالم . فطلب الفرار إلى الله بحسب ما خيل وهمه وسبب ذلك عدم الذوق للأشياء .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه. وكونه سمع في القرآن قوله تعالى : (ففروا إلى الله) ([٦٨]) وهو صحيح .

إلا أن الفار بهذه المثابة لم يجعل باله إلى ما ذكر في الآية التي عقبها وهو قوله : (ولا تجعلوا مع الله إليهاً آخر) ([٦٩]) .

---

[٦٦]- آداب العبودية صـ٧٨ ولطائف المنن والأخلاق جـ١ صـ١٠٦ .

[٦٧]- لطائف المنن لأبن عطاء السكندري .

[٦٨]- سورة الذاريات آية ٥٠ .

[٦٩]- سورة الذاريات آية ٥٠ .

فلو عرف هذا عرف إن المراد بالفرار : إن يفروا من الجهل إلـــى العلـــم لأغير .

لأن الحق أقرب إلى نفسه منه وهو مع كل شيء على حــــد ســـواء ([70]) . ومن ذلك رؤية العبد إنه من أهل الاستقامة .

ومن أين للعبد ادعاؤها .. ؟ وسيد المرسلين صلى الله عليه وســـــلم يقـــول شيبتني هود وأخواتها .

قال بعض علماء الصحابة رضى الله عنهم . لا نرى ذلـــك إلا مـــن قولـــه تعالى : (فأستقم كما أمرت) ([71]) .

يقول الإمام الشعراني : إن شهد العبد الاستقامة فهي منه من سيده ســـبحانه وتعالى لأنه هو المقيم له في الاستقامة . فلا ينبغي للعبد أن يقف مع هذه الرؤيـــة فيحجب .

وأعلم أن من الاستقامة ترك الدعوى . سواء كان المدعي محقاً أو مبطـــلا ظاهراً أو بإعلنا ([72]) .

ومن ذلك رؤية كونه من أهل التوكل .

لأن هذه الرؤية للعوام . وإما العبيد الخلص . فقد علموا إن الحق تعالى وكل جميع الأمور إلى نفسه . فليس للعبد من الأمور شيء .

والعبيد الخلص ترقوا عن التوكل المعلوم . وتوكلهم شهودهم إن الأمر لـــم يزل موكولا إليه سبحانه وتعالى .

وقولهم : " توكلنا على الله . أو وكلنا أمرنا إلى الله . امتثالا للأمر . وتعبـدا وخضوعا وإقرارها بالعجز عن إن يملكوا من أمرهم شيئاً .

اشتغلوا بما أمرهم . عما ضمن لهم علماً بأنـــــه لا يكلـــهم إليـــهم ولذلـــذة التفويض فرفع الله بذلك مقدارهم وكمل أنوارهم ([73]) ويحق إن يرفـــع المحاســـبة عنهم بفضله كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام .

---

[70]- آداب العبودية صـــ١٣٨ جـــ٢ .

[71]- سورة هود آية ١١٢ .

[72]- آداب العبودية للإمام الشعراني صـــ١٣٤ جـــ٢ .

[73]- المصدر السابق صـــ١٣٥ جـــ٢ .

(سبعون ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب) ([٧٤]) .

وكيف يحاسب من لاشيء له .. ؟ لك كيف يسأل عن فعله من شهد إنه لا فعل له .. ؟ .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه . وإما الذين لم يشهدوا إن الأمر كله لله من العوام . فتوكلهم جعلهم الحق تعالى وكيلا في أمرهم . فهم متخيلون إن الملك لهم وإنهم أصحاب الأموال لتوهمم إن إضافة الحق سبحانه وتعالى الأموال لهم بقوله " أموالكم " إضافة ملك . ولم يعلموا إن تلك الإضافة . كإضافة سرج الدابة وباب الدار .

ويقال للمتوكلين .. فبماذا أوكلتم فيه ربكم .. ؟ .

إن وكلتم الأمر فيما هو له . فالأمر هو له قبل إن توكلوه إليه .

وإن وكلتم إليه رأيتم إنه لكم . فليس لكم من الأمر شيء ([٧٥]) ومن ذلك رؤية إنه من أهل التسليم .

حقيقته في عرف اللسان . تسليم ما دون الحق إلى الحق ولا يخفي ما فيه من الجهل والدعوى لأنه لا يملك شيئاً من باطنه ولا من ظاهره حتى يسلمه .

والعبد الخلص لما شهدوا ذواتهم وصفاتهم وجميع الكائنات في قبضه الحق يتصرف فيها كيف يشاء . لم يجدوا شيئاً خارجاً عنها فيسلموه له فلذلك سلموا من رؤية التسليم ودعواه ([٧٦]) .

ومن ذلك رؤية كونه من أهل الرضا بما قسمه الله له في جميع الأحوال .

لأن هذا الرضا فرع من الإدارة . والعبد لا إرادة له في جميع الأحوال مع الله تعالى .

فلذلك كان العبد لا يرى لنفسه سخطاً ولا رضا . ولا يرجح شيئاً على شيء ولا يؤثر حالا على حال . فهو راضي عن الله تعالى في كل حالة هو فيها .

---

[٧٤] – أخرجه البزار عن أنس رضي الله عنه .

[٧٥] – آداب العبودية جـ٢ صـ١٣٦ .

[٧٦] – المصدر السابق صـ١٤٢ جـ٢ .

إن كانت معصية في الشرع فيرضى بها ممن حيث كونها فعل الله تعــالى . ويتوب منها ويستغفر من حيث كونه اكتسبها وخالف أمـــر الله تعــالى . بعــد أن نصب له الدلائل وأرسل إليه الرسل . وخلق له العقل .

فالعبد يرضي بالقضاء لا بالمقضي .

(ولا يرضى لعباده الكفر) () .

(إن الله لا يأمر بالفحشاء) ()

(أتقولون على الله ما لا تعلمون

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه :واعلم إن من الأدب مـــع الله تعــالى إن لا يطلب منه زيادة من المنح ولا نقصا من المحن .

وقد طلب بعض العارفين ذلك فنودى . ما اخترناه لك أولى ممـــا تختـــاره لنفسك فأصبر تحت جريان أحكامنا ([77]) .

وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ: سألت الله تعالى إن يرزقنـــي قيـــام الليـــل . فعوقبت بحرمان الفرائض ثلاثة أيام .

ثم نوديت كن عبد لنا تسترع . فإن انمناك نم وأنت راض وإن اقمناك قـــم وأنت شاكر وليس لك في الوسط شيء . قال فصرت عبدا له فاسترحت .

وتساوى عندي نومي ويقظتي لعلمي بأن كل شـــيء هـــو الســـابق عنـــده والخيرة فيه ([78]) .

ويرى الإمام الشعراني ﷺ . إن طلب الزيادة من الخير وغيره على ســبيل إظهار الذل والعجز لا بأس به قال تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام:

(رب إني لما أنزلت من خير فقير) ([79]) .

فعلم منه إنه لا ينبغي للعبد إن يكتفي بما عنده فيظهر الغني فيخـــرج عـــن حده ولا يجد منعماً غير ربه فهو محتاج إليه شاء أم أبي . فإن لم يســـأل اختيـــارا سأل اضطراراً .

---

[77]- آداب العبودية صـــ١٤٦ جـــ٢ .

[78]- المصدر السابق صـــ١٤٧ جـــ ٢ ولطائف المنن والأخلاق صـــ٢٠٢ جـــ١ .

[79]- سورة القصص الآية ٢٤ .

يقول العارف بالله ابن عطاء الله السكندري :

" الطلب من الله تعالى لا يناقض مقام العبودية . لأن موسى عليه السلام له الكمال في مقام العبودية .وبعد ذلك طلب من الله فدل على أن مقام العبودية لا يناقض الطلب .

فإن قلت : إن مقام العبودية لا الطلب . فكيف لم يطلب إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم .. ؟ حين ربي به في المنجنيق . وتعرض له جبريل عليه السلام . فقال :

ألك حاجته .. ؟ فقال :

أما فيك فلا .. وإما إلى الله فبلى .

قال : سله .

قال : حسبي من سؤالي . علمه بحالي .

فاكتفى بعلم الله تعالى به عن إظهار الطلب منه .. ؟

فالجواب .. إن الأنبياء صلوات الله عليهم يعاملون في كل موطن بما يفهمون عن الله . إنه اللائق به .

فقهم إبراهيم عليه السلام. إن المراد به في ذلك الموطن عدم إظهار الطلب والاكتفاء بالعلم بما فهمه عن ربه . وإما موسى عليه السلام . فإنه علم إن علم مراد الحق تعالى منه في ذلك الوقت إظهار الغاقة وأبدأ المسألة فقام بما يقتضيه وقته ولكل وجهه هو مولها .

" فكل على بينته وهداية وتوفيق من الله ورعاية " (٨٠) .

خاتمة

****

العبودية اقرب الطرق إلى الله مراتب الأنبياء . وإذا تحقق العبد بمقام العبودية . سقطت عنده جميع المقامات أيرى العبد إنه تاب .. ؟ ومم يتوب إذا كانت أنفاسه مع ربه . وخلجاته مع مولاه واستقام كما أمره . وجاهد في سبيله

٨٠- التنوير في إسقاط التدبير تحقيق موسى محمد على وزميلة صـ٢٥٠ .

فهداه إليه . أيتفكر في ملكوت السماوات والأرض . ليرى ربه ويشهد مولاه ومتى غاب عنهم حتى يتفكروا فيه . إن العبيد الخلص مع ربهم دائماً لا يغيب عنهم طرفه عين .

(هو معكم أينما كنتم) ([81]) .

والعبيد الخلص لا يطرقهم الحزن . ولا يحل بهم اليأس وكيف ذلك والله تعالى يقول : (لا يحزنهم الفزع الأكبر) .

وأي شيء يستحق الحزن .. ويتطلب اليأس ..؟ إن ما قم له لابد إن يأتيه وما لم يقسم له فمحال أن يصل إليه .

" ما أصابك لم يكن ليخطئك وما اخطأك لم يكن ليصيبك " ([82])

والعبيد لا يخافون ولا يرجون .. لا يخافون الخوف المعلول الذي يكون فيه احتراز على النفس لدفع مكروه . وإنما خوفهم إجلالا وتعظيمها لمولاهم . الذين أمنوا وكانوا يتقون تتنزل عليهم الملائكة إلا تخافوا ولا تحزنون وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون .

وإذا العبيد الخلص لا يخافون خوفاً معلول . فهم كذلك لا يرجون إلا على سبيل إظهار الذل والسكنه لا طلباً لشيء ولا تمنياً لشيء . وحلاوة المنع عندهم كحلاوة الإعطاء . ط فهموا عن الله وساروا إلى الله . وأعرضوا عما سوى الله . خرفت الحجب أنوارهم . وجالت حول العرش أسرارهم . وجلت عند ذي العرش إخطارهم . وعيت دون العرش أبصارهم . فهم أجسام روحانيون . وفي الأرض سماويون ومع الخلق لابانيون . سكوت نظار . غيب حضار . ملوك تحت أطمار أنزاع قبائل . وأصحاب فضائل . وأنوار دلائل . أذانهم واعية أسرارهم صافية ونعوتهم خلفية ([83]) .

---

[81]- سورة الحديد آية ٤ .

[82]-

[83]- التعرف لمذهب اهل التصوف للكلا بازي صـ٤٣ .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه .

" جاءني هاتف في المنام وقال لي : أسمع هذا الكلام الجامع لكل كلام فقلت نعـــم فقال على لسان الحق : ليس للعبد إن يشغل قلبه في كل نفس بالاختيار لفعل شـــيء أو تركة في المستقبل وإنما عليه إن يعطي ما أبرزناه على يديه حقه . فـــإن كـــان طاعة حمدنا عليها واستغفرنا من تقصيرة فيها . وإن كان معصية حمدنـــا علـــى تقديرها عليه واستغفرنا من ارتكابه مخالقة أمرنا . وإن كـــان غفلـــة وســـهوا أو نحوهما فعل ما هو اللائق بها ([٨٤]) .

وهذا هو مقام العبودية .

[٨٤]- الأنوار القدسية في آداب العبودية للشعراني صـــ١٧١ جـــ٢ .

الفصل الثالث

" الكرامة "

....

الكرامة ما حقيقتها .. ؟ هل هي لازمة من لوازم التصـــوف ترتبـط بـه وتتحقق معه .. ؟ أو أنها شيء خارج عنه غير مرتبط بـه ولكنـها قـد تتحقـق بوجوده .. ؟ والولي ما نوع الكرامة التي يجريها الله على يديه .. ؟ أهي الكرامـة الحسية كالمشى على الماء والطير في الهواء وعلى الأرض والبحار .. ؟

أم أن الكرامة الحقيقية شيء آخر غير هذا لا يرتبط بأرض ولا سـماء .. ؟ وأخيراً هل الكرامة شرط للولاية . بمعنى أنه إذا وجد الولي وجـدت الكرامـة أم أنها ليست بشرط له ؟

أننا نرى الكرامة " المعنوية " لازمة من لوازم التصـوف . وتابعـه مـن توابعه فهي في حقيقتها هدية الله للمتقين وخلعته على المحبين . والهدية لا تحـدد بمقدار ولا تقف عند حد . قال تعالى : " ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذيـن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ([1]) .

وإذا كانت الكرامة هدية الله لعباده . ونفحته لاوليائه فهي إكـرام مـن الله للعبد . وإكرام الله مستمر دائم حتى يصل هذا الإكرام إلى درجة لا يكاد يتصورها أحد .

والعبد إذا اتقى الله حق تقاته . إذا أتبع أوامره واجتنب نواهيـه إذا تخلـق بأخلاق ربه . أصبح ربانيا يقول للشيء كن فيكون . تتوالـى عليـه الفيوضـات الربانية والتجليات الإلهية . وليس في ذلك شيء تحيله العقول . لأن العبد التقـي . خليفة الله في أرضه . وعلام ننكر عليه شيء ممكن وقوعه . مادام هذا الشـيء بالقدرة الإلهية . ولا يلزم من جريانه على يد العبد محال .

يقول الشيخ اليافعي رحمه الله " الكرامة من جملة الممكنات التي لا تستحيل على القدرة الإلهية .

---

[1]- سورة النساء آية ٦٩-٧٠

وفي الحديث القدسي . الذي رواه البخاري . في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عن رسول الله ﷺ عن رب العزة جل وعلا " من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده الذي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه ([٢]) "

ومع ذلك فالمتصوفة يخشون الكرامة الحسية ويرهبونها . ولا يتعلقون بها بل لو خيروا ما اختاروها . لأنها على أحسن فروضها جزاء معجل في الدنيا . ورجال الله الصادقين لا يطلبون الدنيا . لا تساوي عند الله جناح بعوضة ولأنها " جيفه قذرة ([٣]) فهي أقل من أن تطلب وبالتالي لا يرجون الأخرة . وإلا كانوا كأجراء السوء الذين يطلبون الأجر على العمل إنهم لا يخافون النار ولا يرجون الجنة وإنما هدفهم وغايتهم الفرار إلى الله . " أني ذاهب إلى ربي سيهدين " ([٤])

ويؤيد ما نذهب إليه . ما يروي عن سيدي على الخواص رحمه الله " الكمل يخافون من وقوع الكرامات علي أيديهم . ويزدادون بها وجلا وخوفاً . لا حتمال أن تكون استدراجاً ومعجزات الأنبياء تزيد قلوبهم تثبيتاً لعصمتهم عن وقوع الاستدارج لهم . وأيضاً فإن الأنبياء يحتجون بالمعجزات على المشركين والأولياء يحتجون بالكرامات على أنفسهم لتصلح ولنفوسهم لتطمئن . وأجمع القوم على أن كل من خرق العادات بكثرة العبادات . والمجاهدات لابد له أن تخرق له العادة إذا شاء ها ([٥]) "

رجال التصوف الصادقون وأولياؤه المخلصون يخشون الكرامة . الكرامة الحسية مخافة أن تكون جزاء معجلا ومكافأة دنيوية فيقال لهم في الآخرة أذهبتم طبياتكم في حياتكم الدنيا فهم لهذا يرهبونها . ولا تطمئن قلوبهم إليها . وإذا لم تكن جزاء فقد تكون استدراجاً لهم . قال تعالى " سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ([٦]) "

---

[٢]- رواه البخاري عن أبي هريرة .

[٣]- أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

[٤]- سورة الصفات آية ٩٩ .

[٥]- اليواقيت والجواهرة للشعراني صـ ١٠١ جـ٢ .

[٦]-سورة القلم آية ١٤ .

وإذا لم تكن هذا ولا ذاك فهم يخافون من نفوسهم ولا يطمئنون إلى قلوبهم لأنها قد تقع على أيديهم فتؤدي بهم إلى الغرور والكبرياء وإلى غير ذلك من علل النفس وشهوات القلب .

إذا كان ذلك كذلك فما حقيقة الكرامة . عند رجال السنة والجماعة وما رأي رجال التصوف في وقوعها .

" رأي رجال السنة والجماعة في الكرامة "

يرى أهل السنة والجماعة أن الكرامة : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مؤمن صالح غير مقرون بدعوى النبوة ، ومذهبهم في كرامات الأولياء أنها حق ، لأنها أمور ممكنة دل على وقوعها الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعالى في شأن مريم عليها السلام : " كلما دخل عليها ذكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب (٧) "

ومنها قوله تعالى : في شأن أهل الكهف : فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا (٨) .

ومنها قوله تعالى في قصة صاحب سليمان عليه السلام .. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي (٩) " .

وأما الأحاديث النبوية فكثيرة منها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " لقد كان فيما فيلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر (١٠) .

٧- سورة آل عمران آية ٣٧ .

٨- سورة الكهف آية ١١،١٢ .

٩- سورة النمل آية ٤٠ .

١٠. رواه الإمام أحمد في سنده ، والإمام البخاري في صحيحة عن أبي هريرة رضى الله عنه

وفي رواية أخرى " قد كان فيمن فبلكم من بني إسرائيل يكلمون من غـــير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فعمر " رواه البخاري ومسلم .

قال ابن وهب : تفسير محدثون : ملهمون وسئل بعض أهــل الفــهم عــن المحدث ، فقال : أعلى درجة من درجات الصديقين ، ودلائل ذلك ظهرت عليــه وهو ما ذكر عنه أنه كان يخطب فصاح ، فقال في وسط خطبته : يا سارية الجبـل ، وسارية في عسكر على باب نهاوند فسمح صوت عمر ، رضى الله عنه . وأخـذ نحو الجبل وظفر بالعدو .

وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ فقــال : ســمعت صــوت عمــر ،رضي الله عنه يقول : يا سارية الجبل ([11]) . وفي الحديث دليل على إثبات كرامات الأولياء كمــا قال الإمام النووى رضي الله عنه تعالى عنه .

وقال الرســـول ﷺ : اتقــوا فراســة المؤمــن فإنــه ينظــر بنــور الله عز وجل ([12]) " أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الطـــب النبــوي ، إذا كانت المعجزة حجة الرسول على المشركين . حتى تلين قلوبهم لذكر الله فيؤمنـــوا وتشرق نفسهم بشرع الله فيهتدوا . فإن الكرامة حجة الله على عبده المؤمن حتـــى يسير في الطريق . ولا يدركه الكلال ويذكر الله المنعم الوهاب فلا ينساه . ويفـــر إليه . يفر من نفسه إلى ربه . يفر من الكون إلى المكون " وعجلت إليـــك ربـــي لترضى " ([13])

هذه الكرمة الثابتة بالكتاب والسنة . المؤيدة بالعقل والنقل . والتي قررهـــا العلماء واعترف بها الفقهاء . وأمن بها رجال الكلام . ولم يشذ عن ذاك إلا بعـض رجال مدرسة الاعتزال . هذه الكرامة كما بينا لا يتطلع إليها الأولياء . ولا يطلبـها العارفون ولا يتمسكون بها إن وقعت ويرفضون إذاعتـــها إن إكرمـــهم الله بـــها . ولكنهم مع ذلك يعترفون بها ولا ينكرونها ويؤمنون بتحققـــها . لأنـــها هديـــة الله

---

[11]- اللمع للطوس تحقيق د . عبد الحليم محمود .

[12]-رواه البخارى في التاريخ ، والترمذي عن أبي سعيد ، والطبراني في المعجم الكبير ، وأبن عدي في الكامل عن أبي أمامه وحسن الهيثمي وابن جرير عن أبن عمر رضى الله عنهم .

[13]-سورة طه آية ٨٤ .

ونفحته لعبادة .. عبادة الذين يقومون الليل " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعــون ربهم خوفاً وطمعاً ([14]) يذكرونه ولا ينسونه " ويعبدونه ولا يجحدونـــه . هــؤلاء الرجال " ما حقيقة الكرامة عندهم وما دلائها في مفهومهم .. إننا نريد أن نتعــرف على آرائهم وحقيقتها في اتجاهاتهم : القدساء منهم والمحدثون "

" رأي رجال التصوف في الكرامة "

يقول شيخ الصوفية الإمام أبو القاسم القشـــيري فـــي رســالته . ظـــهور الكرامات على الأولياء جائز والدليل على جوازه . أنه أمر موهوم فـــي العقــل لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول . فواجب وصفه سبحانه بالقدرة علـــى إيجاده . وإذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصوله ([15]) " .

إذا عرف رجال السنة والجماعة الكرامة بأنها أمر خارق للعبادة يظهره الله على يد المؤمن الصالح اكراماً له فإن الإمام القشيري يتجه مباشرة إلـــى جــواز وقوع الكرامة لأن العقل يقبل ذلك ولا يرفضه ويستسيغه ولا ينكـــره . ويـــرى أن وقوعها على يد الولي لا يتعارض مع أصل . فواجب وصفه سبحانه بالقدرة علـــى إيجاده . وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه . فلا شيء يمنع جواز حصوله .

وإذا كانت الكرامة لا تقع إلا بإذن الله فما الذي يمنع من وقوعها .. ؟

وما الحائل الذي يحول دون جوازها ..؟ ومن تقع على أيديهم لا ينســـبونها إلى نفوسهم ولا يضيفونها إلى قدراتهم . وإنما ينسبونها إلى الله القادر علـــى كـــل شيء ومن هنا فليس ثمة شيء يمنع من وقوع الكرامة .

والمشاهد أن الإمام القشيري رحمه الله يفرق بين معجزة الأنبياء وكرامـــة الأولياء وهو بذلك يرمي إلى أمرين أولاهما . اقناع الجاحدين المنكرين للكرامـــات والذين يقولون لو سلمنا بوقوعها لا ختلطت بمعجزات الأنبياء وثانيهما التنبيه علـــى أن الكرامة لا يتحدى بها ولا يعلنها صاحبها إلا لضرورة ، وإلا فهو مدع مكـــابر

[14]-سورة السجدة ىية ١٦ .

[15]- الرسالة القشيرية صـــ٦٦ جـــ٢ .

ومضلل أفاك ويرى أن الفرق بين المعجزة والكرامة . أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولي يجب عليه سترها واخفاؤها والنبي عليه السلام يدعى ذلك ويقطع القول به والولي لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرا.

والإمام القشيري يروي الكثير من الكرامات ويحشد الجم الخفير منها مما وقع للصحابة والتابعين ورجال التصوف الصادقين . ويرى أن الكرامات قد تكون إجابة دعوة . وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر . أو حصول ماء في زمان عطش أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة أو تخليصا من عدو أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة . ويستدل على وقوعها بنص القرآن الكريم في قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال " أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ([16]) " .

ويحديث الغار والثلاثة الذين انطبق عليهم فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ([17]) . فإذا تركنا الإمام القشسري ورأيه في الكرمة . إذا تركنا آراء رجال التصوف الصادقين في القرن الخامس الهجري . وانتقلنا إلى رجل آخر من كبار رجال التصوف الصادقين ومن المؤرخين لهم في القرن العاشر الهجري إلا

---

[16]- سورة النمل آية ٤٠ .

[17]- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم ، فأواهم المبيت إلى غار فدخلوه ز فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا إنه والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا، فعاقني طلب الشجر يوما فلم أنزع عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدهما نائمين . فتحرجت أن أو قظهما وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فقمت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت انفراجا لا يستطيعون الخروج منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الأخر : اللهم إنه كانت لي بنت عم ، وكانت أحب الناس إلى فراودها عن نفسها فامتنعت . حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارا على أن تخلى بيني وبين نفسها ، ففعلت . حتى إذا قدرت عليها قالت : لا يحل لك أن تقض الخاتم إلا بحقه . فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلى . وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم قال الثالث اللهم إني استأجرت إجراء فأعطيتهم أجورهم . غير رجل واحد منهم ترك الذي له وذهب فثمرت أجره فجاءني بعد حين فقال : ياعبد الله أد إلى أجرتي ، ، فقلت له : كل ما ترى من أجرتك من الأبل والغنم والبقر والرقيق ، فقال يا عبد الله لا تستهزى بي ؟ فقلت : إني لا استهزىء بك فأخذ ذلك كله فاستاقه . و لم يترك منه شيئا . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه . فأنفرجت الضخرة فخرجوا من الغار يمشون " .

وهو الإمام عبد الرؤوف المناوي المقتول نراه يردد ما قاله شيخ الصوفيه سابقاً ويسوق الحجج ويأتي بالأدلة والبراهين لوقوع الكرامة على أيدي الأولياء . ويذكر الكثير من كرامات الصحابة والتابعين وأولياء الله الصالحين .

ويبدأ المناوي حديثه بتعريف الكرامة بأنها " ظهور أمر خارق للعادة على يد الولي مقرون بالطاعة والعرفان بلا دعوى نبوة وتكون للدلالة على صدقه وفضله أو لقوة يقين صاحبها أو غيره . وهي جائزة وواقعة عند أهل السنة([١٨]) "

ويرى المناوي أن الكرامة أمر ممكن إذ لا يلزم من فرض وقوعها محال لذاته . فهي جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآني والحديث النبوي . أما القرآن فكقصة أهل الكهف حيث أقاموا فيه ثلثمائة سنة وازيد نياما أحياء بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء بإجماع الفرق . وقصة مريم عليها السلام . حيث حملت بلا ذكر . ووجدت الرزق عندها بلا سبب . وتساقط الرطب من شجرة يابسه بلا موجب . وقصة أصف حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة في طرفه عين وأما السنة فكحديث جريج الراهب الذي كلمة الطفل الرضيع حين قال له : يا غلام من أبوك ..؟ كما ورد في الصحيحين وكحديث البقرة التي حمل عليها صاحبها أو ركبها فالتفتت إليه وكلمته وقالت : إني لم أخلق لهذا ..؟ " انطقها الله الذي انطق كل شيء ....

ومن هنا نرى أن الصفوة المختارة والكثرة المؤمنة تتفق على وقوع الكرامات وتثبت ذلك عن طريق العقل والنقل . وأن القلة الجاحدة التي ترفض الكرامات جملة والتي ترى أن ما وقع إنما هو معجزة لذكريا أو إرهاصا لعيسى . ليس لديها من الحجج ما يدعم رأيها ولا من البراهين ما يقوى ادعائها . لأن شرط المعجزة كما اتفق جميع العلماء على ذلك . يجب اقترانها بالتحدي وظهورها للقوم وحصولها بحضرتهم وحضرة النبي ليمكن الاستدلال وليس شيء . منها كذلك .

فلو كانت معجزة لذكريا لعلم سبب لعلم سبب حدوثها وهو منتف لقوله تعالى : " كلما دخل عليها ذكريا المحراب وجد عندها رزقا([١٩]) " ولأنها لو كانت

---

[١٨]- الكواكب الدرية عبد الرؤوف المناوي المقدمة صـ١٠ .

[١٩]- سورة آل عمران آية ٣٧ .

أرهاصا لعيسى عليه السلام. لما علمت مريم من أين حصل ذلك . على أن الحـــوادث إنما سيقت لتعظيم حال مريم . ولا ذكر فيها لزكريا ولا عيسى عليـــهما الســـلام . وإما سليمان فلم تظهر على يده مقارنة لدعوى النبوة .

وبعد . لقد بينا أهم الحجج والبراهين التي يسوقها رجال التصوف في القديم والحديث . في إثبات الكرامات للأولياء وناقشنا آراء الجاحدين . وفندنا ادعائتهم . ونريد بعد هذه العجالة . أن نتعرف على رأي الإمام الشـــعراني فـــي الكرامـــة . لنعرف مدى اتفاقه أو مخالفته لمن سبقوه في هذا المضار . فإذا تم لنا ذلك قارنـــا بين رأيه في الكرامة . وبين آراء المدرسة الشاذلية في هذا الشأن .

الإمام الشعراني والكرامات

****

الشعراني الصغير المحاط برعاية الله وعنايته ينزل في النيـــل وهـــو دون البلوغ " أيام الوفاء " فتعب وأشرف على الغرق . فأرسل الله إليه تمساحاً فوقـــف تحت رجله حتى استراح وواصل السباحة إلى الساحل فنجا حماه الله مـــن التلــف بالمتلف . وذلل له الحيوان المفترس فأنقذه من الغرق ونجاه من موت محقق . هذه الحادثة ذكرها الإمام الشعراني في كتابه " لطائف المنن والأخلاق " وهو يـــترجم لحياته .

بماذا نفسر هذه الحادثة .. ؟ وبأي شيء نعلل تلك الظاهرة .. ؟ أهو أمـــر خارق للعادة ومخالف لقوانين الطبيعة .. ؟ أم تلـــك عنايـــة الله ورعايتـــه لطفــل يتم .. ؟ لو تغافل الحيوان عن فريسته لقلنا في تفسير ذلك قد يكون الحـــائل بيـــن الطفل وبين افتراس الحيوان له . شبعه أو زهده فيه . أو عدم رؤيته له .. أما وقد سخره الله له فأنقذه من الغرق وساعده على النجاة . فهذا هو الأمر الذي يدعو إلى التساؤل ويدفع إلى الحيرة ويترقب الجواب . أنقول أن هذه الواقعة كرامة للولـــي الصغير .. ؟ جاءته مبكرة وألقاها الله على يده ليعده لأمر عظيم . والله دائماً يكــلاً أحبابه برعايته ويحوطهم بعنايته . لو قلنا ذلك فلن يكون لدينا سند من أقول الإمام الشعراني نفسه .

لأنه لم يقل أنها كرامة ولم يعترف لنا بذلك .

وإنما رواها على أنها منه من منن الله عليه وفضله ورعايته وكرمة لطفــل يتيم فعل الإمام الشعراني ذلك . لأن رأيه في الكرامة . الكرامة الحقيقة التي يجـب أن يتصف بها رجال الطريق الصادقون . هي الاستقامة على الشريعة والالــتزام بالكتاب والسنة والالتزام بهما قولا وعملا سلوكاً ومنهجاً فمن وفقه الله تعالى إلـــى ذلك فهو صاحب الكرامة الذي اجتباه ربه وهداه ووفقه إلى طاعته ورضاه .

ومن مبادئه في هذا الشأن ألا يطلب الولي الكرامة . ولا يطالب هـــو بمـــا يثبت ولايته . لأن من رأيه أن الذي يطلب دليلا على ولاية الولي إنما هو الشاك . وما دام كذلك . فهو متشبه بهؤلاء الكفار حيث قالوا لرسول الله ﷺ " لن نؤمـــن

لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجـــر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينـــا كسـفا أو تـأتي بـالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولـــن نؤمـن لرقيك حتى تنزل علينا نقرؤه([20]) "

هذا القول لم يصدر حقيقة إلا من كل متعنت مكابر . أعمى الله قلبه وجعل علـــى بصره غشاوة . فهو لا يريد أن يهتدي ولا يرغب في معرفة طريـق الصـواب . يعيش في الظلام ويرهب النور . لأن النور يعشي عينيه . يفضل الضلال ويكـره الهدى لأن قلبه لا يتحمله . ومن هنا كان الإنكار دائماً على أولياء الله قديماً وحديثاً . الإنكار بأن الله اصطفاهم وفضلهم واجتباهم . والإنكار بأن كرامـات الأوليـاء شيء لا وجود له . ومن رأي هؤلاء المنكرين " لو سلمنا لكم بوجود الكرامات في الزمن الماضي . فمحال أن تقع كرامة في هذا الزمن " يقولون ذلك وليس لديـهم دليل يؤيدهم ولا برهان يثبت كلامهم . وإنما هـو الجـهل والتعنـت كمـا قـال تعالى :" بل كذبوا بما يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ([21]) " .

والإمام الشعراني يرى أن ظهور الكرامات على يد أولياء الله جائز عقـلا وواقع نقلا . أما جواز وقوعها عقلا فلأن ذلك ليس يستحيل في جـانب قـدرة الله تعالى . بل هو من قبل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام

ويضع الإمام قاعدة وميزانا ويبين في وضوح أن القـول الصحيـح عنـد جمهور المحققين من أهل السنة والجماعة . " أن كل ما جاز وقوعه للأنبياء مـن المعجزات جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدي " ويتفق مع جمـهرة المحققين في الفرق بين المعجزة والكرامة . من حيث أن المعجزة يجب على النبي عليه السلام أن يتحدى بها ويظهرها والكرامة يجب على الولي أن يخفيها ويسترها إلا لضرورة شرعية أو إذن من الله تعالى . أو حال غالبه لا يكون له فيها اختيـار أو يكون إظهارها لتقوية قلوب المريدين أو توقف إسلام كافر على إظهارها أمـا وقع الكرامات نقلاً فيذكر الإمام الشعراني جملة من الكرامات لم يرد بعضها فيمـا

[20]-سورة الإسراء الآيات ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣ .

[21]- سورة يونس آية ٣٩ .

رواه الإمام القشيري وأيضاً فيما ذكره الإمام المناوي ومن هنا وجب أن نشير إلى بعضها .

من ذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أكل مع ضيفه فكان كلما أكل لقمة من تلك القصعة يربو من أسفلها أكثر منها حتى شبع الضيوف . وهي أكثر مما كانت قبل الأكل بثلاث مرات ومن ذلك استجابة دعاء سعد بن أبي وقاص في الرجل الذي كذب عليه كما ورد في الصحيحين . وكان الرجل يقول : أصابتني دعوة سعد . ومن ذلك أيضا ما رواه أبو نعيم في الحلية أن عون بن عبد الله بن عتبه كان إذا نام في الشمس أظلته الغمام .

وأيضاً ما رواه الإمام البخاري عن خبيب حين كان أسيراً موثقاً بالحديد وكانوا يحبه عنده العنب وما بأرض مكة حينئذ عنب .

ونختم هذه الروايات بحادثة الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي حين أرسله النبي ﷺ في غزاة . وحال بين الجيش وبين عدوهم قطعة من البحر فدعا الله تعالى . ومشوا كلهم بخيلهم ودوابهم على الماء ([٢٢]) .

ويطيب لنا أن نقول . أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد تحقق بمقام الصديقية عندما صدق بمحمد وكذبه الناس وآمن به وكفر به الناس ومريم كانت صديقة ومن هنا كان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . ومن هنا كان غذاء أبي بكر يربو لتحققه بهذا المقام .

وأما سعد بن أبي وقاص . فقد كان مستجاب الدعاء بدعوة الرسول ﷺ . والله يقول لعباده " أدعوني استجب لكم " والمعروف أن سعدا كان ورعا تقياً وصحابيا مؤمنا ومن رجال الجنة الأبرار .

إن هؤلاء جميعاً جاهدوا في الله . وجاهدوا نفوسهم وجهاد كهذا لابد له من ثمار ومن هذه الثمار الكرامة يقول تعالى : " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

---

[٢٢]– عن أبي هريرة رضى الله عنه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى البحرين بنفسه فرأيت منه ثلاث خصال لا أدري أيتهن أعجب . انتهيهما إلى ساحل البحر فقال سموا الله تقحموا ... فسمينا وتقحمنا فما بل الماء أقدامنا .

تتنزل عليهم الملائكة إلا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنت توعـــدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ([23]) " .

إن الملائكة تتنزل على كل إنسان في هذه الحياة الدنيا بشـــرطين الإيمـــان والتقوى .

ويقول الإمام الغزالي عن خبرة وتجربة . عما يشاهده المريد الصادق فـــي أول طريقة إلى الله " ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنـــهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء . ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسمون منهم فوائد ([24]) " .

هذا بالنسبة للمريد في أول الطريق _ فهل نستطيع أن نتصور حال العارف الذي اجتباه الله والولي الذي أكرمه مولاه ... ؟ الجواب لا لأنـــها حـــال لا تكتـــب ولكنها تدرك . حال لا تحكي ولكنها تذاق .

---

[23]- سورة فصلت الآية ٣٠،٣١ .

[24]- المدرسة الشاذلية للدكتور عبد الحليم محمود صـــ ٣٣ .

أنواع الكرامات في منهج الشعراني

****

إذا كانت بعض مدارس التصوف . ترى أن الكرامة هي خرق العادات هي الأشياء المحسوسة التي لا ترتبط بالأسباب والتي يجربها الله على أيـــدي عبـــاده وبناء على هذا الاتجاه قام بعض مؤرخو التصوف وبعض رجاله بحشد الكثير مـن الكرامات في كتاباتهم ومؤلفاتهم كثرة تربو على العد وتجل عن الحصـــر . فـــإن الإمام الشعراني يخالف هؤلاء السابقين من رجال التصوف ممن يقفون عند حـــد الكرامة الحسية وليس معنى هذا أن إمامنا ينكر هذه الكرامات أو يتوقف فيها ولكنه يرى أن الكرامة الحسية تكون للمريد في أول منهجه تقسيم الكرامات إلى حســـية ومعنوية ويرى أن العامة لا تعرف إلا الكرامة الحسية مثل الكلام علـــى الخـــاطر والأخبار بالمغيبات الآتية والأخذ من الكون والمشي على الماء واختراق الـــهواء وطى الأرض والاحتجاب عن الأبصار . وأجابه الدعوة في الحال ونحو ذلك فـهذا عند العامة هو الولي وما يقع على يدية هو الكرامة ثم ينتقل بنا إلى تبيان الكرامـــة المعنوية . ويرى أنها هي التي تكون بين الخواص من أهل الله تعـــالى . وأعظـــم هذه الكرامات وأجلها في نظره أن يحفظ الله على العبـــد آداب الشـــريعة فيوفـــق لمكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها . وأن يحافظ على أداء الواجبات والسنن فـــي أوقاتها مطلقاً والمسارعة إلى الخيرات . وإزالة الغل والحقد والحسد مع طـــهارة القلب من كل صفة مذمومة . وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس ومراعـــاة حقـــوق الله تعالى في نفسه وفي الأشياء . ومراعاة أنفاسه في دخولها وخروجها . فيتلقاه وهـو مع الله ويخرجها وعليه حلة الحضور مع الله تعالى أيضاً لأنها رسل الله تعالى إليه فترجع شاكرة من صنيعه معها .

فهذه عند المحققين هي الكرامة التي لا يدخلها المكر والاستدراج فالكـامل من قدر على الكرامة وكتمها ثم إذا فرضنا كرامة فلابد أن تكون نتيجة لاســـتقامة فلا يبعد أن يجعلها الله عز وجل هي خط أعمال ذلك الولي فيذهب إلـــى الآخـــرة صفر اليدين من الخير . الكرامة الحسية تكون للمريد السالك للطريق في أولـــه . فتكون هدية من الله لعبده . لتطيب قلبه . وتقوية روحه . حتى تستمر في المجاهدة

وتواظب على فعل الترقي . إنها النفخة العلوية من رب الأربـاب لتكـون للعبـد حافزاً إلى قطع المفازة ودافعاً للمجاهدة . فتكون الكرامة الحسية شعاعاً للعبد يدلـه على قطع الطريق .

الكرامة الحسية تكون لهؤلاء المساكين ممن تدفعهم حرارات قلوبهم ونيـل مقاصدهم . وقوة إيمانهم للسير في الطريق . فتكون لهم راحة بعد الجهاد وواحـة بعد الكفاح . واحة يستظلون بظلها ويستروحون من انسامها قوة ونشاطاً حتـى لا يأخذ الملل بمجامع نفوسهم وحتى لا يسيطر الكلال على شغاف قلوبهم .

فإذا وصل المريد إلى ربه وعرف حقيقة نفسه . إذا فتح الله عليه فعرف مـا لم يكن يعرف . إذا تفجرت ينابيع الحكمة في قلبه إذا أصبح ربانيـاً فـي خلقـه وتصرفاته . فهو عند ذلك ليس في حاجة إلى الكرامة الحسية . لأن الكرامة التـي يطلبها العارفون بعد ذلك في كل خفقة قلب . في كل همسة نفس . في كل خالجـة تمر بالفؤاد . فإن وفقه الله إلى ذلك . كانت هي الكرامة والاجتبـاء الكبـير . إذا صدر عن الولي كل ما يوصف بأنه من مكارم الأخلاق . إذا أدبه ربـه فأحسـن تأديبه . إذا عالج نفسه حتى أصبح خلقه القرآن . فاتبع معالي الأمـور واجتنـب سفاسفها . كانت له عين الكرامه .

إذا وفقه ربه فأدى الواجبات ولم يتهاون في واجب منها وقام بالفرائض ولم يخرجها عن وقتها كان من أولئك الذين وصفهم الله بالفلاح والتقـوى " قـد أفلـح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغـو معرضـون ([٢٥]) " كان ذلك هو الكرامة .

إذا صفى نفسه وقلبه وعالج أمراضه وعلله . وطيب جروحه ومرضه . إذا راعى حقوق الله عز وجل في كل ما يأتي وما يدع . إذا وصل إلى مقام الإحسـان في أن الله يراه ويحصي عليه أموره . كان ممن قال الله فيهم " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ([٢٦]) " .

---

[٢٥]- سورة المؤمنون آية ١،٢،٣ .

[٢٦]- سورة يونس ٦٢،٦٣،٦٤ .

رأي المدرسة الشاذلية في الكرامة .

****

الإمام الشعراني يتفق مع المدرسة الشاذلية في حقيقة الكرامة . التي ترى أن الكرامة الحقيقية هي السير على الشريعة وأما الكرامة الحسية فهي التي تكون للمريد في أول الطريق . فإذا وصل إلى ربه إذا فر إليه فعندها عليه أن يتخذ الأسباب ويؤيد ذلك الذي نقول به تفسير العارف بالله أبي المرسى العباسي لقصة مريم . لقد كانت في أول الطريق . وكلما دخل عليها زكريا المحراب . وجد عندها الرزق . فإذا سألها عنه ومن أحضره .. ؟ إجابته بقولها : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما وصلت إلى نهاية الطريق . عندما تحققت بمقام الصديقية طولبت باتخاذ الأسباب " وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنبا (٢٧) " يقول الشيخ رضي الله عنه . فذكر بعض الناس في هذا تأويلا لا يرضى ولا ينبغي أن يلتفت إليه . وهو أنها كان حبها لله وحده . فلما ولدت أنقسم حبها . وليس الأمر كما قال هذا القائل . لأنها صديقة كما أخبر الله عنها بقوله " وأمه صديقة " .

والصديق والصديقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها ولكنها كانت بدايتها متعرفاً إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب . فلما أتكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتم من الحالة الأولى (٢٨) . يقول صاحب المدرسة الشاذلية " ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة . فمن أعطيهما وجعل يشتاق غيرهما فهو عبد مفتر كذاب . أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا (٢٩) .

---

[٢٧]- سورة مريم آية .

[٢٨]- العارف بالله أبو العباس المرسي . د. عبد الحليم محمود صـ ٧٦ .

[٢٩]- أبو الحسن الشاذلي . د. عبد الحليم محمود صـ ٨٧ .

الإمام الشعراني والكرامة الحسية

****

قلنا عند الحديث عن الكرامة الحسية . بأنها تكون للمريد في أول الطريق تكون له واحة بعد الجهاد وراحة بعد التعب وحافز ربه من ليواصل الكفاح ويجد في السير حتى يصل .

والإمام الشعراني رحمه الله كان ممن قال الله فيهم والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ([30]) .

فهو من أولئك النفر الذين وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله . فأكرمه الله ببعض الكرامات . الحسية وأنعم عليه بها . وماذا تكون الكرامة غير أنعم الله على عبده . ودليلا على تفضله عليه . فانكشفت أمامه الحجب فأصبح بصره حديداً وازيلت من أمامه الحواجز حتى رأى ما لم يكن يرى وصار سمعه ربانيا فسمع تسبيح الجمادات . وتحول الكون كله أمامه أصواتاً تردد التسبيح والتكبير وتشد وبالتهليل والتعظيم " سبحان من لا ينسى قوت أحد من خلقه ولا يقطع بره عمن عصاه ([31]) ".

إنه يحدثنا عن تلك المرحلة ويصور لنا الحالة فيقول " انكشف حجابي فصرت أسمع تسبيح العمد والحطيان والحصر والبلاط حتى دهشت وصرت أسمع من يتكلم في أطراف مصر ثم اتسع إلى قراها ثم إلى سائر أقاليم الأرض ثم إلى البحر المحيط فصرت أسمع تسبيح السمك . وكان من جملة ما سمعت من تسبيح سمك البحر المحيط " سبحان الملك الخلاق رب الجمادات والحيوانات والنبات والأرزاق . سبحان من لا ينسى قوت أحد من خلقه ولا يقطع بره عمن عصاه .

لقد أخبرنا القرآن الكريم " أن الوجود كله يسبح لخالقه . " وأن من شيء إلا يسبح بحمده . ولكن لا تفقهون تسبيحهم ([32]) " فالتسبيح واقع بنص القرآن والله قادر على أن يسمح من شاء من عباده ما تسبح به مخلوقاته من شجر وحجر .

---

[30]- سورة العنكبوت آية ٦٩ .

[31]-لطائف المنن جـ١ صـ١٨٣ وآداب العبودية على هامش الطبقات صـ٥٧ جـ٢ .

[32]- سورة الإسراء آية ٤٤ .

فإن أبى المنكرون إلا أن يركبوا روسهم وينكروا مــا دل عليــه القــرآن . فأننــا تجاريهم حتى يعودوا إلى الحق وتتفتح بصائرهم لهدى الله . لقــد كــان الإمــام الشعراني يأخذ نفسه بالجهاد يسهر الليالي الطويلة ويصوم الشهور الممتدة ويحــرم نفسه من طيبات الطعام ويرفض ما فيه شبهة ويمتنع عن تناول الحلال المبـــاح . كان كثير الذكر والعبادة ويمكن أن نقول أن حياته كانت استغراقا دائما في تســبيح ربه وتكبيره . وقد تكون حالات الاستغراق هذه أبعدت عن إمامنـــا كــل شـــيء وابعدته عن كل شيء . فلم يرقي الوجود إلا أفواها تردد ذكر الله كما يردد وتسبح بحمده كما يسبح سبحان الملــك الخــلاق رب الجمــادات والحيوانــات والنبــات والأرزاق " وهذه حالة يلمسها الإنسان بنفسه .

إن المسرور ممن تحققت أماله وغنت بلابل قلبه . يخيل إليه أن الوجود كله يشاركه فرحة يقاسمه سروره . ويرى الدنيا وكأنـــها ضحكــة مجلجلــة وبســمة عريضة تزف آماله وتبارك أحلامه . وهو في حالته تلك لا يرى للبؤس حالــة ولا لأنات المتوجعين واليائسين أثرا .

والبائس الحزين ؟ إذا استغرق في بؤسه إذا لفته أحزانه . إذا استغلق علـــى نفسه وعاش في كونه الذي أوجده لذاته . يخيل إليه أن الوجود كثيب كله حزيـــن بأكمله . وكأن الدنيا بأجمعها دموع غزار تندب حظه وتشاركه مصابه . وهو فـــي غمرة حالته تلك لا يرى ابتسامة المسرورين ولا ضحكات المحظوظين .

فليكن ما سمعه أمامنا كذلك ــ حالة من حالات الاســتغراق ولحظــة مــن لحظات الغيبوبة . وعلى الحالين فليس فيما ذكره إمامنـــا شـــيء تحيلــه العقــول المستنيرة أو ترفضه الأذواق السليمة قال تعالى " إن الله يسمع من يشـــاء (٣٣) " فإذا كان السمع هو من الله تعالى فماذا ينكر المنكرون .. ؟
وكرامة أخرى ..

يقول الإمام المتهجد ويستيقظ للتعبد . ويطلب الماء للتطهر ويبحـــث عنـــه ليتوضأ .. يبحث عنه ولكنه لم يجده .. وينقب عليه فلا يعثر عليه ويتجه إلى ربه.

٣٣- سورة فاطر آية ٢٢ .

يطلب مغفرته وهداه . ويرجو منه العون والمعونة ويفتش عن الماء . فهو لم يستيقظ لحظ نفسه . ولم يترك فراشه لهواه ولكنه قام لربه . واتعب نفسه لمولاه . وهو يخجل أن يقف أمامه بغير وضوء ويتجه إلى ربه بغير طهارة .

يقول الإمام الشعراني : " اللهم إنك تعلم أنني لم أرد بهذا الوضوء في هذا الوقت العظيم إلا تعظيم جنابك أن أجالسك على حدث ([٣٤]) .

وما أتم كلامه وما فرغ من دعائه " حتى زاد الماء فتوضأ وفضلت منه بقية أنقول أن هذه كرامة . وأنها أمر خارق للعادة أجراها الله على يده بعد الطلب والدعاء وحققها له بعد الاستغفار والرجاء . فلتكن كذلك . وماذا تكون الكرامة غير إجابة طلب وتحقيق رجاء .

ولسنا في ذلك من الذين يلقون القول على عواهنه . أو يتكلمون بغير دليل ولكننا في قولنا هذا نلتزم بالمنهج ونتبع الشريعة . ومقياسنا في ذلك وفي كل ما نأتي وما ندع هو قرآن ربنا وسنة نبينا . فما وافق هذا المقياس قبلناه وصدقناه وما تعارض معه رفضناه وأهملناه . وإذا أردنا أن نطبق منهج القرآن على هذه الكرامة . نرى أن القرآن يخبرنا في وضوح واضح وصراحة لا غموض فيها ولا إبهام . على لسان رب العزة " أدعوني استجب لكم " ([٣٥]) . ولم يقل في شيء دون ذلك والصحيح عن رسول الله ما قال : " رب أشعث أغير ذي طموين لو أقسم على الله لأبر قسمه وأن البراء بن مالك منهم " ([٣٦]) . ولا يكون في التزامات شيء أتم من أن يقسم العبد على الله تعالى فيبر قسمه .

والإمام الشعراني لم يفعل شيئا إلا أنه طلب من ربه فاستجاب له وحقق رجاءه . فهي كرامة له وإن أنكر المنكرون وكابر المدعون .

كرامة لأنها من عند الله والله يعطي عبده ما يشاء . ولأن الإمام الشعراني لا يضيفها إلى نفسه ولا ينسبها إلى قدرته . ولأن الإمام الشعراني الذي يقول ذلك هو نفسه الذي يقول " وفي بعض الأوقات أتوجه إلى الله تبارك وتعالى في زيادة الماء

---

[٣٤]- لطائف المنن جـ١ صـ٢٠٤ .

[٣٥]- سورة غافر آية ٦٠ .

[٣٦]- رواه الإمام مسلم وغيره بلفظ " رب اشعث أغير مدفوع إلى الأبواب لو أقسم على الله لأبره " .

فلا يزيد قطرة واحدة فلا ينقص يقيني بذلك ذرة واحدة لأن الفعل في الحـــالين لله تبارك وتعالى لا لي فعلم أني لا أرى إني سلبت بركة كانت معي لما لم يزد المـاء وإنما أقول لله تبارك وتعالى في ذلك حكمة فأصير أتطلبها فربما قصرت في عمـل كان متوجهاً على لله تبارك وتعالى في ذلك حكمة فأصير أتطلبها فربما قصـــرت في عمل كان متوجهاً على لله تبارك وتعالى فتخلفت عني العناية جزاء على فعلـي إذ الحق تبارك وتعالى مع عبده على حسب ما يقع لـــه ([٣٧]) " المريـد فـي أول الطريق يعامله الخالق حسب ما يصدر منه فإن أطاع وأناب تجلت عليه فيوضـات ربه وباركته عناية مولاه . فإن طلب أجيب إلى طلبه . وإن تمنى حققت له أمنيتـه وأما إذا أهمل واجبات ربه وابتعد عن مولاه . تركه لنفسه وأسلمه لهواء فيكـــون من (الأ خسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهـم يحسـبون أنـهم يحسنون صنعاً ([٣٨]) حتى يرجع ويتوب .

لا يزال العبد في ذلك بين كرامة تعطي وطلب لا يجاب حتى يصـل إلـى مرحلة ويفطمه ربه عن كل ما يقربه إلى الدنيا فلا يرجو ولا يطلب ولا يتمنـى ولا يحتاج . فإن جاءته الكرامة الحسية رفضها وإذا نزلت عليه هرب منها .

فهل وصل إمامنا الشعراني إلى تلك المرحلة . وهل تحقق بهذا المقـام .. ؟ إن النفس دائماً طلعة والقلب راغب والإنسان يطلب ما يمتنع عليه ويرغب فيمـا يستعصى عليه . وتلك كانت حالة إمامنا في فترة مـن فـترات حياتـه . يطلـب الكرامة الحسية . ويرجوها . ويتشرف إليها ويجد في تحصليها ولكن السماء لـم تستحب لطلبه والعناية لم تحقق له مطلبة . لأنها كانت تعده لمرحلة أعلى . وتهيئـة لدرجة أكبر . لتتحفة بالكرامة الكبرى إلا وهي الاستقامة على الشريعة وفي ليلـة ليس كمثلها ليلة وفي لحظة أشرق الوجود بتجلبات ربه . يلقى الإلهام في روعـة . " لو أطلعك الله تبارك وتعالى على ملكوت السماوات والأرض وعلى عدد الرمـال وأوراق الأشجار وعلى النبات وأعماره . والحيوانات وأعمارها وعلى مـا يقـع لأهل الجنة وأهل النار . حال وجودهم في الدنيا والبرزج والجنة والنار . وأنـزل

٣٧- لطائف المنن صـ٢٠٤ جـ١ .

٣٨- سورة الكهف آية ١٠٣ ، ١٠٤ .

المطر بدعائك واحيا الميت على يديك . وأجرى على يديك جميع مـــا أكـــرم الله تبارك وتعالى به عباده المؤمنين . فلست من عبوديته في شيء . فاســـتقم علـــى طاعه ربك عز وجل . وقد بلغت العناية في الكرامة ([٣٩]) .

يقول الإمام الشعراني رضى الله عنه . " فما انقضى هذا الكلام وبقى عندي بحمده الله تبارك وتعالى شهوة لمقلم ولا حال . بل ذهبت شهوة ذلك من قلبي جملة واحدة .

لقد تم أمره . وروى قلبه عن ربه واستقام على شريعته فليس في حاجة إلى الكرامة الحسية . وتلاشي اختياره مع اختيار مولاه . فأصبح لا اختيار ولا أراده . " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة مـــن أمرهم ([٤٠]) " .

وابتعد عن طلب الكرامات وفر من خرق العادات . وترقى إلـــى مرحلـــة أعلى وأرفع وتحقق بالعبودية الحقة والصديقية الكاملة وفر من نفسه إلـــى ربـــه . ومن الخلق للخالق . من الكون المكون . من كل شيء يفني ويزول إلـــى الحـــي الدائم الخالد " وعجلت إليك ربي لترضى ([٤١]) "

قيل لأبي حفص أي الأعمال أفضل .. ؟ قـــال الاســـتقامة لأن النبـــي ﷺ يقول " استقيموا ولن تحصوا ([٤٢]) " وقال أبو علـــي الجوزجـــاني " كـــن طـــالب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منـــك الاستقامة ([٤٣]) .

---

[٣٩]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية للشعراني مخطوط صـــ٢٢٣ وآداب العبودية صـــ٣ ولطائف المنن صـــ٢٠٥ جـــ١ .

[٤٠]- سورة الأحزاب آية ٣٦ .

[٤١]- سورة طه آية ٨٤ .

[٤٢]- لن تطبقوا وقد رواه أحمد وأبن ماجة والبيهقي وغيرهما يسند صحيح وفيه وأعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن .

[٤٣]- عوارف المعارف تحقيق د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن الشريف صـــ١٧٥ .

رأي رجال الفكر الحديث في الكرامة .

****

إذا كنا قد أبنا رأي رجال التصوف في حقيقة الكرامة . وشرحنا رأي إمامنا الشعراني في ذلك فأننا نريد أن نوضح رأي بعض المفكرين في العصر الحديث وبذلك نكون قد استعرضنا آراء الجميع وبينا أن رجال التصوف الصادقين لا تباين عندهم ــ ولا فروق في مناهجهم لأن الجميع يستقى من نبع واحد هو الكتاب والسنة ويتتبع هدى الرسولﷺ في ما كل ما يأتي وما يدع .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود . إن الكثير من المثقفين في العصر الحاضر يمجون ذكر الكرامات . هكذا بدون حساب . وفي إسراف مسرف ولقد وصل الأمر لبعض المنكرين للكرامات أن انكروا كل المعجزات الحسية التي ذكرت للرسول ﷺ في السنة الصحيحة وفي الأخبار التي محصها رجال الحديث واكتفوا في المعجزات بالقرآن الكريم نافين كل شيء غيره مما ذكرته كتب الصحاح على اختلاف ألوانها . إن روح الكثيرين في العصر الحاضر تنادي بإنكار الكرامات . وتسخر في وضوح أو في إشارات بكل من يروى كرامة لولي.

ولكن الدكتور لا يترك هؤلاء المتنطعين غلاظ الاكباد يهدمون كل ما اتفق عليه جمهرة المسلمين على مر العصور من إثبات كرامات الأولياء . لا يترك هؤلاء الشاردين ممن ران على قلوبهم صدأ الشهوات وغبار الماديات فلا يؤمنون إلا بما ما تقع عليه حواسهم وما عدا ذلك فهو ضلال وعبث . وما العبث والضلال إلا في عقولهم التي لم تستطع أن تتخلص من قيود المادة . وترتفع إلى شفافية الروح .

يقول الدكتور لهؤلاء المنكرين .

إن القرآن الكريم يحدثنا في أسلوب لا لبس فيه عن المعجزات التي تفضل الله بها على رسله وأنبيائه . ويحدثنا عن الكرامات التي منحها سبحانه لأوليائه وأصفيائه ألم يحدثنا القرآن بصورة لا تحتمل التأويل بأن عيسى عليه السلام كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأنه كان يبرىء الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ... ؟

ألم يحدثنا عن سيدنا موسى أنه ألقى عصاه . فإذا هي تلقف مايأ فكـــون . وبأنه أخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين .. ؟ وسيدتنا مريم ألــم تحمــل بســيدنا عيسى من غير أب خارقة بذلك قوانين الطبيعة وكانت كلما دخل عليـــها زكريـــا المحراب وجد عندها رزقاً . قال يا مريم أني لك هذا .. ؟ قالت هو من عند الله .

ثم إن ما نسبته قوانين الطبيعة إنما هو في الواقع عادات الطبيعة وخرقتـــها ليس يستحيل عقلاً . وخرقها عليه مستحيل وعادات الطبيعة لا تسيطر علـــى رب الطبيعة .

ثم أن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينســـبونها لأنفسهم . وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب صاحب القدرة والقهر إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شيء قدير .

والملاحظ في منكري الكرامات على مر العصور . أنهم يتميزون بـــألوان من الغلظة وقساوة القلب . فلا تجد فيهم رقة الشـــعور ولا صفـــاء البصـــيرة ولا ملائكية الروح . وهم إن لم يكونوا من الملاحدة . من الصنف الـــذي لـــم يخـــالط الإيمان شغاف قلبه وإنما بقى صورة آثمة على السطح .

وجمهرة المسلمين على مر العصور . عامتهم وخاصتهم وقممهم الشـــوامخ في العلم والدين من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها ([44]) .

لقد تقدم العلم وخطت البشرية خطوات جبارة في سبيل تحقيق أهدافها وأغراضـــها حتى استطاع العلم في فترة وجيزة أن يقدم لنا الشيء الكثير مما كان العقل قديمـــاً يعتبره من المستحيلات وبناء على ذلك كان الواجب على أصحاب العقـــول فـــي عصر العلم أن تصدق ما أحالته بالأمس . وتؤمن بما يقع عـــن طريـــق الغيـــب وخرق العادة . خصوصاً وأن ما يقع من ذلك هو من عند الله وبقدرته أجـــراه الله على يد عباده الذين اصطفى .

لقد استطاع البشر أن ينقلوا الصوت من مسافات بعيدة وينقلوا الصور مـــن أماكن ساحقة . لقد فعلت الازرار الكهربية ما يقف أمامه العقل مشدوها .

---

[44]= المدرسة الشاذلية لحديثها وأمامها للدكتور عبد الحليم محمود صـــ٢١٧ .

واستطاعت أن تقرب إلى العقل البشري الشيء الكثـــير . وعلينـــا أن نســـأل إذا استطاع الإنسان الضعيف أن يفعل ذلك ويقدم لاخوته فـــي الإنســـانية كـــل هـــذه التيسيرات رغبة في أشاعة المحبة والسعادة والرفاهية في دنيا الناس وأمـــلاً فـــي عمارة الكون . إذا استطاع الإنسان أن يفعل ذلك مما كـــان يعتـــبر قديمـــاً مـــن المستحيلات .. ألا يستطيع رب الأرباب أن يعطي عبده المؤمن ما استطاع العلماء أن يقدموه لاسرتهم الصغيرة أو الكبيرة ..؟ إن المنكر لذلك رجـــل خـــرب عقلـــه وأصبح على عينيه وبصيرته غشاوة واتبع هواء وشيطانه فأصبح من الغاوين .

وهؤلاء لا يضر إنكارهم شيئاً ولا ينال من رجال الله مثقال ذرة " أن الذيـــن قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنـــوا وابشـــروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة (٤٥) " .

٤٥- سورة فصلت آية ٣٠ .

الباب الثالث

الفصل الأول

الإمام الشعراني وتربية المريدين

****

حرص " الإمام الشعراني رضي الله عنه " علي أن يقيم التصوف في قلوب الناس التصوف النقي القائم على الكتاب والسنة .

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً ([1]) " .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ([2]) " .

وتأمل معي قول " أبى يزيد البسطامي ":

" لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة " .

وهذا الذي قاله أبو يزيد هو شعار الصوفية " .

و" للإمام الجنيد " ــ في هذا ــ كلمات تعبر عن رأي الصوفية منها :

" من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة ([3]) " .

فالتصوف نابع من أدب النبوة ، مرتبط بأسباب السماء ، وليس كل إنسان يستطيع أن يتأدب بأدب القرآن ويسير على نهج النبوة من غير مسلك يدله على ذلك .

فانشأ الإمام مدرسة التصوف وأقام نفسه شيخاً ومسلكاً فيها دالا على طريق الله وداعياً إليه .

وهو كيفية الصوفية الصادقين يطالب المريد الراغب في الطريق بالمجاهدة مجاهدة النفس وأهوائها ومجاهدة الشيطان ووساوسة . وفطم ذاته عن الشهوات .

---

[1]- سورة الأحزاب آية ١٩ .

[2]- رواه الدارمي وسنده صحيح وكذا الديلمي وابن عدى والطبراني كشف الخفا جـ١ صـ٣٦ .

[3]- عوارف المعارف . تحقيق د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن الشريف .

فإذا أراد المريد الفرار إلى ربه ، فعليه أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهاد . وأن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر لأن من لوازم الطريق اليقظة والصحوة . ومن علامات الصادق أن يكافح هواه ويهاجر إلى ربه .

يقول الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله : " من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله باطنه بالمشاهدة " .

ويروى عنه أيضاً .. من لم يكن له في بدايته قومه ، لم يكن له في نهايته جلسة ([٤]) .

وأصل المجاهدة فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها ويجمع ذلك ثلاثة أشياء ألا يأكل مريدها إلا عند الفاقة ، ولا ينام إلا عند الغلبة . ولا يتكلم إلا عند الضرورة الشرعية .

وركز رجال التصوف على الجوع لأنهم لم يجدوا ينابيع الحكمة تنبع إلا منه .

يقول " الإمام الشعراني " : " كنت أطوي الأيام الثلاثة وأكثر وأفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة . وضعفت بشريتي وقويت روحانيتي حتى كنت أصعد بالهمة في الهواء إلى الصاري المنصوب على صحن جامع الغمري فأجلس عليه في الليل والناس نائمون . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب ([٥]) "

أجاع نفسه وطوى اليومين والثلاثة ، وكان لابد من ثمرة فضعفت بشريته وقويت روحانيته ، وهذا من علامة الصدق في الطريق .

وأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت على الكلام ، فلقول الرسول ﷺ . فيما روى " معاذ بن جبل " في حديث طويل " قال : تكلتك أمك يا معاذ ..؟ وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ([٦]) وأيضاً لما علموا ما في الكلام من

---

[٤]- الأنوار القدسية في قواعد الصوفية للشعراني صـ٥٤ .

[٥]- لطائف المنن جـ١ صـ ٤٩ للإمام الشعراني .

[٦]- رواه الإمام أحمد وغيره من رواية شهر بن خوشب أنظر المسند جـ٥ صـ٢٣٦ ورواه ابن ماجه عن معاذ بن جبل انظر سنن بن ماجة جـ٢ صـ١٣١٤ .

الآفات وحفظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق وغير ذلك من آيات في الخلق .

وكان " بشر بن الحارث " يقول : " إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم (٧) "

و" الإمام على " كرم الله وجهه " قال : الخير كله مجموع في أربع : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون في ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهي فترة (٨) " .

أما اليقظة وعدم النوم فيقول الإمام الشعراني :

وكنت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء . ثم أتجهد بباقية فاختمه قبل الفجر وربما صليت بالقرآن كله في ركعة وكان نومي غلبه تخطف رأسي خطفه بعد خطفة . وخفقه بعد خفقه ، وكثيراً ما يغلب عليّ النوم فأضرب أفخاذي بالسوط ، وربما نزلت بثيابي في الماء البارد في الشتاء حتى لا يأتي نوم "

من هذا نستنتج أنه يجب على السالك أن يسهر الليل وأن يتجهد بقراءة القرآن ويكثر من النوافل والمداومة على ذكر الله . قال تعالى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون) (٩) .

إن بداية الطريق عند " الشعراني " تكون بأربعة أشياء : الجوع والعزلة والسهر وقلة الكلام . ويبدأ بالجوع لأنه الأصل في الطريق . فإذا جاع المريد تبعه الأركان الثلاثة .

إذ الجوعان من شأنه أن يقل كلامه ويكثر سهره . ويحب العزلة عن الناس ــ إذا تاب المريد توبة صادقة ، وإذا أسلم الوجه لله ، واتجه بكليته إليه واستغفر وأناب ، إذا حلل الطعمة وأمتنع عن الحرام جملة وابتعد عن كل ما به شبهة وعقد النية على أن يسلك طريق الله وأن يهاجر إليه . عزوفا عن الدنيا وما فيها .

٧- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ٥ .

٨- اللمع للطوسي تحقيق : د. عبد الحليم محمد صـ ١٨٦ .

٩- سورة الذاريات آية ١٧، ١٨ .

إذا فعل ذلك كله ، ثم اعتزل الناس وداوم على ذكر الله ، كان سائراً على الطريقة ومتبعاً للنهج ، يقول الرسول عليه السلام ، الحلال بين والحرام بين وبينهما متشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي – يرعى حول الحمى – يوشك أن يقع فيه ([10]) " .

ويكاد الصوفية يتفقون جميعاً على هذه المبادئ لا يشذ أحد منهم . ولكن الإمام الشعراني يضيف جديداً في تربية المريدين . إنه يطالب المريد في أول سلوكه بترك بعض المباح ويرى أن هذا المباح يعوق المريد عن الترقي فتطول عليه الطريق فيطالبه بالهمة العالية . ويحتاط الإمام الشعراني لنفسه خوفاً من أن يسارع – المجادلون بغير علم . إلى إنكار ذلك ويقولون " كيف يأخذ الشعراني العهد على المريد بترك المباح .. ؟ هذا يشبه السعي في أبطال العمل بالشريعة . لأن فيه إخراج المباح عن رتبته إلى رتبة المنهيات . فيجيب بقوله .. إن هذا إنكار بغير علم لأن جميع مشايخ الطريق إنما تصدروا لترقية المريدين إلى المقامات العاليا ، ومعلوم أن المباح من حيث هو مباح لا ترقى فيه لأحد إذ هو حظ النفس . يتنفس العبد فيه من مشقة التكليف والملل جعله الله تعالى رحمة لعباده لعجز النفس عن التنفيذ ليلا ونهاراً تحت الأمر والنهي فهي بحسب الحالة التي تكون فيها حالته بين أمر أو نهى .

ويستدل الإمام الشعراني على ذلك بأن الرسولﷺ نهى بعض أهله عن المباح . فنهى فاطمة " ابنته " رضى الله عنهما عن لبس الحرير والذهب مع أنه ﷺ أباحهما لإناث أمته . وقال .. يا فاطمة من لبس الحرير في الدنيا ([11]) لم يلبسه في الآخرة .. ونهى ﷺ عائشة رضى الله عنهما عن الأكل في يوم واحد مرتين . وقال لها : " أكلتان في النهار إسراف والله لا يحب المسرفين ([12]) .

---

[10]- رواه الإمام مسلم في صحيحه والإمام البخاري وابن ماجة في سننه جـ٢صـ١٣١٨ .

[11]- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة رواه البخاري جـ٧ صـ١٢٩ وسلم والترمذي والنسائي ورواه ابن ماجه عن انس بن مالك جـ٢ صـ١١٨٧ .

[12]- رواه البيهقي في شعب الإيمان والسيوطي في الجامع الصغير .

ويطالب المريد أيضاً بتجنب الشهوات والبعد عنها ويؤخذه بالنسيان وبالاحتلام . فأما دليله في مؤاخذته المريد بأكل المشتبهات المباحة . فهو كون الحق تعالى نعي على أهل النار بأكلهم المشتبهات بقوله تعالى : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون) ([13]) " .

ويرى الشعراني أن مانعاه الله تعالى على أهل النار وجزاهم علية العذاب المؤمن أولى أن يتركه . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول في قوله تعالى : (فسوف يلقون غياً) ([14]) " .

هو واد في جهنم يقذف الذين يتبعون الشهوات . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام " يا داود حذر وأنذر قومك من أكل المشتهيات . فإن قلوب أهل الشهوات عليّ محجوبة . وأما دليله في مؤاخذته المريد بالنسيان .

مع أن الرسول ﷺ يقول : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ([15]) " .. فإن الشعراني يرى أن مبنى القوم . على الحضور الدائم مع الله تعالى .. إنها طريق اليقظة والصحوة والفرار إلى الله عز وجل . والنسيان عندهم نادر . والنادر لا حكم له . كما يقول العارف بالله محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه . وأما دليل الشعراني في مؤاخذة المريد بالاحتراز فإنه يرى أن ذلك لم يقع منه إلا بعد مقدمات التساهل بالنظر إلى مالا يحل غالباً أو التفكير فيه . فلما عجز عن الوصول إليه حال النظر والتفكر أتاه إبليس ليسخر منه .

يرى الإمام الشعراني أن من لا يطلق بصره إلى محرم ولا يتفكر فيه لا يحتلم أبداً . ولذلك لم يقع الاحتلام إلا من المريدين والعوام دون أكابر القوم . وهو يرى أن الأكابر إما معصومين كالأنبياء أو محفوظين كالأولياء . ثم إن وقع أن أحد الأولياء احتلم فإنما يكون ذلك في حليلته من زوجة أو جارية .

---

[13]- سورة الاحقاف آية ١٨ .

[14]-سورة مريم آية ٥٨ .

[15]- رواه ابن ماجة عن أبي ذر ، والحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير عن ابن عباس والطبراني في الكبير عن ابن ثوبان وهو صحيح .

لا فيما لا يحل له .. وسببه غفلته عن تدبير جسده لما هو عليه من الاشتغال بـــالله عز وجل ([16]) ".

على المريد إذن أن يمتنع عن بعض المباح . وأن يترك الشهوات جملـــة . حتى لا ينطبق عليه قول الله تعالى : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واســـتمتعتم بها)([17]) هذا هو الطريق جهاد متواصل في إخضاع النفس وإضعـــاف الجسـد لتقوية الروح والتخلص من الترابية الهابطة لتظهر الشفافية السامية . ومـــن هنـــا نرى أن الطريق الصوفي " ليس بالسهل واليسير ولا بالقريب المنال ولا يســـتطيع كل واحد أن يسلكه أو أن يسير فيه . ومن هنا كان التصـــوف طريـــق الصفـــوة المختارة . إنه الأرستقراطية في الإسلام . وطبيعة الأمـــور تـــأبى إلا أن يكـــون أرستقراطية إنه نظام الصفوة المختارة إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسا مرهفاً وذكاء حاداً وفطرة روحانية وصفاء يكاد يقرب من صفاء " الملائكة وطبيعة تكـــاد تكون مخلوقة من نور. " التصوف " أرستقراطية " وهو في ذلك منسجم مع طبيعـة الأمور وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى التصوف الافتراضي الرخيـــص " الـــذي يقول لو شمل التصوف كل الناس لفسد العالم .

ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين . فطبيعتهم تأبى ذلـــك وأئمة " التصوف " يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب مـــن طائفـــة الإنتـــاج طائفة المعدة طائفة الشهوة . أن ينهجوا نهج الســـادة المختـــارين مـــن الصفـــاء والحكمة.

الناس معادن على حد تعبير الرسول ﷺ ومعادنهم ثابتة لا تتغير وخيـارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقوا . إن فيهم المعدن الذهبي . وفيهم المعـــدن الفضي . وفيهم غير ذلك ([18])" .

فلنتابع رحلتنا مع الإمام الشعراني في تربية المريدين .

---

[16]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية للإمام الشعراني مخطوط صـ٨٣ .

[17]- سورة الاحقاف آية ٢٠ .

[18]- مقدمة المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود صـ ٢١٠ .

إنه يتفق مع المدرسة الشاذلية ([١٩]) في أشياء ويختلف معها في أشياء أخرى . وإن كان هذا الخلاف ليس جوهرياً إنهم جميعاً متفقون على أن التبحر في الدين وفقـــه الدين هو الأساس الأول لمن يريد أن يسلك طريق الحقيقة .

[١٩] - صاحبها سيدي أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه ـــ هو علي بن عبد الجبار الشاذلي وشاذلة قرية من إفريقيا . نزيل إسكندرية وشيخ الطريقة الشاذلية وكان كبير المقدار على المنار . حج مرات . ومات بصحراء عيذاب قاصداً الحج فدفن هناك عام ٦٥٦ من كلامة .. إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام .

الإمام الشعراني والمدرسة الشاذلية

****

إن السادة الشاذلية لا يمنعون المريد من أطايب الطعام ولا من نومه على أوطأ الفراش ولبسه ألين الثياب والإمام الشاذلي ﷺ كان يقول لأصحابه " كلوا من أطيب الطعام والبسوا ألين الثياب واكثروا من ذكر ربكم فإن أحدكم إذا فعل ذلك وقال " الحمد لله رب العالمين " يستجيب كل عضو فيه للشكر بخلاف ما إذا فعل ضد ذلك . كأن أكل خبز الشعير غير منخول أو بالملح أو لبس المسوح التي تؤذي جلده أو نام على الأرض الخشنة أو شرب الماء المالح أو السخن . فإنه يقول : الحمد لله " وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله عز وجل . ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد إثم الاشمئزاز والسخط الذي عنده يرجح على إثم من تمتع بالدنيا . فإن التمتع بالدنيا المباحة أخف بقيين من حصول الاشمئزاز والسخط ([20])" .

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود هذه القصة برواية أخرى فيقول : " في يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسي على الشيخ أبي الحسن . وفي نفسه أن يأكل الخشن وأن يلبس الخشن فقال له الشيخ :

يا أبا العباس : اعرف الله وكن كيف شئت . ومن عرف الله فلا عليه أيضاً أن يأكل هنيئاً مرئياً . وما كان أبو الحسن يتعمد قط أن يأكل الغليظ من الطعام أو يقتصر على غير الزلال البارد من الشراب . إنه يقول " يا بني برِّد الماء . فإنك إذا شربت الماء البارد . فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد والشكر لله.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام " فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ([21]) " . ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة .. ؟ وعن ذلك وبيانا لنهج الطريقة الشاذلية الذي رسمه أبو الحسن يقول ابن عطاء الله ..

---

[20]- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية مخطوط صـ٨٥ .

[21]- سورة القصص آية ٢٣ .

" وأما لبس اللباس اللين . وأكل الطعام الشهي . وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذي يوجب العتب من الله . إذا كان معه الشكر لله (٢٢) " .

هذا هو رأى المدرسة الشاذلية في تربية المريدين . إباحة نعم الله تعالى وتناول الخيرات اعتماداً على قوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (٢٣) وإن كنا نعلم أن الإمام الشاذلي حرم على نفسه كل شيء وهو سالك الطريق وكان يتغذى ببعض " حشائش " الأرض حتى تقرحت شفتاه وساح في الجبال وترك العمران ، وفر إلى الله تعالى .

قال الشيخ أبو الحسن : كنت في بعض سياحاتي ، وقد آويت إلى مغارة بالقرب من مدينة المسلمين ، فكنت فيها ثلاثة أيام لم أذق طعاماً فبعد الثلاثة أيام دخل على ناس من الروم كانت قد أرست سفينتهم هناك فلما رأوني قالوا : قسيس من المسلمين . فوضعوا عندي طعاماً وإداماً كثيراً ، فعجبت كيف رزقت على أيدي الروم ومنعت ذلك من المسلمين .. ؟

وإذا قائل يقول لي : ليس الرجل من نصر بأحبابه إنما الرجل من نصر بأعدائه (٢٤) " .

إن التوفيق بين الإمامين الجليلين يأتي من أن كليهما يتفق على أن يؤخذ المريد في بدء طريق السلوك بالشدة والمجاهدة فإذا شفت نفسه واستنار قلبه فلا عليه بعد ذلك إن شرب هنيئاً أو أكل مرئياً .

فالمريد الذي يطالبه الإمام الشعراني بترك الشهوات جملة لا يشرب الماء البرد ولا ينام على أوطأ الفراش ، ولا يضع جنبه على الأرض ، هذا المريد إذا انتهى سلوكه ، إذا عرف ربه المعرفة الثابتة أمر بالإحسان إلى نفسه مطيته فلما أوصلته إلى مقصده كانت كالأجير الذي عمل ما استؤجر عليه فيجب تعجيل

٢٢- سورة الأعراف آية ٣٢ .

٢٣-سورة آية .

٢٤- لطائف المنن في مناقب ابن العباس المرسي وشيخه تاج الدين أحمد بن عطا الله صـ٨٩ .

الأجرة له . وقد قال كم من مأمور يظلم نفسه في مرضات الله قال تعالى : (ثـــم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه) ([25]) .

قال بعض العارفين : إنما صح لمن يظلم نفسه الاصطفاء لكون ذلك الظلـم لنفسه كان في مجاهدة النفس طلباً لمرضات الله عز وجل ، فليس المراد بها مـــن يظلم نفسه بالمعاصي كما فهم .

فعلم أن المهتدي لو لم يظلم نفسه في مرضات الله ، بـــل أطعمـــها اللذيــد واسقاها المبرد وانامها على اوطأ الفراش ، لم يبرح من مكانه وعدم الترقي جملة.

وهذا هو رأي الإمام الشعراني في تربية المريدين ويؤيد إليه أيضـــاً قولـــه تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا) ([26]) .

والدليل على أن المدرسة الشاذلية تأخذ المريد فـــي بـــدء حياتـــه بالشـــدة والمجاهدة وفطم النفس عن الشهوات ، سيرة الإمام أبو الحسن الشاذلي في مجاهدة نفسه ومتابعة تلاميذه له في سلوك الطريق .

وإنما لجأت المدرسة الشاذلية إلى التخفيف بمثابة حافز له للاستمرار فيـــها فإذا ذاق حلاوتها إذا عرف مقاماتها إذا وجد ما هو أكثر حلاوة من الأكل والشرب فعلم نفسه وابتعد عن كل ما يوقف ترقيه أو يسعده عن ربه .

فالإمام الشاذلي يخشى على المريد من ترك الدنيا جملة فـــلا يســتطيع أن يصبر عليها ولا ينطق تحمل ذلك . فتضعف نفسه وتنهار إرادته وتقـــل عزيمتـــه فيعود إلى الدنيا مرة أخرى يأكل ولا يشبع ويكـــرع ولا يرتـــوي . فـــنراه يعلـــن للمريدين منهجه منهج نابع من طبه للنفوس ومعرفة أهواءها ورغباتـــها ويعـــرف متى يعطيها ومتى يمنعها فيقول .

" لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها . أو تنحل أعضاؤك لها . فـــترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة " ([27]) .

---

[25]-سورة فاطرة آية ٣٢ .

[26]- سورة العنكبوت آية ٦٩ .

[27]-الأجوبة المرضية للإمام الشعراني صـــ٨٧ مخطوط .

هذا هو رأي المدرسة الشاذلية في تربية المريدين يقترب ولا يتعــد كثــيراً عن منهج الإمام الشعراني ﷺ.

وينفرد الإمام الشعراني في منهج السالكين بأخذه العهد على المريد السالك . بـترك كل ما سكت عنه الرسول ﷺ ولم يصرح به بحل أو كراهة . ولكن صرح بعض العلماء بكراهته ويؤيد رأيه هذا بما روى عن الصحابة والتـــابعين مـــن أخذهـــم نفوسهم بالشدة وأن يأمرهم الشارع بذلك .

ومن هؤلاء عبد الله بن عباس . وأبو ذر وأبو الدرداء رضوان الله عليـــهم ولما نزل الماء في عيني عبد الله بن عباس قال له الأطباء : إن تركـــت الســـجود أمكننا مداواتك . فأختار العمى على ترك السجود مع أنه لو أومأ بالســـجود وداوي عينيه من العمى لكان ذلك مباحا له (٢٨) .

وثبت عن أبي هريرة ﷺ وأبى ذر أيضاً كانا يريـــان تحريـــم الادخـــار للقوت والنقود . مع علمهما بأن رسول ﷺ أدخر قوت عامة .

واحتمل بلال . وصهيب وعمار بن ياسر رضـــوان الله عليـــهم احتملـــوا التعذيب والتنكيل احتملوا الموت صابرين من الكفار ولم يوافقوهم على ما طلبـــوا منهم من القول ، مع أن ذلك القول كان يباح لـــهم لأن قلوبـــهم كـــانت مطمئنـــة بالإيمان (٢٩) قال تعالى : (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (٣٠) .

إن طريق التصوف لن يكون إلا كذلك ، إنه نظام الصفوة المختـــارة إنـــه الأرستقراطية في الإسلام ومحال أن يطلب من طائفة الإنتاج طائفة المعدة طائفـــة الشهوة أن ينهجوا نهج السادة المختارين من الصفاء والحكمة .

٢٨- العهود المحمدية للإمام الشعراني صـــ١٧ والأجوبة المرضية صـــ٧٤ مخطوط .

٢٩- الأنوار القدسية في العهود المحمدية صـــ١٨ .

٣٠- سورة النحل آية ١٠٦ .

آداب المريدين

****

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً) ([٣١]) .

روى عن ابن عباس ﷺ أنه قال في تفسيره يعني أدبوهم وعلموهم تقوهم بذلك من النار . وروى عن النبي عليه السلام : (أدبني ربي فأحسن تأديبي)([٣٢])

وقيل للحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله : أكثر الناس لا تعلم الآداب فما انفعها عاجلا وأوصلها آجلا .. ؟ قال : التفقه في الدين فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا فإنه يقربك من رب العالمين ([٣٣]) .

والإمام الشعراني رضى الله عنه : وضع للمريدين آدابا وسننا وقعد لهم قواعد وخطط لهم مناهج والزمهم بالسير عليها . وقسمها ثلاثة أقسام . آداب المريد مع نفسه وآدابه مع شيخه وآدابه مع المجتمع الذي يعيش فيه .

وسنحاول جاهدين أن نشير إلى أهم الأسس وتدل على بعض الآداب ، التي يجب على المريد التزامها وهو سالك في طريقه حتى يكون متبعا للمنهج الذي رسمه شيخنا في تربية المريدين .

آداب المريد مع نفسه

****

أول هذه الآداب مخالفة هوى نفسه ومجاهدتها دائما في ترك الشهوات قال تعالى : (ونهى النفس عن الهوى) ([٣٤]) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام " يا داود " حذر وانذر قومك أكل المشتبهات .

---

[٣١]- سورة التحريم آية ٦ .

[٣٢]- رواه العسكري عن علي ، وابن السعاني عن ابن مسعود في الدرر أن الفضل بن ناصر صححه ، وفي اللالىء المنثور للحافظ ابن حجرة معناه صحيح ، لكن لم يأت عن طريق صحيح .

[٣٣]- اللمع صـ١٨٢ .

[٣٤]- سورة النازعات آية ٤١ .

فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنـــي . يـــا داود كـــن خصماً لي على نفسك فإذا فعلت ذلك حقت موالاتك لي ([٣٥]) .

وقال رجل لابي يزيد أوصني . فقال : عاد نفسك . فبذلك تصح موالاتك لله وعبوديتك له وتأتيك الأقسام هنيئاً مريئا وأنت عزيز مكـــرم وتخدمـــك الأشـــياء وتعظمك لأنها بأجمعها تابعة لربها موافقة له . وعنه أيضاً قال : رأيت ربي فـــي المنام فقلت له يا رب . كيف الطريق إليك ..؟ فقال : اترك نفسك وتعال : قال أبو يزيد : فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ([٣٦]) .

أن المراد من ترك النفس " ترك العمل بخواطرها المذمومة في الشـــرع " ويبنى الطريق على مخالفة فقد قالوا : " من وافق شهوته عدم صفوته " والقـــارىء لكتب الصوفية وآثارها يلاحظ اهتمامهم اهتماماً كبيراً بالنفس ومراقبتها والحد مـــن شهواتها ومعرفة أمراضها وعللها وتشخيص الأدوية الناجعة في سبيل شفائها ولكن الظاهرة التي ينفرد بها الإمام الشعراني منع النفس عن هواها المبـــاح ويطـــالب المريد بالاكثار من الاستغفار إذا تناول شهوة مباحة خوفاً إن يجره الهوى المبـــاح إلى مكروه . لعلمه أن النفس أمارة بالسؤ . وعدوة لصاحبها مع الشيطان .

٢) ترك العلائق الدنيوية :

ومن الآداب التي يطالبه بها أن يجعل رأس ماله رأس ما له حذف العلائـــق الدنيوية لأن من كان له علاقة دنيوية قل أن يفلح في الطريق . بل الواجب عليـــه أن يخرج عما بيده من المال والعرض لأن من كان له شيء من أمـــور الدنيـــا . فالعبادة أن تلبه يتعلق بذلك الشيء وهو حريص على إلا يكون في قلـــب المريـــد شيء غير الله تعالى .

فيطالبه في بداية سلوكه الطريق أن يربط الدنيا كلها في مرة ويريـــها فـــي بحر الاياس ويستمر في ذلك حتى يتساوى الذهب والـــتراب عنـــده . فـــي عـــدم

---

[٣٥]- لطائف المنن والأخلاق صـــ٧٤ جـــ١ وقواعد الصوفية للإمام الشعراني .

[٣٦]- لطائف المنن والأخلاق للشعراني صـــ٧٤ جـــ١ وقواعد الصوفية جـــ١ .

الترجيح والميل . ويحذره أن يكون مثل أصحاب الدنيا فإن الواحـــد منـــهم مثلـــه كالأعمى الذي يصدم الشيطان فكل شيء أحس به قيض عليه . ومن كـــان كذلـــك فهو لا يصلح للطريق .

وفي كلام الإمام أحمد الرفاعي رحمه الله . " متلفت لا يميل وتسلل لا يفلـح ومن لم ير في نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان ([٣٧]) .

فإذا تم للمريد ما أراد فلا عليه بعد ذلك من امسك الدنيـا وأخذهـا بحقـها واستعمالها فيما شرعت له ، والسبب في ذلك أن قلبه أصبح مشـغولا بحـب الله تعالى ، وإذا كان ذلك كذلك . فهو نظيف من الشركاء والأنداد من الأهل والمـال والولد ، فحينئذ لا يضر القلب ملاحظة الأسباب ، والإمام الشعراني في ذلك متفـق مع الإمام أبي الحسن الشاذلي في ترك الدنيا بحقها وأخذها بحقها .

يقول صاحب المدرسـة الشـاذلية : رأيـت الصديـق رضي الله عنه فـي المنـام فقال لي :

أتدري ما علامة خروج حـب الدنيـا مـن القلـب .. ؟ قلـت : لا أدري قال : علامة خروج حب الدنيا من القلب ، بذلها عند الوجود ووجود الراحة منـها عند الفقد ([٣٨]) .

فقد تبين من هذا : أن ليس كل طالب للدنيا مذموماً ، بل المذموم من طلبـها أنفسه لا لربه ، ولدنياه لا لأخرته .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

(من تصدق بصدقة من كسب طيب ــ ولا يقبل الله تعالى إلا طيباً ــ كان كأنمـا يضعها في كف الرحمن يربيها له ، كما يربى أحدكم فله أو فصيلة حتى أن اللقمـة لتعود مثل جبل أحد) ([٣٩]) .

---

[٣٧]- قواعد الصوفية جـ١ صت٨٢ للإمام الشعراني .

[٣٨]- التنوير في إسقاط التدبير تحقيق . موسى محمد علي المشي وزميله .

[٣٩]- وفي رواية أخرى ، فيما أخرجه البخاري ، مسلم والنسائي ، وابن ماجة عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ك من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يقبلها بنيته ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل .

وفي رواية أخرى الطبراني في المعجم الصغير عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد ، عن ابي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله يقبل الصدقات ولا يقبل منها إلا طيباً ويقبلها بينيته ثم يربيها لصاحبها كما يربي الرجل مهرة وفصيلة ، حتى أن اللقمة لتمبير مثل أحد .

وفيما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله تعالى يقبل الصدقة ويأخذها بينيته فيربيها لاحدكم كما يربى أحدكم صهره حتى اللقمة لتنوير مثل أحد .

ويرى الإمام الشعراني بعد هذا أن يمسك الدنيا بأمرها ولا يترك منها شيئاً إلا عند العجز عنه . وتقلب الشهوة المذمومة حينئذ إلى الشهوة المحمودة قال تعالى : مادحا الكمل من الرجال (رجال لا تليهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ([40]) .

فأخبر سبحانه وتعالى أنهم مع قيامهم في الأسباب التي يحجب بهما غيرهم لا يغفلون عن ذكر الله تعالى . لأن الدنيا قد خرجت من قلوبهم وصارت في أيديهم لا غير .

وما ذم الله تعالى حب الدنيا إذا كان حبها بحكم الطبع ويبخل العبد بها عن المحتاجين . وأما إذا وسع بها على المساكين وستر بها نفسه وكفها بها عن سؤال الناس فنعمت الدنيا حينئذ .

٣) تصفية الباطن ومعالجة أخلاقه :

ومن الآداب لسالك الطريق مكايدة خواطره ومعالجة أخلاقه ونفي الغفلة عن قلبه وذلك بمدامه الذكر وأن يكون كل همه العمل على تنظيف ظاهرة وباطنه من الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل ، كالغضب والكبر والعجب والحسد ولا يوجد علاج المريد أسرع في تنقيه قلبه من مداومته ذكر الله عز وجل .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه .. من شانه إلا يكون عنده حسد ولا غيبه ولا بغى ولا مخادعة ولا مكابره ولا مماراه ولا سالفة ولا مكاذبة . ولا كبر ولا عجب ولا افتخار ولا شطح ولا حظوظ نفس ولا تصدر في مجالس ولا رؤية نفس على أحد من المسلمين . ولا جدال ولا امتحان ولا تنقيص لأحد من أهل الله.

[40]- سورة النور آية ٣٧ .

ومن أدعى الصدق في الإرادة وعنده خصلة واحدة مما ذكرنا فـــهو غــير صادق ولا يجيء منه شيء في الطريق لأن هذه الصفات توقف صاحبـــها عــن السير بل تطرده من حضرة الله عز وجل ([٤١]) .

ومراد شيخنا أن يكون متأدباً بأدب القرآن متمسكاً بـــأخلاق النبــوة متبعــاً تعاليم الشريعة . ومن كان كذلك صفت نفسه وطهر قلبه وتخلـــص مــن كــل – الأمراض الباطنية حتى يستطيع أن يدخل حضرة الله تعالى .

لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها إنسان وهو متلبـــس بـــالحظوظ النفســـانية فالواجب على المريد أن يكون بالله لا بنفسه وهـــواه وإلا فيـــهلك مـــع الـــهالكين والصالح حقيقة والمريد الصادق . من تولى الله تعالى أموره كلها ولم يبق عنـــده في نفسه طلب لجلب مصالح ولا لدفع مفاسد .

٤) قصر الأمل :

ومن الآداب التي يفرضها إمامنا الشعراني ويطالب المريـــد بالتزامـــها أن يكون قصير الأمل . وذلك لحكمة . حتى يجد في الطاعات ويجتنب المخالفـــات . فإن من كان طويل الأمل لازمه التسويف بالخيرات والوقوع في المخالفات ويسـمع جواب نفسه منبعثاً من أعماقه " إذا قرب أجلك فتب إلى الله تعـــالى عـــن جميـــع المخالفات السابقة وكأنك لم تذنـــب قـــط " أليـــس التـــائب مـــن الذنـــب كـــم لا ذنب له ([٤٢]) .. ؟ كما يقول الرسول ﷺ وهذه مغالطة مـــن الشـــيطان ومكـــر بالمريد وتسويف منه حتى ينقضي الأجل .

ومن هنا قالوا : الفقير ابن وقته " لا نظر له إلى ماضي ولا آت لأن نظـــره إليهما تفويت للوقت الحاصل . وقد قال رجال التصوف " كل من نظر إلى عملـــه بالتسويف خسر عمره وفاته الزرع فخسر الدنيا والآخرة " ([٤٣]) .

---

[٤١]- قواعد الصوفية صـــ٥٢ جـــ١ .

[٤٢]- رواه الإمام القشيري في الرسالة وابن النجار عن انس ، ورواه البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنه .

[٤٣]- لطائف المنن جـــ١ صـــ٦٨ .

ونستمع قول إمامنا ، ونقرأه بإسلوبه الذي يصل إلى القلوب مباشرة لأنـــه نابع من القلب وملتزم بالصدق ، ومتبع لقواعد الشريعة : " الواجب على المريد أن ينظر إلى الوقت الذي هو فيه دون الماضي والمستقبل ؟ فإن الماضي قد ذهب بمـا فيه من خير أو شر وختم على صحيفته . والمستقبل لا يدري العبد ما لله صـــانع فيه . وما بقى إلا الحالة الراهنة . ولا يخلو العبد فيها من أن يكون مخاطباً فيـــها بأحد ثلاثة أمور .

إما أمر يمتثله ، وإما نهى يجتنبـــه ، وإمـــا قـــدر يرضـــى بـــه ، وقـــد قال : القوم : الصوفي ابن وقته " وقال الإمام الشـــافعي رضي الله عنه . " اســـتفدت مـــن الصوفية طول صحبتي لهم شيئين قولهم الوقت كالسيف إن لـــم تقطعـــه قطعـــك وقولهم أن لم تشغل نفسك بالخير شغلك بالشر " ([٤٤]) .

فمن اشتغل بالماضي ضيع وشيخة الوقت . فإن على العبد في كـــل نفـــس عبودية يؤديها وصاحب هذا المشهد لا يرى شيئاً من عباداته يقضي إذا فات . وبه قال بعض المالكية قال : لأن الوقت إذا ذهب فارغاً ختم على صحيفـــة فارغـــة . فلأي شيء يطلب تفريغ محل ليمـــلأ بـــه محـــلا آخـــر والكـــل منـــاقش عليـــه ومحاسب به . ([٤٥]) ؟

٥) فقه الشريعة :

ومن الآداب التي يطالب بها الإمام الشعراني المريد . المحافظة علـــى آداب الشريعة والمشي على ظاهرها ما أمكن . فإن الترقي كله في امتثال أمر الشـــارع ويطالبه بالحرص عليها بحيث لا تعترض عليه الشريعة في أمـــر مـــن أمـــوره . وعليه أيضاً ألا يدخل هذا الطريق إلا بعد تضلعه في علم الشريعة وفهم الحديـــث وإلا فيخاف عليه الزندقة والابتداع . لأنه ينفتح للسالك أمور بحيث لا ينضبط على شريعة . فلابد للمريد إذن من الإحاطة بالعلوم الدينية لأن التصوف والعلم قرينـــان

---

[٤٤]- قواعد الصوفية صـــ٨١ .

[٤٥]- لطائف المنن والأخلاق صـــ٦٨ جـــ١ .

لا يفترقان وقد قال الرسول ﷺ " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنـــا قاسم والله يعطي " ([٤٦]) .

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : " ما عبد الله عــز وجل ، بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان مـــن ألــف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه " ([٤٧]) .

ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرابي (فمن يعمل مثقـــال ذرة ، خــيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ([٤٨]) قال الأعرابي حســبي حســبي فقــال رسول الله ﷺ: فقه الرجل ([٤٩]) .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه . ومن تفقهه في علم الشريعة أن يكون علـــى بينة من عقائد أهل السنة ، وإلا يطلع في كلام القوم ما دام مقلدا لـــهم ، إلا كــلام الكمل من الأولياء الذي لا ينقض ظـــاهرة باطنـــه ، ولا باطنـــه ظـــاهرة أدلـــة الشريعة ([٥٠]) .

وكل من كان افقه كانت نفسه أسرع أجابه وأكثر انقيادا لمعالم الدين وأوفــر حظاً من نور اليقين .

ويؤيد ذلك ما يقوله الإمام سهل التستري رضي الله عنه ،معبراً عن أصول التصوف بقوله . أصول التصوف سبعة : التمسك بالكتاب . والاقتداء بالسنة . وأكل الحــلال وكف الاذي وتجنب المعاصي . ولزوم التوبة وأداء الحقوق .

ويقول الإمام الجنيد رضي الله عنه : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .

---

[٤٦]- رواه البخاري عن عبد الله بن عمر ومسلم في صحيحة عن معاوية وأخرجه أحمد في مسنده والترمذي في صحيحه عن ابن عباس.

[٤٧]- روى البيهقي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين " وإسناده ضعيف " .

[٤٨]- سورة الزلزلة آية ٨ .

[٤٩]- الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني مرسلاً ومتصلاً ورجال الجميع ورجال الصحيح دون آخره (فقه الرجل) .

[٥٠]- آداب العبودية للإمام الشعراني صـــ ١٢٢ على هامش الطبقات وقواعد الصوفية للشعراني صـــ٦٦ .

وقال : الطرق كلها مسدودة على الخلق . إلا على من اقتفى أثر الرسـول عليه الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته ([1]) .

فالمريد . إذا التزم بالشريعة قولا وفعلاً منهجاً وسلوكاً . واتبع سنة الرسول ﷺ. ولزم طريقته . وتخلق بأخلاقه كان مريداً صادقاً وسـالكا ملتزمـاً بـآداب الرجال .

٦) أن ينصف الناس من نفسه :

ومن الآداب . أن يطالب نفسه بحقوق الخلق . ولا يطالب الخلـق بحقـوق نفسه . ويرى أنه أحقر خلق الله المؤمنين على الاطلاق فلا يتكـبر ولا يختـال . ويعمل على تنقيه نفسه مما بها من أمراض وعلل وأن ينزل الناس منازلـهم . وإن يتحمل الأذى من جميع الأنام ويشهد أن ذلك من رحمة الله به . ونعمتـه عليـه . حتى لا يركن إلى سواه ولا يعتمد على غيره .

ويروي في هذا الشأن عن الإمام أبي الحسن الشاذلي قوله : " جرت عـادة الحق سبحانه وتعالى مع أنبيائه واصفيانه أن يسلط عليهم الأذى في مبتدأ أمرهم ثم تكون الدولة لهم أخراً . كما وقع لسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام . وكذلك لسـيدنا موسى وسيدنا يوسف عليهما الصلاة والسلام وسيدنا محمد ﷺ مع قومهم " ([2]) . احتمال الأذى والصبر عليه من الفترة واقتداء بالسـلف الصـالح مـن الأنبيـاء والمرسلين . وإذا كان الله يصيب أحبابه ويبتلي أولياءه ففي ذلك اختبار لهم حتـى لا يركنوا إلى سواه . ولا يعتمدوا على غيره والمريد في أول الطريق . يجـب أن يعتمد على الله ويكون مع ربه على الدوام .

والواجب عليه إلا يفهم هذا الكلام بخلاف المراد . فيتخلل باطنـه احتمـال الأذى لتكون له الدولة أخرا . فيتصرف في الخلق بالمقال والحـال . لأن العبـد المؤمن ليس له دولة في الدنيا . وإنما هي بالنسبة له دار عمـل وتحمـل مشـاق

---

[1]- مقدمه المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود صـ١٦٥ .

[2]- آداب العبودية للإمام الشعراني على هامش الطبقات صـ١٣١ .

وأكدار فيكون تحمله الأذى اقتداء بالأنبياء والمرسلين والسلف الصالح . ومن كان كذلك من تحمل الأذى . والصبر عليه . قيض الله تعالى من ينصره إما بقدره على احتمال الأذى فلا يبالي به أو بغير ذلك قال تعالى : (وكذلك جعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) (٥٣) .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه : سمعت هاتفاً على لسان الحق تعالى : يقول من شهد الأمور كلها مني لم يتغير من وجد أن ولا فقد ومن خرج من حضرتي سلطت عليه أعدائي فلا يلومن إلا نفسه (٥٤) .

" قل كل من عند الله " ــ آية ٧٨ من سورة النساء .

فكثرة المدح من جميع الخلق لا تغنى من الله شيئاً إذا كان المرء عند الله بخلاف ذلك ، وكثرة الذم والأذى من الحق لا تضر شيئاً ما دام المرء عند الله غير ذلك .

واحتمال الأذى سنة عن الرسول ﷺ . هاجمه المشركون وألبوا عليه صبيانهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة فرفع أكف الضراعة إلى ربه وقال : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني لم إلى قريب ملكته أمري ، أن لم اكن ساخطا على فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض ، وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تحل على غضبك أو تنزل على سخطك ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك " (٥٥) .

إنه لم يطلب العقاب لقومه ، ولم يسخط على حكمه ربه ، بل راضي بكل ما أراده ربه ، إنه أدب النبوة تلقاه في مدرسة القرآن ، مصداقاً لقول عائشة رضى الله عنهما : (كان خلقه القرآن) (٥٦) .

٥٣- سورة الفرقان آية ٢٠ .

٥٤- آداب العبودية على هامش الطبقات الكبرى صـ١٣٥ .

٥٥- الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر .

٥٦- رواه الإمام أحمد في سنده والسيوطي في جامعة الصغير .

ويهبط جبريل من قبل ربه . ويقرئ الصابر الراضي بقضاء ربه السلام ويقول يا محمد : مرني أن أطبق عليهم الأخشبين .. وهنا يتجلى بوضوح شفقة النبي ﷺ ورحمته بامته في أسمي معانيها فيقول : " اللهم أهد قومي فأنهم لا يعلمون ويتحول الوجود كله أفواها ليردد في سمع الزمان نعم يا محمد " فأنت الرحمة المهداه " ([57]) .

٧) الإخلاص :

ومن الآداب التي يطالب الإمام الشعراني بها المريدين الإخلاص قال تعالى " ألا لله الدين الخالص " ([58]) . وفي الحديث أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى أنه قال " الإخلاص سر من أسراري استودعه قلب من أحببته من عبادي ([59]) " . ولقد احتفل رجال التصوف قديماً وحديثاً بالإخلاص وتكلموا فيه ووضعوا المؤلفات والكتب ، والناظر في آثار هؤلاء الرجال يجد أن إخلاص القلب لله . وإخلاص النية له ، كان شغلهم الشاغل ، ووسيلتهم إلى ربهم.

قال الجنيد رحمه الله " الإخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه . ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله " ([60]) . إذا اعتبر شيخ الصوفية أن " الإخلاص " سر بين العبد وربه كما جاء في الحديث . فإن العارف بالله أبا سعيد الخراز رضي الله عنه . يرى أن " الإخلاص " هو طلب العبد لربه توجهه إليه مراقبته في كل أعماله وأفعاله . عدم الشرك أو الالتفات إلى غيره . يقول : " الإخلاص " هو الذي أمر الله تعالى به حين يقول : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ([61]) .

---

[57]- سبق تخريج هذا الحديث .

[58]- سورة الزمر آية ٣ .

[59]- الرسالة القشيرية تحقيق دكتور عبد الحليم محمود جـ٢ صـ٤٤٧ .

[60]- الطريق إلى الله للعارف بالله أبي سعيد الخراز تحقيق دكتور عبد الحليم محمود صـ١٨ .

[61]- سورة الكهف ١١٠ .

وهو أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله وحركاته كلها ظاهرها وباطنها لا يرى بها إلا الله وحده قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه راعياً لهمته قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره . لا يحب مدح أحد ولا ثناءه ولا يفرح بعمل إذا أطلع عليه المخلوقون . فإن عرض له من ذلك شيء اتقاه بالسرعة والكراهية . ولم يسكن إليه لكن إذا أثنى عليه أحد حمد الله على ستره عليه . حين وفقه لخير رآه العباد عليه .

نعم ثم يخاف عند ذلك من علمه الرديء وسريرته القبيحة التي خفيت على الناس ولم تخف على الله فاشفق من ذلك وخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته فهكذا يروى الحديث ..

" السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور . فإذا استوت السريرة والعلانية فذلك العدل . وإذا فضلت السريرة العلانية فذلك الفضل " ([٦٢]) .

أما حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه فيسأل عن الإخلاص فيجيب بقول الرسول ﷺ: أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت ([٦٣]) .

إنه يطالب المرء بالابتعاد عن عبادة هواه وشهوات نفسه ولا يعبد إلا الله عندها يستقيم على الجادة في عبادته لربه ويستقيم في كل شئونه لأن الله معه ، والعناية ترعاه وتحرسه فإذا قطع العبد عن نفسه كل ما سوى الله ، إذا فر إليه متشوقاً لنوره وهداه كان مخلصاً .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الشعراني لنستطلع رأيه في حقيقة الإخلاص والذي يجعله أدبا من آداب المريدين ، ومقاماً من مقامات السالكين نراه لا يبتعد كثيراً عمن سبقوه من رجال التصوف في تعريف الإخلاص فيطالب المريد أن يخلص النية لله تعالى في علمه وعمله وسائر أحواله مستدلا بقوله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) ([٦٤]) .

---

[٦٢]- الطريق إلى الله ــ للعارف بالله أبي سعيد الخراز تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ١٨ ز

[٦٣]- إحياء علوم الدين جـ٤ صـ ١٦٩ .

[٦٤]- سورة البينة آية ٤ .

فإن أقام الصلاة أقامها بلا عوج أو عدم خشية . وإن أعطى الزكاة قدمها بلا علة ولا انتظار لثواب ولا خوف من عقاب بل امتثال لأمر الله تعالى وفي الحديث القدسي (إذا لم أخلق جنة ولا ناراً لم أكن أهلا لا عبد) وعن رابعة العدوية ﷺ " لم أعبده خوفاً من ناره ولا طعماً في جنته فأكون كأجير السؤ.

إن الإمام الشعراني يرى . أن من أقل درجات الإخلاص أن يكون في أعماله كالدابة المحملة فهي مرهقة من ثقل حملها منكسة الرأس لا تعلم بنفاسة ما هي حاملته ولا بخسته ولا تعلم هو لمن ..؟ ولا إلى أين ينتهي حملها .. ؟ ولا ترى لها بذلك فضلاً على غيرها من الدواب . ولا تطلب على حملها أجرا .

ويقول : إذا رأى العبد بعلمه وعمله حبط عمله بنص الكتاب والسنة وإذا حبط عمله فكأنه لم يعمل شيئاً قط فكيف يرى نفسه بذلك على الناس مع توعده بعد الإحياط بالعذاب الأليم (٦٥) .. ؟

والإمام الشعراني لا يترك كل من ادعى الإخلاص التسليم ولكنه يضع لهؤلاء ميزاناً يزن لكل منهم أعماله وتصرفاته وحتى يتأكد إذا كان في عمله هذا مخلصاً . أم أنه مدعى للإخلاص ومراء بعمله .. ؟ .

إن هؤلاء المريدين المنقطعين لعبادة الله في كهف أو زاوية إذا انقطع عنهم الناس وأغفلهم الأهل وأهملهم الأصحاب إذا نسيتهم الدنيا فماذا يكون حالهم .. ؟

إن الإمام الشعراني يرى أنهم إذا فرحوا بذلك وسروا به وأدخل السكينة في قلوبهم فهم مخلصون حقاً وسائرون في طريق الله صدقاً . أما إذا استوحشت بذلك نفوسهم وضاقت صدورهم وتطلعوا إلى الدنيا ولذاتها فهم كاذبون أدعياء لا يجيء شيء منهم في الطريق .

والإمام الشعراني في اشتراطه الإخلاص للمريدين إنما هو في ذلك متبع غير مبتدع ومقتد بالرسول ﷺ إذ يقول : (ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) (٦٦) .

٦٥- العهود المحمدية صـ٨ ولطائف المنن جـ١ صـ٣١ .

٦٦- ابن عدي في كاملة من حديث أبي أيوب ، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث ابن عباس ، وقال الحافظ المنذري لم اقف على إسناده صحيح ولا حسن ، إنما ذكر في كتب الضعفاء وأخرجه أبو نعيم في الحلية .

هذه أهم الآداب التي يطالب الإمام الشعراني المريدين بالتزامـــها والسـير على منوالها .. مخالفة لهوى نفسه ومجاهدتها ترك الشهوات ، وتركــه العلائــق الدنيوية وزهده في لذاتها ، وأن يصفي باطنه من كل الأمراض التي تصيب النفس وذلك بمعالجة أخلاقه من الصفات الذميمة ، وأن يكون قصير الأمل ليجد في طلب الطاعات ويجتنب المخالفات ، وعليه أن يفقه نفسه وأن يعرف أســرار الشــريعة بحيث تكون كل أعماله موزونة بها وأن ينصف الناس من نفسه وأن يــؤدي لــهم حقوقهم وأن يتوج ذلك كله بالإخلاص .. الإخلاص في كل أموره في كل ما يــأتي وما يدع .

إذا فعل المريد ذلك وألزم نفسه هذه الآداب كان سائرا على الطريق متبعــاً النهج . فيطالبه الإمام الشعراني بآداب أخرى مع شيخه وقواعد مع إخوانه عليــه إتباعها بحيث لا يحيد عنها ولا يغفل عن التزامها .

آداب المريد مع الشيخ

****

آداب المريد مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب ، وللقوم في ذلك اقتداء بالرسول ﷺ ، لقد نزل القرآن الكريم مؤدباً للصحابة ومرشداً لهم موضحاً لهم الأسس والقواعد التي يجب أن يلتزمها صحابة رسول ﷺ مع نبيهم قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) ([٦٧]) .

وقال أيضاً : (ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ([٦٨]) .

والتزم الصحابة بتلك الآداب ، وأخذوا أنفسهم بهذا التوجيه السماوي فلم يقدم أحد منهم بين يدي الرسول عليه السلام بعد نزول هذه الآيات قولاً أو فعلاً ، ولم يرفعوا أصواتهم عنده ، ولقد تاب الذين سبقت منهم هذه الأشياء عند الرسول ﷺ وحسنت توبتهم ، وأصلح الله أحوالهم لتمسكهم بتلك الآداب والشيخ في الطريق الصوفي ، الشيخ الملتزم بالكتاب والسنة والمتبع لسنة الرسول ﷺ ، قولاً وفعلاً وتقديراً هو نائب المشرع وخليفة الرسول عليه السلام ، فيجب على المريد التزام الآداب معه وسماع أقواله والاقتداء بأحواله مادام ملتزماً بالشريعة ، منفذا لأوامر ربه .

وصاحب كتاب عوارف المعارف ، يوضح حقيقة الشيخ ووضعه بالنسبة للمريد السالك للطريق فيقول " الشيخ للمريد أين الإلهام كما أن جبريل أمين الوحي وكما لا يخون جبريل في الوحي ، لا يخون الشيخ في الإلهام ، وكما أن رسول ﷺ لا ينطق عن الوحي ، فالشيخ مقتد برسول ﷺ ظاهرا وباطنا لا يتكلم بهوى النفس ([٦٩]) .

---

[٦٧]- سورة الحجرات آية ١ .

[٦٨]- سورة الحجرات آية ٢ .

[٦٩]- عوارف المعارف على هامش الإحياء للغزالي صـ٥٧ جـ١ .

لا شك أن الشيخ رجل يملأ الإيمان قلبه وتسيطر التقوى على تصرفاته ، ومن كان كذلك تنزل عليه الملائكة كما أشار بذلك القرآن الكريم ، أن الملائكة تنزل على كل فرد في هذه الحياة بشرط الإيمان والتقوى .

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول وليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بان طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقي في مدارج السمو الروحي درجة فدرجة حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن ، ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهي إلى حد ([٧٠])

وإذا كان ذلك كذلك ، وأن الشيخ له هذه المنزلة وبالتالي لا يأتي الفتح للمريد إلا عن طريقه ، لأنه الأمين على كلام الشارع والمحافظة عليه فالواجب على المريد :

" أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره ، وأن يلزم السكوت ولا يقول شيئاً بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له في ذلك ([٧١]) .

إذا ألقى المريد قياده لشيخه إذا اسلم إليه نفسه كان الواجب على هذا المريد ألا يتصرف إلا بأمر ولا يأتي شيئاً إلا بعد مشورة . ونظام الجماعة يقتضي ذلك حتى لا يترك كل شيء لهواء . فيأتي من الأمر ما يشاء . ونظام الشورى في الإسلام من أدق النظم الذي يجب أن تلتزم به الجماعات وجملة الصوفية لا يفعلون شيئاً إلا بتوجيه القرآن واتباع قواعده . ويستحسن للمريد في حضرة شيخه أن يقلل كلامه ويمنع لغوه ـــ إنه جاء ليسمع فقط .. يرغب في الاستفادة ويطلب الهداية ولن يكون ذلك إلا بحسن الاستماع . والإمام الشعراني يطالب المريدين بالتزام الأدب . مع أشياخهم . فإن ذلك أحرى بتعجيل الفتح لهم . وأول هذه الآداب .

---

[٧٠]- الإسلام والعقل دكتور عبد الحليم محمود صـــ

[٧١]- عوارف المعرف على هامش الإحياء صـــ٥٧ جأ١ .

المحبة : المحبة للشيخ . بحيث يؤثر المريد شيخة على جميع شهواته ويفضله على جميع رغباته . لأن محبة الشيخ مرحلة أولى وخطوة تتلوها خطوات . حتى يترقى منها إلى محبة الله جل وعلا ولأن الشيخ طريقه إلى الترقي . ووساطته للعروج إلى المقامات . وكما أن الرسول ﷺ . لا ينطق عن الهوى . فالشيخ مقتد برسول الله ﷺ . مقتد به ظاهرا ومقتد به باطناً فلا يتكلم بهوى نفسه .

إذا أحب المريد شيخه . أطاع أوامره واجتنب نواهيه . لأن المحب يسمع كلام من يحب . فلا من يتألم تنفيذ تعاليمه ولا يتضجر من إلقاء أوامره . لأن الشيخ يبصر المريد بعيوبه ، عيوب نفسه وأمراض قلبه . ويطالبه بالعمل على تصفية روحه فهو الطبيب الذي يعالج أسقامه ، والنظامي . الذي يقضي على علله وأوجاعه فإذا نجح الشيخ في ذلك قرب مريده من ربه وأرشده إلى نوره ودله على طريقه .

وللمحبة عند إمامنا الشعراني شرط على المريد أن يلتزمها ويتبع قواعدها ويسير على نهجها وإلا فهو لم يعرف للمحبة باب ولا لطريقها منفذاً .

وأول هذه الشروط . التوبة من جميع الذنوب . التوبة من كل ما عرفه وما لم يعرفه مصداقاً لقوله تعالى : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ([٧٢]) . فمن أحب شيخه تاب واستقام على الطريق ومن الاستقامة الإخلاص له ويذل المحبة في سبيل رضاه وثاني هذه الشروط . أن يصم أذنيه عن سماع كلام أحد في شيخه فلا يسمع كلام الحاسدين أو المغرضين . لا يسمع الشائعات التي يطلقها أعداء الله وأعداء شيخه ولو أدى ذلك إلى إصابته في نفسه وبدنه أو منعه عن الطعام والشراب أياما لكان له في محبة شيخه وفي النظر إليه والأخذ عنه غناء أي غناء . ويصور الإمام الشعراني حقيقة المحبة قائلاً . أن يحب الأشياء من أجله ويكرهها من أجله كما هو الشأن في محبة الله تعالى . يؤيد ذلك ما ورد في الحديث : (أن عبداً يأتي يوم القيامة بكثير صلاة وصيام وحج وصدقة .

---

[٧٢]- سورة آل عمران ٢٢٢ .

وتشهد له الملائكة بذلك فيقول الله عز وجل : " انظروا هل والي لي وليا أو عادي لي عدواً ") ([73]) .

فالواجب على المريدين أن يحبوا المشايخ كل الحب ويقدروهم كل التقدير . لأنهم نواب الشارع عليه السلام في إرشاد جميع الناس وهم الورثة للرسل على الحقيقة . ورثوا علوم شرائعهم غير أنهم لا يشرعون . فلهم حفظ الشريعة في العموم . ومالهم التشريع ولهم حفظ القلوب من الميل إلى مرضاة الله ومراعاة الآداب الخاصة بأهل الحضرة الإلهية .

وليس كل من أدعى المشيخة . أو سمع هاتفاً من جني أو شيطان " أو سلك المريدين " فجلس لها . تحطيه بهذا التقدير ونسلم له اله المهج والأرواح يتصرف فيها كما يحب ويريد . لا ليس الأمر كذلك . وإنما هذا الشيخ له شروط وعلامات لابد من معرفتها والتحقق بها ، فإن كان عاريا منها فالواجب الفرار منه وكشفه بين أيدي الخلائق حتى يعود عن غيه ويكف عن ادعائه وسنذكر هذه الشروط عند حديثنا عن " الشيخ في الطريق الصوفي " والإمام الشعراني لا يدعو المريد إلى المحبة مطلقاً ولا يطالبه باستقرار حب الشيخ في قلبه .. لأن القلب لله تعالى . والله يغار أن يكون في قلب عبده غير محبته . ويطالب الشيوخ أن ينصحوا المريدين بعدم الوقوف معهم في المحبة فربما تخلف الفتح على المريد بسبب ذلك.

ومن هنا قال الشيخ أبو مدين .. ليس للقلب إلا وجهه واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها ([74]) .

ومن الآداب مع الشيخ : أن يعتقد في شيخه الكمال وبعده عن النقص والكمال في خلقه ، والكمال في أدبه ، والكمال في علمه . وكان العارف بالله عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه يقول : من لم يعتقد الكمال لا يقلع على يديه أبداً ([75]) .

---

[73]- قواعد الصوفية صـ١٦٩ جـ١ .

[74]- قواعد الصوفية للشعراني .

[75]- المصدر السابق صـ ١٧٤ .

والشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله يقول : من دخل في صحبة شيخ ثم اعترض عليه بعد ذلك . فقد نقص عهد الصحبة ووجب عليه تجديد العهد (٧٦) .

ويروى الإمام الشعراني عن هؤلاء الذين لا يعتقدون في مشايخهم الكمال . بأنهم محرومون من الألطاف الربانية والتجليات الإلهية وعاقبة أمرهم خسر كان رجلا مشهورا بالولاية بالبصرة وكان خبازا فمضى إليه شخص يأخذ عنه الطريق فوجده ممتقعاً خوفاً من شرر النار . فقال في نفسه : لو كان هذا ولياً لله تعالى ما أحرقه شرر النار .

فقال له الشيخ : يا ولدي إنك استصغرتني . وما بقيت تنتفع بكلامي (٧٧) . على المريد أن يعتقد في شيخه الكمال .. حتى يمكن أن يستفيد منه ويعتقد فيه العلم حتى يمكنه أن يذهب جهله . وأنه يعرف طريق ربه حتى يمكن أن يدله عليه فإن اعتقد في شيخه غير ذلك فترت همته عن الأخذ منه .. وتغير قلبه عن إمكان الإفادة عن طريقه لأنه إن اعتقد في شيخه النقص كيف يطلب منه الكمال . وإن ظن فيه الجهل كيف يرجو منه العلم .. إن ذلك لبعيد .. ومن هنا حرص الإمام الشعراني على مطالبة للمريد أن يعتقد في شيخه . أنه يعرف كل شيء ولا يجهل شيئاً وكل مريد صحب شيخه على غير هذا الطريق وسار على غير احترام . حرم فوائده وبركاته ثم لا يظهر عليه من أثار شيخه شيء – بل تطول عليه الشقة وتلفظه طريق الله . لأن أفعاله تكذب دعواه .

ومن الأدب مع شيخه : ألا يكون عنده دلال على الشيخ خوفاً من أن يأمره بأمر أو يطالبه فلا يمتثل أمره أو يتكاسل فيه فإن ذلك من علامة عدم صدقه وفلاحة في الطريق ومن الأدب : إذا تعذر عليه الفتح إذا طالت عليه الطريق إذا انتظر الفيوضات الربانية فلم تأت وترقب التجليات الإلهية فلم تحل . إذا رأى إخوانه المريدين – غارقين في نعم الله . ولم يرزق بشيء أقام المذر لشيخة

---

[٧٦] - لطائف المنن جـ٢ صـ٧٤ للإمام الشعراني .

[٧٧] - قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ١٧٦ .

وجعل اللوم على نفسه .. ويقول النقص مني والعجز من نفسي . وقـــد قـال الله تعالى للرسول ﷺ .. (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشأ) (٧٨) .

فالواجب على المريد أن يعتقد ذلك يقول : إذا كان سـيد المرسـلين بـهذه المثابة بالشيخ .. ؟ (أن الله غالب على أمره ... وكل شيء عنده بمقدار) (٧٩) .

يقول العارف بالله سيدي أبو العباس المرسي رحمــه الله .. لا ينبغـي أن يكون بين المريد وأستاذه ثورة من حيث الأمراض التي عنده لأن شيخه طبيبـة . وحال المريد الباطن عورة ويجوز كشفها للطبيب لضرورة التداوي . ولا ينبغي له أن يكلف شيخه بمكاشفته بعيوبه . لأن الأشياخ منزهون في كشفهم عن الإطـلاع على العوارت . لأنه كشف شيطاني يجب عليهم التوبة منه وسؤال الحجاب حتـى لا يقع بصرهم على عورة أحد من خلق الله تعالى . ولـولا أن المريـد يخـبرهم بأحواله الباطنه ما عرفوها منه (٨٠) .

كما أن مريض الجسم يكاشف الطبيب بعلله ويوضح له جراحاته ويبين لـه أوجاعه . فكذلك أمراض الروح فعليهم أن يكاشفوا الطبيـب المعـالج بسـخامات النفس بعلل القلب ، بأمراض الروح ، بالسرائر الباطنة ، بكل مـا يحتـاج فـي قلوبهم وما يثور في نفوسهم ، عليهم أن يوقفوا أطبـاءهم علـى مواطـن الـداء مواضع العلل ، حتى يمكن لهؤلاء الأشياخ أن يعالجوهم ، أن يصفوا نفوسـهم ، أن يطهروا قلوبهم ، أن يزيلوا ما عليها من أكدار وتلك وظيفة الشيخ ، إنـها عمليـة تطهير وتصفية ، لكل ادران النفس إنها العودة بالروح إلى عالمها الأول قبـل أن تستقبلها الترابية الأرضية ولن يتم ذلك على الوجه الأكمـل إلا إذا كـان هنـاك مكاشفة تامة بين المريد وشيخه .

٧٨- سورة القصص آية ٥٦ .

٧٩- سورة الرعد ٨ .

٨٠- قواعد الصوفية صـ١٩٧ .

ولكن ألا يستطيع الشيخ أن يعرف خواطر مريدية وعيوبة الباطنة .. ؟ اعتقد أن ذلك ليس ببعيد لأن الشيخ رجل مؤمن تقي ، بل هو على قمة الإيمان والتقوى والرسول ﷺ يقول : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ([٨١]) .

فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن يشهد له رسول الله ﷺ أنه إنما ينظر بنور الله لا بوجود نفسه إذا كان ذلك كذلك فالشيخ الصادق ــ الذي تنطبق عليه الشروط ــ يعرف أمراض مريده عن طريق الإلهام لا عن طريق سوء الظن والكشف الشيطاني .

يقول سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه : " يا مريدي إن صدقت معي وصح عهدك ، فأنا قريب غير بعيد ، وأنا في ذهنك وأنا في طرفك ، وأنا في جميع حواسك الظاهرة والباطنة ، وإن لم تصدق معي كنت منك بعيداً ولا تشهد أنت مني إلا البعد) ([٨٢]) .

يقول الإمام السهروردي رضي الله عنه وماذا ينكر من قدرة الله تعالى .. ؟ إن الله سبحانه وتعالى ، كما جعل في بعض الأفاعي ([٨٣]) من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظرة ، جعل في نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب نظره صادقة يكسبه حالا وحياة ([٨٤]) .

فالواجب على المريد ، أن يتوجه بقلبه إلى شيخه ، في كل أمر دهمه في دار الدنيا ، ويشترط الإمام الشعراني على المريد أن يكون " شيخه " حيا وينزل بالآئمة على أولئك الذين يتجهون إلى الأموات ، لأن هؤلاء في رأيه صارت وجهتهم في البرزج إلى الآخرة ، وظهورهم إلى الدنيا ، فلا عليهم إن خربت الدنيا أو عمرت .

---

[٨١]- الترمذي والطبراني من حديث أبي أمامه ، والترمذي من حديث أبي سعد والطبراني وأبو نعيم بسند حسن عن أنس : أن لله عباد يعرفون الناس بالفراسة .

[٨٢]- الأنوار القدسية في قواعد الصوفية صـ٨٣ .

[٨٣]- يسمى افاعي " الصل " .

[٨٤]- عوارف المعارف تحقيق د. عبد الحليم محمود صـ٢٨٤ .

وأمراض المريد لا تعرف إلا بالمشافهة من شيخ حي يدلنـــا علـــى كيفيـــة الدواء ويخاطبنا ونخاطبه ، لأن هؤلاء الذين يدعون أنهم يسمعون كلام الولي مـــن قبرة يجابهم بقوله : من يد ربكم أنه الولي ؟ فربما كان الناطق شيطاناً لعدم عصمة الولي عن مثل ذلك . ولا يأخذ بكلامك . إلا بعد عرضه علـــى علمـــاء الشـــريعة لنرى مدى مطابقته للشرع .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد في آداب المريد مع شيخه في منـــهج الإمـــام الشعراني لأنه حريص على أن يحيط المريد بكل شيء .. فيوصيه بالا يتكـــدر إذا اقامة شيخه في خدمته سفراً وحضرا دون أن يحضر مجالس الذكـــر لأن الشـــيخ طبيب ويستعمل مريده فيما يراه خيراً له من سائر الوجوه. ومتى تكدر المريـــد أو رأي أن اشتغاله بغير ذلك أفضل فقد نقض عهده ويطالبه الإمام الشعراني أن يجدد هذا العهد وحجته في ذلك أن الشيوخ أمناء من جهـــة رســـولﷺ علـــى أمتـــه ومطالبون بأن يفعلوا مع المريد ما يرقيهم ويبعدهم عما يؤخرهم أو يحـــول بينـــهم وبين الوصول إلى المقامات .

والعارف بالله سيدي علي بن وفا رحمه الله تعـــالى يقـــول : " إن وجـــدت أستاذك المحقق فقد وجدت حقيقتك . وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله عندهـــا . وإذا وجدت الله عندها وجدت كل شيء " (٨٥) .

ومن الآداب أيضاً التي يجب على المريد امتثالها : اتباع أوامر شيخه . فإذا لم يبادر إلى امتثالها فهو دليل على عدم صدقه لأن المريد الصادق من يبادر إلـــى تنفيذ ما أمر به . ومن هنا كان أبو بكر الصديقرضي الله عنه . اسبق الناس إلى تصديـــق رسول الله ﷺ. من سائر قريش . والسبب في ذلك أن أبا بكر الصديقرضي الله عنه كـــان أضعف قريش رابطة فيما كانوا عليه من تضاد طريق الهدى . وأقواهـــم رابطـــة فيما يقرب من طريق الهدى ولهذا سمى بالصديق . هذه هي أهم الآداب التي يجب

---

[٨٥]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني جـــ١ صـــ ٥٢.

أن يلتزمها المريد مع شيخه المحبة له بحيث يقدمه على نفسه وأولاده وزوجه وسائر أهله . وأن يعتقد في شيخه الكمال بحيث لا يساوره أدنى شك في صدق شيخه وروعه وتقواه . وإذا تعذر الفتح عليه وتأخر وصوله فلينزل باللائمة على نفسه . ويبرئى ساحة من ذكر . ومن الآداب مكاشفة شيخه بعيوبه وأمراضه . حتى يتمكن شيخه من علاجه وأن يصف له الدواء اعتماداً على أنه ليس بين المريد وشيخه عورة . وأخيراً عليه أن يطيع أوامره وينفذ تعاليمه وألا يبيع ويشتري إلا بأمره أو يسافر أو يتزوج إلا برضاه .

قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شانهم فإذن لم شئت منهم) ([٨٦]) .

وأي أمر جامع أعظم من أمر الدين فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأنه أن له أوان الفطام .

فإذا فعل ذلك كان مريداً صادقاً وسالكا مؤدياً وطالباً طريق الحقيقة بصدق فالله معه والوجود يؤيده وشيخه يطلب له الهداية ويرجو له التوفيق ويبصره بنور ربه ويرشده إلى تجليات مولاه .

إذا كان المريد كذلك . فهناك شرط يضعه الإمام الشعراني وهو إلا يعتقد في عصمة شيخه . لأن العصمة للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . أما الأولياء فالله يحفظهم من الوقوع في المعاصي فقط وليسوا بمعصومين .

وإنما الواجب على المريد الانقياد لشيخه فيما يأمره به من الخير ويذر شيخه وأحواله مع احسانه الظن به ويراعي مع الله حدوده فيما عليه هو من الأمور وبما وصل إليه من علم الشريعة يكيفه في التفرقة بين ما هو محمود وبين ما هو مذموم .

وقد سأل أستاذنا وإمامنا الشعراني شيخه العارف بالله الخواص . هل يمكن أن يزني الولي ([٨٧]) .. ؟ فقال وكان أمر الله قدرا مقدورا ([٨٨]) .

---

[٨٦]- سورة النور آية ٦٢ .

[٨٧]- سورة الأحزاب آية ٨ .

[٨٨]- لطائف المنن والأخلاق الشعراني .

آداب المريد مع إخوانه

****

لقد تكلمنا عن آداب المريد مع نفسه .. وتكلمنا عن آدابه مع شيخه ونريــد أن نعطي صورة متكاملة لهذا المنهج . منهج السلوك . الذي طبقه الإمام الشعراني على نفسه أولاً وطبقة على مريدية في الزاوية ثانية وخرج منهم نخبــة صالحــة مؤمنة . حملت لواء العلم ورفعت مشعل النور . مهتدية في ذلــك بــهدى النبــوة ومقتدية بأخلاق الكمل من الرجال ولن يتم لنا ذلك إلا بالحديث عن " آداب المريــد مع إخوانه " حتى يكون المنهج كاملاً والصورة واضحة . وأول هذه الآداب :

١) **حسن المعاملة :**

من ذلك ألا يعاملهم إلا بما يجب أن يعاملوه به . وإن يرجــو لــهم الخــير والمسامحة في ذنوبهم كما يرجوه لنفسه . وأن يجعل تصرفاتهم معه على أحســن المحامل . ليس هذا فحسب . بل يجب أن يرجو لهم من الله قبول توبتهم ولو فعلـوا من المعاصي ما فعلوا . كما يرجو ذلك لنفسه . وأخيراً عليه إلا يرى نفسه عليهم.

ويروي الإمام الشعراني عن الإمام النووي رضي الله عنه قوله : " لا تستصغر أحـداً فإن العاقبة منطوية والعبد لا يدري بما يختم له . فإذا رأيت عاصياً فلا تر نفســك عليه . فربما كان في علم الله أعلى منك مقاماً وأنت من الفاسقين . وربما يشفع لك يوم القيامة . وإذا رأيت صغيراً فأحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقل منك ذنوبــاً . وإذا رأيت من هو أكبر منك سناً فأحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقدم منك هجــرة في الإسلام " ([١]) .

إن الشعراني يطالب المريد بأن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه فــيرجو لــهم الخير ويطلب لهم غفران ذنوبهم وتكفير خطاياهم وألا يرى عليهم بحيث يظن أنــه خير منهم . إن هذه الخيرية هي أخطر ما يعترض المريد في طريق سلوكه . بــه فهو مطرود من رحمة الله تعالى .

---

[١]- إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين مخطوط صــ٦٠ .

٢) المسامحة مع إخوانه :

المسامحة لإخوانه في كل شيء آذوه به من قول أو فعل أو سوء ظن وذلك لقوله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ([٢]) .

وقوله أيضاً : (أدفع بالتي هي أحسن) ([٣]) .

وقول الرسول ﷺ : (خالق الناس بخلق حسن) ([٤]) .

ومن الأخلاق الحسنة أن يعفو عمن ظلمه ويحسن إلى من أساء إليه .

قال عمر بن الخطاب ﷺ : رأيت رب العزة في النوم فقلت يا رب : علمني شيئاً آخذه عنك بلا واسطة فقال يا أبن الخطاب " من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكراً . ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمه الله كفراً " . فقلت يا رب : حسبي فقال : حسبك " ([٥]) .

٣) الكرم والإيثار :

وذلك بأن يعامل إخوانه بالكرم والإيثار ولن يكون كريماً إلا إذا تنازل لهم عن كل ما في يده . ورجال الطريق دائماً يزهدون مما في أيديهم ويرغبون عما في أيدي الناس . يؤثرون إخوانهم على أنفسهم .. يؤثرونهم بعرض الدنيا . وما هو أكبر من ذلك يؤثرونهم بالمهج والأرواح . لقد سارع بعض رجال الطريق إلى المقصلة لتجز عنقه حرصاً على أن يبقى إخواته في الحياة ساعة ([٦]) .

---

[٢]- سورة الشورى آية ٤٠ .

[٣]- سورة فصلت آية ٣٤ .

[٤]- هذا جزء من حديث : اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " . وأخرجه أحمد من مسنده والترمذي في صحيحه والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب والزهد عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخرجه أحمد في مسنده والترمذي والبيهقي في الشعب والزهد عن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٥]- الأنوار للإمام الشعراني مخطوط صـ٤٧ + .

[٦]- وقصتهم أن فقهاء بغداد قالوا للمتوكل : إن الجنيد قد تزندق هو وأصحابه فقال لهم الخليفة وكان يميل إلى الجنيد . يا أعداء الله ملـ أرتم إلا أن تفنوا أولياء الله من الأرض واحداً بعد واحد . قتلتم الحلاج وأنتم ترون له كل يوم عبارة ولا تزدجرون ، وهذا الجنيد لا سبيل لكم إليه حتى تغلبوه بالحجة فاجمعوا له الفقهاء واعملوا له مجلسا ، فإن انتم غلبتموه وشهد الناس بأنكم غالبون عليه قتلته ، وأن هو غلبكم والله لا مشين عليكم بالسيف حتى لا تبقى منكم أحداً على الأرض ، قالوا نعم : فجمعوا له الفقهاء من الشام واليمن والعراق والأنصار فلما اجتمع الفقهاء بعث الخليفة إليه فأتى هو وأصحابه . فدخل الجنيد وترك أصحابه وادى حق الخليفة من التعظيم وقعد إليه أحد الفقهاء يسأله في مسألة فسمعه القاضي على بن أبي ثور . فقال لهم تسألون الجنيد .. ؟ فقالوا نعم ....

فقال لهم أفيكم من هو افقه منه .. ؟ فقالوا لا ، فقال يا عجبا هو أفقه منكم في علمكم ، وقد تفقه في علم تنكرون عليه . فكيف تسألون رجلاً لا تدرون ما يقول .. ؟

فهبت القوم وسكنوا زماناً ، ثم قالوا ما العمل يا قاضي المسلمين ؟ فأشر بما شئت فنصنع فأمرك مطاع قال فرد القاضي وجهه إلى الأمير وقال له أترك الجنيد وأخرج إلى أصحابه صاحب سيفك وهو الوليد بن ربيعة ينادي فيهم : من يقوم إلى السيف ، فأول من يقوم إليه تسأله ، فقال الخليفة يرحمك الله لم ذلك ؟ تروع القوم و لم تظهر لكم حجة .. ؟ لا يحل لنا ذلك ، فقال القاضي يا أمر أمير المؤمنين أن الصوفية يحبون الإيثار على أنفسهم حتى بأنفسهم ، فائذن من ينادي أيكم يقوم للسيف .. ؟ فالرجل الذي يقوم مبادراً للسيف هو أكثر الناس جهلاً وأكثرهم صدقاً لله عز وجل فيقوم يؤثر أصحابه بالعيش بعده . فإذا قدم أجهلهم علينا جعل الفقهاء يناظرونه فيما يطلبونه منه الفقهاء لا يغلبونه ولا يغلبهم فيقع الصلح بيننا وبينهم فأنها قد نزلت مصيبة عظيمة لا تدري لمن يقع النجاة فيها . فقال له الأمير : لله درك لقد أصبت ثم عطف على الوليد وقال أفعل ما يقول لك القاضي . فخرج الوليد وهو مقلد سيفه فوقف على المريدين وهم يذكرون الله فنادى فيهم .. أفيكم من يقوم إلى السيف ؟ فقام إليه رجل يقال له أبو الحسن النووي فقال الوليد : ما رأيت طائر أسرع منه . فوثب قائما بين يدي فعجبت من سرعة قيامه فقلت : يا هذا أعلمت لما قمت ؟ فقال نعم . ألم تقل أفيكم من يقوم إلى السيف وعلمت أن الدنيا دار سجن المؤمن فأحببت أن أخرج إلى دار الفوز وأن أوثر أصحابي على بالعيش ولو ساعة ولعلى أقتل فيطفأ الشربي فيسلم جمعيهم ولا يقتل أحد غيري ..

ايقاظ الهمم في شرع الحكم صـ ٣٩٦ .

ورجال الطريق في ذلك مقتدون بالصحابة والتابعين ولقد فعل الأنصار مع إخوانهم المهاجرين . ما ترخربه كتب السير من أخلاق ومثل وبقى مشعاً ينبر فجاج الزمن ويرضح الطريق أمام التابعين لهديهم والإقتداء بسيرتهم .

٤) الخدمة :

يقول الإمام الحسن رضي الله عنه من آداب المريد أن يخدم إخوانه ثم يعتذر إليهم بأنه ما قام بواجب حقهم . وكان الإمام الشعراني يقول . " من كان قائماً في مصالح الخلق كان الوجود كله يمده ويساعده ومن اشتغل بمصالح نفسه فقط دون إخوانه . تخلف الوجود عن مساعدته " ([٧]) .

وهذا الذي يقوله الشعراني يتفق مع قول الرسول ﷺ (الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) ([٨]) .

إن خدمة الإخوان من الفتوة ومن هنا سمى إبراهيم الخليل عليه السلام فتى لأنه كسر الأصنام الحسية . وإذا قام المريد بخدمة إخوانه كان مكسراً أصنام نفسه المعنوية . وكان مصفياً أمراضه الباطنة من العجب والكبرياء ورؤية نفسه فوق الناس .

والخدمة فوق ذلك تشريف وسيادة وتكرمة للعبد مصداقاً لقول الرسول الكريم (سيد القوم خادمهم) ([٩]) .

٥) تربية إخوانه وتعليمهم :

وذلك بأن يرشد إخوانه ويعلمهم الآداب الشرعية والصوفية ويبسط لهم علمه ويفتح لهم قلبه . بأن يفقهم في دينهم ويشرح لهم ما خفى على عقولهم .

---

[٧]- الأنوار للإمام الشعراني مخطوط صـ ٦٠ +

[٨]- رواه مسلم في صحيحه عن ابن هريرة رضى الله عنه .

[٩]- " سيد القوم خادمهم " حديث ضعيف وراه أبو قتاده ، وأخرجه الخطيب عن ابن عباس رضى الله عنه . رواية أخرى . سيد القوم خادمهم وساقيهم آخرهم شربا أخرجه أبو نعيم في الأربعين الصوفية عن ابن عباس وهو ضعيف أيضاً . رواية ثالثة : سيد القوم في السفر خادمهم فمن سبقهم بخدمة لم يسبقوه بعمل إلا الشهادة . أخرجه الحاكم في تاريخه والبيهقي في شعب الإيمان عن سهل بن سعد ، وهو ضعيف .

يفعل ذلك من غير أن يرى نفسه عليهم . فقد يكون أحدهم أكثر إخلاصاً لله تعالى منه وأحسن مقاماً . فلا يلزم من كونه أعلم من المريد أن يكون أفضل منه عند الله.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : إن الإيمان ليس معرفة فحسب ..؟ ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود . وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحا وإبراهيم ومحمداً عليه الصلاة والسلام . إنه يعرف أن لا إله إلا الله ويعرف أن محمداً رسول الله ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله . ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك إن الإيمان ليس معرفة فحسب وإنما هو خشوع واستجابة (١٠) .

٦) ستر إخوانه وعدم الإطلاع على عوراتهم :

ومن الآداب التي يجب أن يلتزمها المريد مع إخوانه . عدم الإطلاع على العورات وستر إخوانه .. بحيث لا ينظر لهم أبدا إلى عورة ظهرت ولا إلى زلة سبقت . إذ هو معرض للوقوع في مثلها وقد قالوا كل فقير أطلع على شيء من عيوب الناس . ولو من طريق كشفه فهو في حضرة الشيطان . لا في حضرة الله تعالى ولا حضرة ملائكته ويجب عليه التوبة منه .

وقالوا من نظر إلى عيوب الناس وحملهم على المحامل السيئة قل نفعة وخرب سره . وعدم الانتفاع بصحبة شيخه .

وفي حديث الطبراني مرفوعاً من تتبع عورات الناس تتبع الله تعالى عورته . ومن تتبع الله عورته . فضحه ولو في جوف رحله . وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول : (والله لقد أدركنا أقواماً لا عيوب لهم فتجسسوا على عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوبا)ً (١١) .

١٠- الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود صـ

١١- عن ابن عمر رضى الله عنهما أخرجه الترمذي في تيسير الوصول جـ٣ صـ٤١ وابن ماجة عن ابن عباس جـ٢ صـ٨٥٠ .

ومن هنا نفر القرآن الكريم ونهى عن التجسس والغيب واعتبر من يفعل ذلك مثله كمثل الذي يأكل لحم أخيه الميت وهو تشبيه يصور الغيبة في اقبح صورها حتى تنفر منها النفس ويتحاشاها كل عاقل .

وهذا يدل على أن التجسس من الذنوب التي يعاقب عليها الإسلام ويحوص كل الحرص على أن يبتعد اتباعه عن هذا الطريق .

ويتبع الإمام أحمد الزاهد منهج القرآن الكريم في التربية فيقول لأصحابه : إذا رأيتم أحداً من أخواكم على معصية لم يجاهر بها فاستروه فإن جاهر بها بينكم فوبخوه . ولا تفشوا ذلك لمن لم يعلم به .

وفي حديث طويل عن الرسول ﷺ (ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) ([12]) .

الإمام الشعراني رضي الله عنه . فيضيف إلى ما سبق قوله إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس خبيرا بها فاعلموا أنه قد مكر به ومن علامات الاستدارج للعبد نظره في عيوب الناس وعماه عن عيوب نفسه .

ويقول ما رأيت شيء أخطر على الأعمال ولا أفسد للقلوب ولا أسرع في هلاك العبد ولا أقرب إلى المقت . ولا ألزم بمحبة الرياء والعجب والرياسة من قلة معرفة العبد عيوب نفسه . ونظره في عيوب الناس .

ونراه في النهاية يضع لهم هذه القاعدة بقوله : (لا تنكروا على أخيكم حالة ولا لباسه ولا طعامه ولا شرابه . فإن الإنكار يورث الوحشة والانقطاع عن الله تعالى) ([13]) .

---

[12]- هذا الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا والآخرة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآهرة . والله في عون البد ما دام العبد في عون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدا رسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده .

[13]- قواعد الصوفية للشعراني صـ ١٠٢ والأنوار للشعراني مخطوط ١٠ +

إن كل ما يطلبه العبد من ربه بعمله هو القرب . فإذا سلك ما به الانقطـــاع وهو تتبع عورات الناس كيف يرجو الوصل .. ؟

وإذا سار خلف ما يبعده عن ربه .. وهو نظره في عيوب الناس وعماه عن عيوب نفسه كيف يطلب القرب .. ؟ .

٧) رؤية نفسه دون إخوانه :

ومن الآداب أيضاً أن يرى نفسه دون إخوانه على الدوام وذلك على ســبيل الظن والتخمين . فقد قالوا من لم ير نفسه دون أخيه لم ينتفع بصحبته . ومن كــلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي ﷺ . لما علم أهل الله تعالى أن كل نبات لا ينبـت ولا يثمر إلا بجعله تحت الأرض تعلوه إلا رجل جعلوا نفوسهم أرضا للكل ([١٤]) .

هذه بعض الآداب التي يطالب الإمام الشعراني المريد بالتزامها مع إخوانــه حسن المعاملة والمسامحة لهم في كل ما يصدر منهم والكرم والإيثـــار لذواتــهم . وإن يقوم بخدمتهم . وقضاء مطالبهم وأن يربيهم ويعلمهم أمور دينهم ويبصرهـــم بشريعة ربهم . وأن يستر عوراتهم ويتعامي عن زلاتــهم . ولا يكشــف عيوبــهم بالتجسس عليهم وأخيراً يجب عليه أن يرى نفسه دون الجميع وأقل من الجميـــع . وأن يظن في نفسه أن الكل خير منه .

فإن فعل ذلك فهو سالك مقتد . متبع وليس مبتدعا ومنفذ لتعاليم ربه وســنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

فالطريق أمامه معبد . وفتحه قريب وتجليات ربه عامه هابطة . فعليـــه أن يتعرض لها . استجابة لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (إن لربكم فـــي أيــام دهركم نفحات فتعرضوا له لعله أن يصيبكم نفحة فلا تشقون بعدها ([١٥]) .

وبعد . فإن منهج التربية أو آداب السلوك . الذي ألزم الإمام الشعراني بـــه طلابة ومريدية . هو منهج متكامل يجل عن الحصر وبعيد أن يحاط به لأنه عبارة عن مجموع ما في الكتب الإلهية والأخبار النبوية والآثار الصحابة .

---

[١٤]- لطائف المنن والأخلاق وتحفه الاكياس في حسن الظن بالناس مخطوط ٥٢ .

[١٥]- رواه الطبراني في الكبير عن محمد بن مسلمه وذكره السيوطي في جامعة الصغير .

والمدرسة الشعرانية تهتم بهذه الآداب التي ذكرناها سابقاً ولا تكاد تكتفي بها ولكنها تضع للمريد أدبا مع كل خفقة قلب مع كل همسة نفس . ومع كل خاطرة تخطر بباله أو تلم بحاله .

إنها آداب وأخلاق تلازم المريد من بدء استيقاظه لصلاة الفجر وتوجهه إلى ربه وتستمر معه طيلة يومه وبعض ليلة حتى يهجع إلى فراشه .؟ أنها تطالب المريد أن يكون خلقه القرآن ومنهجه اليومي السنة المحمدية وغايته الوصول إلى ربه .

وهي ترى أن المريد لن يتحقق له الوصول حتى يلتزم بتلك الآداب ويطبقها في مراحل حياته . فإذا انحرف عنها أو أهمل بعضها كان مدع مكابر لا يجيء شيء منه في الطريق .

وهناك ظاهرة تتسم بها المدرسة الشعرانية ألا وهي العناية بالجانب العملي الخلقي من التصوف أكثر من العناية بالخوض في المسائل النظرية الصوفيه . إنها تدعو إلى التصوف السني الخالص الذي يهدف أولاً وأخيراً إلى التهذيب الخلقي والتربية الروحية والأخلاق المحمدية .

إن هذه المدرسة بعيدة كل البعد عن شطحات الصوفية وبعيدة عن مكرهم وفنائهم وعن الحلول والاتحاد ، إنها بعيدة عن نظريات الحسين بن منصور الحلاج والسهروردي المقتول وبعيدة عن فلسفة ابن عربي وعفيف الدين التلساني ومن أمثالهم من الصوفية الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة ، وقريبة كل القرب من كل مدرسة تدعوا إلى الأخلاق العملية والتربية المحمدية ، إنها قريبة من مدرسة الإمام السيد أحمد البدوي ([16]) ومدرسة الإمام الدسوقي والمدرسة الشاذلية وصاحبها الإمام العارف بالله أبو حسن الشاذلي ، لأن هذه المدارس الصوفية

---

[16] -سيدي أحمد علي بن إبراهيم الحسني أبو العباس البدوي المتصوف صاحب الشهرة في الديار المصرية أصله من المغرب ولد بفاس وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس فخرج لاستقباله هو وعسكره وزار سوريا والعراق عام ٦٣٤ توفى ودفن بطنطا .

٥٩٦-٦٧٥هـ

١٢٠٠-١٢٧٦م .

وأصحابها التزموا بالكتاب والسنة في كل أمورهـــم وســلكوا مســلك الصحابــة والتابعين في شئون حياتهم .

إن المدرسة الشعرانية هي مدرسة الإيمان الخالص النقي والتصوف القــائم على الكتاب والسنة ، والتسليم الكامل لله تعالى في كل شئون الحياة .

الفصل الثاني

الشيخ عند الإمام الشعراني أو مربي المريدين

****

لا طريق بغير شيخ هكذا يقول الإمام الشعراني ، ومن سلك بغير شيخ ضاع وتاه ولم يصل .

وشيخ الصوفية " أبو علي الدقاق " رضي الله عنه يقول : إنما كان الإنسان لا يقدر على سلوك طريق القوم بغير شيخ لأنها طريق سلوك في الغيب أو غيب الغيب والشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس لا ينتفع أحد بثمرها ولو أورقت بل ربما لا تثمر أبداً ([١٧]) .

ورجال التصوف يقولون : إن السنة ترشد في صراحة لبس فيها أن الشريعة والحقيقة كلتهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول ﷺ ويعتبرون الرسول عليه السلام أول صوفي سلك هذا الطريق .

وما دام الصوفية يترسمون خطي الرسول ﷺ ويتبعون هديه . فالواجب عليهم أن ينقذوا سنته . ومنها أن جبريل عليه السلام . كان واسطة بينه وبين ربه في الوحي لهذا نراهم يؤمنون بالتزام شيخ ليسلك بالمريد إلى لب التصوف ويوصله إلى حقيقة الطريق .

ويحتفل الإمام الشعراني في كثير من كتبه " بالشيخ " وينادي باتباعه والتزام أوامره . والسفر إليه إن لم يجده السالك في البلدة التي يقطنها .

لقد سافر الإمام " أبو الحسن الشاذلي " إلى بغداد . بحثاً عن الشيخ الذي يوصله إلى باب الله ويمحص له السبل ويكشف له عن المزالق والأخطار . ولكنه لم يلتق به وقيل له : ابحث عن القطب في بلدك . وعاد مرة أخرى إلى بلده فالتقى به وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه ([١٨]).

---

[١٧] -قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ ٦١ وعوارف المعارف تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف جـ١ صـ٢٥٢

[١٨] - أبو الحسن الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود صـ

ويعترف الإمام " أحمد بن حنبل "رضي الله عنه وأرضاه لأبـي حمـزة البغـدادي بالفضل عليه . وأيضاً الإمام " أحمد بن سريج " رحمه الله لأبي القاسـم الجنيـد . ويطلب الإمام " الغزالي " له شيخاً مع أنه لقب بحجة الإسلام . وكان شيخه محمـد الباذغاني وكان رضى الله عنه يقول : بعد اجتماعه بشيخه ــ ضيعنا عمرنا ــ في البطالة . يعني بالنسبة لماذلقه من أحوال أهل الطريق . وشيخ الإسلام الشيخ عـز الدين بن عبد السلام يقول : ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي بالشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه .

وسيدنا موسى عليه أفضل الصلاة والسلام قال للخضر رضي الله تعـالى عنـه ([19]) . هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشـداً ([20]).. ؟وإذا كـان هـؤلاء الأقطاب مع مالهم من العلم والمعرفة . لم يسلكوا الطريق إلا علـى يـد شـيوخ فضلاء وعلماء أجلاء وأولياء لهم في الولاية قدم راسخة فمن باب أولى غـيرهم ممن يريد أن يسلك هذا الطريق اتباعاً للسنة واقتداء بأهلها لأن طريق التصـوف مجهولة . لا يعرف فيها السالك ما يستقبله من المهالك والحفر والأوحـال . إنـها يتربص بالسالك فيها أعداء أشداءهم النفس والهوى والشيطان ولا بد من قـهرهم .

يقول الإمام القشيري رضي الله عنه في ترجمة أبن علي الثقفي " لو أن رجلاً جمع العلـوم كلها وصحب طوائف الناس كلهم لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شـيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أديه من أستاذ يربيه ويريه عيـوب أعمالـه ورعونات نفسه لا يحل الاقتداء بـه فـي تصحيـح المعـاملات ([21]) إن عـلاج الأمراض الباطنة من حب الدنيا والكبر والعجب والرياء والحسد والحقد وغيرهـا واجب . كما تشهد له الأحاديث الواردة في تحريم هذه الأمور .

من هذا نعلم ان كل من لم يتخذ له شيخاً يرشده إلى الخـروج مـن هـذه الصفات فهو عاصي لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

---

[19]- سورة الكهف آية ٦٦ .

[20]- لطائف المنن والأخلاق جـ١ صـ ٥١ .

[21]- الرسالة القشيرية تحقيق د. عبد الحليم محمود محمود بن الشريف جـ١ صـ١٥٣ .

ولو كان المريد يأتي إلى طريق الله تعالى من باب الإخلاص في العلم والعمل ويفعل الأوامر الشرعية امتثالا لأمر الله تعالى لا لعلة أخرى كما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين لم يكن محتاجاً إلى شيخ . ولكن لما جاء إلى الطريق بعلل وأفات في علمه وعمله . فكان لابد له إذن من حكيم بصير يزيل علله ويداوي أمراضه .

يقول أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه : إذا لم يكن للمريد أستاذ يأخذ منه طريقه نفساً بنفس . فهو عابد لهواء واجمعوا على أن من لم يتب على يد شيخ من جميع الزلات سرها وجهرها صغيرها وكبيرها ويرضي جميع أخصامه لا يفتح له من هذا الطريق شيئاً ([٢٢]) .

وكان الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول من سلك بغير شيخ ضل وأضل ومن حرم احترام الأشياخ ابتلاه الله تعالى بالمقت بين العباد وحرم نور الإيمان ([٢٣]) .

إن دخول المريد في سلسلة القوم يعني دخوله الدين الصحيح وارتباطه بالجماعة حتى يحملوا عنه ويحمل عنهم يتألمون لألمة ويتألم لألمهم ألم يقل الرسول ﷺ : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) ([٢٤]) وهذا ما يرمى إليه الإمام الشعراني أنه يتفق مع من سبقه من رجال التصوف في الحاجة إلى الشيخ ويضيف معنى جديداً هو روح الجماعة وارتباطهم بمعان وثيقة والإسلام دائماً يهتم بجماعة المسلمين فالصلاة في جماعة تفضل صلاة الفرد وارتباط الجماعة في المعركة مما يحبه الإسلام ويحبه الله (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ([٢٥]) .

---

[٢٢]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ١٧٩ .

[٢٣]- المصدر السابق صـ١٧٤ .

[٢٤]- رواه أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير ولفظه مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

[٢٥]- سورة الصف آية ٤ .

وحتى في السفر تحمد الجماعة (الواحد شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب) ([٢٦]) .

والجماعة التي تجلس في المساجد تتلو كتاب الله وتتدارسه تحفهم الملائكة وتنزل عليهم البركات حتى ينصرفوا .

والشيخ هو الذي يدخل المريد الجماعة . ويجلو قلبه ويلقنه الدين الخالص . حتى يكون في كل شئونه ما يأتي منها وما يدع خالصا لوجه الله تعالى والشيخ يعرفه مقدار عظمة الله ويعرف مقدار حضرته أنه يخلصه من بقايا النفاق والكسل ويعلمه طريق الورع وكسب الحلال حتى ينير قلبه ويصيره كالكوكب الدري ويخرجه من رعونات نفسه جملة حتى لا يبقى عنده شهوة من الشهوات ولا حرص على شيء من حطام الدنيا . ولن يتعلم ذلك إلا وهو مرتبط بالجماعة سالك مسلكهم ناهج لطريقتهم مؤمن بمبادئهم ملتزم بالكتاب والسنة .

---

[٢٦]- الواحد شيطان والاثنانان شيطانان والثلاثة ركب رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وفي رواية :
الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب رواه أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك عن أبو عمرو .
ويؤيده . ما رواه أحمد بسند صحيح من حديث أبن عمر والبخاري عن أبن عمر بلفظ لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده وفيما رواه ابن ماجة في سننه عن ابن عمر رضى الله عنه لو يعلم أحدكم ما في الوحدة ما سار أحد بليل وحده ـ جـ٢ حديث ٣٧٦٨ . صـ ١٣٣٩ .

واجبات الشيخ أو مربي المريدين في الطريق الصوفي

****

واجبات الشيخ اختصار الطريق للمريد لأن غالب أعماله التي يعملها المريد بـــلا شيخ لا تأتي بفائدة ولهذا يعمل الشيخ على راحة المريد لأن حكم المريد بلا شـــيخ حكم من بريد أن يدخل طريقاً لا يدري هل ينفذ أولاً . فهو يدخل فيه إلـــى آخـــره فإن رآه ينفذ خرج إلى نهايته وبلغ غايته وإلا رجع من حيث جاء وضـــاع جـــهده وقته . بخلاف من له شيخ يدله على الطرق فإنه يريحه من تعب الدخول من غـير فائدة ويوضح الإمام الشعراني وظيفة الشيخ بالنسبة للمريدين فيقول : " الأشـــياخ كالبوابين للحضرة والحجاب لها يعلمون كل داخل كيفة الأدب مع الملـــك وأهـــل محله وخاصيته . فهم مع الحق تعالى بالله رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

فيستفيد المريد الصادق بالأدب مع الشيخ معرفة الأدب مع الحق . وبعـــدم اختباره مع شيخه عدم اختياره مع الحق ويستفيد بأحوال غضب شيخه عليه القـــوة على تحمل غضب الحق . وبأحوال هجر شيخه له الإدمان على تحمل هجر الحـــق له وطرده من حضرته ويستفيد من رضا شيخه ووصاله معرفـــة آداب رضـــا الله تعالى ومواصلته له ([27]) .

إن وظيفة الشيخ كما نفهم من هذا النص هي التربية والتصفية إنـــه يربـــى المريد على أن يكون خلقه القرآن ومنهجه سنة الرسولﷺ . ومن كان كذلك فهو لا يعصي ربه . بل يحرص على تنفيذ تعاليمه واجتناب نواهية . وتلك هـــي قمـــة الأدب مع الله تعالى .

ولن يغضب شيخه إلا ببعده عن تلك التعاليم وذلك باتباع هواه وبعده عـــن مرضاة مولاه وفي ذلك غضب الله عليه شيخه ومقته ومن منهج التربية الذي يقـوم به شيخه أن يعلمه إلغاء إرادته مع ربه وتسليم الأمور له . فلا يكون له اختيار ولا إرادة مصداقاً لقوله تعالى .. (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخـــيرة) سبحان الله عما يشركرون ([28])) .

---

[27]- الفتح المبين للإمام الشعراني مخطوط صـــ٣٠ .

[28]- سورة القصص آية ٦٨ .

إن الواجب على المؤمن ألا يكون له اختيـار مـع الله تعـالى ولا تدبـير ويحرص الشيخ على تلقين المريد قول الصوفية " من لا يدبر دبر له " .

وفي النهاية إن تنفيذ أوامر الشيخ واتباع أوامـره يعطـي المريـد الفـهم والمعرفة . وتلك هي عملية التصفية " التصفية مـن الترابيـة الأرضيـة ليحلـق صاحبها في الأجواء العلوية فيرزقه الله علما جديداً وفهما جديداً والتصـوف كلـه فهم ومعرفة جديدة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

ولذا قيل .. إن الولي لا يأتي بالشرع الجديد ولكنه يأتي بالفـهم الجديـد .. والسالك إلى الله تعالى لابد أن يجلو مرآة قلبه ويذيب صدأ نفسه وذلـك بواسـطة الشيخ .

وهناك غير التربية والتصفية عملية التعريف بمقامات الطريـق وأحوالـها لأن المريد السالك كلما ترقى إلى مقام تركه وكل مترق في حال ترقيته يـذوق أن فوق ما ترقى إليه مقاماً وفوائد المشايخ الذين يسلكون المريد أنهم كلما رأوا الفقـير ترقى إلى مقام أعلموه أن وراءك كذا وكذا وأنت بعيد فإذا ترقى ووصل ورأى مـا ذكروه له وثق بهم وقوى يقينه .

إن هذا الطريق كما قلنا سابقاً ــ طريق غيب ولا تسـلك إلا بدليـل وهنـا يطيب لنا أن نسأل هل يستطيع الشيخ أن يعطي المريد شيئاً لم يكن كامنا فيه .. ؟

ويجيبنا الإمام الشعراني على هذا السؤال بقولـه : " وظيفـة الشـيخ أنـه يستخرج للمريد ما هو كامن فيه لاغير فإن الله تعالى قد بث في كل روح جميع ما يتعلق بصاحبها من المحامد والمذام فما أمره شيخه أو نهاه إلا بما وهو كا من فـي روحه وليس مع الشيخ شيء يعطيه للمريد خارج عنه . فإن حكم المريد في ابتـداء أمره حكم النواه الكامنه فيها النخلة التي هي هنا عبارة عن الصدق في الطريـق أو الكذب فيها . فإن كان صادقاً تفرعت ثمرة صدقه وأثمرت حتى تشرف على جميع جيرانه . ويأكلون من ثمرتها بل تنتشر إلى جميع أهل بلده أو إقليميه وينتفعون بها ويظهر صدقة وصلاحه للخاص وأهل العام حتى أنه لو أراد كتمان صلاحة عنـهم لا يقدر . وإن كان المريد كاذباً في محبته للطريق تفرعت/كذبه ونفاقـه وريائـه
شجرة

حتى لو أراد يتظاهر بصورة الصادق لا يقدر على ذلك لأن أفعاله الرذيلة تكـــذب دعواه ويفتضح وترفضه الطريق ([٢٩]) .

فالشيخ على هذا الأساس لا يستطيع أن يخلق الصدق في قلب المريـــد إذا لم يكن هو من نفسه صادقاً في ذلك . وبالتالي لا يستطيع الشيخ أن يسير به خطوة واحدة ما دامت نفسه لا تقبل ذلك ولا تريده . لأن كذبه يكـــــون ظـــاهراً للعيـــان فينكشف أمره ويظهر رياؤه . وإذا كانت البذور سبباً في وجود النبات . والغمــــام سببا في إنزال المطر " والله هو الخالق لذلك " فإن وجود الشيخ سبب فـــي تنميـــة الصدق في قلب المريد إذا كانت بذرة الصدق موجودة . فإذا انتفت من قلب المريد انتفى بالتالي صلاحة للطريق . قياساً على القاعدة المشهورة إلغاء الســـبب يلغـــي المسبب . فإذا سلك المريد الطريق وكان صادقاً مع نفسه ومحباً للطريق ولم يفتـــح عليه فمرده إلى الله تعالى لأنه هو الذي يعطي ويمنع .

ويؤيد هذه القاعدة ما يرويه الإمام الشعراني عن أستاذه على المرصفي رضي الله عنه " بأن حكم الشيخ المريد حكم النواة التي تغرس في أرض يابســـة ينتظـــر ريـــها بالمطر فمرادها واستمدادها وانغلاقها وخروج ورقها راجع إلى شدة شربها وخفتـــه بحسب الرأي لا إلى غرس الشيخ فللشيخ البذر والحق تعـــالى الإنبـــات " ([٣٠]) . مصداقـــاً لقولـــه تعـــالى : (أفرأيتـــم مـــا تحرثـــون . أأنتــــم تزرعونــــه أم نحن الزارعون) ([٣١]) .

هذا هو الشيخ وتلك ثمار تربيته في منهج الإمام الشعراني التربية والتصفية واختصار الطريق أمام المريد وتبصيره بالمقامات وترقيته درجة درجة حتى يصل به إلى غايته ويقربه إلى طلبته ويقول له في النهاية هأنت وربك .

ولكن من هو الشيخ الذي يجب أن نسلم له القياد ونعطيه الزمام ليتصـــــرف في المهج والأرواح .. ؟

---

[٢٩]- ارشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين للإمام الشعراني مخطوط صـــ٦٢ ،٦٣ وقواعده أيضاً صـــ٥١ ز

[٣٠]- قواعد الصوفية صـــ .

[٣١]- سورة الواقعة آية ٦٣، ٦٤ .

أهو الشيخ الذي كبرّ عمامته وأرخى عذبته وجلس " مكـــابرا " يريـد أن يسلك الراغبين ويربي المريدين .. ؟

أهو الشيخ الذي ينادي على نفسه هأنا فاتبعوني .. ؟

أم أنه الشيخ الذي سمع هاتفاً في اليقظة أم في المنـام . أن رب المريديـن وسلك الراغبين فأذعن للأمر . ولا ندري أكان هذا الهاتف ملكاً أم شيطاناً .. ؟؟

إن الحقيقة غير ذلك . لأن الشيخ عزيز المقلم نادر الوجود يتعب الإنسـان في طلبه ويرهق نفسه في البحث عنه .

إن هؤلاء الرجال فئة من الناس اختارهم الله وفـاض عليـهم بفيوضاتـه وأعطاهم من تجلياته . وهم لهذا لا يعلنون عن أنفسهم ولا يشيرون على ذواتهم .

" هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء " من العروض وعصمهم مـن الافتتان بها عن الفروض . وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء . لا يأوون إلـى أهل أو مال ولا تلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال . لم يحزنوا على ما فاتهم مـن الدنيا ولم يفرحوا إلا بما أيدوا من العقبي " ([32]) .

ومن هذا وضع الصوفية علامات تدل عليهم وإشارات تنبئ عن حقيقتـهم وشروطاً لابد من توافرها فيـهم .. إذا كـان ذلـك كذلـك فمـا هـي شـروط الشيخ المربي .. ؟

---

[32]- حلية الأولياء .

شروط الشيخ أو مربي المريدين

****

اتفق رجال التصوف على أن من شروط الشيخ الذي يتصدر لتسليك المريدين وأخذ العهود عليهم وتلقينهم الذكر أن يكون متبحراً في علم الشريعة . عارفاً بالكتاب والسنة قائلاً بها في ظاهره . متحققا بها في سره . يراعي حدود الله ويوفي بعهد الله . لا يتأول في الورع بل يأخذ بالاحتياط في سائر أحواله وينبغي أن يكون عنده من العلم ما يكفي المريدين من سائر العلوم الشرعية . حتى لا يحوجهم إلى الخروج إلى غيره . فإن كان جاهلا بالكتاب والسنة لا تستقيم له مشيخة ويقبح منه أيضاً أن يكون محتجاً للخروج من زاويته ليتعلم العلم . فإنهم قالوا : تفقه في دينك ثم الزم بيتك وأعتزل . يقول الشيخ أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : لا يستحق الرجل أن يكون شيخاً حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي . وإن يتورع عن جميع المحارم .وإن يذهد في الدنيا . وألا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه . وحتى يكون على علم يهدي به العباد . فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه . وإذا تحير في مسألة من مسائل الفقه افتاه ويشترط أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس وأن يخاف ويخشى من المعاصي نضحك والأدناس وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة ([٣٣]) .

أما سيدي أحمد الرفاعي ([٣٤]) رضي الله عنه فيصف الشيخ أو مربي المريدين ويضع له العلامات ويشير إليه بالإشارات فيقول عنه " الشيخ من إذا قال أفهمك وإذا قادك دلك وإذا أخذك نهض بك . الشيخ من يلزمك الكتاب والسنة ويبعدك عن المحدثة والبدعة الشيخ ظاهره الشرع وباطنة الشرع .

---

[٣٣]- السيد أحمد البدوي للدكتور عبد الحليم محمود صـ١٥ .

[٣٤]- الرفاعي ــ سيدي أحمد بن علي يحي الرفاعي الحسيني ، أبو العباس الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية وله في قرية من أعمال وأسط بالعراق وتفقه وتأدب في واسط وتصوف فانضم إليه خلق كبير وكان يسكن قرية أم عبيده بين واسط والبصرة وتوفى بها . جمع بعض كلامه في رسالة سماها رحيق الكوثر ٥١٢-٥٧٨ هـ .

إن الإمام الجنيد وأحمد الرفاعي يتفقان على شرط التبحر في علوم الشريعة وإن يكون زاهداً ورعاً متفقهاً في كل ما يحتاج إليه المريد عارفاً بـــالداء واصفـــا للدواء غني عن الناس يخاف الله ويعمل بالكتاب والسنة .

ويزيد الإمام الرفاعي بأن الشيخ هو الكيس الفطن الذي إن تكلم أبـــان وإذا نصح وضع يده على العلة فاستقرت كلماته في القلـــب وهـــو عـــارف بـــالطريق ودروبها فإذا قاد دل . وإذا تسلم المريد أوصله إلى ربه .

أما العارف بالله " ابن عطاء الله السكندري " فرأيه في الشيخ المعلم ليـــس من يعلم بالعبارة . وإنما الشيخ حقيقة الذي يعلم بالإشارة ليس الشيخ عنـــده الـــذي يدل على باب الله فقط ويترك المريد في حيرته وتخبطه وإنما الشيخ الصادق الـذي يكشف للعبد الحجب ويتركه وربه . ويقول رحمه الله :

" ليس شيخك من واجهك مقاله . وإنما شيخك من نهض بك حاله . شـــيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى . وليـــس شـــيخك مـــن دعاك إلى الباب . وإنما شيخك من كشف بينك وبينه الحجاب . شيخك هو الـــذي مازال يجلو مرآة قلبك حتى تتجلى فيها أنوار ربك . انهضك فنهضت وزج بك في نور الحضرة وقال لك هأنت وربك " (٣٥) .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الشعراني نراه يضع شروطاً تتفق في كثـــير مـــع الشروط التي وضعها رجال التصوف ممن سبقوه في الطريـــق ولكنـــه يضيـــف شروطاً جديدة وعلامات تفرق بين الصادق والكاذب وإشـــارة تكشـــف الأدعيـــاء المارقين وتوضح الأولياء الخالصين . وأول هذه الشروط التي يجب توافراها فـــي الشيخ :

١) إن يكون متبحراً في علوم الشريعة بحيث لو اجتمع مشايخ الإســـلام مـــن علماء المذاهب الأربعة وناظروه في جميع أبواب الفقه لاجابهم بنقـــول المذهـــب وقطعهم بالحجج الباهرة والاستدلال على كل ما لم تصرح الشريعة يحكمة . ويقوم في تقرير مذاهب الائمة الأربعة مقام أهلها . ثم بعد يكون متقيداً بالكتاب والســـنة

٣٥- لطائف المنن لابن عطاء الله صـــ١٦٧ .

في أقواله وأفعاله وعقائده . عارفاً بميزان الخواطر كلها من خاطر النفس أو الشيطان أو الملك أو الخاطر الرباني ويعرف الفرق بين هذه الخواطر ([٣٦]) .

إن الإمام الشعراني يتفق مع أئمة التصوف في التبحر في الشريعة ويوضح شيئاً أخر أنه يطالبه أن يكون ملماً بكل شيء فقيهاً في كل علم لديه فراسة المؤمن وإلهام الأولياء حتى يستطيع أن يفرق بين الخواطر التي ترد إليه أهو خواطر النفس المطمئنة أم النفس الأمارة .. ؟ أهو من وسوسة الشيطان ؟ أم أنه علم إلهام من الله وفيوضات من عنده .. ؟ إذا فرق الشيخ بين هذه الخواطر ولم تختلط عليه الأمور . فإن الإمام الشعراني يطالب بتطبيق الشرط الثاني عليه وهو .

٢) إن يكون عارفاً بالعلل والأمراض المتعلقة بالأرواح ليغني مريده عن سؤال غيره . عارفاً بكل ما يرقى المريد أو يقطعه عن الترقي من سائر الأعمال والأحوال . إلى أن يبلغه إلى مقامات الرجال ويوقفه على عين الحقيقة ([٣٧]) .

لقد طالب الإمام الشعراني " الشيخ " في شرطة الأول أن يكون عالماً بالشريعة . وفي شرطه الثاني يطالبه إن يكون صاحب الحقيقة . وإذا كان ذلك كذلك فإن الشيخ الذي يجمع بين هذين الشرطين يكون أعرف الناس بأمراض النفوس وعللها وأقدرهم على أن يسلك بمريده إلى مقامات الطريق ويعرفه أسرارها ويوفقه على أحوالها .

لأن هذا الشيخ عالم بالشريعة وأركانها وخبير بالحقيقة وأسرارها أنه يجمع بين علم الظاهر والعلم اللدني أو علم الوهب . فإذا تحقق الشيخ ذلك فإن الإمام الشعراني يطالبه بثلاث خصال . أخرى . أن يكون عنده دين الأنبياء وتدبير الأطباء . وسياسة الملوك . فكل من جمع بين هذه الثلاث فهو عنده الملقب حقيقة بالأستاذ . لأن هذه منهجه مجموع أركان المقامات .

إذا تحقق الشيخ بهذه الصفات وتوافرات لديه هذه الشروط فلا يصح ان يجلس المشيخة بنفسه ولا يجوز له أن يزاول تسليك المريدين لماذا .. ؟ لأن الإمام

٣٦- قواعد الصوفيه للإمام الشعراني مخطوط صـ٢٣٥ .

٣٧- المصدر السابق مخطوط صـ٢٣٦ .

الشعراني يطالبه بشيء آخر أن يجمع عليه المسلمون أن يرتضيه العارفون أن يبايعه الصادقون . يقول الإمام الشعراني :

" أن تجتمع عليه الأولياء ويبايعوه في اليقظة على ذلك وأيضاً أن يعطيه الله القدرة فيدفع عن مريديه كل عارض وأن يعرف تلاميذه من يوم قوله تعالى : (ألست بربكم ([٣٨]) وأن يعرف من يفتح له على يديه ممن لا يفتح له) ([٣٩]) .

لقد كثر الأدعياء في عصر الإمام الشعراني وتهافتوا على الدنيا فكان لابد من ردعهم وكشفهم أمام المخدوعين فيهم فنادى بهذا الشرط . وهو في هذا ليس به يبتكر شيئاً جديداً فرجال الطريق قبله أمثال عبد القادر الجيلاني ([٤٠]) . وأحيه الرفاعي وسهل التسترى كانوا يشترطون هذا الشرط حتى يظهر الحق ويخنس الباطل (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ([٤١]) .

يقول الإمام سهل بن عبد الله التستري () رضى الله عنه أعرف تلامذتي من يوم الست بربكم " وأعرف من يفتح له على يدي ممن لا يفتح له وأعرف من كان عن يميني ومن كان عن شمالي " ([٤٢]) .

هذا الشيخ المتبحر في علوم الشريعة . الخبير بأسرار الحقيقة . الذي يجمع بين علم الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك . والذي أعطى القدرة على التفريق بين الخواطر الحسنة والقبيحة وأعطاهالله الإلهام ووهبه المعرفة . فعرف مريدية وطلابه . فرباهم على عينه ودفع عنهم الشر والعارض . وصرف عنهم الخواطر المذمومة وأبعدهم عن الهواجس القبيحة . وبايعه الأولياء وأجمع عليه

---

[٣٨]- سورة الأعراق آية ١٧٣ .

[٣٩]- آداب العبودية صـ ١٤٥ على هامش الطبقات الكبرى للشعراني .

[٤٠]- سيدي عبد القادر الجيلاني هو ابن موسى بن عبد الله بن يحي الزاهد ولد رضى الله عنه سنة ٤٧٠ وتوفى سنة ٥٦١ ولد فى ببغداد وقد أفرده الناس بالتأليف وكان يقول قاسيت الأهوال في بدايتي فما تركت هولا إلا ركبته وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل .

[٤١]- سورة الرعد آية ١٧ .

[٤٢]- سيدي أبو محمد بن عبد الله التستري . كان صاحب كرامات ، لقى ذا النون المصري بمكة . حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وفقه العباده وهو ابن عشر فيحسن الأجابة كان يصوم الدهر ـــ وقوته خبز الشعير ومن كلامه . ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يتزيد به افتقارا إلى الله توفى عام ٢٨٣ أو ٢٧٣ .

الأتقياء وارتضاء طلاب الحقيقة . وقصده الراغبون فيها . هذا الشيخ . هل نطالبه بكرامة دالة على صدقه .. ؟ أننتظر منه الخارق للعادة .. ؟ انطالبه بـــأن يمشـــي على الماء . أو يطير في الهواء .. ؟ .

إن الإمام الشعراني يرى أن ظهور الكرامات ليست بشرط في المســـلك . إنما يشترط امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه . بحيث يكون أمره مضبوطـــاً على الكتاب والسنة فمن كان كذلك . فالقرآن شاهد بولايته وإن لم يعتقد فيه أحـــد وإن لم يكن له اتباع ولا مريدين ,

قال تعالى : ٠ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنـو وكانوا يتقون) ([٤٣]) .

[٤٣]- الرسالة القشيرية تحقيق دكتور عبد الحليم محمود صـــ .

واجبات الشيخ مع المريدين

****

يرى الإمام الشعراني أن على الشيخ مهام أربعة أو واجبات أربع أمام المريد وهذه الأشياء .. هي :

١) تلقين المريد الذكر .

٢) إرخاء العذبة له .

٣) إلباسة الخرقة .

٤) إدخاله الخلوة .

فإذا أخل بواحدة منها فلا يصلح للتسليك . وكل من هذه الواجبات ألأ ربع شروط . أما شرط تلقين المريد الذكرة التلقين ([٤٤]) الحقيقي فهو أن يقدره الله تعالى على أن يخلع على المريد جميع ما قسم له من علم لا إله إلا الله فلا يجهل شيئا من أحكام الشريعة التي صرح بها الشارعﷺ من واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات ومباحات . فيغنيه بعد ذلك التلقين عن مطالعه الفقة بل يصير يدرس الناس في جميع مذاهب الآئمة المجتهدين .

ومن لم يقدره الله تعالى على ذلك فهو متشبه بأهل الطريق لا محقق لصفاتهم فله أجر التشبيه لا غير ([٤٥]) .

إن الشيخ في هذا التلقين يعطي المريد علم لا إله إلا الله فكيف يجهل .. ؟ ويبين له أسرار الشريعة فكيف يخل .. ؟ ويعطيه الغنى في تلقينه فكيف يفتقر لغير الله .. ؟ إن ذلك محال والشواهد على ذلك كثيرة . لقد تلقن الإمام على بن

---

[٤٤]- روى الإمام أحمد والبزار والطبراني وغيرهم باسناد حسن . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما مجتمعا مع أصحابه فقال : هل فيكم غريب .. ؟ يعني أهل الكتاب قالوا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : أرفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله قال شداد بن أوس : فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا : لا إله إلا الله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة . فإنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ابشروا فإن الله تعالى قد غفر لكم . ويشهد لهذا الحديث ما رواه ابن حبان والحاكم وغيره مرفوعا أن موسى عليه الصلاة والسلام . قال : يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به . قال يا موسى قل لا إلا إله إلا الله . قال يا رب كل عبادك يقولون هذا قال قل لا إله إلا الله قال يا رب إنما أريد شيئا تخصني به قال : يا موسى لو أن السماء السبع والأرض السبع في كفه ولا إله إلا الله في كفة ما لت بهم لا إله إلا الله .
قواعد الصوفية صـ٣٧ .

[٤٥]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني مخطوط ٢٣٥ والأجوبة المرضية مخطوط صـ٢٢٧ والطبقات الكبرى جـ٢ صـ١٦٠ .

أبي طالب رضي الله عنه كلمه .. لا إله إلا الله . من سيد الأمة رسول الله ﷺ وبعدها كان يقول " عندي من العلم الذي أسره إليّ الرسول ﷺ ما ليس عند جبريل ولا ميكائيل . فيقول له أبن عباس كيف .. ؟ فيقول : إن جبريل عليه السلام تخلف عن رسول ﷺ ليلة الإسراء . وقال: وما منا إلا له مقام معلوم . فلا يدري ما وقع لرسول الله ﷺ بعد ذلك .

وليس في هذا الذي يقوله الإمام علي رضي الله عنه غريب " لقد أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة والجن بالسجود للإنسان وليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح . بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقي في مدارج السمو الروحي درجة فدرجة حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن . ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهي إلى حد .

" وما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن " ([٤٦]).

وأما شرط من يلبس المريد الخرقة ([٤٧]) الإلباس الحقيقي عند الإمام الشعراني فهو :

" إن يقدره الله تعالى على سلب جميع الصفات الرديئة التي في المريد حال أمره له أن ينزع الخرقة التي عليه من عرقية أو رداء أو أزار وقميص . فلا يتخلف عند المريد بعد نزعها خلق سيئ ولا شيء من رعونات النفوس . بل يصير باطنه كباطن الطفل ممسوحاً من كل رزيلة . ثم إن الشيخ يلبسه كذلك ما كان عليه نظير ما نزعه منه ويفرغ عليه جميع ما قسم من الأخلاق المحمدية التي

---

[٤٦]- الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود صـ٢٧ . والحديث لا أصل له .. كشف الخفا جـ٢ صـ١٩٥ .

[٤٧]- يقول افمام السهروردي ووجهه لبس الخرفة من السنة ما أخبرنا الشيخ ابوزرعة عن أبيه الحافظ ابي الفضل المقدسي ، قال : اخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الأديب النيسابوري قال : أخبرنا محمد بن محمد بن أسحق قال : أخبرنا ابو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري ، قال : حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا اسحق بن سعيد قال : حدثنا أبي قال : حثتني أم خالد بنت خالدة قالت :
اتى النبي صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصه سوداء صغيرة فقال : من ترون أكسوة هذه .. ؟ فسكت القوم ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ائتوني بام خالد " . قالت : فأتى بي ، فالبسنيها بيده فقال : أبلى وأخلقي ، يقولها مرتين ، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أحمر وأصفر ويقول : يا أم خالد هذا سناه ــ والسناه ، هو الحسن بلسان الحبشة رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشخصين وأقره الذهبي .

انظر عوارف المعارف جـ١ صـ٢٥٣ تحقيق د. عبد الحليم محمود ، د. محمود بن الشريف .

لا يصل إليها إلا بالعلاج والمجاهدة والرياضة . فلا يكاد يظهر منه ذلك رعونة نفس ولا خلق رديء " .

فمن لم يقدره الله تعالى . على مثل ذلك فهو متشبه كذلك بالقوم وليس من محققيهم فله أجر التشبه بهم لا غير " وقد ورد من تشبه بقوم فهو منهم " ([48]) .

أما عملية إلباس الخرقة فهي عملية مزدوجة عملية خلع وإلباس عملية نزع واثبات في العملية الأولى عندما ينزع عنه لباسه . ينزع عنه معه العجب والكبرياء والخيلاء والحسد ومتابعة النفس والهوى والشع والحقد . إنها عملية تطهير للباطن إنها عملية تصفية لكل الأمراض الداخلية . وبالتالي وقاية وتحضين ضد وسوسة الشيطان ونزعاته ومتابعة اتباعه . وقطع كل الأهواء والأسباب التي تربطه بإبليس وجنوده . حتى يصير ربانيا خالصا ليس فيه من الترابية شيء ولا يربطه بالشيطان سبب . وأخيراً إنها عملية بتر لكل الأعضاء والصفات الفاسدة في بدن المريد .

ثم تأتي بعد ذلك العملية الأخرى . عملية الباس الخرفة . عملية تجميل الباطن . عملية إسكان الأخلاق المحمدية . من الرضا والاطمئنان وحسن الخلق — وقطع العلائق الدنيوية والغنى عن جميع الناس والافتقار إلى الله وحده .

فإذا تم للمريد هذا أشرقت روحه وانجلى قلبه . وتسامي إلى التأمل في الكون وعجائبه وأسراره وبدائعه وآياته الكبرى والقمة العليا لهذا التأمل . هي الحب المطلق . الحب الإلهي بما فيه من نجوى وانس وسعادة . وبما فيه من فيض وإيمان وجذب وإشراق الله جل جلاله هو الحقيقة الثابتة في الحياة فكل شيء لا يقرب الإنسان إلى ربه باطل وهل يفعل الصوفية غير ذلك .. ؟

وأما إرخاؤه العذبة للمريد فمن شرطه عند الإمام الشعراني : " إن يقدره الله تعالى على أن يفرغ على المريد سر النمو والبركة في كل شيء نظر إليه المريد أو مسه . حتى لو مد العمود لا متد فيكون إرخاء العذبة هذا من باب إظهار التحدث بالنعمة فيثاب على ذلك . وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ لما أرخى العذبة

---

[48]- رواه أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير ، عن ابن عمر مرفوعاً وفي إلا وسط عن حذيفة واسناده حسن ، وقد صححه ابن حبان

لعلى بن ابي طالب رضي الله عنه. فصار معه جزع حين سقف بيت فاطمة . ولم يصل إلــى الجدار الأخر . فمده معه . وكان يتوضأ الوضوء كاملاً من كف واحد من الماء .

فمن لم يقدره الله تعالى على خلع هذا السر على المريد فأرخاه العذبة لــــه إنما هو على وجه التشبه بالقوم فله أجر نيته إن صلحت . فإن المريد ربما " تشيخ " بإرخاء العذبة ورأى نفسه بها على غير وذلك حرام كما افتي به الحافظ بن حجر وغيره " ([49]) .

إن إرخاء " العذبة : ولبس " الخرقة " شارتا الفقــراء وعلامتــان تــدل ــ عليهم فمن أرخى " العذبة " ولبس الخرفة " فهذا دليل على أنه أصبح من القــوم .. فله ما لهم . وعليه ما عليهم إن هاتين الشارتين لن يتجلى بهما المريد أو يتقلدهمــا إلا بعد مداومته على الذكر وإكثاره من النوافل .. فإذا فعل ذلك كان قريباً مــن الله حبيباً إليه كما في الحديث : (ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه . فـإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ولأن سألني لأعطينه ولأن أعانني لأعيننه) ([50]) .

إن هذا المريد بمداومته على الاوراد وانخراطه في ســلك القــوم وقياميــاً للنوافل وحفظ باطنه من الحرام وتصفيه أمراضه الباطنة يصبح ربانياً . " عبــدي أحببني تكن ربانياً تقول للشيء كن فيكون " ([51])

وما دام ذلك كذلك .. فيحل عليه سر البركة ويحل عليه سر النما وتتوالــي عليه الكرامات ما دام ملتزماً بالكتاب سائراً على السنة مقتديا طريق الأولياء متبعـاً نهج ــ الصالحين .. وكيف لا يكون كذلك وقد لبس خرقتهم وتزيا بزيــهم وأمــن بمبادئهم .. ؟

إن تلقين كلمة التوحيد للمريد هي بمثابة المفتاح الذي يفتح له البــاب فيلــج منه إلى الدهليز الكبير أو الطريق الطويل وأما إدخال المريد الخلوة . فمن .

---

[49]- الأجوبة المرضية عن آئمة الفقهاء والصوفية للشعراني مخطوط صـــ٢٨٨ + .

[50]- سبق تخريج هذا الحديث .

[51]_

شرطه لدى الشعراني أن يكون الله تعالى مع أحدهم حتى يقدر على حفــظ مريده من سائر الأفات والعوارض مدة الخلوة . وإن يطلعــهم الله تعــالى علــى حصول الفتح له بذلك . فيرون به على " حضرات " الأسماء الإلهية . كلها فيتخلق بأخلاقها . فإذا مر على الأسم الكريم صار كريماً أو على الرحيم صار رحيمــاً . وهكذا في سائر " حضرات " الأسماء الإلهية . حتى يخرج من الخلوة وقد تخلــق بأخلاق جمع الأسماء ومن شرطه أيضاً أن يطلعه الله تعالى مــن طريــق كشــفه الصحيح إن ذلك المريد يقدر على فعل جميع ثمرات الخلوة ليدخله على بينه مــن الله تعالى ومعرفة به فمن لم يقم بآداب ـ الخلوة ولم يحصل له ثمراتها فليس هــو بمريد صادق كما أن كل شيخ لم يطلعه الله تعالى على ثمرات الخلوة فليــس هــو بشيخ صادق وهو من المستهترين بأهل الطريق .

والشيخ المتصدر لا دخال المريد الخلوة يجب أن يتصف بالبصيرة النــافذة والقلب الكبير لحفظ مريده فترة الخلوة . يحفظ المريد من نفسه الأمــارة بالســوء ومن أهوائه ومن شهواته . ويحفظه مما يحيط به آفــات المجتمــع وغوارياتــه . ويجعله يتخلق بأخلاقه ربه فهو رحيم على الضعفاء . مســتغفر للمذنبيــن متــألم للعاصين طالب التوبة للمارقين . سخي كماء المطر شجاع مع الحق . كارة الباطل وأهله .

هذا الشيخ النافذ البصيرة القوي الإيمان الذي يرى بنور ربه لا يدخل مريدا الخلوة بنفسه ولكن بالهام من ربه . يلهمه بأن هذا المريد صــادق يرغــب فــي الطريق . جياش القلب لمعرفة ربه . راغب في هذه راج رحمته . فــإن اتصــف الشيخ بهذه الصفات وتحلى بهذه الحزن . لأنه لا ينحرف عــن طريــق ربــه ولا يرغب في هدى سواه .

والخلوة عند الصوفية من مستلزمات الطريق . ومن المراحل التي يقطعــها المريد حالة كونه سالكاً . فارا إلى ربه . والخلوة في حقيقتها تفرغ للعبادة وتصفية للتنفس وتطهير للقلب . ولابد من هذا التفرغ في الطريق الصوفي لفترة قد تطــول وقد تقصر حتى يبعد عن أسباب الفتنة ويتغلب على آثار الهوى . التي هــي مــن

لوازم النفس الإنسانية . لابد من هذا التفرغ استجماماً روحياً وعلاجاً نفسانياً وبعثـاً لكم من الفضائل في قلب الإنسان .

لابد من هذا التفرغ . ليرقي في مدارج السالكين وليحقـق العـروج فـي معارج القدس ، وليسرع الخطى متدرجاً في منازل الأورام . إنها التربية السـليمة في الطريق الصوفي . العزوف عن الدنيا والهروب من الناس . وهم فـي ذلـك مقتدون بالصوفي الأول محمدﷺ . عندما ترك العالم أجمع . ترك الزوج والولـد واتجه إلى غار حراء اتجه إلى ربه ــ فخاطبته السماء ونادته العناية ونزل عليـه جبريل .. أن إصدع بما تؤمر وأرشد إلى طريق ربك . وتوالت عليه الفيوضـات وتتابعت الإمدادات . واتصلت السماء بالأرض فكان ذلك إيذانـا بنبوتـه وأمـرا برسالته . وتكريماً له بالمعجزة الخالدة (ذلك الكتاب لا ريب فيه) (٥٢) .

وكذلك اتباع محمدﷺ. الصفوة المختارة من أمة القرآن يدخلـون الخلـوة وليس لهم من العلم اللدني نصيب ويخرجون منها علماء تنبع الحكمة من قلوبـهم . وتسيطر مبادئ الشريعة على كل خلجه من خلجاتهم . وكل عمل من أعمالهم .

٥٢- سورة البقرة آية ٢ .

هل المريد أن يتأدب على أكثر من شيخ .. ؟

****

تكلمنا عن حقيقة الشيخ في مدرسة التصوف . وأنه لا طريق بغير شيخ ووضحنا رأى الإمام الشعراني في هذا للموضوع . وبينا الشروط التي تستلزم جهداً خاصاً وطبيعة معينة لا تتحقق إلا في بعض الأفراد ممن وهبهم الله استعداد خاصاً وموهبة ونوراً .

وإرادة صلبة تنبع ممن يتخلص من الترابية التي تلف الإنسان وتحكم تصرفاته في بعض الأحيان . وإننا نرى أن شرائع السماء ووفود الرسل والأنبياء التي توالت على البشرية كانت وظيفتهم العمل على تصفية الإنسان مما علق بها من الأمراض.

حتى يخف ارتباطها بالأرض ويتطلع إلى السماء إلى مشرق النور والهداية .

فإذا ما تحقق الشيخ بهذه الشروط وألزم نفسه بهذه المبادئ كان جديراً بهذه المهمة مهمة تربية الراغبين . فيجمع المريدين حوله ويأمرهم بالمكوس عنده يلا زمونه ولا يفارقونه . بحيث لا ينتقلون منه إلى غيره . فإن انتقل المريد إلى غير شيخه . كان كاذباً غير صادق . لأن الطريق الصوفي من مبادئه التفرد والتوحد .

وحقيقته التوحيد الخالص . يقول العارف بالله . محي الدين بن العربي رضي الله عنه:لا يجوز لمريد أن يتخذ له إلا شيخا واحداً لأن ذلك أعون له في الطريق وما رأينا مريداً قط أفلح علي يد شيخين فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين ولا امرأة بين زوجين . فكذلك المريد لا يكون بين شيخين ([1]) .

ولعل سائلاً يسأل : لماذا التقيد بشيخ واحد والالتزام بولى بعينه مع أن السلف الصلح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين لم يتقيدوا بشيخ واحد وأم يكتفوا بعالم بعينه .. ؟ بل كانوا يتخذون أكثر من شيخ ويتلقون العلم على أكثر من عالم . فعل الإمام مالك ذلك وكذلك الآئمة الأفاضل أبو حنيفة والشافعي والليث بن سعد وأحمد ابن حنبل رضوان الله عليهم .

[1]- لوافع الأنوار القدسية في قواعد الصوفية الشعراني صـ٦٤ .

والمدارس الإسلامية على مدار التاريخ التي كانت تقوم بتدريس العلوم مـــن فقة وأصول وحديث وتفسير وعلوم اللغة . كانت لا تقيد طلابها ولا تحجر علـــــى أفرادها . بل كانت تترك الطلاب كأسراب النحل تقطف من كل الثمر وتنهل مـــــن كل الينابيع . والإمام الشعراني نفسه تلقى العلم على أكثر مـــــن شـــيخ وإكتســب المعارف من أكثر من عالم وسلك الطريق الصوفي على ثلاثة من أشياخ الطريـــق لكل منهم طريقة ومنهج وأسلوب خاص في الطريق الصوفي .

إذا كان ذلك كذلك . فلماذا ــ يحجر الشعراني على مريديه . ويطالبهم بعدم الاجتماع على أكثر من شيخ ويلزمهم هذا النهج ويخرج عما كان عليه الصحابـــــة وما سلكه التابعون .. ؟

ويجيبنا الإمام الشعراني .. بأن الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهـــم مـــن السلف الصالح . كانوا مطهرين من الادناس والرعونات . فكان كل واحـــد منـــهم كاملا لا يحتاج إلى من يسلكه . فلما كثرت الأمراض واحتاجوا إلى علاج ومتابعة أمرهم الشيخ بالتقيد على مسلك واحد لئلا يتبدد حال المريد وتطول عليه الطريق .

الشيخ كالطبيب له مهمة جليلة ووظيفة سامية . تنحصر في معرفـــة علـــل المرض والكشف عن دائه وأمراضه . وتشخيص علله وأوجاعه حتى يمكن بعـــد ذلك أن يصف له الدواء الناجع ويحقق له الشفاء العاجل . ولن تقتصر مهمة الشيخ في الطريق الصوفي على ذلك لن تقتصر مهمته على معرفـــة الـــداء وتشـــخيص الدواء . ولكنها تستمر لمتابعة المريد ورصد أفعاله وتتبع أحواله . ومـــدى إفـــادة الدواء . وإلى أي حد يتقدم المريد . وإلا فالواجب على الشيخ أن يسلك به مســـلكاً أخر ويصف له أدوية جديدة وهو ذلك كله مراقب لكل ما يأتي المريد ومـــا يـــدع راصد كل أعماله وتصرفاته .

وهذا ما يفعله الطب الحديث في علاج الأمراض المستعصية إنه يلجأ إلـــى التخصص في علاجها ويطالب بوضع المريض تحـــت تصـــرف طبيـــب . فـــذ متخصص في علاج هذا المرض . ويلزمه بمتابعة أحواله ومدى توقف الـــداء أو سريانه .

وإلى أي حد يفيد هذا الدواء ولا يأتي غيره بالفائدة التي تتحقق به . والطب الحديث يرى أن المريض إذا تناوله أكثر من طبيب وتعاورت عليه أكثر من يد طالت فترة مرضه وتفاقمت العلة عليه . فقد يكون لكل منهم طريقته في العلاج التي تخالف طريقه الأخر . بل إنهم قد يختلفون في تشخيص المرض ووصف الدواء .

وإذا كان هذا نهجاً حديثاً وطريقة جديدة وأسلوباً ناجحاً في معالجة أمواض البدن . فإن ذلك يكون أولى بالنسبة لأمراض القلب وعلل الروح . ومن هنا كان منهج الإمام الشعراني في أن يلزم المريد شيخاً واحداً لئلا يتهدد حاله وتطول عليه الطريق . وهذا من أسلم المناهج في هذا الشأن وهو يتمشى مع ما ينادي به علم النفس وطرق العلاج الحديثة .

والإمام الشعراني الذي يطالب المريد بالتزام شيخ بعينه لا يتعداه إلى سواه يطالبه أيضاً أن يتحقق من شرط لابد من وجودها في هذا الشيخ أهمها . التبحر في علوم الشريعة والتفقه في أمور الدين حتى يكفيه ويرضى نهمه إلى طلب المعرفة ولا يحوجه إلى الاجتماع بغيره . ويؤيد ما يرمى إليه الإمام الشعراني ما يروي عن شيخ الصوفية . أبو القاسم القشيري ([٢]) . " يقبح على المريد أن ينتسب إلى مذهب أحد غير شيخه بل يقلد شيخه فقط ([٣]) .

فإن هذا الذي يقوله الإمام الشقيري محمول على أن يكون هذا الشيخ قد تبحر في علوم الشريعة . وفهم أصولها وفروعها وتفقه في حديثها وتفسيرها لأننا نراه يقول أيضاً : قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر قط للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ووصوله إلى مقام الكشف الذي ستغنى به عن الاستدلال ([٤]) .

---

[٢]- الإمام القشيري : الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري النيسابوري الشافعي ٣٧٦هـ — ٤٦٥م — ولد في بلدة " أستوا " وكان سكانها من العرب الذين قدمو خرسان وهو عربي من قبيلة " قشير بن كعب " تلقى العلم أساتذهم المستشرقين من مؤلفاته : الرسالة القشيرية . لطائف الإشارات .

[٣]- أنظر الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود ودكتور محمود بن الشريف .

[٤]- أنظر الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود ودكتور محمود بن الشريف .

وقضية اعتماد المريد على شيخ واحد حتى يسرع الفتح له في الطريــق أو تركه والبعد عنه والاجتماع على غيره إذا لم يكن متبحراً في علوم الشريعة تلقفـها أحد الكتاب المعارضين وهلل بها وقال إن الشعراني متناقض مع نفسه . يحرم هنا ما يحلله هناك فهو يجمع المريدين حوله . ويقيدهم في زاويته بحيث لا يجتمعــون على غيره .

في حين إنه يطالب مريدي غيره بترك أشياخهم والاجتماع به وهدفه مــن ذلك معروف . ؟

والدليل على ذلك أنه قال في كتابه البحر المورود " يحرم على المريــد أن يجتمع على أكثر من شيخ وإلا كان مثله من يتخذ الهين أو المرأة التــي تـتزوج رجلين " يقول في كتابه " ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى ؟ .

" إن الاقتصار في زمانه على شيخ واحد حجز على المريد ودفع لما يحتمل أن يصيبه من منافع لأن الأشياخ في هذا العصر مقلدون لم يرتقوا إلــى مراتــب الكمل من أهل العصر السالف : ثم يحذر من ينهض بالمشــيخة مــن أن يدركــه الغضب إذا عصى المريد أمره أو لم يذعن للتسليم بمشيخة شــيخه وكــرر هــذا المعنى في كتابه آداب العبودية ".

والحقيقة أن هؤلاء هم المتناقضون مع أنفسهم لأنهم لا يريدون أن يفــهموا ما يرمي إليه الإمام الجليل . وإن فهموا ركبوا رؤسهم رغبة في تقليــد أســاتذتهم المستشرقين الذين ليس لهم إلا غمز رجالات الإسلام . والنيل منهم . وكأن هـؤلاء التابعين لا يتسمون بالتقديم ولا يتصفون بالعلم أو السير على طريق البحث الحديث إلا بتعدد المثالب . وإلقاء التهم لمن يترجمون لهم بغير دليل .

إن الإمام الشعراني يدعو المريد بعدم الاجتماع على أكثر من شــيخ لأنــه يطالب بالتخصيص وهذا ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية بعد قطعها هذا الشــوط الكبير من التجارب . ويشترط في هذا التقيد أن يكون الشيخ عالماً وفقيهاً وتنطبــق عليه بقية الشروط التي نادى بها سابقاً . وإذا كان الشيخ كذلك فما هي الحاجة التي تدعو المريد . على الاجتماع بغيره .. ؟ إذا كان يطلب العلم فشيخه عــالم . وإذا كان يطلب الطريق فشيخه أعرف الناس بمسالكها ودروبها . فعلام طلب الاجتمــاع

بغيره . ؟ وأخذ الطريق عن سواه .. ؟ وما الفائدة التي تعود عليه .. من هذا التنقل والتغيير والتبديل من شيخ إلى آخر .. ؟ ما دامت ليست هناك فائدة جديدة ولا علم زائد على علم الشيخ .. ؟ فإذا لم يكن الشيخ كذلك لا تتحقق فيه الشروط . فالإمام الشعراني يطالب المريد بترك شيخه والبحث عن غيره . وهذه المسألة لم يتركها الإمام الشعراني لأهواء المريدين . ولا ادعاء المسلكين بل وضع لها ــ كما قلنا ــ شروطاً وقواعد وعلامات ــ تتلخص في السير على الشريعة والتزام مبادئ الكتاب والسنة عملا وسلوكاً ومنهجاً . واعتقد أنه من التناقض فعلاً أن يطالب الإمام الشعراني المريد بالتزام الشيخ إذا لم يكن ملتزماً بذلك أو عارياً من هذه الشروط . وهذا ما لم يفعله الإمام الشعراني ولم يطالب به . إن الإمام الشعراني بهذه الدعوة التي نادى بها وبإتباعه لهذا المنهج يدلل تدليلاً واضحة على سعة أفقه ورجاحة عقله وحسن فهمه لتعاليم دينه وشريعة ربه وتعمقه في فهم السنة ودرايته بمعارج الطريق .

تعقيب

******

هذه هي مدرسة التصوف كما أرادها الإمام الشعراني . دعوة إلى التصوف التصوف النقي الذي يلتزم الكتاب والسنة ويبتعد عن سبحات المتفلسفين وشطحات المغرقين ، ويحدد العروج إلى علم التصوف بطريقتين إما بالتسليك على يد شيخ صادق ، مترقياً به إلى مقاماته وأحواله ، وإما عن طريق الجذب الإلهي والاجتباء الرباني .

مدرسة تطالب المريد بالتزام شروط واتباع قواعد التصوف والتحقيق بآداب آداب مع نفسه من التوبة وإصلاح الطعمة والبعد عن الشهوات ، والإخلاص في كل شيء ، وأخذ نفسه بالمجاهدة . من التعبد والمداومة على الذكر وتلاوة القرآن والبعد عن الشبهات . وآداب مع إخوانه من تتبع هدى القرآن وآداب النبوة . ومدرسة الشعراني تقرر للمريد آداباً للسير عليها هذه الآداب تجعل مجتمع الأخوة

يرفرف عليه دائماً الحب في الله ، والتفاني في أن يقدم كل منهم للآخر أغلى ما يملك واثمن ما يقتني .

وآداب مع شيخه لأنه دليلة في الطريق ومرشده إلى نبع الحق وهاديه إلى المنهل العذب ، الذي يمده دائماً بكل ما يرقيه في مقامات الطريق ويحول بينه وبين أهواء النفس وأمراض القلوب ، لقد حرص الشعراني ، على أن يضع للشيوخ شروطاً ويلزمهم بها ، وآداباً ويطلبهم بالسير عليها ، وميزانا يزن كل منهم نفسه به ، وفي سبيل هذه الغاية النبيلة قدم للمكتبة العربية عشرات الكتب ومئات المنشورات ، لتوضح منهجه وتبين شروطه التي يطالب بها هؤلاء الشيوخ والشيخ عند الإمام الشعراني ، من اقتدى بالرسولﷺ ، اقتدى به قولاً وفعلاً وسلوكاً ومنهجاً ، قال تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ([5]) .

قال بعضهم من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلاً نطق بالبدعة .

قيل لعبد الواحد بن زيد من الصوفية عندك .. ؟

قال القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم ، هم الصوفية ([6]) والشيوخ حقيقة عنده ظفروا بحسن متابعة الرسولﷺ ، واتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم . فإذا لم يلتزم الشيخ بهذه المبادئ طالبه بالنزول فوراً عن المشيخة ويترك التسليك ليعود مريداً يسلك الطريق من أوله ويتذوق التصوف على أربابه .

ولكي تكون الصورة أمام القارئ والمنهج كاملاً يقتضينا البحث أن تتناول زاوية الإمام الشعراني بالبحث والتحليل : الزاوية التي لها صلة وثيقة بتربية المريدين ووضع شروط السلكين .

---

[5]- سورة الأنعام آية ١٠ .

[6]- عوارف المعرف صـ١٩٤ .

الفصل الثالث

زاوية الإمام الشعراني

****

تعد الخوانق والربط والزوايا من قديم الزمان . لتأدية شعائر العبادة . وإقامة الصالحين في رحابها . ويشير المقريزي في حديثه عن الزوايا إلى أنها كانت دورا للعبّاد الصالحين من الصوفية وفقراء العجم والخدام من الحبش وغيرهم من أهل الصلاح والتقى . ويقرر أيضاً أن تلك الأماكن حدثت في حدود الأربعمائة للهجرة وجعلت ليختلي الصوفية لعبادة الله (٧) .

وأماكن العبادة هذه كانت عبارة عن بيوت يشيدها الأمراء والملوك والأثرياء ليقيم فيها أهل التصوف ليلاً ونهاراً متفرغين لعبادة الله ــ طاعمين كاسين ومن جانب آخر كانت معاهد ثقافية يدرس فيها أنواع المعارف من قراءة القرآن ودراسة التفاسير والحديث النبوي وعلوم التصوف .

ومنشو هذه الزوايا كانوا يحبسون عليها الأوقاف ويجرون على أهلها الأرزاق ويجزلون لهم العطايا ــ حتى يمكن إن تؤدي رسالتها وتقوم بمهمتها التي أنشئت من أجلها .

وفي عصر الأيوبيين وسلاطين المماليك أنتشرت الزوايا الكبيرة كتلك التي أنشاها صلاح الدين الأيوبي وتسمى " خانقاه سعيد السعداء " والزوايا الصغيرة الحجم ليقيم فيها نفر قليل من العباد والزهاد وأهل الطريق .

أما في العصر العثماني . فقد اتسعت الزوايا وتعددت وكثر المقيمون بها . وذلك لتحول التصوف في هذا العصر " من ظاهرة نفسية فردية إلى ظاهرة اجتماعية يشارك فيها جمهرة الناس " ولقد أحصى الدكتور توفيق الطويل أكثر من مائتين من هذه الزوايا الموجودة بالقاهرة وحدها . ويقول " لقد حفلت مصر بكثرة الزوايا وكانت تتنفس في نموها وسعتها وندرة الرزق بها مع نفوذ أصحابها . ؟ وقدرتهم على إغراء المريدين بالانقياد إليهم واجتذاب أهل اليسار لهم (٨) " .

٧- خطط المقريزي جـ٤ صـ٢٧١ ، ٢٩٩ .

٨- التصوف في العصر العثماني صـ٥٧ .

واتسعت هذه الزوايا للألوف وعاشوا في كنفها مع زوجاتهم وأولادهم طاعمين كاسين . ومرد كثرة الواردين على هذه الزوايا يرجع إلى عدة عوامل أكبرها خطراً شيوع التصوف رداً على قسوة الحياة في ذلك العصر . والعجز عن مواجهة هذا الظلم بالإضافة إلى أن الإقامة في هذه الزوايا تعفى المقيمين فيها من متاعب العمل وتوفر لهم أسباب الراحة وترد عنهم ظلم الحكام . وعبث الجنود ولا شك أن الحياة داخل الزوايا كانت أحسن حالا من حياة الفلاحين المحاطة بكثير من الاضطراب والذعر فالفلاح كان عرضه لا نتزاع أرضه إذا عجز عن سداد ما يفرض عليه كما بينا ذلك سابقاً .

هذه نبذة مختصرة عن نشأة الربط والزوايا في مصر ننتقل بعدها للتحدث عن زاوية الإمام الشعراني . والتي كانت تعد في عصرها مدرسة للمعرفة . وجامعة للتصوف " وأكاديمية " للعلوم الإسلامية تلتقي بمن حولها فتؤثر فيهم بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة والمعرفة الهادفة والإرشاد المستنير . كيف نشأت هذه الزاوية .. ؟

وما العوامل التي ساعدت على إنشائها وأصبح لها هذا الدوي في سمع التاريخ . ؟ .

العوامل التي ساعدت على إنشائها

****

لقد تكلمنا فيما سبق عن انتقال الإمام الشعراني من مسجد الغمري إلى مدرسة أم خند بعد أن آذوه في المسجد وتقولوا عليه وحالوا بينه وبين إقامة مجلس الذكر والصلاة على الرسول ﷺ وقلنا إن الإمام في مدرسة أم خوند اتسعت دائرة معارفة وطارت شهرته وصار أسمه يتردد على كل لسان . وتلهج به الشفاه وسعت إليه الدنيا فرفضها وركعت بين يديها فنبذها وفي أثناء إقامته في مدرسة " أم خوند " أراد العثمانيون غزو مصر فتصدى لهم السلطان الغوري إلا أنهم انتصروا عليه في الموقعة الشهيرة موقعه " مرج دابق " عام ٩٢٣ هـ وجاء السلطان سليم الأول تحف به الأنصار وترمقه العيون وأخذ في عملية تطير كما

يقال في عصرنا الحاضر . وكان هناك كما تقول بعض الروايات أحد القضاة أساء استغلال وظيفته واغتصب عقارا لم يكن له وخشى بعد الفتح العثماني انكشاف أمره وافتضاع سره فاوقفه على وجوه البر في زاوية الإمام الشعراني وذريته معاً.

يقول علي مبارك " فلما كان الفتح العثماني وثغيرت الأحوال وانقضت تلك الدولة خشى عند الفحص والتفتيش أن ينزع ذلك الطين الذي جمعه من يده والحالة هذه فكان من عناية الله تعالى بالشيخ عبد الوهاب أن عبد القادر الارزيكي دبر تدابير قصد حماية ذلك الطين به فاعانه الله ويسر له وهو أنه اشترى قطعة أرض مكملة الجدار على الخليج الحاكمي تجاه الدرب الكافورى وعّمرها مدرسة على الصفة التي هي بها وجعل بها مدفناً لم يرد الله تعالى أن يدفن فيه ونقل إليها الشيخ عبد الوهاب الشعراني ووقف عليه تلك الحصص " الطين " المتفرقة التي كان يخشى من تبعاتها عند انتباه السلطنة والدولة للفحص عنها فكان هذا الوقف على وجهات بر للشيخ عبد الوهاب الشعراني وذريته ولجميع القاطنين عنده بالمدرسة ([9]) .

هذه هي رواية على مبارك صاحب الخطط التوفيقية وتبعه في هذه الرواية كثير من المؤرخين والمستشرقين نقلا عنه . وهو أن القاضي أراد أن يتخلص من الأرض التي اغتصبها – بغير حق – فلم تكن هناك وسيلة لتغطية هذه السرقة والاغتصاب سوى أن يوقفها على وجوه الخير والبر . ..؟ وإن كنا نشك في هذه الرواية . وهناك رواية أخرى يرويها صاحب المناقب تقول إن القاضي محي الدين عبد القادر الرزمكي رأس الكتاب بديوان قلعة الجبل بمصر المحروسة غضب عليه السلطان سليم حين قدم إلى مصر المحروسة وأخذ منه الدفاتر وتوعده بالقتل فخشى على نفسه منه فهرب واختفى ثم جاء إلى حضرة سيدي عبد الوهاب الشعراني بمدرسة " أم خوند " التي هو نازل بها وشكى إليه حاله وما وقع له معه فقال الشيخ للقاضي : إن فرج الله عنك هذه القضية تبني مسجداً لله .. ؟ فقال نعم : لله تعالى على ذلك فالهم الله تعالى مولانا السلطان سليم أن قال لخواص أصحابه هل بقى في مصر أحد من الأولياء لم نطلع عليه ولم يطلع لنا القلعة .. ؟

[9]- الخطط التوفيقية صـ ١١٠ جـ ١٤ .

فقالوا : نعم فيها ولي كبير إلا إنه صغير السن وليس له عادة في الطلوع لا حد من السلاطين الذين قبلك .

فقال : السلطان لابد من الاجتماع عليه فركب السلطان في الحال . ونزل لزيارة الشيخ الشعراني . فلما اجتمع السلطان بالشيخ . أعجبه سمته وطريقته واعتقد فيه اعتقاد كبيرا وقال للشيخ هل حاجة يمكن إن نقضيها لك قبل رجوعنا إلى بلاد الروم .. ؟ وقال له الشيخ ليس لي حاجة عند أحد أبداً . ولكن عندنا رجل قد غضبتم عليه يدعي عبد القادر الرزمكي فإذا أمكن منكم العفو أحضرناه بين يديكم فقال السلطان له ممكن . فاحضره الشيخ بين يدي السلطان فعفا عنه وولاه في خدمته حتى كان من أمره ما كان (١٠) .

هذه رواية صاحب المناقب الكبرى تتفق مع ما يرويه صاحب الخطط التوفيقية أن العفو تم عن القاضي محيي الدين الرزمكي وإن كنا نستبعد أن تهمه القاضي هي اغتصاب الأرض ووقفها على الإمام الشعراني .. وكيف يقبل الإمام وهو الذي يتحرج من الحلال المباع أن يقيم في زواية مغتصبة من أصحابها .. ؟ إننا نرفض هذا الأمر بشدة ونستبعد قبول الإمام لهذا الأمر .. ويؤيد ما نذهب إليه ما يرويه أيضاً صاحب المناقب بأن القاضي عزم تنفيذ ما وعد به الإمام فإبتاع قطعة أرض فضاء في أطراف حي باب الشعرية ليقيم المسجد الذي وعد به . وقبل أن يبدأ القاضي في البناء اغتصب أحد الأمراء هذه القطعة واعتزم أن يقيم عليها بيتاً له . وتصدى لهذا الأمر رجل من أصحاب الأحوال وأفهمه أن هذه الأرض تخص الإمام الشعراني ولا نستطيع أحد أن يعتدى عليها وحذره سؤ العاقبة .

من هنا جاء الخطأ في رواية الخطط التوفيقية بأن الأمير الذي أراد اغتصاب الأرض من القاضي – ليقيم عليها بيتاً هو القاضي الذي اشتراها من خالص ماله .. وتمضي الرواية فتقول إن الأمير التركي سخر من هذا القول وأفهم حاشيته أنه لا يؤمن بالمجاذيب ولا يعتقد في الكرامات . وللعلم أن هذه السخرية لم

١٠- المناقب الكبرى صـ ١٥٤ .

تدم وهذا التحدي ما لبث أن تلاشي فقد أصيب الأمير بعدة أمراض وكـــانت فيـــها نهاية أجلة .

إننا نؤمن أن لكل أجل كتاباً . ولكن بماذا نفسر هذا ...؟ أهي كرامة للإمام الشعراني .. ؟

يقول الدكتور عبد الحليم محمود وماذا تكون الكرامـــة غـــير ترتيـــب مقـــادير أو تصرف مقادير أو تدبير مقادير .. ؟ انا كل شيء خلقناه بقدر أترى للمصادفة دخل مع هذه الآية العامة لقد كان تدبيراً منذ الأزل حدث في اللحظة التي قدرتها العنايـــة الإلهية ([11]) .

وأسرع القاضي محيي الدين إلى الأرض ليشيد عليـــها مســـجداً للصـــلاة ورباطاً للعبادة وتكية للفقراء ومدرسة لطلبة العلم وزاوية للمتهجدين وبـــدأ البنـــاء فعلاً . وأخذ البناء في الارتفاع حتى إذا ما أوشك إن يتم سافر القاضي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولكنه لم يعد . فقد وافاه أجله في الأرض الطيبة ودفن هنـــاك رحمه الله . مات القاضي ولم يتم ما بدأه ــ وكان لابد للإمام الشعراني من توليـــة المهمة مهمة بناء المسجد وتشييد الزاوية ورافقته العناية وباركته القدرة وتم البنـــاء تم بناء المسجد والزاوية وأصبحت مهيأة ومعدة لاستقبال المريدين والمجـــاورين . ولكن هناك شيء لم يتم بعد . ألا وهو البئر .. البئر التي تمد المجـــاورين بالمـــاء للحياة . والماء للتطهير . ولكن المحاولات تبذل والجهود تعمل : وتعود في النهاية بالفشل .. ؟ ولم يتم حفر البئر وإذن فلن تقام زاوية ولن يعمر مسجد . أيكون هـــذا المكان كالليل بلا قمر .. ؟ والشجر بلا ثمر والخضرة بغير جمـــال ..؟ وأخـــذت الوساوس تساور إمامنا وسحابة من الحزن تسيطر عليه . وألهمه ربه أن يلجأ إلـــى شيخه .. ولقد كان دائماً يلجأ إليه كلما حزبه أمر أو أحاطت به القلاقل أو أتعبه هم الدنيا وملابسات الحياة . لجأ إلى شيخه : نور الدين على الشوني " وكان يقال إنـــه يلتقي بالنبيﷺ يقظة ومشافهة .. ووضع أمام شيخه جملة حالة . ولم يكن شيخه في حاجة إلى شكاية . أو تعبير إنه معه وأدري بخلجات نفسه واعلم بما يقلق بألـــه ويساور فكره . وهدأ شيخه من روعه . وطيب خاطره . ويقال إن الشـــيخ علـــي

[11]- الإمام أبو الحسن الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود صـــ ٣٧.

الشوني التقى بالرسولﷺ فاستشاره في حفر البئر فأشار عليه الصلاة والسلام لحفرها في مكان دان من ردشة بيته . واتجهت إلى المكان المحدد المعاول والفئوس .. اتجهت ومعها قلوب مؤمنة خافقة بذكر الله مستغرقة في ملكوته — وأخيرا كبر الرجال وخرج الماء عذبا فراتا سائغا للشاربين .

طفل يتيم يخرج من ساقية أبى شعره . لا يملك من حطام الدنيا شيئا ويتجه إلى القاهرة تكلؤه رعاية الله وتحوطه عنايته .. يخرج وكل بضاعته ذاكرة وقادة . وذهن لماح ولم يمض على هذا الخروج خمسة عشر عاما حتى تتساق إليه الدنيا وتأتي إليه من كل حدب . ويبني له مسجد وتشيد زاوية وتموج بالمجاورين والمريدين وتعج بالصالحين والطالبين فما هي الصورة المادية لتلك الزاوية ؟ .

الحياة المادية في رحاب الزاوية

****

كان للزاوية الكثير من الأملاك . وأوقف عليها الولاة والحكام الكثير من الأوقاف . ومن ريع هذه الأوقاف وخيراتها ملئت بالأرزاق وفاض عليها الخير من كل مكان حتى زاد عن حاجة أهلها والمقيمين بها .. فأهدى منه إلى أصحابه خارج الزاوية وأعطى المؤمنين والمرضى . وسد حاجة بعض المعوذين والفقراء وهذه الأرزاق الكثيرة والخيرات . العميقة التي تغدق على الزاوية لا يسأل أحدا في تحصيلها ولا يتعب أرباب الزاوية في جلبها . بل يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . ومهما كثر الوافدون على الزاوية وتضاعف عدد المقيمين بها لا يقلق باله شيء ولا يخاف قلة الحاجة . ولا يفكر في تدبير أقواتهم . وكيف يفكر في ذلك .. ؟ والله هو الرازق والمعطي .. وما دام قيدهم في الزاوية وأقامهم بها فهو بسوق إليهم أرزاقهم .

وقد بلغوا في وقت من الأوقات مائة نفس رجالا ونساء أطفالا وشبابا . فانشرح حاله وهدأ باله واطمأنت نفسه . وحمد الله كثيرا .. وكان يحزن ويتألم إذا نقصوا عن ذلك لإيمانه القوى أن الرزق من عند الله .. (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم فلو إن أهل مصر كلهم صاروا عياله ونزلوا

بزاويته وأقاموا عنده ما حمل لهم هما – وكيف يحمل آلهم أو يفكر في الرزق .. ؟

والله تعالى يقول : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ([١٢]) وفي الحديث عن الرسول : (لو اتقيتم الله حق تقاته لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا) ([١٣]) .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه . ومما من الله تبارك وتعالى به على تيسير جميع ما تحتاج إليه الزاوية من الطعام واللباس وغيرهما من غير ذل في طريق الوصول إلى ذلك ولا سؤال أحد فيه من الخلق وهذا أمر قل أن يوجد الآن في زاوية . فلابد لأحد من سؤال الولاة بأنفسهم أو بوساطة بلسان الحال أو بلسان المقال ([١٤]) .

ويقول أيضاً . ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على ما يأتيني من الرزق من جهة وقف أو هدية ونحوهما ولذلك لم يزل رزقنا في زيادة البركة . وغالب من يكون لهم وقف أو مرتب أو مسموح تجدهم في قلة بركة والديون عليهم ولم يزل أحدهم يشكي ويبكي وذلك لاعتماد على غير الله تعالى في الرزق ([١٥]) .

هؤلاء الآخرون من أصحاب الزوايا يعيب عليهم عدم اعتمادهم على الله ويصور حالهم . بأنهم دائماً في قلة بركة والديون عليهم وهذا من عدم التقوى . لأن هؤلاء لو كانوا متقين حقاً لاتاهم رزقهم من حيث لم يحتسبوا مصداقاً لقوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) ([١٦]) .
وفي الحديث الشريف (أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب)([١٧]) .

---

[١٢]- سورة هود آية ٦ .

[١٣]- رواه الإمام أحمد في مسنده وابن خزيمة والترمذي والنسائي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضى الله عنه .

[١٤]- لطائف المنن صـ١٦١ جـ٢ .

[١٥]- المصدر السابق صـ١٦١ .

[١٦]- سورة الطلاق آية ٢،٣ .

[١٧]- رواه البيهقي في شعب الإيمان عن على ورواه الديلمي في مسنده الفردوس والسيوطي في جامعة الصغير .

وأصبحت الزاوية مأوى القصاد وكعبه العباد .. ووجهة الطالبين والصالحين . يقصدها المغتربون والمنقطعون لعبادة الله .

والعجيب في الأمر . أن الزوايا في هذا العصر كانت كثيرة ومنتشرة انتشاراً كبيراً في أنحاء القاهرة . ولكننا لا نجد تزاحماً على غيرها ولا إقبالاً على سواها . ولعلنا نتساءل عن ذلك ونبحث عن الأسباب الدافعة إليه . ولكننا لا نلبث أن نرى الجواب حاضر له .

لقد كان صاحب الزاوية الإمام الشعراني أوسع أهل عصره علماً وأعلاهم كعبا في التصوف والنفحات اللدنية . كما كان أيضاً ذروة في التعبد والخلق لا تطاولها ذروة .

وبتلك النفحات الإلهية طبع الشعراني زاويته " والمورد كثيراً الزحام " وهناك سبب آخر هو أن صاحب الزاوية وهو على قمة المربين في المدرسة الإسلامية كان يتخذ من زاويته سفراً إلى الله وفراراً إليه والعمل فيها لمرضاته والتفاني في السير على شريعة نبيهﷺ .. وما دامت الأهداف سامية والمقاصد حسنة فالطريق وأضح والصعب سهل .. ولقد كان يعامل المجاورين والقاطنين في الزاوية وكأنه واحد منهم .

بل كان يمنع نفسه ليعطيهم ويتعب نفسه ليربحهم .. ويبذل الكثير من العرض والمال ويعطي كل ما يملك .. ومن إنكار نفسه ومن شفافية روحه ومن طيب قلبه بذل لهم علمه . ووضح لهم الطريق ونصب نفسه للوصول بهم إلى مرضاة الله .

يقول الإمام الشعراني .. عن نفسه : كنت لا أتخصص عليهم بشيء إلا لضرورة ، شرعية . وكل شيء دخل في يدي من أمور الدنيا فرقته عليهم من فاكهة وطعام ونقد . حتى ما وقف على وعلى ذريتي بالخصوص . أفرق أجرته عليهم وأكل كأحدهم أو أقل وربما دخل في يدي الآلف نصف مثلاً فأفرقها كلها عليهم ولا آخذ لنفسي ولا لولدي ولا لعيالي منها نصفاً واحداً تعففاً عن مزاحمتهم () .

ونحاول أن نضع إحصائية بالذين حفظوا القرآن في زاويته وبالمجاروين فيها . والوافدين عليها . ولاشك أنها إحصائية عجيبة ــ بالنسبة لما يحيط بها من

زاويا ــ وعمل عظيم يدل على أن صاحبها بذل الكثير من نفسه وأعطى كل مـــا يملك من جهد وطاقة في سبيل استمرار الزاوية وقيامها بأداء رسالتها الجليلة أكـثر من ثلاثين عاماً .

لقد استطاعت هذه الزاوية أن تقدم خلال هذه المدة للمجتمع المصري أكـثر من ألفي نفس حفظوا القرآن وجودوه وفقهوا معانية . ووقفوا علـــى تشـــريعاته ــ وكان في الزاوية تسعة وعشرون شخصاً من المكفوفين المقيمين بها إقامة دائمـة . طاعمين كاسين . وبلغ عدد الذين يعجنون الدقيق بالنوبة عشرين شخصاً . وبلـــغ الواردون على الزاوية من الضيوف يومياً سبعين نفساً . هذا عدا المقيمين إقامـــة دائمة وعددهم يزيد على المائة شخص .

هذه الضاحية الكبيرة في وسط القاهرة . كم كانت تســـتهلك مـــن الطعـــام والمواد الأخرى .. ؟ وما نوع الغذاء الذي كانت تطعمه لروارهـــا .. ؟ أن هـــذه الأسئلة وغيرها قد أعفانا منها صاحب الزاوية فهو يضع بين أيدينا ميزانية كاملـــة لما تستهلكه الزاوية في كل عام .. حتى نحس بمدى المسئولية الكبيرة التي ألقيـــت على عاتقة فقام بها خير قيام .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه . ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على كل ســـنة من عسل النحل نحو عشرة قناطير ومن عسل القصب نحو عشرين قنطارا ومـــن القمح ثلاثمائة إردب وبلغ استجرار الفول الحار أيام الشتاء كل سنة أربعين إردبـــا ومن الكشك ــ سبعة إردب ومن الأرز سبعة إردب ومن البســـلة والعـــدس نحـــو خمسة وعشرين أردباً وبلغ عجين الكعك كل عيد خمسة إردب ويأتينا مـــن كعـــك الريف نحو ثلاثة إردب في العيد ونشتري مع ذلك من التمر والخرنـــوب والتيـــن نحو خمسة قناطير وهذه الأمور ليست اليوم في زاوية من زاويا مصر .

ويقول أيضاً ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على كل ســـنة مـــن البطيـــخ الهندي نحو ألف بطيخة نخزنها على أسم الضيوف المرضى من المسلمين ونهادي من الفقراء والأغنياء فيبقى عندنا كل سنة الكثير مما لا يبقى في مصر منـــه إلا قليل . وذلك من زرعنا بالجزيرة بناحية برشوم الصغرى وكذلك من جملة نعـم الله

تعالى تبارك طول السنة إننا نقطع من هذه الجزيرة . كذا كذا وسقا من الحطب ([18]) .

اتسعت الزاوية لكل هذه الأعداد .. ووفرت لهم سواء القاطنين بها أو الواردين عليها ــ كل ما يحتاجون إليه . وفرت لهم العلم النافع وفقهتهم في دينهم وبصرتهم بشريعة ربهم وهيأت لهم المسكن الملائم والإقامة المريحة . وقدمت لهم الطعام والكساء حتى أصبح هؤلاء المقيمون بالزاوية أحسن حالاً واهدأ بالا وأرغد عيشاً من كثير ممن يعيشون خارج الزاوية الذين كثيرا ما كانوا يتعرضون لظلم الحكم وعبث الجنود وانتزاع أرضهم وإرهاقهم بالمكوس والضرائب . ولعل سائلاً يسأل ومعترضاً يعترض هذا النعيم الذي يعيش فيه أرباب الزاوية والمجاورون فيها كيف يتفق ذلك . مع الدعوة إلى الزهد والمطالبة به والتي لا يخلو منها كتاب أو مؤلف من كتب الإمام الشعراني . ؟ المعروف عن رجال الطريق أنهم يزهدون في الدنيا ويرغبون عن شهواتها فكيف يتحقق ذلك مع ما يتناوله من اللوز والجوز والتفاح والعنب والتين والكعك وغيره من الأشياء التي ذكرها الإمام الشعراني والتي لا توجد إلا في قصور الملوك والإمراء .. ؟

ويجيب الإمام الشعراني بقوله المريد في بداية سلوكه يجب عليه ترك شهوات ــ الدنيا كلها فلا يشرب الماء المبرد في الكيزان ولا ينام على طراحه ولا يضع جنبه على الأرض ثم إذا انتهى سلوكه وعرف الله تعالى المعرفة الحقة ــ المعرفة الثابتة بين القوم . أمر بالإحسان إلى نفسه لكونه عنها وعن حقها . فيأكل الطيات وينام على أوطأ الفراش ويشرب الماء المبرد في الكيزان ويترك ضد ذلك حتى لا يسمى ظالماً ومطيته .

فيا طول ما أسهرها الليالي الطويلة الباردة أو الحارة ويا طول ما أجاعها وأعطشها وألبسها الخشن من المسوح والمرقعات فلما أوصلته إلى مقصده من حضرة العرفان . كانت كالأجير الذي عمل ما استؤجر عليه . فيجب تعجيل الأجرة له وعدم مماطلته مع القدرة قبل أن يجف عرقه .

---

[18]- لطائف المنن صـ١٦١ جـ٢ للإمام الشعراني .

وقد كان مأمورا ولا بظلم نفسه في مرضات الله تعالى . كما أشـــار إليـــه قولـــه تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفنا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه) ([19]) .
قال بعض العارفين إنما صح لمن يظلم نفسه إلا صطفاء لكون ذلك الظلـــم لنفســـه كان في مجاهدتها طلباً لمرضاة الله عز وجل فليس المراء بها مـــن يظلـــم نفســـه بالمعاصي ([20]) .

ومن هنا أن منهج الإمام الشعراني إن الزهد يكون فـــي بدايـــة الطريـــق . والعبد عن شهواتها ولذاتها تكون للسالكين .. ليكون في ذلك عامل لتصفية نفوسهم وتطهير قلوبهم وحافز لقطع مراحل الطريق فإذا تم لهم مــــا أراد وإذا عرفـــوا الله حق المعرفة .. كان لا يضرهم إمساك الدنيا أو تناول بعض مباحاتـــها لأن الدنيـــا حينئذ تكون في يديهم لا في قلوبهم ورجال التصوف لا يخافون من إمساك الدنيـــا ولا يفرون من الضرب في فجاجها بل يعلمون لها ويتخذون الحرفـــو التكســـب . وإنما يخافون فقط من ميل القلب إليها فيشغلهم ذلك عن ربهم .

وإذا تركنا تناولنا في كلمتنا السابقة الحياة المادية في رحاب الزاوية وتحدثنا عن وسائل المعيشة بداخلها . فإن هذا يدعونا إلى إن نتكلم عن الحياة الاجتماعيـــة في داخل الزاوية نتبعها بكلمة أخرى عن الحياة الروحية فهما وهو الجانب المـــهم عن الزاوية بعامة ز وبذلك نعطي صورة صادقة ــ قريبة من الواقع لتلك الجامعة الصغيرة وعملاقها الصوفي إمامنا الشعراني رضي الله عنه .

الحياة الاجتماعية في رحاب الزاوية

****

عاش الإمام الشعراني رضي الله عنه في رحاب زاويته وعاشت معه زوجاته الأربـــع وأبناؤه ــ عاش مجاهداً ومكافحاً عابداً ومعلماً وحدثنا عن زوجاته وحياتهن معـــه في الزاوية .. حديث الزوج المحب العطوف وبشفافية الرفيق المخلص يصور هذه الحياة فهن مطيعات لا يعصين له أمراً ولا يرفض له طلباً وهن عـــابدات قانتـــات يقمن معه الليل ويشاركنه فيما يؤدي من نوافل وما يتلو من أوراد ..

---

[19]- سورة فاطر آية ٣٢ .

[20]- لطائف المنن صــ ٢٤ جــ١ .

وهن محجبات لا يطلعن على أحد ولا يراهن أحد ــ قارات في بيوتهن فلا يختلطن بالناس وكن يذهبن معه لأداء فريضة الحج فإذا كانت معهن لن ابنه عبد الرحمن فهن قابعة في محملها لا تغادر لا ترى ولا ترى .. وهي قانعة صابرة لا تطلب شيئاً ولا تعوزها الحاجة طيلة إقامتها في الحج وهي متعففات قانعات لا يقبلن الهدايا من أحد ولا يأخذن العطايا من إنسان وهن لذلك حبيبات إلى قلبه قريبات إلى روحه لأنهن لسن كغيرهن من زوجات المشايخ يتهافتن على عطايا المحسنين وأوقاف المتبرعين .

والإمام الشعراني لا يمل الحديث عن زوجاته ونراه دائماً يمدحهن في جل كتبه وفي الكثير من مؤلفاته . ولقد حدا به هذا العطف إلى أن يجمع أحاديث الرسول ﷺ في العطف على النساء والحدب عليهم . لأنهن ضعيفات في حاجة إلى العطف وقاصرات العقول يلزمهن دائماً الإرشاد والتوجيه ولقد قال الرسول ﷺ وكان آخر ما أوصى به الله في النساء فإنهن عوان عندكم أخذتموهن بعهد الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ([21]) .

ولنستمع إليه يحدثنا عن زوجاته وحياتهن معه في الزاوية بأسلوبه الرقواق ــ وشفافيته المحببة ومما من الله تبارك وتعالى به على إصلاح زوجاتي الأربع زينب وحليمة وفاطمة وأم الحسن ابنة سيدي مدين نفعنا الله ببركاته . وهذه النعمة من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى على ولولا إنها نعمة عظيمة ما أمتن الله تعالى بها على نبيه ذكريا عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى : (وأصلحنا له زوجه) ([22]) ومن جملة إصلاح زوجاتي هؤلاء الأربع أنهن لا يجلسن قط ساعة بلا غسل من الجنابة ولا يؤخرون صلاة عن وقتها إلا لحيض أو نفاس أو نسيان حتى في طريق الحجاز ذهاباً وأيابا ولا يتركن قيام الليل وأعظمهن عبادة فاطمة وبنت سيدي مدين فإما فاطمة فربما أحرمت خلفي في صلاة الليل فأقرأ بها في الركعة الواحدة ربع القرآن .

---

[21]- رواه ابن ماجة في سننه عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه جـ٢ صـ٩٠١ ورواه الإمام أحمد في مسنده عن علي ابن أبي طالب جـ١ صـ ٦٩٢ تحقيق أحمد محمد شاكر .

[22]-سورة الأنبياء آية ٩٠ .

فلا تفارقني إلا لبكاء طفلها إذا لم تجد من يقوم مقامها في شأنه . وإما بنت سـيدي مدين فكان قيامها في ليالي الشتاء والصيف من أول الثلث الأخير من الليل دائماً لا تكاد تتخلف عنه أبداً ومن جملة إصلاح الأربع أيضاً أنهن لم يكلفنني يومـاً مـن الدهر شيئاً يشتري من السوق إلا في المرض وإما في الصحة فهن معي على مـا يفتح الله تعالى به علينا ومن إصلاح فاطمة أم عبد الرحمن تعففها عن آخـذ مـا يعطيه لها الناس حين رددته أنا عليهم وقد أعطتني أبنة " خلص بك " عشرة دنانير لما حججت فرددتها وقلت لا أقيل رفدا من امرأة فأعطتها الأم عبد الرحمن فردتها ولم تقبلها ([٢٣]) ومن إصلاح نسائي كونهن عونا لي الخير فينبـهنني إلـى أفعـال الخيرات والقربات والمبرات والصدقات وإذا لم أجد ما أتصدق به على من يسألني من المحتاجين واسينني بما يستطعنه من دينهن أو ثيابهن أو امتعهن مخلصات في ذلك ([٢٤]) .

هذا هو الإمام الشعراني في بيته وهؤلاء زوجاته يعيد لنا بهن سيرة النسـوة العفيفات الطاهرات العاملات في سبيل راحة الزوج والوقوف معه في كل شئونه . أنهن يعدن لنا صورة أم عبد الله التي فارقت أهلها وأقاربها وهاجرت مع زوجـها إلى الحبشة فارة بدينها (أنهن يعدن لنا صورة أم المؤمنين السيدة خديجة رضـى الله عنها وهي تحدب على زوجها النبي وتقف بجواره أمام غلظة قريش وغظاظـة المشركين) وهن من جانب آخر يكدن يكن " رابعات " العصر الذي عشن فيه لمـا فيهن من الورع والتقوى والزهد . فيما في أيدي الناس وأخيراً أنهن عون له علـى الخير يساعدن فيه مواسيات له الضر حاملات عنه .

وهكذا عشن معه في الزاوية وعاشت معهن زوجـات المجـاورين وكـن يستقبلن مع إنه الشعراني ما يرد إلى الزاوية من نساء خارج الزاوية ليزددن تفقها في دينهن وقد تنقل زوجات الإمام الشعراني عن هؤلاء النسوة ما يحول الحياة عن إلا فضاء به أمامه من أسئلة تتحرج المرأة عن الادلاء بها أمـام الرجـال وفـي الزاوية جانب اجتماعي مشرق وهو أن بعض المريدين الراغبيـن فـي الـزواج

---

[٢٣]- لطائف المنن جـ٢ صـ ١٥٩ .

[٢٤]- المصدر السابق صـ١٥٩ جـ ٢ .

المتطلعين إليه والمتلهفين إلى إحياء سنة الرسولﷺ في النكاح ــ لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً وليس لديهم القدرة في امهار المهور ودفع الصداق ولكن الزاوية لا تقف أمام مشكلة هؤلاء عاجزة ــ بل تجد الحل العاجل ويقوم أمام الزاوية رضى الله عنه بتلك المهمة ويعمل على تنفيذ سنة نبيه محمدﷺ في الزواج مصداقاً عليه السلام من رغب عن سنتي فليس مني ([٢٥]) ويتكفل بجميع ما يلزم من إتمام العقد وتكاليف العرس . وحاجات العروسين . وكان من عادته أن يتم عقود الزواج لكل من يرغب من المجاورين وفي ذلك يقول عن نفسه وزوجت منهم نحو أربعين نفساً ووزنت عنهم غالبا مهورهم من فضل الله تبارك وتعالى وعملت لهم طعام العرس والعقيقة ([٢٦]) .

وقدم لزوجات المجاورين كل ما تحتجه المرأة المسلمة وترغب فيما العروس لتعمل على إرضاء زوجها وتقريبه إليها حتى يسكن إلى سكنه ويهدأ بالا ويستريح نفساً . قدم لهن وسائل الزينة ومنحهن الملابس والطعام حتى اشتريت لنسائهم اللبانة لينتفعوا بها وغير ذلك ([٢٧]) وإذا كان ذلك في شأن أمر من الأمور كثيراً ما يشتت بال المريدين ويقلق تفكيرهم . إلا وهو الزواج فإنه في الحياة العامة أيضاً كان يلاطفهم . ويعطف عليهم ويستعمل معهم السياسة واللين وكل ما يطيب قلوبهم ويهدي نفوسهم ويصرفهم إلى عبارة ربهم .. وإذا كانت عادة الصوفية امتحان المريد في الصدق إذا جاءهم طالباً الطريق . حتى تعرف حقيقة جده من هزله . فإن أمامنا الشعرانيرضي الله عنه لا يلجأ إلى ذلك حتى يحببهم في الطريق ويؤلف قلوبهم ويرغبهم فيه فإذا ــ اطمأنوا إلى ذلك وقبلته نفوسهم سلك معهم الطريق درجة وخطوة خطوة فكل حرمان مادي يقابله لذة روحية حتى يصير المريد من نفسه لا يستطيع ان ينفك عن الطريق لحظة لأنه في لذة لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها بالسيوف ونعتقد أن هذه الطريقة في التربية هي طريقة

---

[٢٥]- جزء من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها أني لأخشاكم لله واتقاكم له لكن أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني .

[٢٦]- لطائف المنن صـ ١٦٠ جـ الإمام الشعراني .

[٢٧]- المصدر السابق صـ ١٦٠ جـ ٢ .

إسلامية بحتة وهو ما سلكه القرآن الكريم واتبعته الشريعة المحمدية في الحيلولة بين العرب وبين الكثير من عاداتهم ــ أمثال شرب الخمر ولعب الميسر وغير ذلك ، تقول الإمام الشعراني . وبما أنعم الله تبارك وتعالى به على ملاطفة المريدين والمعتقدين أول اجتماعهم على فلا امتحنهم في الصدق لأن الامتحان إنما يكون لهم إذا تمكنوا في الطريق وعلقت بهم " صفارته " وأما قبل ذلك فربما امتحنهم الشيخ فرجعوا عما كانوا قصدوه . وقالوا ما لنا ولهذه الطريق .. ؟ فعامل إخوانك في هذا الزمان كما تعامل الأطفال الذين ليس لهم عقول ولا تقم عليهم ميزان الصدق فينفروا كلهم من صحبتك والله تبارك وتعالى يتولى هاك والحمد لله رب العالمين ([٢٨]) .

ومدريدوه في الزاوية يدخرون له الود ويحفظون له الحب وهم على السمع والطاعة لا يخالفون له مرا ولا يعترضون على أعماله لإيمانهم إنه يعمل ما فيه مصلحتهم وترقيتهم وهم يشاهدونه يقدم نفسه فداء لهم . وهو لا يكلمهم إلا لضرورة شرعية ولا يلقي الأوامر إلا لتنفيذ شرع الله ــ والعمل على مرضاته . ولا ينهاهم عن شيء إلا عن شيء فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم أو فيه حرمة أو شبهة . يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه ومما أنعم الله تبارك وتعالى على موافقته أخواني المجاورين عندي على رد ما يأتينا إلى الزاوية من أموال الولاة وهداياهم فإذا قلت لهم لا تقبلوه يردون ذلك بطيب قلب وانشراح صدر . وكثيراً ما يأتي قاصد الولاة بمال لا تصرف فيه برأي ولا اعتقد خلوصه من الشبهة فأرده فلا يأخذه حاملة ويتركه بين يدي فابذره في صحن الزاوية أعراضاً عنه . بقصد أباحته لمن يأخذه غير جماعتي فيفهمون مني عدم ميلي لتناولهم له فلا يقوم له أحد ([٢٩]) إنه يمنعهم عن طعام فيه شبهة وهو شديد الاحتياط لذلك لأن أكل الحرام يقس القلب ويظلمه ويحجبه عن دخول حضرة الله تعالى . وهو يريد إنارة ــ قلوبهم حتى تتقشع عنهم حجب المادية .

---

[٢٨]- لطائف المنن للإمام الشعراني جـ٢ صـ١٦٨ .

[٢٩]- لطائف المنن جـ٢ صـ١٦٢ للإمام الشعراني .

يقول الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه" لو أن عبدا عبد الله تعالى حتى صار مثل السارية ثـم إنه لم يدر ما يدخل في جوفه إحلال أم حرام ما تقبل منه .

وكان من عادة شيخنا عدم قبوله . أموال الولاة والسـلاطين والمباشـرين ومشايخ الأعراب . لاحتمال وجود الشبهة في هذه الأموال .

هذه الأسرة الكبيرة من المريدين والمجاورين القاطنين الذين يعيشون فـي رحاب الزاوية . يجمعهم الحب والولاء لشيخهم ز نراهم يلتزمون بأوامره بأداء ما يطلبه منهم . ونلاحظ أن هذه الأسرة كانت تعيش في " ديمقراطية " محببة نابعـة من تعاليم الدين ومنبثقة من سنة الرسول ﷺ فهم جميعا سواسـية يجمعـهم علـى العدل أخلاق محمدية وصفات ربانية فأرزاقهم قسمة بينهم .. لا محاباة ولا مجاملة ولا تفضيل لا حد على الأخر فالكل في سبيل الله والجميع يعيش بحبوحته وفضلـه يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه " ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على مطاوعة أخوانـي المجاورين إذا أشرت عليهم بترك الأكل من شيء دخل في الزاوية من طعـام أو فاكهة ورضاهم بعدم تخصص أحدهم بشيء إذا كان كبيرا ورضـاه بـأن يـأخذ كأصغرهم وقد أمرت النقيب أن يفرق عليهم كل شيء دخل الزاوية من طعـام أو فاكهة . كما يفرق أهل المدينة المشرفة القمح على المجاورين فيها فربما أصـاب كل واحد تينة أو خوخة فقط (٣٠) .

ولعل سائلا يقول : لقد قدمت لنا الجانب المضيء للحياة الاجتماعيـة فـي الزاوية أعنى ألم تكن هناك جوانب أخرى تستحق العرض والحديـث عنـها .. ؟ وبعبارة أخرى هذا المجتمع الكبيرة

٣٠- لطائف المنن والأخلاق جـ٢ صـ١٦٢ .

الصلاة والسلام بين ظهرانيهم .. ؟ على الرغم من أن الرسولﷺ كان يقظاً لـهذه الأشياء وكان يقضي عليها أولاً بأول خشية أن تفسد عليه مجتمعه وإجابتنا عن هذا أما مجتمع الزاوية فيكاد يكون صورة مصغرة لمجتمع المدينة مـع الفـارق . إن هؤلاء المقيمين بالزاوية كانوا لا يحملون هم الرزق وأسباب العيش فإن الزاويـة كانت تكفل لهم ذلك .. والتكالب على الرزق يكاد يكون من العوامل الأساسية فـي كل ما يشجر بين الناس ويقوم بينهم من منازعات ومخاصمات وما يتولد عنه مـن حقد وحسد وضغينة .

وثانياً : إن الحياة في الزاوية كانت تسير بلا رياسات أعني لم يكن فيـها تسـلق وظيفي أو عامل طبقي يمكن أن يولد هذه الأشياء وفي الحالات النادرة التي كـانت تظهر مثل هذه الأشياء كان إمامنا المربي يحرص على معالجاتها أو طرد صاحبها ما دام لا يصلح للعلاج حتى لا يعدي بسخامته وسؤ طبعه بقية المقيمين في تلـك المدينة الفاضلة وبقى علينا أن نتناول الجانب المشرق الجانب المضيء لزاويتنا ألا وهو الجانب الروحي ــ ثم نختم هذا الفصل بكلمة عن أثر الزاوية فـي المجتمـع الخارجي .

الحياة الروحية في رحاب الزاوية

****

الحياة الروحية في زاوية الإمام الشعراني . هو الوجـــه الأكـــثر وضــاءة وإشراقاً وأعمق إيماناً وإخلاصاً . يقول المؤرخون لتلك الفترة إن زاويتـــه كـــانت أعظم المنارات العلمية والتعبدية في العالم الإسلامي خلال القرن العاشر الهجري. ويروى المناوي والشبلي وصاحب طبقات الشـــاذلية أن النـــاس كـــانوا يســـمعون لزاويته دوياً كدوى النحل ليلاً ونهاراً .

لقد كانت العبادات جمعيها تؤدي فيها وجل المعـــارف تـــدرس لمريديـــها واستطاع الإمام الشعراني أن يقسم بين المريدين والمجـــاورين فبعضـــهم للتـــهجد والذكر وإقامة الصلاة . والبعض الأخر يقرأ الأوراد ويقوم بتلاوة القرآن ويمضـــي العمل بينهم بالتناوب من قراءة كتب التصوف الدينية .

يقول صاحب كتاب المناقب الكبرى " قال له بعض " السواح " فـــي الأرض وسيدي أبو الفضل " طفنا مشارق الأرض ومغاربها فلم نجد أكثر خيراً ولا ذكـــراً ولا علماً ولا أدباً من أهل زاويتك . ولا المجاورين بها . وكان بها في حال حيـــاة الشيخ دروس العلم في الفقة والحديث والتفسير والنحو والقراءات وغيرهـــا مـــن آلات العلوم والشرعية ودروس علم التصوف والأدب . وكان بها مجالس الذكـــر ليلاً ونهاراً ولم تزل عامرة بالذكر والقرآن ([1]) .

لقد كانت هذه الزاوية عبارة عن جامعة مصغرة . تدرس فيها جميع العلـــم الشرعية وبها أقسام عدة . قسم لدراسة الفقه بجميع مذاهبه واســـتطاع إمامنـــا أن يؤلف لها كتابه " المنهج المبين " في بيان أدلة المجهتدين للفقه المقارن في عصـــره وكتب الميزان الذي ترجع جميع مذاهب المجتهدين وأقوال مقلديهم إلي الشـــريعة المطهرة . واقنع معاصريه بأن جميع أئمة الإسلام على حق وأن الجميع يغـــرف من بحر الشريعة . هذا جانب رحب من الزاوية يتبعه قسم آخر ومرحلـــة أعلـــى لدراسة " التصوف " الحقيقي والتبحر في علومها والانقطاع لعبادة الله . إلى أقســـام أخرى كثيرة وحلقات متعددة لدراسة الحديث والتفسير والتعبد بتلاوة القرآن والقيام

---

[1]- المناقب الكبرى صــ

في الليل . والتقرب إلى الله بالنوافل . وهذا العمل والدارسة المتشـــهبة فـــي كـــل فروع المعرفة متصلة لا تنقطع يقوم بها المجاورون بالزاوية ليل نهار .

ولنسمع إلى الإمام الشعراني رضي الله عنه . مصورا الحياة الروحيـــة فـــي هـــذه الزاوية . فهو أصدق الناس عن التعبير عنها ووصف ما يجري بيـــن جوانبـــها . يقول : " ومما أنعم الله تبارك وتعالى به سماعي فـــي زاويتـــي قـــراءة القـــرآن والحديث وذكر الله عز وجل ليلاً ونهاراً على التواصل . فـــلا يفـــرغ قـــارئ إلا ويبتدئ قارئ آخر ولا يفرغ القارئ من كتاب في الحديث إلا ويبتدئ فـــي كتـــاب أخر ولا يفرغ القارئ لكتب التصوف من كتاب إلا ويبتدئ في كتـــاب أخـــر ولا يفرغ القارئ من كتاب في الفقه إلا ويبتدئ في كتاب أخر وهذا لا يكاد يوجـد الآن في زاوية من زاوية مصر إلا قليلا " . ثم من تمام النعمة كون الفقراء القـــاطنين يحضرون قراءة الحزب والأوراد وصلاة الجماعة لا يكاد يتخلـــف منـــهم واحـــد ويسهرون معي ليلة الجمعة من صلاة العشاء إلى الفجر ([2]) .

لقد كان الفقراء يسهرون مع الإمام الشعراني رضي الله عنه إلى الفجر . يســـهرون للتهجد والعبادة يسهرون للذكر وقراءة الأوراد فما هي حقيقة الذكر وما صورتـــه التي كانت تقام في الزاوية .. ؟ إننا نلاحظ اهتمام الشعراني به .. ونراه يضع لـــه الصيغ والقواعد ويحدد له الآداب وتحفل الكثير من مؤلفاته بالذكر ويلزم المريديـن به ويشجعهم عليه . ويغضب عليهم إن أهملوا ذكر الله أو تهاونوا فـــي تأديتـــه .
ويهمنا ونحن نتكلم عن الجانب الروحي .
في الزاوية أن نضع كلمته عن الذكر ونستعرض حقيقته لدى الإمام .

حقيقـــة الذكـــر

****

الذكر كلمه تطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه أو بأفعالـه له . وذكر الله المندوب إليه في الكتاب والسنة هو توجه العبـــد لله تعـــالى بكليتـــه

[2]- لطائف المنن للإمام الشعراني صـــ١٥٨ جـــ٢ .

سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق (وأذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفه ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) ([3]) .
وسواء أكان ذلك قائماً أو جالساً أو نائماً قال تعالى : (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعودا وعلى جنوبكم) ([4]) .

ولكن ماذا يراد بالذكر .. ؟ أيراد به تنزيه الله تعالى.. ؟ ولله الكمال المطلق وما ثم شيء ينبغي أن ينزه عنه ومتى قصد الذاكر تنزيهه فقد ألحق به القبح بوهمه . تعالى الله عن ذلك . ثم إن الذكر يراد به طلب الحق .. ؟ والله موجود أبدا أو المفقود هو الذي يطلب .. وهو معكم أينما كنتم ([5]) وإنما يراد بذكر الله . أن يشهد الذاكر ليلاً ونهاراً إنه بين يديه تعالى (اذكروني أذكركم) ([6]) . والمراد بالذكر أن يدوم حتى ينكشف الحجب للعبد وأنه بين يدي ربه عز وجل وهو تعالى يراه فإن غاب عن ذلك المشهد خرج من حضرته .

فوائد الذكـــر

****

وفوائد الذكر لا تنحصر لأن الذاكر يصير جليس الله تعالى لا يرى فيه بينه وبين ربه وساطة . فلا يعلم أحد قدر ما يتحف الحق تعالى من العلوم والإسرار كلما ذكر لأنها حضرة الله تعالى وحضرته لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد .. قال ابن عطاء الله السكندريﷺ " لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود حضور . ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبه . عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز ([7]) .

---

[3]- سورة الأعراف آية ٢٠٥ .

[4]- سورة النساء آية ١٠٣ .

[5]- سورة الحديد آية ٤ .

[6]- سورة البقرة آية ١٥٢ .

[7]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني .

والإمام الشعراني رضي الله عنه يقول : " اجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب وجاذب الخيرات وأنيس المستوحش . ومنشور الولاية . فلا ينبغي تركه ولو مع الغفلة ولو لم يكن من شرف الذكر إلا أنه لا يتوقف لكان ذلك كفاية في شرفه قال تعالى : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ([٨]) قالوا وما ثم أسرع من فتح الذكر وهو جامع لشتات صاحبه وإذا غلب الذكر على الذاكر امتزج بروح الذاكر حب المذكور ([٩]) .

روى الشيخان وغيرهما مرفوعاً قول الرسول ﷺ (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق . وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا: (بلى قال . ذكر الله) ([١٠]) .

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول " أخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت أي الأعمال أحب إلى الله تعالى .. ؟ قال " أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله) ([١١]) .

وروى الإمام أحمد والطبراني " أن رجلاً قال يا رسول الله . أي الجهاد أعظم أجراً قال أكثرهم ذكراً لله . ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول أكثرهم لله ذكرا فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص . ذهب الذاكرون بكل خير فقال : رسول الله ﷺ : أجل .

وروى مسلم والترمذي مرفوعاً لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده ([١٢]) .

---

[٨]- سورة آل عمران آية ١٩١ .

[٩]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ ٤٣ .

[١٠]- رواه الترمذي وابن ماجة ورواه الحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء .
وقال السيوطي في جامعة الصغير حديث صحيح .

[١١]- رواه ابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ له والبزار ، إلا إنه قال : أخبرني بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله وأبن حيان في صحيحة .
ورواه ابن ماجة في سننه عن ابن عمر بقوله لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل جـ٢ صـ١٢٤٦ .

[١٢]- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما .

وروى البخاري مرفوعاً "أن للملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل ــ تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال فيحفون بأجنحتهم إلى سماء الدنيا [13] .

وروى الترمذي بإسناد حسن مرفوعاً " ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون ؟ بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا وقالوا وما رياض الجنة يا رسول الله .. ؟ قال حلق الذكر [14] .

فالذكر كما يقول الرسولﷺ الأعمال . وأزكاها عند الله والعامل لرفع الدرجات . وخير ما ينفقه العبد من العروض عامة ومن الذهب والفضة والذكر أيضاً من الجهاد في سبيل الله لهذا كله كان الذكر الدائرة التي يدور عليها الفقراء والوسيلة التي ينصحون بها مريدهم وطريقهم إلى حضرة الله تعالى : ألم يقل الله تعالى في كتابه العزيز (إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) [15] .

ذكر بعض المفسرين إنما كان الذكر أكبر لأن العبد يستطيع أن يؤديه في كل لحظة وفي كل مكان بخلاف الصلاة بأوقات معينة ومحدود بساعات معروفة .

وهؤلاء الذاكرون الله . تحفهم الملائكة وتتنزل عليهم الرحمات ويذكرهم الله تعالى لقوله تعالى (فاذكروني أذكركم) [16] .

وحلقات الذكر هي رياض الجنة إنها النفحة التي يرسلها الله لعباده فتخرجهم من شح النفس إلى الجود بها . ومن أمراض القلب إلى صفاء الباطن ومن ربقة المادة البغيضة إلى شفافية الآخرة المحببة .

---

[13]- أخرجه أحمد في مسنده والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود وهو حديث صحيح .

[14]- إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر رواه الإمام أحمد في سنده والإمام الترمذي ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس وهو صحيح وفي رواية : " إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال مجالس العلم " رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وهو ضعيف وفي رواية :
" إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة قال المساجد قيل وما الرتع قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . رواه الترمذي عن أبي هريرة .

[15]- سورة العنكبوت آية ٤٥ .

[16]- سورة البقرة آية ١٥٢ .

شروط الذكر وأدابه

****

وللذكر شروط وآداب على المريد إن يلتزمها وقواعد لابد من تنفيذها فأما شرط الذكر : فالواجب على المريد أو الذاكر أن يكون قد فرغ من تعلم العلم وعرف أمور دينه كلها . إذ الذاكر جليس الحق تعالى ولا ينبغي مجالسته إلا بعد التضلع في أحكام الشريعة . ويصير عنده علم بشروط جميع العبادات وأدابها . ومن هنا قالوا – تفقه في دينك وتعالى . وهناك يصلح لمجالسة الملوك فإن الشريعة حكمها كالدهليز لمجالسة الملك .

يقول الإمام الشعراني " قالوا يجب على العبد أن يقدم العلم المتعلق بأدب الملوك على مجالستهم ومن جالسهم بلا أدب فهو إلى العطب أقرب ([1]) .

وأما آداب الذكر فكثيرة لأن كل عبادة خلت من الآداب فهي قليلة الجدوى وأجمع الأشياخ إلا إن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ودخول الجنة ولا يصل إلى حضرة ربه إن صحبه الأدب في تلك العبادة . وللصوفية حيال الذكر آداب تبلغ الآلف عدا . ولكن الإمام الشعراني يحصر هذه الآداب في عشرين أدباً خمسة منها سابقة على الذكر واثنا عشر حال الذكر وثلاثة بعد الفراغ من الذكر .

وأول هذه الشروط التي يجب أن يؤديها الذاكر قبل دخوله إلى حضرة الذكر – التوبة الخالصة الصادقة . وأن يتوب من كل مالا يعينه من قول أو فعل أو إرادة . لقول ذي النون المصري رضي الله عنه من ادعى التوبة وهو يميل إلى شهوة من شهوات الدنيا فهو كاذب . الثاني : الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر وتعطر ثيابه ويطيب المكان الذي يجلس فيه . إن الله طيب لا يحب إلا طيباً والنظافة من الإيمان . والوضوء سلاح المؤمن حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل .

ومادام الأمر كذلك فيجب أن يجلس إلى حضرة ربه وهو طاهر الباطن بالتوبة وطاهر الظاهر بالغسل .. ومتودد إليه بالرائحة الزكية .

الثالث : السكون والسكوت ليحصل له الصدق في الذكر وذلك أن يشغل قلبه بالله . الله . الله . بالفكر دون اللفظ . حتى لا يبقي خاطر مع الله . الله ثم يوافق اللسان

[1]- العهود المحمدية صـ٢٦٤ .

القلب . يقول لا إله إلا الله يفعل ذلك كلما أراد الذكر . لقول الرسولﷺ أفضل ما قلت أنا والنبيون من قلبيَ لا إله إلا الله ([٢]) .

الرابع : أن يستمد عند شروعه في الذكر بهمة شيخه . بأن يكون شيخه بين عينيه ويستمد من همته ليكون رفيقه في السير .

الخامس : أن يرى استمداده من شيخة هو استمداده حقيقة من رسولﷺ لأنه واسطه بينه وبينه .

هذه هي الشروط التي اشترطها إمامنا قبل الدخول إلى الذكر طهارة ظاهرة وباطنه وصدق في الذكر وصرف كل ما عدا الله من خاطره . واستحضار شيخه واعتقاده أن الجميع يلتمسون من رسولﷺ .

أما الشروط التي اشترطها حال الذكر .فالأول الجلوس على مكان طاهر كجلوسه في الصلاة في التشهد .

الثاني : أن يضع راحتيه على فخذيه ـ واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده وإن كانوا جماعة تحلقوا .

الثالث : تطيب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة .

الرابع : إن يكون ملبسه حلالا .

الخامس : اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب .

السادس : تغميض العينين وذلك أن الذاكر إذا غمض عينيه تسد طرق الحواس الظاهرة شيئاً فشيئاً وسدها يكون سبباً لفتح حواس القلب .

السابع : أن يخيل شخص شيخه بين عينيه مادام ذاكرا وهذا عندهم من آكد الآداب لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله تعالى والمراقبة له .

الثامن : الصدق في الذكر بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه .

التاسع : الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب . وبالصدق والإخلاص يصل العبد إلى مقام الصديقية .

---

[٢]- رواه الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ورواه الطبراني في الكبير.

العاشر : أن يختار من صبغ الذكر لفظة " لا إله إلا الله " فإن لها أثرا عظيماً عند القوم لا يوجد في غيرها من سائر الأذكار . فإن فنيت شهواته وأهواؤه كلها فحينئذ يجب أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة فقط من غير نفس ومادام يشهد شيئاً من الأكوان فذكر الله تعالى بالنفي والإثبات واجب عليه في إصلاحهم .

الحادي عشر : إحضار معنى الذكر يقلبه على اختلاف درجات المشاهدة في الذاكرين بشرط أن يعرض على شيخة شيء يرقى إليه من الأذواق ليعلمه طريق الأدب فيه .

الثاني عشر : تفرغ القلوب عن كل موجود حال الذكر سوى الله يقول لا إله إلا الله . فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب الذاكر غيره إلا بإذنه ولولا أن للشيخ مدخلا عظيماً في تأديب المريد ما ساغ للمريد أن يخيل شخصه بين عينيه لا في قلبه وإنما شرطوا نفى كل موجود من الكون من القلب ليتمكن له تأثير قول لا إله إلا الله بالقلب ثم يسرى ذلك المعنى إلى سائر الجسد وانشداو .

اتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا ([3])

وأما ثلاثة الآداب التي بعد الذكر : فأولها أن يسكن بعد سكون وتخشع ويحضر مع قلبه لوارد الذكر فلعله يرد عليه وأرد فيغمر وجوده في تلك اللحظة . أكثر مما تغمره المجاهدة والرياضة مدة ثلاثين سنة . فربما ورد عليه وارد الزهد فيصبر زاهدا أو وارد تحمل الأذى من الخلق فيصر صابرا . أو وارد من الله فيصير خائفا وهكذا . قال الإمام الغزالي ﷺ ولهذه السكتة آداب أحدهما : استحضار العبد أن الله تعالى مطلع عليه . وأنه بين يدي الله تعالى . ثانيها : جمع الحواس بحيث لا يتحرك منه شعره كحال الهرة عند اصطياد الفأرة . ثالثها : نفى الخواطر كلها وإجراء معنى الله الله على القلب . قال : وهذه الآداب لا يثمر للذاكر المراقبة إلا بها . الثاني : أن يذم نفسه مرارا بقدر أنفاس إلى سبعة أنفاس واكثر . حتى بدور الوارد في جميع عوالمه فتنور بصيرته وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان . وتكشف عنه الحجب وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم .

---

[3]- انظر قواعد الصوفية للإمام الشعراني في آداب الذكر .

الثالث : منع شربه الماء البارد عقب الذكر فإن الذكر يورث حرقه وهيجانا وشوقاً إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر ، وشرب المـاء يطفـىء تلـك الحرارة . فليحرص الذاكر على هذه الآداب الثلاثة . فإن نتيجة الذكر إنما تظـهر بها والله أعلم ([4]) .

وإذا كان ذلك كذلك . فزاوية الإمام الشعراني لا تكتفي بتعليم مريديها ذكـر الله ولا تقنع بأن يكون للمجاورين بذكر الله دوى كدوى النحل . ولكن لا بـد مـن إرسالها تلك النفحات الربانية إلى من حولها . فتوقظ النائم وتنبه الغافل . وتخـرج الناس الذين حولها من الفكرة المادية الأرضية ليشاركوا في اسـتجلاب النفحـات الربانية والتجليات الإلهية .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه : ومما أنعم الله تبارك وتعـالى بـه علـى فـي الزاوية إرساله تعالى شخصاً اسمه الشيخ " منصور " من أولياء الله تعالى . فيطلع إلى منارة المسجد من أول ما ينصب الإلهي في السماء والأرض فيصير يذكـر الله تعالى بصوت جمهوري مأنوس . فيوقظ جميع من في الزاويـة مـن المفلحيـن وغيرهم . ويمتد ذلك إلى نحو ستين دارا من كل جانب فيستيقظون فيذكـرون الله تعالى ويستغفرونه . لا يكاد يغفل عن ذلك أو ينام ليلة واحدة . ثم يعقبه " محمـد الترساوي " وغيره فيقرءون القرآن في الزاوية بصوت حسن فتتزل الرحمة علـى الزاوية وعلى جيرانها إلى طلوع الفجر . ثم يفتحون القرآن جماعة إلـى صـلاة الصبح ثم يفتحون الحزب فيصلون على رسول الله ﷺ ويذكرون الله تعالى إلـى ضحوة النهار . ثم يشرع اكابرهم في قراءة دروس العلم عقب صـلاة الضحـي وصلاة الظهر وصلاة العصر ثم المطالعات ويشرع من دونهم من المجاورين فـي قراءة القرآن وحفظ المتون من أول النهار إلى آخره . ثم يجتمعون كلـهم علـى الاستغال بالتصوف وآداب الطريق . إلى آذان المغرب ثم يتحزبون على قـراءة ـ القرآن جماعة وفرادي إلى آذان العشاء ثم يجتمعون معاً على مجلس ذكر عظيـم. ثم يتفرقون لورد النوم أو المطالعة إلى وقت شروعهم في مثـل حالـهم أمـس . وهكذا وهكذا من أكبر نعم الله تعالى علينا والحمد لله رب العالمين .

[4]- قواعد الصوفية للإمام الشعراني صـ ٣٩ ، ٤٠ .

يحدثنا الإمام الشعراني في هذا النص بأن المريدين يجتمعون معـــه علـــى مجلس ذكر عظيم ويذكرون الله جماعة لا فرادي ومن هنا يتضح لنا رأيه وهو أنه يحبذ الذكر جماعة وبصوت مرتفع ويرد على هؤلاء الذين ينـــادون بـــأن الذكـــر جماعة بدعة . ويستعين في رده . برأي الإمام الشعراني ﷺ . في تشبيه الذكـــر بالآذان . آذان المنفرد وآذان الجماعة . قال : فكما أن أصوات المؤذنين جماعـــة تقطع جرم الهواء أكثر من صوت مؤذن واحد كذلك ذكر الجماعة على قلب واحـد أكثر تأثيراً في رفع الحجاب من شخص واحد ، ووجه كون الذكر جماعـــة أكـــثر تأثيراً في رفع الحجاب (من شخص واحد) كون الحـــق تعـــالى شـــبه القلـــوب بالحجارة ومعلوم أن الحجر الكبير لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلـــب واحد . لأن قوة الجماعة اشد من قوة الشخص الواحد . ومن هنا اشـــترطوا فـــي الذكر أن يكون بقوة تامة . واستدلوا بقوله تعالى : ثم قست قلوبهم من بعـــد ذلـــك فهي كالحجارة أو أشده قسوة [٥] فكما أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة . كذلك الذكـــر لا يؤثر في جمع شتات قلب صاحبه إلا بقوة [٦] .

من التجهد بالصلاة إلى العكوف على قراءة القرآن . إلى ذكر الله جماعـــة طول الليل . إلى دراسة الشريعة والتفقه في دين الله . إلى . قراءة كتب التصـــوف ومزاولته عملياً إلى مدارسة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه صورة مصغرة عن الحياة الروحية في رحاب الزاوية ولا نســتطيع أن نحيط بكل ما فيها من عبادات ومدارسات ولكننا نعلم أن الإمام الشعراني قد وضـــع كثيراً من الأوراد ـــ والأحزاب . كانت تقرأ ليل نهار .

فما هي صورة هذه الأحزاب والأوراد . وهل هي تختلف فـــي مضمونـــها وكلماتها عن أحزاب غيره من رجال التصوف .. ؟ هذا ما نشير إليه .

[٥]- سورة البقرة آية ٧٤ .

[٦]- قواعد الصوفية صـــ ٤٧ وكتاب العهد المحمدية صـــ٢٦٢ .

الأحزاب والأوراد عند الإمام الشعراني

****

الإمام الشعراني من رجال التصوف الذين كانوا يداومون على تلاوة كتاب الله وأحاديث رسوله الكريمﷺ وكان دائماً ينصح مريده بالعكوف على الكتاب والسنة . لأنها خير الأوراد وأفضل العبادات لمن يريد أن يتفقه في ـ دينه ويتقرب إلى ربه ويسلك طريق الصفوة الأخيار .

ومع ذلك فقد ترك لنا الكثير من الأحزاب والأوراد استقاها من كتاب ربه واقتبسها من أحاديث رسوله . وقدمها لمن يضيق وقتهم وتتقاصر أعمالهم فلا يتسع للتلاوة لكل ما في الكتاب والسنة . ونحاول أن نقدم بعض النماذج للأوراد والأحزاب ومنها وردا صغيراً كان يقال في الزاوية يومياً قبل صلاة الصبح وهو " يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت " أربعين مرة . لما روى أن . أبا محمد الكتاني "رضي الله عنه . أحد مشايخ الطريق رأى النبيﷺ في المنام . فقال : يا رسول الله أدع الله لي ألا يميت قلبي فقال : يا أبا محمد قل كل يوم أربعين مرة ." يا حي يا قيوم . لا إله إلا أنت " يحيى قلبك . وإذا حيى القلب فلم يمت صحت الأعضاء جمعياً فكانت أعمال العبد وفق ما يرضي الله ورسوله عليه السلام " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب (٧) ومن الأحزاب والأوراد أيضاً .

حــزب

*****

بسم الله الرحمن . في غامض علم الله الرحيم . السلام على الملكين الكريمين الكاتبين الحافظين ورحمة الله وبركاته . اكتبا " بسم الله الرحمن الرحيم . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وأشهد أن الجنة حق وأن النار حق وأن الصراط حق . وأن الساعة أتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ".

---

[٧]- رواه الإمام البخاري في صحيحه والإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير وهو حديث صحيح .

اللهم إني وهذا اليوم خلقان من خلقك فلا تبتليني فيه إلا بالتي هي أحسن . ولا تزين لي فيه جرءة على محارمك . ولا ارتكاباً لمعصيتك ولا استخفافاً بحق ما افترضت عليّ .

اللهم إني أعوذ بك من الزيغ والزلل ومن البلاء والبلوى ومن الظُّلْم والظّلَم ومن دعوة المظلوم ومن شر شماتة الأعداء ومن شر كتاب قد سبق .

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همي . ولا مبلغ علمي ولا مصيبتي في ديني ولا تسلط عليّ بذنوبي من لا يخافك ولا يرحمني يا أرحم الراحمين . اللهم إنك سلطت علينا بذنوبنا عدواً بصيراً بعيوبنا مطلعاً على عوراتنا يرانا هو وقبيلة من حيث لا نراه .

اللهم فأيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك . وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين مغفرتك إنك على كل شيء قدير .

اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا . ولا أستطيع أن أجد إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني .

اللهم وفقنا إلى ما تحب وترضى من القول والعمل في عافية بلا محنة يا أرحم الراحمين . اللهم ما قضيت به من قضاء لو قدرت به قدر . فأجعل عاقبته خيراً وسلم فيه العقل والدين .

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا أبدا ما أحييتنا وحببنا فيما تحب وكرهنا فيما تكره إنك على كل شيء قدير .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو علـى كل شيء قدير . " عشر مرات " .

اللهم إني أصبحت أشهدك واشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنـك أنت الله الذي لا إله وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك ."أربع مرات"

اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك إنـك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك . وأن محمداً عبدك ورسـولك . " أربع مرات " .

اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً . أعلمه واستغفرك لمـا لا أعلمـه . " ثلاثا ".

اللهم إنا نعوذ بك من المكر والاستدراج من حيث لا نشعر " ثلاثا ".

اللهم اجعل خير زماننا آخره . وخير أعمالنا خواتيمه . وخير أيامنـا يـوم لقائك ثلاثا .

استغفر الله العظيم " ثلاثا" اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعـاليت ياذا الجلال والإكرام .

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم مالك يوم الديـن إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غـير المغضوب عليهم ولا الضالين).

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . الله لا إله إلا هـو الحـي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما الأرض ، من ذا الذي يشـفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشيء من علمـه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم .

لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما فـــي أنفســكم أو تخفــوه يحاسبكم به الله . فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير . آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورســـله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل عليه إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنـــا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنـــــا على القوم الكافرين .

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هـــو العزيز الحكيم .

إن الدين عند الله الإسلام ، قل اللهم مالك المالك تؤتي الملـــك مـــن تشـــاء وتنزع الملك ممن تشاء ،وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كـــل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي مـــن الميـــت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بـــالمؤمنين رؤوف رحيم . ويكرر .. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهـو رب العرش العظيم .. سبع مرات .

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، ولـــه الحمـــد فـــي الســـماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحـــي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

هو الله الذي لا إله إلا هو . عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هـو الله لا إله هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سـبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى . يسبح لـه ما في السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم .

بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . " ثلاث مرات "

بسم الله الرحمن الرحيم . قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ومن شـر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسـد . " ثـلاث مرات "

بسم الله الرحمن الرحيم . قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس مـن شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنـة والنـاس . " ثلاث مرات "

سبحان الله . " ثلاث وثلاثين " والحمد لله " ثلاثا وثلاثين " والله أكبر " ثلاثـا وثلاثين "

اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطي لما منعت . ولا راد لما قضيـت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

اللهم إنا نستغفرك من الذنوب التي تزال بها النعم ، ونستغفرك من الذنـوب التي تحل بها النقم . ونستغفرك من الذنوب التي بها تشمت الأعداء . ونسـتغفرك من الذنوب التي بها تحبس غيث السماء . " ثلاثا" .

اللهم : أجرنا من النار " ست مرات " .

يا ربنا أجرنا من النار ومن عذاب النار ومن كل عمل يقربنا إلى النـــار . وادخلنا الجنة وأصلح لنا شأننا كله برحمتك يا عزيز يا غفار .

جزى الله سيدنا ونبينا محمداً ﷺ عنا خيراً كما هو أهله جزى الله ســـيدنا ونبينا محمداً ﷺ عنا خيراً كما هو أهله .

إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وســلموا تسليماً . اللهم . صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى أل محمد كما صليــت علـى إبراهيم وعلى آل إبراهيم . وبارك على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما بـــاركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . عدد خلقــك ورضـا نفسك وزنة عرشك . ومداد كلماتك كلما ذكرك الذاكــرون وغفــل عــن ذكــرك الغافلون .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد . وعلى سائر الأنبياء والمرســلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين . كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون .

اللهم صل أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك الذاكـــرون وغفــل عــن ذكــرك الغافلون.

اللهم صلى على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آلـــه وصحبه وسلم . عدد ما في السماوات وما في الأرض وما بينها . وأجر لطفك في أمورنا والمسلمين أجمعين . يا رب العالمين

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد ما كان وعدد مـــا يكون وعدد ما هو كائن في علم الله .

اللهم صل وسلم وبارك على روح سيدنا محمد في الأرواح وصل وسلم وبارك على جسده في الأجساد . وصل وسلم وبارك على قبره في القبور . وصل وسلم وبارك على أسمه في الأسماء .

اللهم صل وبارك على سيدنا محمد صاحب العلامة والغمامة .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي هو أبهي من الشمس والقمر وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد حسنات أبي بكر وعمر ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد نبات الأرض وأوراق الشجر .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى المليح وصاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عبدك الذي جمعت به شتات النفوس ونبيك الذي جليت به ظلام القلوب وحبيبك الذي اخترته على كل حبيب .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي جاء بالحق المبين وأرسلته رحمة للعالمين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد كما ينبغي لشرف نبوته ولعظيم قدرة العظيم وصل وسلم على سيدنا محمد في الآخرين . وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد حتى ترث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب وعلى أبيه إبراهيم الخليل وعلى أخيه موسى الكليم وعلى روح الله عيسى الأمين وعلى عبدك ونبيك سليمان وعلى أبيه داود وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى أهل طاعتك أجمعين . من اهل السماوات والأرضين كلما ذكرك الذاكرون . وغفل عن ذكرهم الغافلون .

اللهم صلى وسلم وبارك على عين العناية وزين القيامـــة وكـــنز الهدايـــة وطراز الحلة وعروس المملكة ولسان الحجة ســـيدنا محمـــد وعلـــى آدم ونـــوح وإبراهيم الخليل . وعلى أخيه موسى الكليم وعلى روح الله عيسى الأمين . وعلـــى داود وسليمان وزكريا ويحيى وعلى جميع الأنبيـــاء والمرســـلين . وعلـــى آلـــهم وصحبهم أجمعين . كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرهم الغافلون .

وتقرأ صلاة " الإمام الغزالي " المسامة بالكنز فإذا فرغ منها يقول : لا إله إلا الله . تكررها ما تشاء . الله . الله تكررها ما تشاء ثم تقرأ الفاتحة . وتتوجـــه بقلبك إلى الله وتتوسل إليه وتدعو بما تشاء . يستجاب لك ورأيت زيادة يقول :

استغفر الله العظيم لتقصيري في حقك . استغفر الله العظيم لي في خلقـــك ، استغفر الله العظيم لما يبقى وجهي ووجهك الكريم .

(ورد)

*****

يقدم الإمام الشعراني وردا يقول إنه يشتمل على ما يسبح به الملأ الأعلى أبداً وصورة تر

يقول : إني أبدأ بقولي : سبحان من سبقت رحمته غضبه لما ورد في الطبراني وغيره قول الحق تعالى : سبقت رحمتي غضبي " فأقول أنا : سبحان من سبقت رحمته غضبه . ألف . ثم أقول : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم استغفر الله . " ألف مرة " .

ثم أقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله . والله أكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ألف مرة " لما ورد أن هاتين الصيغتين يحبهما الله عز وجل

ثم أقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . " ألف مرة ".

ثم أقول : اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك . " ألف مرة "

لما ورد أنها عضلت على الملكين فلم يعرفا قدر ثوابها . فقال الله تعالى : اكتباها كما قال عبدي وعليّ جزاؤه بها .

ثم أقول جزى الله سيدنا ونبينا محمداً ﷺ خيراً بما هو أهله " ألف مرة " .

لما ورد أن من قالها مرة واحدة . أتعب سبعين كاتباً ألف صباح ثم أقول : سبحان الله وبحمده عدد خلقه . وسبحان الله وبحمده رضا نفسه . وسبحان الله وبحمده ، زنة عرشة . سبحان الله وبحمده مداد كلماته .

لما ورد أن كل مرة منها تعدل تسبيح العبد طول النهار .

ثم أقول : " ألف مرة " سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح لما ورد أنها ورد أنها تسبيح ملائكة الستور .

ثم أقول : " ألف مرة " سبحان العلي الديان " سبحان الشـــديد الأركـــان . سبحان من يذهب الليل ويؤتي بالنهار سبحان من لا يشغله شأن من شأن . سـبحان الحنان المنان سبحان الله في كل مكان .

لما ورد أنها تسبيح ملك نصفه من نار ونصفه من ثلج ثم أقـول : " ألـف مرة " الحمد لله الحمد لله بجميع محامده . كلها ما علمت منها وما لم أعلـم علـى جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لـم أعلم .

لما ورد في الأثر أن شخصاً قالها يوم عرفة مره . فلما حج العام التـالي شرع يقولها فناداه الهاتف يا فلان من العام الماضي إلى الآن نكتب لك في ثـواب هذه التحميدة فما فرغنا .

ثم أقول : اللهم صلى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آلـه وصحبـه وسلم " ألف مرة "

لما ورد أنها صلاة ملائكة خلف البحر المحيط لا يفترون عنـها ليـلا ولا نهاراً . " وذكره الثعلب في كتاب العرائس " .

ثم أقول : سبحانك اللهم وبحمدك . على عفوك بعد قدرتك سبحانك اللـهم وبحمدك على علمك .

لما ورد أن الشق الأول تسبيح نصف حملة العرش والشق الثـاني تسـبيح النصف الأخر يرد ملكان على ملكين . أقولها " ألف مرة ".

ثم أقول : " ألف مرة " لا إله إلا أنت يا حي يا قيوم لأنها مجربة لحياة القلب .

وقد جعلت في وردي أني أسأل الله تعالى . " ألف مرة " أن يجيـب نبيـه (فيَّ) صلى الله عليه وسلم ليأخذ بيدي في شدائد الدنيا والآخرة فإنـه صلـى الله عليه وسلم هو الواسطة العظمى لجميع الخلق دنيا وأخرى فمن أحبه واعتني بـه لم يلحقه سوء ان شاء الله تعالى في الدنيا والأخرى . روى الطبراني . من قـال جزى الله عنا محمداً ما هو أهله أتعب سبعين كاتباً ألف صباح .

قلت وهي من أورادي . فأقولها ألف صبحاً وألف مرة مسـاءً كـل يـوم والحمد لله .

ورد آخـــــــر

****

يقول الإمام الشعراني : ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ إلـــهامي جوامع الكلم من التسبيح والاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ . لا شتغل بذلك إذا عزب عن علمي ما ورد عن الشارع صلى الله عليه وسلم في ذلك لا سيما كلما ضاق عمري أو ضاق زمن قراءة وردي في الليل أو النهار . فمـــا ألهمتـــه لمـــا دخلت سنة تسع وخمسين وتسعمائة أني أقول أول ورد الليل .

بسم الله الرحمن الرحيم . على إيماني وإسلامي وإحساني " ألف مرة "

فقلت لملك الإلهام ([8]) في نفسي لما قدمت لي الإيمان على الإسلام ومرتبـــه الإسلام عند العلماء تكون قبل الإيمان .. ؟ فقال لي أعمال الإســـلام قـــد مضـــى حكمها وأنت فيها طول عمرك وما بقى إلا الأعمال القلبية إذا الحكم لها عند طلوع الروح .

فقلت له : فهل أنا من أهل الإحسان .. ؟ فقال : نعم وكل مسلم له من مقـــام الإحسان نصيب كما في سائر مقامات الأولياء . فلا يمكن تجرد مسلم من مقام من المقامات بالكلية وإنما الناس لما قرنوا نظام الأدنى بمن فوقه قالوا " فـــلان ليـــس عنده خوف من الله أو ليس هو بزاهد في الدنيا . أو ليس هو بخاشع لله ونحو ذلـــك والحال أن له نصيباً من كل مقام لكن بحسب ما أعطاها تعالى : فقلت لـــه : هـــل يخرج شيء من الدين عن هذه المقامات الثلاث . التي رقبناها باسم الله الرحمـــن الرحيم .. ؟

فقال : لا جميع ما يقرب إلى الله جل وعلا يرجع إلى الإســـلام والإيمـــان والإحسان فما ثم إلا هي وتوابعها فمن لقى الله تعالى بواحدة من هذه الثلاثة نجـــا من شدة العذاب بفضل الله تعالى . وأما مقام الإيقان فليس ذلك مقام عمل .

يقول الإمام الشعراني : ومما الهمته في السنة المذكورة أن أقول ألف مـــرة اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمـــد وعلـــى ســـائر الأنبيـــاء

---

[8]- ملك الالهام ملك مغيب بعلمه العبد ولا يرى له شخصا بخلاف ملك الوحي ، فإن النبي يراه ويسمع صوته .

والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين . وإن تشغلني بك في الدارين على وجــه الكشف والشهود دون الحجاب .

ومما وقع لي في السنة المذكورة إنه عزب عن علمي جميع ما ورد من أذكــار الركوع فلم استحضر من ذلك سوى قوله صلى الله عليه وسلم . " أمـــا الركــوع فعظموا فيه الرب وما عرفت باي صيغة أعظمه فقيل لي قل :

" سبحان من كان جميع ما عرفه الخلق كلهم من عظمته كذرة من البحـــر المحيط بالنسبة لما جهلوه . أو كذرة في فضاء ليس له سماء ولا أرض "

ومما ألهمته حين عزب عن علمي ما ورد من صيغ الاستغفار " اللـــهم إن ذنوبي قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين ولكنها من حيث عفوك كلا شيء "

ومما وقع لي حين عزب عن علمي صيغة الاستغفار لأخواني المسلمين .

" اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . وأن تغفر لنا ما مضى وأن تحفظنا فيما بقى .

اللهم إن الأولين والآخرين حطوا رحالهم علـــى ســاحل بحــر جــودك وكرمك ينتظرون فضلك . وإحسانك فاجزل لنا ولهم المغفرة فإن عظــم المغفــرة تابع لعظمة الذنب . اللهم إن الأولين والآخرين من المسلمين قد غرقوا في بحـــر جودك وكرمك من حين أخرجتم من العدم فلا تخرجهم منه أبد الآبديـــن ودهــر الداهرين ومما وقع لي وأنا طائف بالكعبة حين عزب عن علمي مـــا ورد من أذكــار الطواف فقيل لي قل :

اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبيــاء والمرسلين . وأن تجعل جميع حركاتي وسكناتي في حق نفسي وفي حق غـــيري سعيدة وكذلك فا فعل بجميع إخواني .

خاتمــــــة

****

كان حديثنا فيما سبق عن الزاوية والعوامل التــــي ســاعدت علـــى إنشائها. وفصلنا الحديث عن الحياة المادية والاجتماعية والروحية فـــي داخلــها . ويطيب لنا الآن أن نصور الدور الذي قامت به في الخارج ومؤثراتها فيه سواء أكان هذا التأثير في المجتمع المصري بخاصة أو المجتمع الإسلامي العربي بعامة . قلنا عند حديثنا عن نشأة الزوايا والربط والخوانق . إن التصوف فـــي العصـــر العثماني تحول من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظـــاهرة اجتماعيـــة وانتشـــر فـــي المجتمع المصري حتى دخل كل بيت وادعاه كل انسان . وكثر فيـــه الجـــهلاء . وكان لهؤلاء الدراويش مواكب ومحافل . وخضع لهم الناس . واعتقدهـــم الـــولاة وآمن بولايتهم الحكام . ولكنهم لم يحمدوا هذه النعم ويشكروا الإله الذي حبـــاهم كل ذلك وعطّف عليهم القلوب بل قابلوا هذه النعم بالجحود والكفران . فتحللوا من تكاليف الشريعة واقتنعوا بالجهل .

شاهد الإمام الشعراني هذا الاسفاف الذي هبط إليـــه أدعيـــاء التصـــوف . والفوضى التي تخف بمواكبهم . فخرج من زاويته . خرج إلى هؤلاء الأدعيـــاء . ينصحهم بالكلمة الطيبة ويرشدهم باللين والحسنى . وشرح لهم أنهم بعيدون عـــن طريق التعبد والزهد بل لم يشموا من روح الإسلام رائحة . وعليـــهم إن كـــانوا جادين في سلوك هذا الطريق ان يتركوا المشيخة ويعودوا مريدين ليأخذوا الطريق من أربابه أو له . الفقه في علوم الشريعة . والتبحر في دراسة السنة . ولا يكـون ذلك إلا بتلقيهم العلم على يد الأقطاب الذين عبروا الطريق قبلهم واجتـــازوا تلــك المفازات البعيدة .

ولكن هؤلاء الأدعياء لم يسمعوا له وأصـــروا علـــى موقفـــهم ووضعـــوا أصابعهم في آذانهم وسخروا منه ومن دعوته وضحكوا عليه وقـــال كبـــيرهم إن الشعراني يريد أن يجعلنا فقهاء كما هو فقيه .. ؟ كأنه يدعوهم إلى أمر فيه ســـبة ومنقصة .. ؟ وهكذا نجد هؤلاء الأدعياء آثروا الجهل على العلم . والفوضى على النظام والشعوذة على التصوف .

ولكن صاحب الزاوية لم ييأس ولم يقنط من هدايتهم . فسلك لذلــك طرقــاً كثيراً وأساليب متعددة عمل على كشفهم أمام العامة . فعكف على التأليف وتحبير المقالات لكشف هؤلاء الأدعياء أو يرجعوا عن ضلالهم . عكف علـــى التـــأليف ليحرر الفقة من جمود أصحابه . ومن عقلياتهم التي لا هم لها إلا دراسة الحواشي واجترار أقوال القدماء . وحرر المقاولات لينقى التصوف من الدجــل والشــعوذة وهكذا أصبحت الزاوية كالبحر الكبير تخرج منه الجداول الصافية العذبـــة فتعــد العطاشي وتروى الحيارى . وتعيد النمو والحياة إلى هؤلاء القاسبقين في التوابيت.

ومن أجل هذه الغاية النبيلة رصد قلمة لها واوقف حياته من أجل تحريـــر الفقة وتنقية التصوف من الجهل والشعوذة . من الإدعاءوالخرافات حتى يعود نقيــا صافياً كما أراده ربه وكما سنة نبيه .

وبعد ... خمسون عاماً عاشتها الزاوية في حياته صاحبها قدمـــت خلالـــها للمجتمع المصري . ما يقرب من ثلاثمائة كتاب . تناولت شتى فروع المعرفـــة . من طب وتفسير وفقه وحديث وتصوف وغير ذلك وقد استغرق بعضها خمـــس مجلدات ووقع الكثير منها في مجلدين كبيرين .

خرجت الزاوية هذه الكتب والمؤلفات . لتسهم أسهاما فعالا جادا في تجديد الحياة في ذلك العصر . العصر الذي ران عليه الجمود والإنحطاط والعزلة عـــن العالم .

ومن جانب أخر لتقدم للمجتمع التشريع الإسلامي صافياً نقياً كما نزل مـــن وكما بلغه جبريل عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمدﷺ . بعيداً عـــن تعقيد المعقدين ودجل المشعوذين . وتفاهة الأغباء والحمقي والظالمين هـــذا مـــن جانب . ومن جانب آخر . فإن هذه الزاوية لم تنعزل عن المجتمع المصري .

في ويم من الأيام . بل شارك الشعب المصري والشعوب العربية . شاركهم في أحزانهم والأمم شاركهم في أفراحهم وآمالهم .

وكان الشعراني من هذا الجانب من جوانب الإنسانية على قمة الأخلاقيـــن لقد كان يرى الإنسان الكامل الإنسان المؤمن بتعالم ربه . لا يكون إنساناً حقـــاً إلا

إذا شارك الناس كافة في أحزانهم وألا مهم . لأن الإنسانية وحده متماسكة خيرهـا مشترك وعذابها مشترك ولقد كان دائماً يردد .

ومما أنعم الله به على : عدم خروجي من بيتي إلا إذا علمت مـن نفسـي القدرة بإذن الله على هذه الثلاث خصال تحمل الأذى عن الناس . وتحمـل الأذى منهم . وجلب الراحة لهم . رحمه الله رحمة واسعة .

ولكن طبيعة الحياة أبت ألا أن تفرض قوانينها على الزاوية كما تفرضـها على شكل شيء . أنه ناموس الكون . ودستور الحياة . لكل بداية نهاية . ولكـل نهار ليل . وكل حي إلى فناء وكل شروق إلى مغيب .

ودبت الشيخوخة غي أوصال الزاوية ولحقها الفناء كمكان يجتمع فيه الناس بأوى المجاورين والمريدون إليه .

ولكن بقيت ثمراتها من كتب ومؤلفات صاحبها حية لا تمـوت . خـالدة لا تفنى . مشرقة مضيئة تهدى الحيارى وترشد الضالين . وتدل الراغبين إلى اسـلم الطرق وخير السوء إلى طريق الله تعالى .

الباب الرابع

الفصل الأول

الإمام الشعراني والعمل على تقنية التصوف

****

من القرآن الكريم ، ومن حديث الرسولﷺ ، استمد المتصوفة الصادقون مذاهبهم في الحياة ، وعلى ضوء لآياته الكريمة قامت فلسفتهم وبها تلونت أعمالهم وانطبعت حركاتهم .

والتصوف في عهد الرسولﷺ كان هو الإسلام وانتصر صحابة الرسـول على العالم بأخلاقهم المعرضة عن الدنيا المتجه إلى السماء ورب السماء فلما كـان العصر العثماني انحرف بعض رجال التصوف عن الطريق السـليم ، وابتعـدوا بالتصوف عن منابعه الأولى الكتاب والسنة ، حتى تحول إلى مجموعة من الألغاز والأباطيل وذلك لابتعاده عن تعاليم الدين .

والإمام الشعراني قام بدور كبير في تنقيه التصوف والعمل علـى عودتـه تصوفاً إسلامياً نقياً .

والمتتبع لكتاباته والقارئ لمؤلفاته ــ وما أكثرها ــ يشعر للوهلة الأولى أن هذا الرجل جاء على فترة من الدهر ، ليذب عن الصوفية ويدافـع عـن الفقـراء ويخلص التصوف مما علق به من الشعوذة والجهل ، ومما دس فيه مما ليس فيـه وينقيه من سبحات الفلاسفة وشطحات المغرقين ، حتى يعود إسلامياً لا يخرج عن أوامر الشريعة قيد أنملة ، ولا يبتعد عن توجيهات الرسول والصحابة من بعـده . ومن هنا نلمس في مؤلفاته دائماً إنه على أهبه الاستعداد لنقـض الزيـف وهـدم الباطل ليقيم مكان المتداعي المهتدم تصوفاً نقياً وروحانية إسلامية تتجلـى فيـها صفاء العقيدة السامية وتتجلى على أصحابها العبودية الكاملة بأنوارها وإلهاماتها .

جاء الشعراني فشاهد انحراف التصوف عنالطريق السليم حتى تحول مـن صفاء وطهر وتبتل وزهد وعبادة ، إلى مكاشفات ومشاهدات وادعاء كرامـات ، واعتبار ذلك أصل التصوف ومن جراء ذلك أدعى التصوف كل مفلس ، وتصـدي لطريقه كل أفاق ، وجلس للمشيخة كل جاهل ونتيجة لذلك قامت دولـة الخرافـة

والأسطورة ، وساد العصر الذي يسمى بحق عصر الدراويش أو دولة الأولياء الكاذبين ([1]) .

وكان لابد من علاج حاسم وذلك بعودة الشاردين إلى حظيرة الدين وتنقية التصوف مما علق به . وتجريده كلية من الخزعبلات والأباطيل حتى يعود نقياً كما أراده ربه وقوة روحية محلقة في الأفق الأعلى ومحمديا قرآنياً لا يقبل الزيف ولا تختلط به الأوهام . وليس هذا بالأمر الهين ولا بالعمل اليسير ، ونزل الإمام الشعراني ميدان المعركة وعدته في ذلك عقل زكي متفتح ، وقلب فتى مؤمن شريعة طاهرة تشربتها روحه ودعاها عقله ، كما أنزلها ربها وكما بلغها صاحبها شريعة تملأ جوانب نفسه وتضبط كل حركاته وتسيطر على جميع جوارحه ، نزل الإمام الشعراني المعركة ووقف في ميدانها وأعلن لهؤلاء الأدعياء أن التصوف علم وفقه وشريعة وإيمان ، ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا بالتقوى (اتقوا الله ويعلمكم الله) ([2]) .

من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين كما يقول الرسول . وإن التصوف زهد وورع وعزوف عن الدنيا ولذاتها وبعد شهواتها لا تكالبا عليها ولا إغراقا فيها .

نزل الإمام الشعراني المعركة ليعلن لهؤلاء الأدعياء . أن التصوف هجرة . هجرة إلى الله (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ([3]) .

هجرة إلى الله بالأعمال وهجرة إليه بالحركات . والسكنات وبكل خلجة من خلجات القلب وبكل همسة من همسات الفواد .

فما بال هؤلاء الجهلاء يتصدرون للمشيخة ويدعون المكاشفة ويخدعون الأبرياء والسذج .. ؟ رغبة في سلب الأموال وفي جمع الدنيا ، حتى تحقق لهم ما أرادوا فتكدست لديهم الأموال وعاشوا عيشة الملوك والأمراء وركبوا الخيل المسومة ، وأعطتهم الدنيا كل ما أرادوا بقدر ما سلبت من اتباعهم والمخدوعين فيهم ــ اللقمة التي تمسك الرمق والثوب الذي يستر الجسد ، إن هؤلاء الأدعياء لم

[1]- انظر الرسالة صـ17 .

[2]- سورة البقرة آية 282 .

[3]- سورة الصفات آية 99 .

يعرفوا التصوف ، ولم يشربوا من منهلة الصافي النقي ، وإلا لحال بينهم وبين ما هم فيه من ضلال وردعهم عن الإدعاء الذي هو سادرون في طريقة .

إن للطريق شروطه وللتصوف معالمه وقواعده ، وعليهم أن يتعرفوا عليها إن بينهم وبين المشيخة أماداً وأبعاداً وللوصول إليها أهوال ومشاق ، وإذا كان هذا هو حالهم . فلا يصلحون للمشيخة ولا يليق بهم الوقوف ببابها أتراهم يبدءون الطريق من أوله .. ؟ ويتحول كل منهم إلى مريد سالك على يد شيخ متبحر عارف يأخذ بيده .، يعلمه فيصير عالماً ويدنيه فيصبح عارفاً .. ؟

تقدم الإمام الشعراني إليهم وبيده منهج المريدين وشروط السالكين . ليفرق به بين المريد الصادق والمتشبه ، وجعل من علامات الصادق في الطريق ، أن يتحقق بثلاثة أشياء .

أول هذه الشروط ، أن يعبد الله ويتقيه حق تقاته ، يعبده لا خوفاً من ناره ولا رجاء لثوابه ، وهذا المقام ـ لدى الإمام الشعراني ـ من مقامات المبتدئين في الطريق لا من مقام الكاملين . كما توهم المتوهمون ([4]) .

المريد الصادق يطالب في أول سلوكه بالمداومة على الذكر ، ذكر الله ليلاً ونهاراً فإذا فعل ذلك ، إذا تحقق به رق حجابه . وإذا رق حجابه رأي الفعل لله تعالى لا للعبد ، وعندها يشهد أنه لا مدخل في وجود أفعاله إلا بقدر نسبة التكاليف فقط . ويرى كشفا ويقينا أنه كالآلة التي يحركها المحرك . وكما أن الله خالق لذات العبد . فأيضاً لفعله .

وثاني هذا الشروط " أن يشهد أن لا ملك إلا الله . وليس لأحد أن يملك معه شيئاً " .

قال تعالى : (آتوهم من مال الله الذي آتاكم) ([5]) .

وقال أيضاً : (انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ([6]) .

---

[4]- لطائف المنن والأخلاق جـ1 صـ56 والأجوبة المرضية مخطوط صـ176 + .

[5]- سورة النورة آية 33 .

[6]- سورة الحديد آية 7 .

إذا تحقق المريد بهذا المقام إذا أصبح له هذا الاعتقاد سلوكاً ومنهجاً ه شهد الملك لله وحده . وإنه الخالق لكل شيء وهو المبدىء والمعيد صح له مقام الزهـــد فـــي الدنيا وابتعد عن الش خ بها ولم يمنعها عن أحد من خلقه . وعندها يتساوى لديــــه الذهب والتراب ــ ويتساوى لديه المنع والإعطاء لأن الكل من عند الله ، يعز مـــن يشاء ويذل من يشاء ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ([7])

وثالث هذه الشروط . أن يرى المريد " أن لا موجود إلا الله " ([8]) لقد دخـل الطريق بقلب جياش ، ونفس راغبة وفواد متشو لها ، دخل الطريق وهو عاشق لها عامل للوصول إلى غايتها ، فترحل قلبه عن محبة كل شيء غـــير الله تعـــالى هذا المريد قد أخذ حب الله بمجامع قلبه حتى حجبه عن شهود الخلق جملة .

وإذا كانت النسوة اللاتي خرج عليهم يوسف عليه السلام ذهلن عن نفســـهن حتى قطعهن أيديهن ولم يشعرن بـــألم . فكيـــف بمـــن يشـــهد ســـر جمـــال رب الأرباب .. ؟

كيف بمن يغمره النور .. نور الســـــموات والأرض .. ؟ وتلفـــه العنايـــة وتحوطه الرعاية .. ؟ فيصير في حضرة الأحسان فيعبد الله كأنه يراه فإن لم يكـــن كذلك فإن الله يراه .

وروى الإمام القشيري رضي الله عنه عن الشبلي . أنه كان يزور شيخه الحصـــــرى كل يوم جمعة . فقال الحصرى يوماً : يا أبا بكر إن خطر في بالك غير الله تعـــالى من الجمعة إلى الجمعة فلا تعد تأتينا . فإنه لا يجي منك شيء ([9]) .

---

[7]- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية 176 .

[8]- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحفظ الله يحفظك ، أحفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وأعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما اخطأك لم يكن ليصيبك وأعلم أن الخلايق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن نعطيك لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا أن يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك فإذا سألت فأسأل الله ، وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع القرب وإن مع العسر يسر وأعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن . المستدرك جـــ3 صـــ542 .

[9]- عوارف المعارف ولطائف المنن والأخلاق جـــ1 صـــ23 .

إنها عملية استغراق وانقطاع دائم في حب الله سبحانه وتعالى تسبيح بحمده وشكر لنعمه وترقب لفضله واتجاه إليه عن كل شيء سواه .

كيف نعرف هذا المريد الصادق .. ؟ ما العلامة التي يمكن أن تدلنا عليه .. ؟ ما حقيقته حتى نشير عليه .. ؟ وأخيراً ما الوسيلة التي نتعرف بها على صدقه .. ؟ إن الإمام الشعراني وضع له ثلاث علامات إذا تحقق بها فهو صالح للطريق ، وإذا اتصف بها فهو سالك له . وإن جرت على يديه به كان من أولئك النفر الذين وفقهم الله لطاعته وجزاء ذلك أن يجري الله على يديه بعض منه وفضله (من هذه المنن أن يمشي في الهواء وإن يجري على الماء وأن ينفق من الغيب .

هذه الخصال الثلاث تعطي للمريد في أول الطريق . تعطي له تقوية لعزمة وحافزا له على مواصلة السير ، فمن لم يتحقق بهذه الثلاث فهو بعيد وأن كان يظن القرب وجاهل حيث يدعي العلم ومكابر منه في الطريق .

ويتساءل الإمام الشعراني في هوادة ولين ، في شفقة ورحمة في عطف وإيمان ، هؤلاء الذين يتصدرون للمشيخة ويجلسون لتسليك المريدين في هذا العصر ــ تنطبق عليهم شروط المريدين ، هل تحققوا بها ..؟ ايتصفون بتلك العلامات ..؟ الديهم من العلم ما عند المريدين الصادقين ..؟

فإن كان الجواب لا .. فالجواب أن يتركوا أماكنهم وينزلوا عن عروشهم ويكفوا عن ضلالهم ويسلكوا الطريق من أوله ، ويبدءوا الرحلة من مبدئها ، وأن قالوا نعم فالحقيقة تكذبهم والواقع لا يقف بجانبهم ولا يؤيدهم والدليل على ذلك ما يرويه عبد الرؤوف ([10]) المناوي ــ عن مسألة في الوضوء .. فأعلن الخلوتي جهله بها ــ رغم زعامته ورغم ما أصاب من شهرة بين الناس والأمراء ([11]) .

---

[10]- عبد الرؤوف المناوي بن تاج العارفين بن علي بن زيد العابدين الحدادي القاهري ولد في عام 952 وتوفي عام 1031 من مؤلفاته الكواكب الدرية .

[11]- انظر صـــ19 من الرسالة .

شيخ معمم . يرخي العذبة ويجلس لتسليك المريدين ويدخلهم الخلوة ويريــد أن يدل المريدين إلى طريق الله ، أو المفروض أنـــه كذلـك ، لا يعـرف ســنن الوضوء ويجهل أركان الصلاة .. ؟

كيف يدعو هذا إلى التصوف الذي هو زبدة عمل العبد حين استنارت نفســه بالكتاب والسنة .. ؟ إن هؤلاء الأدعياء لا يعرفون ما يدعون إليه . فكيف يدعـــو الإنسان إلى مالا يعرف .. ؟ كيف يستطيع أن يعلم ما يجهل .. ؟ أيأتي النور مــن الظلام .. ؟ أتذوق من الحنظل الشهد .. ؟ إن هذا إلا افتراء .

إن هؤلاء الأدعياء ، شجر بلا ثمر ، وليل بلا قمر ، وأرض بغير نبـات ، ماذا يفعل إمامنا مع هؤلاء ايتركهم في صدارتهم يضللون العامـــة . ويخدعــون السذج والبسطاء ، إن طبيعة العصر الذي عاش فيه الإمام الشعراني كان يدعـــو الناس إلى أن يلتمسون الخلاص من الحكام الظلمة ومن السلب والقرصنـــة التـــي يمارسها الولاة . كانوا يلتمسون العدل في السماء بعد أن أعوزهـــم ذلــك علـــى الأرض لقد ضاقت بهم الحياة . وضاقت أنفسهم ففروا يلتمسون .
مخرجاً ويبحثون عن ملجأ يلجؤون إليه مما هم فيه . ولم تكن هناك وسيلة غــــير هذا الطريق ، ومن هنا كثر فيه الأدعياء والمتطفلون والراغبـــون فـــي الشـــهرة والثراء من أقرب الطرق ، إن هؤلاء المضللين رفضوا التعليم ورفضوا أن يتفقهوا في دينهم ويعرفوا شريعة ربهم .. وماذا يفعلون بالعلم وطلابهم لا يطالبونهم بشيء ولا يرجون منهم شيئاً ماداموا مثلهم وجدوا في الزوايا الطعام والكســاء والكســل والأمن من سياط الحكام ومن ضربات الولاة ، فلم يطلبوا العلم واستكانوا إلى الجــهل واطمأنوا إلى الراحة .

منهج الإمام الشعراني في تصفية التصوف

****

وسلك إمامنا طريقاً واتبع نهجاً وعكف في زاويته يؤلــف الكتــب ويذيــع المنشورات وكانت خطته تتضمن ثلاثة أمور :

أولها : كشف هؤلاء الأدعياء أمام الشعب وتعريتهم أمام مريديهم وتبين خداعــهم وأباطيلهم .

وثانيها : تعليم الشعب أمور دينه وتبصيره بقواعــد شــريعته وتقديــم الشــريعة الإسلامية من فقه وعبادات ومعاملات في عبارة سهلة وديباجة مشرقة بعيدة عــن تعقيد المعقدين وغموض الجاهلين .

وثالثاً : تعريف الشعب حقيقة التصوف الذي هو العمل بالشريعة الإسلامية علــى وجه الإخلاص . وكل ما خالف ذلك فهو ضلال وبعد عن الجادة . عملنــا هــذا مشيد بالشريعة بالكتاب والسنة لا يحيد عنه قيد انملة .

وخرجت رسالته " ردع الفقراء عن الولاية الكــبرى " داعيــة للإصــلاح إصلاح التصوف وتنقيته مما دخل فيه للتهذيب والردع . ووضــع فيــها شــروط الشيخ وواجبات السالك ، والصفات التي يجب أن يتصف بها والمعارف التي يجب أن يحيط بها ، والأخلاق التي يتخلق بها . وضعها وأرسلها كإنذار لهؤلاء الأدعياء أن يكفوا عما هم فيه وإلا فالويل لهم وطالبهم أن ينظروا فيها ويتحققوا بما جاء بها

وقال لهم في مقدمتها أما بعد : فقد دعاني داعي الشفقة على طائفــة مــن الفقراء في هذا الزمان سموا أنفسهم بالصوفية . وادعوا الولاية الكبرى وهم أضل من الأنعام كما سيتضح لكل ناظر في هذه الرسالة ، فصار كل من أذن له شــيخه القاصر بأن يستفتح الذكر بجماعة وأذن له بأن يلقن الناس أو لم يأذن وسمع فــي خلوته هاتفاً من جنى أو شيطان يظن أنه ولي الله عز وجل ، فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنايع وغيرهم فتارة يجلس في بلد ، وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة والنكرة على الخاص والعام ، ومع هذا يدعى أنه قــائم في الخلق مكان نبيهم صلى الله عليه وسلم (١) .

---

١ - الرسالة للإمام الشعراني المقدمة صـ٤ .

إن هذا الذي رسمه إمامنا لهؤلاء الأدعياء هو صورة لما كان عليه هــؤلاء صورة الذين لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا لا يعلمون ولا يرغبون أن يتعلمــوا صورة من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وإذا كان عبدة الأصنام في مكة حاربوا الرسولﷺ بكل سلاح ورفضـــوا هذى السماء وأثروا الظلام على النور رغبة في أن تبق لهم أصنامهم لتدر عليـــهم الرزق والمال وحتى تبقى لهم في الجزيرة العربية . المكانة والرياسة والجاه .

فإن هؤلاء الأدعياء في هذا العصر . آثروا أن يكونوا سدنه الجهل وحراسه مستعملين أسلحتهم الرخيصة من الشعوذة والدروشة وســيلة لجلــب المريديــن ، وخداع الموسرين ليغدقوا عليهم الأموال ، حتى امتـــلأت خزائنـــهم وتضخمــت كروشهم .

ليس التصوف نقولا ولا استظهاراً للكتب

****

وهناك صنف آخر من الأدعياء اعتبروا التصوف نقولا وقراءة ، إذا كـــان الصنف الأول ممن تصدروا للتسليك يجهلون كل شيء ولا يفقـــهون أي شـــيء . فهناك صنف آخر يندرج تحت الجهلاء والأدعياء هذا الصنف ظن أن التصـــوف نقولا فقط من غير عمل ، فأخذ نحو رسالة القشيري وعوارف المعارف ، وقـوت القلوب وجلس يدرس للناس فيها بحسب فهمه المخالف لما عليه القـــوم ، وظـــن بنفسه أنه صار صوفياً من غير أن يتخلق بمـــا يدرســه . وتجــاهل هـــؤلاء أن التصوف ليس علماً فقط وليس فهماً لبعض النصوص . وليس الصوفي من يحفـظ النقول أو يستوعب الكتب ، ولكن الصوفي حقيقة من عمل بعلمـــه علـــى وجـــه الإخلاص .

كان الصحابة والتابعون كذلك ومن سلك مسلكهم ، واتبـــع طريقتـــهم مـــن الأئمة المجتهدين . ويرى الإمام الشعراني أن من يحفظ النقول ويستظهر الكتـــب ويعكف على المجلدات بغير ذوق ولا تخلق . مثال من حفظ له كتاباً في علم الطب من غير معرفة الداء والدواء . فكل من سمعه وهو يقرأ يقول ما هذا إلا طبيـــب عظيم له قدرة ومقدرة على تشخيص الداء ، ووصف الدواء ، إنه الشكل والمظهر إنها الواجهة التي يغتربها البسطاء ، فإذا قال له أعلمني باسم هذا الداء الذي يسرى في بدني واخبرني باسم الدواء قال لا أعلم ذلك .

ورجال التصوف الصادقون أطباء مهرة في معرفة أمراض النفوس وعللها وهم ليسوا شيئاً آخر ، إن وظيفتهم الأساسية التفتيش عن العلل ، وكشف الأمراض أمراض النفس من الحسد والغل والحقد والكبرياء ، وأمراض القلوب كذلك . فـــإذا عجز هؤلاء عن وظيفتهم الأساسية كانوا أدعياء ومثل هؤلاء لا يصلحون " لتسليك " المريدين لأن أساس المسلك أن يعتقد على ما يلقيه الحق في قلبه فيعطـــي كـــل شخص من جلسائه ومريديه ما يقبله استعداده وما يرى أنه انفع وانجع في علاجـــه أمام هؤلاء الشيوخ الذين يطالعون كلام الصالحين . ويلقونه لكل جليس . فهم أبعد ما يكونون عن طريق الصفاء والمشاهدة طريق التزكية والقرب .

يقول الإمام الشعراني " لو طالع الفقير من كتب القوم عدة رمل عالج في مدة عمر نوح لا يصير صوفياً بمحض المطالعة حتى يلج الجمل في سم الخياط . ومن لم يقذف الله تعالى في قلبه نوراً يفرق به بين الحق والباطل لا يصلح لهذا الباب [2] .

والأئمة المجتهدون والأولياء الصالحون لم يصبحوا " صوفية " بقراءة الكتب ولا بحفظ النقول . إنها عملية لا تأتي لصاحبها بنظم الأدلة ولا بترتيب الكلام بل بنور يقذفه الله تعالى في صدر صاحبة . وهذا النور هو مفتاح أكثر المعارف .

يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه . ولما سئل رسول الله ﷺ عن الشرح في قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام فقال هو نور يقذفه الله تعالى في القلب) [3] .

ويجب الترصد له كما قال عليه السلام (إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها) [4] .

من هنا نرى أن الإمامين الجليلين يتفقان على أن التصوف ليس نقولا وليس قراءة فقط وليس علماً ومعرفة بآثار القدماء ومؤلفاتهم . ولكنه أعمق من ذلك . إن العلم بالشريعة الإسلامية وفقه أصولها والإحاطة بفروعها ومعرفة آثار الصحابة والتابعين كل ذلك مقدمة له ، ودهليز لابد إليه من أن يقطعه ويجتاز دوربة ولكنه ليس هو التصوف ، ويرسل إمامنا صوت النذير لهؤلاء الأدعياء .. وينزل عليهم بالقارعة تلو القارعة ويطالبهم بالدعوة إلى التتلمذ على يد شيخ صادق . لأن هذه الكتب التي يقرءون منها للمريدين وضعت لزمان ومفاسد غير هذا الزمان ومفاسده .. ولكل عصر دولة ورجال .

---

[2] - الأنوار القدسية في قواعد الصوفية جـ١ صـ٧٦ وراجع آداب العبودية جـ١ .

[3] - المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود صـ١٧ .

[4] - إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعله أن يصبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً . رواه الطبراني في الكبير . وقال السيوطي في جامعة الصغير ضعيف .

ويرى الشعراني أنه لا فائدة من العكوف على ما تركه الصالحون من تراث أمثال عوارف المعارف ، والرسالة القشيرية ، وغيرها .. لا لأنه ينكر على أصحابها أو ينتقد آراءهم . فهو نفسه كثيراً ما يلجأ إلى هذه الكتب ويستعين بأقوال أصحابها ويستنير بآرائهم . ولكنه يرى أن الأمراض تتجدد في القلوب في كل زمان ومكان ولكل من هؤلاء أمراض وعلل وآفات تطرق القلوب وتعشش في النفوس تخالف ما عليه أهل القرن أو القرون السابقة ولكن ما شاهده الإمام الشعراني ، أن هؤلاء الأدعياء لا يعترفون بجهل نفوسهم بل يدعون أنهم أعلم العلماء وافقه الفقهاء وأعرف الناس بطريق القوم ، حتى أن بعضهم كان يقول : لو أدركنا أكابر السلف لدللناهم على الطريق . ولو أدركنا الفضل بن (٥) عياض وإبراهيم (٦) بن أدهم وسفيان (٧) الثوري ومالك بن دينار وبشر (٨) الحافي وذا

---

[٥]- أبو علي الفضيل بن عياض ــ خرساني من ناحية مرو ، قبل أنه ولد بسمرقند ونشأ بأبهورد . مات بمكه سنة ١٨٧ هـ . كان الفضيل شاطرا يقطع الطريق بين أبهورد وسرخس وكان سبب تؤتيه إنه عشق جارية فبينما هو يرقي الجدران إليها سمع تاليا يتلو " ألم يأن للذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكرى الله " فقال يا رب قد آن فتاب وحسنت توبته . وكان ثقة في الحديث أخذ عنه الإمام الشافعي .

[٦]- إبراهيم بن أدهم .

أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم من كورة بلخ وكان من أبناء الملوك دخل وصحب بها سفيان الثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد ، وحفظ البساتين وغير ذلك . وكان كبير الشأن في باب الورع يحكي عنهأنه قال أطب مطعمك ولا حرج عليك لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .

[٧]- سفيان الثوري ــ سفيان بن سعيد الثوري ولد سنة ٩٧ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ وكان عالما زاهدا . كانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث وكان لا يعلم أحداً العلم إلا إذا تعلم الأدب والتزمه .

[٨]- أبو نصر بشر بن الحارث الحافي ــ أصله من مرو ولد سنة ١٥٠ هـ وسكن بغداد ومات بها سنة ٢٢٧ صحب الفضيل بن عياض ورأى سريا السقطي استشفع المأمون بأحمد بن حنبل في أن يأذن الحافي للمأمون في زيادته . فأبى الحافي ــ وفي كلامه " من أراد أن يلقي الحكمة فلا يعصى الله سئل الخضر عليه السلام :

ما يقول في الشافعي رحمه الله ؟ فقال هو من الأوتاد . فقلت ما تقول في أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال : رجل صديق . قلت فما تقول في بشر بن الحارث الحافي فقال لم يخلق بعد مثله .

النون ([9]) المصري وأبا يزيد البسطامي ودعوهم لسلكتهم في الطريق وأوصلتـــهم إلى مقامات الكمال . لكني لم ادركهم فماتوا بنقصهم وحجابهم ([10]) .

إننا لا نجد تفسيراً لذلك . إلا أن نقول إنها الدعاوى الكاذبة والجهل المطبق ولو أنهم عرفوا تاريخ هؤلاء الرجال . ودرسوا سيرتهم وعرفوا ما كانوا عليه من التقوى والورع والبعد عن محارم الله وتجنب الأدعاء والظهور وعدم القول برأيهم لكان في ذلك وازع لهم ورادع عن أن يتلفظوا بهذا الكلام ـــو ينالوا مـــن رجـــال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . رجال طبعوا جبهة التاريخ في فترة من فتراته بالنور والإشراق وفارقوا الدنيا عندما فارقوها وهم علـــى المحجـــة البيضـــاء . وعلـــى الشريعة السمحاء لقد ثبت عن الحسن البصري ومالك بن دينار وسفيان الثـــوري وسفيان بن عيينه وأبي حنيفة والشعبي وأطرابهم إنهم كانوا ينهون أصحابهم عـــن الاقتداء بهم في كل ما يرونهم يفعلون . ويقولون لسنا بمعصومين اقرنوا أحوالنـــا بالكتاب والسنة قبل أن تقتدوا بنا . ورأى سفيان الثوري رجلاً باهتا في النظر إليـه فقال له . ما حاجتك فقال اقتدي بأفعالك . فقال يا أخي أنا رجل مخلط في ديني فلا ينبغي لأحد أن يقتدي بي وسبقهم إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يفتي الناس ويقول هذا ما رآه عمر فإن كان صواباً فمن الله تعالى وإن خطأ فمن عمر والتبعة عليّ في ذلك .

وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ([11]) يفتي الناس ثم نقول هذا أكثر مـــا قدرنـــا عليه من العلم . فمن وجد أحسن منه فهوا أولى بالصواب .

---

[9]- أبو الفيض ذو النون المصري ـــ صـــ ٥٤ .

أصله من النوبة ثم نزل باخميم فأقام بها روى عن مالك والليث وروي عنه كثيرون .

سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده إلى مصر مكرماً . وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل يديه أهل الورع يبكي ويقول :

أهل الورع فحيهلا بذي النون .

[10]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية صت١٢١ مخطوط .

[11]- الإمام أبو حنيفة ـــ أبو حنيفة النعمان بن ثابت ولد سنة ٨٠ هـــ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـــ اكره رضى الله عنه على توايه القضاء وضرب على رأسه ضرباً شديداً أيام مروان بن الحكم ثم أكرهه أبو جعفر بعد ذلك وقال لا أكون قاضياً فحسبه وتوفى في السجن وهو صاحب مدرسة الرأي في الإسلام ورضى الله عنه .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه ([12]) يوماً للمزني . لا تقلدني في كل ما أقول وانظر في ذلك فإنه دين . وعلى قمة هؤلاء جمعياً كان الرسول ﷺ (وقل رب زدني علماً) ([13]) ورب العزة يقول مخاطباً عباده (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ([14]) .

فكيف يدعى هؤلاء الأدعياء أنهم بلغوا في العلم شأوا بعيداً ومرحلة تؤهلهم لتعليم العلماء وتلقين الفحول ؟ إنه الغرور والكبرياء . وإدعاء الخيرية التي تنسب إلى إبليس الأكبر .

أهناك وسيلة لا نزال هؤلاء من عروشهم .. ؟ وطريقة لا بعادهم عن تضليل الناس وخداعهم .. إن خطر هؤلاء لا يقف عند حد نفوسهم ولكنه يتعدهم إلى ما يحيط بهم من البسطاء والسذج .. إن عملهم هذا تشويه للصورة الروحية للإسلام وخلط واضح لزيدة تعاليمه وإبعاده عن الجادة وكما أرادته ربه .

إن التصوف ليس مظاهر خداعه . ولا شعارات براقة ليس التصوف تكبير العمامة وإرخاء العذبة وحشد المريدين والعكوف في الزوايا وانتظار عطايا المحسنين . ليس التصوف وراثة ولن يكون كذلك . إن الوصول إلى حقيقة التصوف في منهج الإمام الشعراني . لن يكون إلا بإحدى طريقتين أولاهما عن طريق الجذب الإلهي . الذي يقال فيه " جذبه من جذبات الحق تساوي عمل الثقلين وثانيهما السلوك على يد شيخ صادق متبحر في الشريعة .

وهذا امتداد لمدرسة التصوف النقية المدرية الشاذلية . حيث يقول الموسي الثاني لها الإمام العارف بالله أبو المرسي العباسي رضي الله عنه . قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله . وقوم وصلوا بطاعة اللالى ه كرامة الله ([15]) . قال الله تعالى : (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ([16]) .

---

[12]- الإمام الشافعي . محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي أحد الأئمة الأربعة ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفى في القاهرة سنة ٢٠٤ أقبل على الفقه والحديث وافتى وهو ابن عشرين سنة رضى الله عنه .

[13]- سورة طه آية ١١٤ .

[14]- سورة الإسراء آية ٨٥ .

[15]- أبو المرسي العباسي للدكتور عبد الحليم محمود .

[16]- سورة الشورى آية ١٣ .

وهؤلاء الأدعياء يقينا لم يكرمهم الله بجذبه من جذباته وإلا لأعطاهم علما من لدنه ورباهم بهدية وصنعهم على عينه وباعد بينهم وبين سفاسف الأمور . إن أصحاب الجذبة الإلهية تربطهم بالسماء أسباب فلن يضلوا عن الجادة . ويعلمهم ربهم فمحال أن يجهلوا ويحفظهم عن كل ما يشين (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ([17]) .

وأيضاً هؤلاء الأدعياء لم يسلكوا الطريق على يد شيخ صادق .. وإلا لعلمهم دينهم وبصرهم بشريعة ربهم . وربي نفوسهم على الإخلاص والزهد . وسلك بهم مقامات الطريق . من التوبة والورع والخوف والرجاء والرضا والاطمئنان والوقوف عند حدود الله .

ولكن المشاهد أنهم يتعدون حدود الله في مأكلهم وملبسهم وكلامهم وأفعالهم فإن اعترض عليهم معترض . وطلب منهم التوبة والإنابة قالوا ليس لنا فعل حتى نتوب منه مخالفين بذلك قوله تعالى وتوبوا إلى الله جمعياً أيها المؤمنون ([18]) . وتاركين سنة رسوله ﷺ ([19]) .

ويروى الإمام الشعراني صور هؤلاء الأدعياء بأن بعضهم صار يأكل حراماً ويفطر في بيوت المكاسين في شهر رمضان ويقول الكل لله تعالى . ليس لأحد معه ملك . وانا عبد والعبد يأكل من مال سيده وهذا كله ليس من التصوف في شيء بل هو زندقه لرفضه السير على تعاليم الشريعة . ولو كان هذا القائل داعياً إلى الله حقاً ومؤمناً صدقاً ما تجرأ على فعل ذلك ([20]) .

هذه الحالات الفردية التي كانت تشيع في عصر الإمام الشعراني كانت تتحول إلى ظاهرة جماعية يشترك فيهة العدد الكثير . إذا أقيم مولد السيد البدوي أو إحدى الموالد الكبيرة ([21]) .

---

[17]-سورة يونس آية ٦٢ ، ٦٣ .

[18]- سورة النور آية ٣١ .

[19]- انظر ٣٣ من الرسالة .

[20]- راجع الأجوبة المرضية الفصل الثالث مخطوط للإمام الشعراني .

[21]- الطبقات الكبرى جـ٢ ، صـ١٢٠ .

يرى الإمام الشعراني ذلك ويشاهده فيزداد حنقا على هؤلاء يرى الأدعـــاء والجهل ويشاهد التكالب على الدنيا والإغراق فيها يرى السرقة واللصوصية باسـم التصوف . يرى الكروش التي تملأ والدنيا التي تغدق عليـــهم .. يـرى الحيـل والأساليب التي تتسم بالخداع والزيف فينزل إلى ميدان المعركـة بكتابـه الثـاني مدافعاً عن قضية التصوف وداعياً إلى تصوف نقي .. تصـوف يلـتزم بالكتـاب والسنة ويضع في مقدمته جملة من عقائد القوم وبناء هذه العقائد على مذهب أهـل السنة والجماعة الفقه مقدمة للتصوف امتثالا لقول الرسول الكريم (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) ([22]) .

يقدم هذا الكتاب وفيه منهج متكامل لتربية المريدين . منهج واضـح لمـن يريد العروج إلى طريق الله . العروج على بينه وبصيرة . منـهج لا يشـذ عـن الشريعة الإسلامية . بل يلتزم بها في كل خطواته ويسـتقى ينابيعـها فـي جـل تفريعاته.

وضع الإمام الشعراني هذا الكتاب ليرى الأدعياء فيه نفوسـهم . نفوسـهم البعيدة كل البعد عن النهج القويم ، القريبة كل القـرب مـن الـهوى والضـلال نفوسهم الشاردة عن طريق الحق السادرة في طريق الغواية لعلهم يعـودون إلـى صوابهم فليتزموا شريعة ربهم وهدى نبيهم .

ومن جانب آخر ليكون هذا الكتاب نبراسا لهؤلاء الراغبين الصادقين ونوراً يهدى المتعطشين إلى حقيقة النبع ، بعد أن أبعدهم التية وخدع أبصارهم السراب .

يقول الإمام الشعراني . في مقدمة هذا الكتاب " وكان من الباعث لي علـى تأليف هذه الرسالة . طلب النصح لنفسي ولأخواني حيث تحلسـنا بحـلاس ([23]) الأشياخ ومشينا على مراسيهم الظاهرة وظن كل واحد منا نفسه أنه صـار مـن أشياخ الطريق . فوضعت هذه الرسالة كالميزان الذي يوزن بها المحق والمبطل . فمن وافق ما فيها فليحمد الله وإلا فليستغفر من دعاوية الكاذبة ([24]) .

---

[22]-سبق تخريج هذا الحديث راجع الرسالة صـ

[23]- لباس وشاره .

[24]- لوافع الأنوار القدسية في قواعد الصوفية صـ١٨ .

إن هذا الكتاب عبارة عن منشور عام رسم الطريق الواضح للسلوك بين أيديهم وصورة واضحة للتصوف الصادق . والدافع الذي حدا بالإمام إلى وضع هذا الكتاب جلوس هؤلاء الرجال ـ في عصره ـ للمشيخة وسيرهم على المراسم الظاهرة . واتباعهم الشكل وإهمالهم الجوهر ، اتباعهم القشور وتركهم اللباب ، اتباعهم الشعارات الزائفة بقدر ابتعادهم عن المبادئ الصادقة . هكذا يقول الإمام الشعراني .

ومن جانب آخر ، فإن هذا الكتاب ، ميزان لكل منهم ومقياس لحقيقتهم وعلى كل منهم أن يزن نفسه به . وإن يقارن بين ما فيه من مبادئ وبين ما يتصف به شخصه ، فإن وجد ما فيه من أخلاق . وما يحويه من مبادئ هو ما يتصف به ويترجم عن حقيقته ، كان صوفياً صادقاً يصلح لتربية المريدين . وتسليك الراغبين . وإذا فالإمام الشعراني يدعوه باسم الدين وباسم التصوف ، أن يترك مجلسه لمن هو أقدر منه ويتتلمذ على شيخ صادق . يطلب منه الطريق فيدله عليها ويسأله الهداية فيرشده إلى مسالكها .

يقول الإمام الشعراني " وأعلم يا أخي أن جميع ما ذكرته لك في هذه الرسالة من أخلاق المريدين ، إنما هو كالقطرة من البحر ، فليعرض كل من نظر فيها أحواله على ما ذكرته من الآداب فيها . فإن وجد نفسه متخلفاً بها فليحمد الله تعالى ، وإن وجد نفسه عاريا عنها ، فيأخذ في أسباب التخلق بالسلوك على يد شيخ ناصح .

وإن كان قد جلس للمشيخة نحى نفسه عنها نصيحة لنفسه ولإخوانه فإن من جلس للمشيخة بغير إذن من شيخه ضل وأضل ([٢٥]) .

لقد طالبهم بعزل نفوسهم عن الجلوس للمشيخة طالبهم بالعودة إلى التتلمذ من جديد وبداية الطريق من أوله .

لأنهم جهلاء والتصوف من شروطه العلم ولأنهم أدعياء والتصوف يقتضي الصدق . ولأنهم متكالبون على الدنيا والتصوف طريقة الزهد . ولأن بعضهم يحفظ النقول ويقتات من موائد القدماء . والتصوف ليس نقولا وحفظا ليس

---

[٢٥]- لواقح الأنوار القدسية في قواعد الصوفية للشعراني صـ ٢٠ .

استظهارا وقراءة فقط ولكنه صفاء وإخلاص وورع وزهد وفرار إلى الله وتصفية القلب بالكلية لله تعالى .

ليس هذا كل ما يأتي به الأدعياء في عصر الشعراني . بل كانوا يـــرون أن التكاليف الدينية قد سقطت عنهم . فجاز لهم ما حرم على غيرهم فأهملوا الصــــلاة وتركوا الصيام ورفضوا القيام بشيء من فرائض الدين وشعائر العبادة . وإذا كان ذلك هو طريقهم وتلك وجهتهم فهم لا يتقيدون بعد هـــذا بشــــيء مـــن نواهيـــه لا يخضعون لقيوده ومحرماته .

فظنوا أن كافة الرذائل قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى ومسمع من الناس ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخفيهم أو يردعهم عن غيهم أو يوجهـــهم إلى أقوم سبيل .

يقول الإمام الشعراني على لسان أحمد الزاهد " إن " بعـــــض " الملامتيـــة والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية وبعض الرفاعيـــــة والبســـطا ميـــة والادهميـــة والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة في عصــــره ، لأن أفعالـــهم يكذبـــها طريق أشياخهم من الصدق والزهد والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة ويقول أيضاً في مهاجمتهم أن كثيرين من الفقراء الذين لم يسلكوا على يد شيخ يـــــتركون خرقـــهم ويدورون في الزوايا كلاً على الناس يأكلون من الصدقات وأوساخ النـــــاس . وأن بعض فقراء الأحمدية والبرهامية قد قصروا بلبس الزي وجهلوا فرائض الوضـــوء وشروط الصلاة ومثل هؤلاء ليسوا شيوخاً بإجماع المسلمين ([٢٦]) .

إن رجال التصوف الصادقين . ينكرون هذه الفكـــرة إنكـــارا تامـــاً ويرونها زيفاً وضلالا وانسلاخا عن الدين بالكلية . يقول الجنيد ([٢٧]) ســــيد هـــذه الطائفة " من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنـــا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة وقال الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سننه ولزم طريقته ([٢٨]) .

---

[٢٦]- لطائف المنن والأخلاق جـــ١ صـــ١١٦ وقواعد الصوفية صـــ٨٠ .

[٢٧]- أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج أصله من نهاوند مولده ، ومنشؤه بالعراق وكان فقيها يفتي الناس على مذهب ثور وكان من كبار أهلة القوم وساداتهم ومات رضى الله عنه سنة ٢٩٧ وقبره ببغداد .

[٢٨]- الطبقات الكبرى للإمام الشعراني جـــ١ المقدمة .

وذكر الرجل المعرفة أمام الجنيد وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل . فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال . وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ([٢٩]) .

فإذا أستقرأنا الإمام الغزالي :

في هذا الشأن فإننا نجده يقول في شيء من التفصيل فيه دقة وفيه استدلال غاية في القوة :

" وأعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له : العلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع . موقوفة على توقيفاته . إيرادا وإصدارا وإقداما واحجاما . إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها . ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة النوافل , فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض .. ؟ فإن قلت . فهل تنتهي بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور .. ؟

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور وأن المحققين قالوا : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشي على الماء وهو تعاطي أمراً يخالف الشرع فأعلم أنه شيطان ([٣٠]) .

ويقول الإمام الغزالي أيضاً عن سؤال ينبغي أن يتحقق للمريد هنا من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض الفطام عما سوى الله والتجرد له . فهو مصيب في ظنه .. أن ذلك مقصود ومخطئ في ظنه أنه كل المقصود ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخالق أسراراً سوى الفطام تقصر بضاعة العقل عن دركها .

---

[٢٩]- المنقذ من الضلال للإمام الغزالي .

[٣٠]- المصدر السابق .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن مثل رجل بنى له أبوه قصـــراً علـــى رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة وأكد الوصية علـــى ولـــده مرة بعد أخرى ألا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه . فزرع الولد حـول القصر أنواعاً من الريا حين . وطلب من البر والبحر أوتادا من العـــود والعنـــبر والمسك وجميع في قصره جمع ذلك من شجرات كثيرة مـــن الريـــاحين الطيبـــة الرائحة .

فانغمرت رائحة الحشيش له فلم فاحت هذه الروائح فقال : لاشك أن والـــدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش لا لطيب رائحتـــه . والآن وقـــد اســـتغنينا بـــهذه الرياحين عن رائحته . فلا فائدة فيه الآن . إلا أن يضيق عليّ المكان فرماه مـــن القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض ثقب القصـــــر حيـــة هائلـــة وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك . فتنبه حيث لم ينفعه التنبه أن الحشـــيش كان من خاصيته منه هذه الحية المهلكة . وكان لأبيه بالوصية غرضان :

أحدهما: انتفاع الولد برائحته وذلك قد أدركه الولد بعقله . والثاني : اندفـــاع الحيات المهلكات برائحته وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بمـــا عنده من العلم وظن أنه لا شر وراء معلومه ومعقوله كما تعالى : (ذلك مبلغـــهم من العلم) ([31]) .

وقال تعالى : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات . فرحوا بما عندهم من العلـــم) ([32]) والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه . فهو منتف في نفســـه . ولقد عرف أهل الكمال . أن قلب الآدمي كذلك القصر . وأنـــه معشـــش حبـــات وعقارب مهلكات . وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة . المكتوبات والمشـــروعات بقوله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) ([33]) .

---

[31]- سورة النجم آية ٣ .

[32]- سورة غافر آية ٨٣ .

[33]- سورة النساء آية ١٠٣ .

وقوله تعالى : (كتب عليكم الصيام كما كتب الذين من قبلكم) ([٣٤]) .

ومن هنا كان إمامنا الشعراني ([٣٥]) ينزل باللائمة على هؤلاء الذين يتحللون من الفرائض .. ويتهمهم بالكفر تارة وبالخروج على تعاليم الدين تارة أخـــرى .. إنه لم يرد عن الرسولﷺ طلية حياته . أنه ترك الصلاة أو أهمل فرضـــاً مـــن فرائض الدين وأخر ما نطق به عليه السلام قوله (الصلاة الصلاة ومـــا ملكـــت أيمانكم)([٣٦]) .

---

[٣٤]- سورة البقرة آية ١٨٣ .

[٣٥]- المنقذ من الضلال للإمام الغزالي صـــ ١٧٥ جـــ١٧٦ .

[٣٦]- رواه ابن ماجة في سننه عن على ابن أبي طالب كرم الله وجهه جـــ٢ صـــ٩٥١ ورواه الإمام أحمد في مسنده عن على بن أبي طالب كرم الله وجهه جـــ١ صـــ٦٢٩ تحقيق أحمد محمد شاكر .

تنقية التصوف من الشطح والفناء والحلول والاتحاد

****

إذا كان الإمام الشعراني عمل جهده على إبعاد الجهلاء عن التصدر في طريق التصوف . لأن التصوف علم ومعرفة وعمل بهدى النبوة وعمل على إبعاد الأدعياء والمضللين عن رحابه . لأن التصوف إيمان وصدق وعبادة وتبتل ورصد قلمه لمحاربة المتصدرين لتربية المريدين وهم متكالبون على الدنيا غارقون في لذاتها عاكفون على شهواتها لأن التصوف زهد وروع وألهب بسياطه وكلماته أدعياء الطريق وقد تركوا السنن والفرائض وأهملوا التكاليف جملة اعتمادا على أنهم وصلوا لمرحلة أسقطت عنهم التكاليف ، إذا كان قد فعل ذلك ، رغبة في الإصلاح والخير ودفاعاً عن دينه وشريعة ربه . فإنه أيضاً حاول العمل على تنقية التصوف من الشطح والفناء من السكر والإغراق ، ونادى بأن التصوف ليس فيه حلول ولا اتحاد ودافع عن محي الدين بن عربي ونفى عنه ما أشيع عنه وقرر بأنه سني محمدي لا يخرج عن حدود الشريعة في كل ما نقل عنه . ويروى قوله : " إجماع المحققين على أن من شرط الكامل ألا يكون عنده شطح عن ظاهر الشريعة أبدا بل يرى أن من الواجب عليه أن يحق الحق ويبطل الباطل ويعمل على الخروج من خلاف العلماء ما أمكن ([٣٧]) .

ويقرر الشعراني بناء عن دراسته لهذا العالم الجليل أن جميع المواضع التي فيها شطح في كتبه مدسوسة عليه لاسيما كتاب الفتوحات المكية فإنه وضعه حال كما له بيقين .

وتأكيداً لرأية يقدم لنا نصين آخرين هما قوله : " أن الشطح كله رعونة نفس لا يصدر من محقق " وأيضاً فلا يرمي ميزان الشريعة من يده طرفة عين بل يستصحبها ليلاً ونهاراً عند كل قول وفعل واعتقاد ([٣٨]) .

---

[٣٧] - كتاب اليواقيت والجواهر ولطائف المنن والأخلاق جـ٢ صـ٢٦ .

[٣٨] -اليواقيت والجواهر للإمام الشعراني صـ١٨ .

ويكتب كتاباً مستقلاً لينفي فيه أن ابن عربي (٣٩) نادى بالحلول والاتحاد (٤٠) وبالتالي ليثبت أن التصوف الإسلامي بعيد عنه أو هكذا أراده في عصره ولا يكتفي بذلك بل يجعل أبواباً في كتبه مستقلة للدفاع عن عقيدة ابن عربي ونفى كل ما اشيع عنه ومن ذلك كتاباه اليواقيت والجواهر والأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية .

ويندد بهؤلاء الذين ينادون بالحلول والاتحاد او يتلفظون بألفاظ توهم بذلك أو تشير عليه فيصفهم بالكفر والمروق عن الشريعة وبأن عبدة الأوثان في العصور الجاهلية كانوا خيراً منهم .

يقول في كتابه اليواقيت والجواهر: ولعمرى أن عباد الأوثان لم يتجرءوا أن يجعلوا آلهتهم عين الله . بل قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فكيف يظن بأولياء الله تعالى أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه . هذا محال في حقهم رضى الله عنهم ويدافع بصدق وإخلاص لنفى الحلول والاتحاد عن ابن عربي ويورد الكثير من نصوصه في هذا الشأن يقول في عقيدته الوسطى أعلم أن الله سبحانه واحد بإجماع وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد بشيء ويقول في باب الأسرار من الفتوحات لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشاً للعارف من هذا حاشاة .

ويقول في الفتوحات لا حلول ولا اتحاد فإن القول بالحلول مرض لا يزول وما قال بالاتحاد إلا أهل الالحاد . كما أن القائل بالحلول أهل الجهل والفضول ومن في دينه معلول ويقول في باب الأسرار أنت أنت وهو هو فإياك أن تقول كما قال العاشق أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة لا والله . والجهل لا يتعقل حقاً . ثم يقول لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصح انقلاب الحقائق وخرج الآله عن كونه

٣٩- محي الدين ابن عربي عرف في المشرق بابن عربي بدون الألف واللام ـــ تميزاً له عن سمية ومواطنه القاضي ابي بكر بن العربي المعاصر للغزالي .

٤٠- القول المبين في الرد عن الشيخ محي الدين .

آلها وصار الحق خلقاً والخلق حقاً وما وثق أحد بعلم وصار والمحال واجباً فـــلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً ([41]) .

ولا يمل الشعراني عن الدفاع عن ابن عربي وتوضيح وشرح فكرته بـــل دفعه التقدير لهذا الرجل وحبه له أن يلخص كتبه ويشرح شعره وكما قلنا يؤلـــف الكتب المستقلة عنه لتوضيح آرائه وحذف الزائف المدسوس عليه .

يقول الدكتور أبو العلا عفيفي ...

ربما كان الشيخ عبد الوهاب الشعراني أشهر متصوفة مصر في القـــرن العاشر أكثر الصوفية عناية بكتاب الفتوحات وأحرصهم على دراسته . والاستفادة منه ومع أننا لا نستطيع أن نعد الشعراني من اتباع مذهب ابن عربـــي الخلـص كالقاشاني وعبد الكريم الجيلي إلا أن لملاحظاته على كتاب الفتوحات وتلخيصاتـــه لكثير من محتوياته دلالة عميقة على اهتمامه به وبمؤلفه كما أن لقصده في مســألة التلخيص مغذى بالغ الأهمية في مسألة تصحيح الكتاب ممـــا يحتمـل أن يكـون مدسوساً فيه على المؤلف ([42]) .

وبذلك يقفل الباب على هؤلاء الأدعياء ويبطل ما ينادون به في عصره مـن فكرة الحلول والاتحاد مدعين أن سلطان العارفين محي الدين ابن عربـــي نـــادي قبلهم بما ينادون الآن .

ونحن نقرر أيضاً أن التصوف الإسلامي إذا كان بعيداً عن الشطح وبعيـــداً عن الحلول والاتحاد فهو أيضاً ليس فيه رهبنه الشام كمـــا يدعـــي مـــاركس ولا أفلاطونية اليونان ولا زرادشيته الفرس ولا فيدا الهنود كما يقول جونس إنه ينبـــع من القرآن مباشرة ويهتدي بالسنة المحمدية .

والواجب على العلماء أن يرصدوا أقلامهم لهذه الغاية وهي تنقية التصـوف من الدخيل والدخلاء . وعودته كما كان نهجاً إيمانياً تعبد يا خالصاً لله وهذه فـــي النهاية الطاعة الكاملة لله والعبودية الحقة له وربط المعـــارف الصوفيـــة بـــالعلوم الإسلامية الظاهرية لأنها تنبع منها وفي مجالها تتنفس .

---

[41] - المعرفة عند مفكري المسلمين للدكتور محمد غلاب صـــ٣٥٧ .

[42] - تراث الإنسانية صـــ١٥٥ المجلد الأول .

ومن ناحية أخرى إبعاد الأمة الإسلامية عن الجدليات والخلافات التي تمزق وحدتها وتهدر طاقتها إلى روح الدين الخالص وجوهره الناصح الذي يجمع ولا يفرق ويوحد ولا يشتت .

ومع هذا الدفاع الحار الذي قام به الإمام الشعراني عن الإمام ابن عربي ([43]) نراه يمنع من قراءة بعض كتبه وحال بينها وبين العامة كما هاجم الإمام الغزالي مع أجلاله العظيم لحجة الإسلام ولا يكتفي بذلك بل يهاجم جمهرة من سادة المتصوفين القدماء مع احترامه لهم وتقديره لمكانتهم .

وطالب رجال التصوف في عصره إن يمتنعوا عن النطق ببعض الألفاظ مثل " يا من نراه ولا يرانا " وقوله " يا ساكن هذه القبة الخضراء " ([44]) وقولهم سبحان من كان العلا مكانه ونحو ذلك ، ورأيه أنه لا يجوز التلفظ بها لما يورث من الإلهام عند العوام " من أن الله تعالى في مكان خاص .. وحجته في هذا المنع إجماع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة سواء أكان الإطلاق في حق الله سبحانه وتعالى أو في حق أنبيائه أو في حق دينه . وكان الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه يقول " ما أطلق الشرع في حقه تعالى أو في حق أنبيائه أو في حق دينه أطلقناه . وما منع منعناه وما لم يرد فيه أذن ولا منع ألحقناه بالممنوع ([45]) .

وطالب الصوفية أصحاب الشطح والإغراق .. أصحاب السكر والفناء أن يكفوا عن إطلاق هذه الألفاظ على سبحانه الله وتعالى أمثال : الخمار والساقى وراهب الدير وليلى ولبنى وسعدي وأسماء ودعد . وهند وكذلك لا يجوز بإجماع إيراد ذاته بقول بعضهم .

[43]- ابن عربي .. هو الشيخ الأكبر الإمام أبو بكر محي الدين بن علي بن محمد بن أحمد ابن عبد الله الطائي الحاتمي الأندلسي ، المعروف بابن عربي المولد بمرسية من بلاد الأندلس سنة ٥٦٠ والمتوفي بدمشق الشام سنة ٦٣٨ هـ . ومن كتبه " الفتوحات المكية " وفصوص الحكم .

[44]- لطائف المنن والأخلاق جـ٢ صـ٢٧ .

[45]- المصدر السابق صـ٢٧ جـ٢ .

أنا من أهوى ومن أهو أنا

نحن روحان حللنا بدنا

وقول بعضهم :

تمازجت الحقائق والمعاني

فصرنا واحداً روحا ومعنى

يقول الشعراني أما أهل السنة والجماعة فإنـــهم لا يرتضـــون هـــذه الأشياء ، ولا يوافق هو عليها لأنه سنى محمدي . ولقد سأل أستاذه الخواص عـــن التغزلات التي في كلام القوم هل مرادهم بها الله تعالى : ؟ فقال : لا إنما مرادهـــم بها الخلق ولكن يفهم منها في حق الحق يبعثه عند سماعها ، على الحضـــور مـــع الحق . قال لأن أولياء الله تعالى أعرف الخلق بالله تعالى عن أن يجعلـــوه محـــلاً لتغزلاتهم فلذلك ضربوا الأمثال بالمحبين والمحبوبين من قيس ولبني ونحو ذلـــك فليتأمل ([46]) .

ومما يحرم سماعه عند الإمام الشعراني قول المتنبي ([47]) في محمـــد بـــن زريق :-

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه

لما أتى الظلمات صرت شموساً

أو كان لج البحر مثل يمينه

ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه

عبدت فصار العالمون مجوساَ

---

[46]- لطائف المنن والأخلاق صـــ ٢٧ جـــ ٢ .

[47]- المتنبي .. هو الشاعر المفلق أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الموارد بكنده سنة ٣٠٣ هـــ والمتوفي قتيلا سنة ٣٥٤ : ومن شعره :

ولما صار ود الناس حبا

جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت اشك فيمن اصطفيه

لعلمي أنه بعد الأنام

وقوله أيضاً :

أنا في أمة تداركها الله

غريب كصالح في ثمود ([٤٨])

فكل هذه الأشياء وأمثالها ، يفهم منها التهاون بمعجزات الأنبياء فلا يجوز . وأكثر ما يقع ذلك ويحذر منه شعراً أبو العلاء ([٤٩]) المعري وأبـــي نـــواس ابـــن هانيء والواجب على المؤمن أن يحفظ سمعه من سماع ذلك ويزجر من يراه يتكلم به . ويضع قاعدة لهؤلاء الذين ينادون أو يتقولون بأن الولاية خير من النبـــوة .. يتقولون ذلك بغير علم ويدعونه بدون دليل فيقول : " إن ما سوى الأنبيـــــاء مـــن البشر لا يلغون مقام الأنبياء أبداً ". ومن هنا نفهم أن هذه الإشارات التي ترد فـــي الشعر وخلافه خطأ بإجماع الأمة ولا يرتضيها من لديه غيرة على دينه . ويذكـــر أن سبب توبة أبي العتاهية ([٥٠]) عن الشعر أنه أنشد :

الله بيني وبين مولاتي

أبدت لي الصد والملالات

---

[٤٨]- لطائف المنن والأخلاق صـــ٢٧ جـــ ٢ .

[٤٩]- أبو العلاء المعري ـــ أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي بن سليمان المعري المولد بمعرة النعمان سنة٣٦٣ هـــ ٣٩٧ م والمتوفي بها سنة ٤٤٩ هـــ له عدة دواوين منها سقط الزند ـــ شوء السقط ومن شعره :

صاح هذه قبورنا تملء الرحب

فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض

إلا من هذه الأجساد

[٥٠]- أبو العتاهية : هو أبو اسحاق إسماعيل أبن القاسم بن سويد بن كيسان المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور ولد سنة ١٣٠هـــ ٧٤٨ م بعين التمر بالحجاز قرب المدينة . ومن شعره :

ألا إنما التقوى هو العز والكرم

وحبك لدنيا هو الفقر والعدم

وليس على عبدي تقي نقيصة

إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ونشأ بالكوفة وأكثر شعره في الزهد والأمثال توفى سنة ٢١١ هـــ ٨٢٧ م .

فقيل له في المنام أما وجدت من تجعل بينك وبين امرأة في الحرام إلا الله تعالى . فاستيقظ وتاب فلم ينظم بعدها بيتا إلا في الزهد والترغيب في الطاعات ([٥١])

ومن أجل تقنية التصوف . من أجل عودته نقياً طاهراً لا يبتعد عن الشريعة ولا يهتدي بغير القرآن من أجل هذا الهدف ومن أجل تلك الغاية النبيلة أرشد المريدين وأرسل منشوراً وخرجت مؤلفاته كالنذير لتجمع الشاردين عن الطريق وتحول بينهم وبين قراءة بعض الموضوعات من كتاب الأحياء للإمام الغزالي على الرغم من أن الإمام أبا الحسن الشاذلي كما قلنا سابقاً وكررنا ذلك كان ينصح مريديه بقراءة هذا الكتاب ولكنه حدد بعض الموضوعات . طالب بعدم قراءتها ومنع أيضاً قراءة كتاب النفخ والتسوية له . وقال إن هذه الموضوعات . إما مدسوسة عليه أو وضعها أوائل أمره . ثم رجع عنها كما ذكر ذلك في كتابه المنقذ من الضلال .

وإذا كان قد حال بين المريدين وبين قراءة بعض الموضوعات في كتاب الأحياء ([٥٢]) فإنه أيضاً منعهم من بعض الموضوعات من كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي ويضرب الأمثلة بقوله " الله قوت العالم " وكذلك حذر من قراءة بعض الموضوعات في تفسيره . ولعلنا نتساءل ما الداعي إلى هذا المنع .. ؟ وما السبب الذي دفع الشعراني لعملية المصادرة هذه .. ؟ وهو الحريص على إشاعة المعرفة ونشر الثقافة . وحرصه على أن يتفقه الناس ويتحلوا بالمعرفة والإحاطة ؟ والجواب أن هذه الموضوعات التي طالب بعدم قراءتها . كانت أراء لا تخضع للوحي ولكنها تحكم العقل في أمور الدين . وتحاول أن تنحرف بالنصوص لتتمشى مع العقل والدليل على ذلك قوله :

---

[٥١]- لطائف المنن والأخلاق جـ٢ صـ٢٧ .

[٥٢]- صاحب كتاب الأحياء ـ الإمام الغزالي : وهو محمد بن محمد بن أحمد الإمام الجليل أبو حامد الطوسي الغزالي حجة الإسلام . قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين ومن مؤلفاته :

١)إحياء علوم الدين

٢) والمنقذ من الضلال .

٣) وتهافت الفلاسفة .

عند تحذيره من قراءة كلام منذر بن سعيد البلوطي : فإنه مخلــوط بكــلام أهل الاعتزال لما عاشرهم عندما رحل بلاد المشرق .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود " إن القرآن لا يستشير الإنسان فـــي ايـــه قضية من القضايا التي جاء بها الوحي . ولا يتحكم الوحي إلى الإنسان باعتبـــاره حكماً . في أي مبدأ من مبادئه . ولا يطلب منه مشورة في أيه قاعدة من القواعـــد التي شرعها . بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين فقط .

ويقول أيضاً " إن الله ــ في عظمته وجلاله ــ سبحانه ــ لا يلقي برســالته ليبحثها الإنسان ويبدي رأيه نفياً أو إثباتاً. سلباً أو إيجاباً كلا بل كل من توهم ذلــك . فإنه لا يقدر الله حق قدره وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما ألقاها ســبحانه لتتبع في خضوع وسجود . ولتتبع دون حرج يحيك في الصدر أوشك يجول فـــي النفس .

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثــم لا يجــدوا فــي أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)([٥٣]) .

وكل من وجد في نفسه حرجاً من قضايا الدين وكل من لم يســـلم تســليماً كاملاً مطلقاً تاماً . كل من كان كذلك فإنه يحسن بـــه . إن يرجــع إلـــى إيمانـــه ليصححه وليتوب إلى الله توبة نصوحا. وباب التوبة مفتوح للتائبين . أنـــاء الليــل وأطراف النهار . وفي كل نفس وفي كل لحظة كان سلفنا الصالح ينزعون هــــذه النزعة . نزعة الخضوع المطلق لما جاء الرسولﷺ . لقـــد كـــانوا يســـجدون بجوارحهم وقلوبهم وأرواحهم وعقولهم . لقد كانوا يخضعـــون عقولـــهم للنـــص ويجعلونه القائد . الحكم المهيمن . وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم في النـــص إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشري في النـــص . وكـــانوا يعرفون . أن الوحي إنما جاء هاديا للعقل وقائداً له في الأمور التي لا يتأتي للعقـل أن يلج ميادينها أو يقتحم حماها أو يدلي فيها برأي يتفق عليه الناس وهذه الميــادين هي الدين . الدين ليس رأياً بشرياً . إنه تنزيل من حكيم حميد ، وكل موقف مـــن الشخصية البشرية تجاه النص سوى موقف السجود له : إنما هو موقـــف لتبديــل

---

[٥٣]- سورة النساء آية ٦٥ .

الدين من أن يكون إليهما إلى أن يكون بشرياً ولو كان يستقيم الأمر على ذلك لما كان هناك من حاجة إلى الدين .

ومن هنا ومن أجل هذه الغاية حذر الإمام الشعراني من صولة العقول ونادى بالتخفيف من غلوائها .. وطالب اتباعه بالبعد عن المؤلفات التي ينحي أصحابها هذا المنحى .

حذر من قراءة موضوعات في تفسير الزمخشري ورأيه فيها أنها كفر صراح كما حذر من مطالعة كتب إخوان الصفا ويقال أن مؤلفها المخريطي وهو من الملحدين المجانبين لطريق الإسلام . كما منع اتباعه الراغبين في طريق الحق الباحثين عن علامات الهدى والصدق من قراءة بعض كتب إبراهيم النظام وكتب ابن الراوندي ([٥٤]) وكتب معمر بن المثنى . وبعض موضوعات وقصائد للشيخ عبد الكريم الجيلي . من ذلك قصيدته .

قطعت الورى من نفس ذاتك قطعة

وما أنت مقطوع ولا أنت قاطع .

فإنه لا يجوز إطلاقه على الله تعالى . وأيضاً بعض كتب الحفيد ابن رشد وكتاب الفتوحات المكية والفصوص لابن عربي وذلك لما فيهما من الكلام المدسوس عليه .

يروى عن الإمام أبي الحسن الشاذلي أنه نهى اتباعه عن مطالعة مؤلفات أبي عربي .. فقيل له هل الرجل محق .. أم زنديق .. ؟ فقال الرجل محق ولكن لا تبلغون شأوه .

وكتب ابن سبعين لما فيها مما يوهم الحلول والتشبيه وأقوال الملحدين ويحذر من سماع بعض قصائد عمر بن ([٥٥]) الفارض وخصوصاً الثانية .

---

[٥٤]- الرواندي ٢٨٩ هـ ـ ٩١٠ م . لمحمد بن يحي بن إسحاق أبو الحسين الرواندي أو ابن الرواندي : فليسوف مجاهر بالحاد من سكان بغداد نسبته إلى راوند من قرى أصبهان قال ابن كثير أحد مشاهير الزنادقه طلبة السلطان فهرب ولجأ إلى ابن لاوى اليهودي بالأهواز وصنف له في مدة مقامه عنده كتابه الذي سماه الدامغ للقرآن وقال ابن حجر العسقلاني . ابن الرواندي الزنديق الشهير . كان أولاً من متكلمي المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالالحاد .

[٥٥]- ابن الفارض . وهو الإمام العارف بالله شرف الدين أبو حفص عمر بن ابن الحسن على بن المرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة المعروف بابن الفارض المولد بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ ـ والمتوفي سنة ٦٣٢ هـ ـ . له ديوان شعر مطبوع .

هذا قليل من كثير مما كان يطالب اتباعه ومريديه بالعبد عنه وعدم قراءته وأن دل هذا على شيء فإنما يدل على سعة قراءته وقوة ذاكرته وإحاطته بأكثر المؤلفات والموسوعات الموجودة في عصره ويدلنا هذا أيضاً على أن الإمام الشعراني كان يقرأ ويفحص ويقارن وينفي الزيف ويلخص حتى يدل في النهاية على المورد العذب ويستخرج الجوهر الصافي . واللؤلؤ المكنون .

وإذا كان الإمام الشعراني منع هذه الكتب وحال بينها وبين مريديه وطلاب المعرفة في عصره . فما هي الكتب والمؤلفات التي كان ينصح بقراءتها ويحرض على العكوف عليها .. ؟

لقد كان ينصح المريدين دائماً بالعكوف على كتب الشريعة من حديث وتفسير وفقه . وكان يطالبهم بالاقتداء بائمة الدين من الصحابة والتابعين وقبل هذا وبعده . كان ينصحهم ويحرضهم على العكوف على كتاب الله وسنة رسوله ([٥٦]) . إنهما الحق الخلص من اتبعهما فقد اهتدى ومن حاد عنهما فقد انحرف ومن ابتغى الهدى في غيرهما أضله الله . ومن تركهما من جبار قصمه الله : إنهما الهدى الكامل الذي يجب أن يلجأ إليه المسلمون حتى ينقذهم مما هم فيه . طالب بالعودة إلى الكتاب والسنة نستلهمهما في التصوف وفي الفقه وفي كل ميدان من ميادين الحياة .

يقول الرسولﷺ " القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ومن حكم به عدل ومن اعتصم به هدى " ([٥٧]) .

وروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، أنه قال : من أراد العلم فليثور القرآن ، فإن فيه علم الأولين ، والآخرين ([٥٨]) .

---

[٥٦]- لطائف المنن والأخلاق جـ٢ صـ٢٩ .

[٥٧]- الترمذي عن الحارث الأعور عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٥٨]- الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح ، قاله الحافظ الهيثمي .

وقد قال الله تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هـــدى للمتقيــن الذيــن يؤمنون بالغيب) ([٥٩]) .

وإذا كان الإمام الشعراني نادي بالتصوف الصادق فإنه حض اتباعه أيضـــا على العمل وهذا يقتضنا أن نبين رأي الإسلام في حقيقة العمل .

---

[٥٩]- سورة البقرة آية ١ .

الفصل الثاني

حقيقة العمل في شريعة الإسلام

حقيقة العمل في شريعة الإسلام

*************** * *

احتفل الإسلام بالعمل وحض عليه ، وطالب أبناءه بالسعي في فجاج الأرض للحصول على الرزق ، ورفع العمل إلى مرتبة العبادة عامة والجهاد في سبيل الله خاصة .

يقول بعض الصحابة ، وقد رأوا شاباً قوياً يسرع إلى عمله . لو كان هذا في سبيل الله . . ؟

فيقول عليه الصلاة والسلام لهم لا تقولوا هذا . فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغار فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن خرج يسعى رياء ومفخرة فهو في سبيل الشيطان .[1]

ويرفع الرسول ﷺ درجة العامل على الصدقة إلى درجة المجاهدة في سبيل الله.

فيقول عليه الصلاة والسلام "العامل على الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته" [2]

ويقول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لرجل ترك عمله الذي يرتزق منه ورحل إلى المدينة ليجاهد " ارجع فإن عملاً بالحق جهاد حسن".

وروى أيضاً أنه بعث سفيان بن مالك ساعياً بالبصرة فمكث حيناً ثم استأذنه في الجهاد فقال له عمر " أولست في جهاد . . "[3]

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الضرب في الأرض طلباً للرزق من أسباب تخفيف العبادة مثله في ذلك كمثل المرض.

ومن هنا نتبين أن العمل في نظل الشريعة الإسلامية كما يحدثنا القرآن الكريم ضرورة من أكبر الضرورات لقوله تعالى ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فأقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى

---

[1] - أخرجه الطبراني في الكبير والسيوطي في الجامع الصغير وهو صحيح عن كعب بن عجرد.

[2] - أخرجه احمد في مسنده وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك عن رافع بن خديج وهو صحيح.

[3] - الخراج - أبو يوسف صـ ٩٨

وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه﴾ .([1]).

ويتضح من هذا أيضاً أن المشرع عندما لجأ إلى التخفيف كان يهدف من وراء ذلك إلى عدم إرهاق أتباعه بالعبادة ليلاً فيقعدهم ذلك عن طلب الرزق نهاراً ويدل دلالة واضحة على مدى إهتمام الإسلام بالعمل وإذا كان العبد يثاب في الآخرة على ما يؤديه من العبادة كصلاة وصيام فإنه يثاب أيضاً على أداء العمل إذا كان حلالا أياً كان هذا العمل . يقول الرسول ﷺ " التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء" ([2]) ويقول أيضاً "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار"([3])

والعمل في نظر الإسلام كفارة من الذنوب ويمحو الله به الخطايا يقول الرسول ﷺ " من بات كالا من عمل يده بات مغفوراً له"[4] ويقول أيضاً : "إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الجهاد ويكفرها السعي في طلب الرزق"([5]).

والرسول ﷺ قام بمختلف الأعمال . كان يساعد الصحابة رضوان الله عليهم في حفر الخندق في شتاء بارد وكان يحمل التراب معهم في بناء المسجد وكان يقوم بجمع الحطب وهم في السفر وكان يشتغل أجيراً لأهل مكة يرعى الغنم على قراريط وفي هذا يقول عليه السلام: "ما بعث الله نبياً إلا رعي الغنم فقال أصحابه وأنت . . ؟ فقال نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"([6]).

وكذلك عمل عليه السلام أجيراً عند خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فكان عليه السلام يخرج في مالها ذاك حتى يبلغ الشام فيبيع ويشتري ليس هذا فحسب بل

---

[1] سورة المزمل آية ٢٠

[2]- أ) التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة - - أخرجه ابن ماجه والحاكم في المستدرك عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ب) التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد رضي الله عنهما.

[3]- أخرجه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنهما.

انظر ابن ماجه حديث ٢١٣٩ جـ ٢

[4]- حديث صحيح أخرجه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه .

[5]- أخرجه أحمد في مسنده وابن عساكر عن أبي هريرة وقيل ضعيف.

[6]- ابن حجر – فتح الباري شرح صحيح البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة.

نحن إذا استعرضنا حياته عليه السلام نشاهد أنه كان يشارك خدمة في أعمالهم ويخفف عنهم بعض أعبائهم فيرقع ثوبه ويخصف نعله ويحلب شاته ويعقل بعيره ويقم([1]) بيته ويدخل السوق بنفسه فيشتري ما يريد ويحمل بضاعته إلى البيت ويخدم ضيوفه بنفسه([2])".

والأنبياء والرسل من قبله عليه الصلاة والسلام كانت لهم حرفهم وكانت لهم أعمالهم لقد عمل زكريا عليه السلام نجاراً وعمل داود عليه السلام زراداً وعمل موسى عليه أفضل الصلاة والسلام أجيراً وكل من هؤلاء الأنبياء والرسل كما أشار الرسول عليه الصلاة والسلام رعي الغنم([3]).

وكلٌ مشي في الأسواق كما أشار القرآن الكريم :﴿ وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ ([4]). وكذلك عمل أصحاب الرسولﷺ أمثال أبي بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم يروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "كان أصحاب رسول الله ﷺ عمال أنفسهم وكان يكون لهم أرواح (أي روائح كريهة من العمل) فقيل لهم لو اغتسلتم([5]).

---

[1]- يجمع القمامة

[2]- كان من تواضعه ﷺ يلبس الصوف وينتعل المخصوف ويركب الحمار ويحلب الشاه ويخصف نعله ويرقع ثوبه وكان لا يأنف أن يركب الحمار ويردف خلفه وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أكل خشناً ولبس خشناً لبس الصوف واحتزى المخصوف رواه ابن ماجه والحاكم . وعن أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويعتقل الشاه . رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح قاله الحافظ الهيثمي . قيل لعائشه ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته . . ؟ قالت كان بشراً من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ، ويخدم نفسه رواه أبو نعيم في الحلية . كان يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة – الجامع .وروى أبو الشيخ عن عائشة : يخصف النعل ويرقع الثوب كان يركب الحمار واضعاً عليه قطيفة . وكان مع ذلك يستردف متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.

[3]- النويري – نهاية الأرب جـ ١٨ صـ ٢٦٣ – الرسالة القشيرية صـ ٣٤٢ جـ١

[4]- سورة الفرقان آية ٢٠

[5]- رواه الإمام البخاري في صحيحه جـ٢ صـ٢٠٩ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : لو رايتنا مع نبينا ﷺ لحسبت إنما ريحنا ريح الضأن، إنما لباسنا الصوف وطعامنا الأسودان التمر والماء رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح وعند أبي برده قال : قال لي أبي لو رأيتنا ونحن مع نبينا وقد أصابتنا السماء حسبت ريحنا ريح الضأن – رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح – انظر ابن ماجه جـ٢ صـ ١١٨٠

وقد خفي يوماً حديث من أحاديث الرسول عليه السلام على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرد هذا إلى انشغاله بالتجارة "إذ يقول فيما يرويه البخاري أخفى على من أمر رسول الله ﷺ ألهاني الصفق في الأسواق".

وبمثل هذا احتج أبو هريرة رضي الله عنه أنه خفي على الصحابة من أمر رسول الله ﷺ ما علمه فقال : إن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم العمل في أموالهم وأن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ مالا يحفظون([1]).

وحين هاجر المسلمون إلى المدينة استضاف سعد بن الربيع الأنصاري عبد الرحمن بن عوف وعرض عليه نصف ماله ، فأبى عبد الرحمن أن يكون عالة على سعد وآثر العمل قائلاً: "هل من سوق فيه تجارة. . ؟ أو قال دلني على السوق"([2])

---

[1]- صحيح البخاري جـ١ صـ ٣٥ – ويروي صاحب حلية الأولياء الحديث برواية أخرى حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أبو زرعة الدمشقي ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري حدثني سعيد وأبو سلمه أن أبا هريرة قال : أنكم تقولون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ وتقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون عن النبي ﷺ مثل حديث أبي هريرة وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكان يشغل إخواني من الأنصار عمل أموالهم وكنت امرؤ مسكيناً من مساكين الصفة الزم النبي ﷺ على ملئ بطني فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون . حلية الأولياء جـ١ صـ ٣٧٨

[2]- القسطلاني ارشاد الساري جـ٥ صـ ٣٣

رأي الإمام الشعراني في العمل

****

هذا هو رأي الإسلام يلزم أتباعه بالعمل حيثما حلوا ويكره لهم البطالـــة والكســل ويحثهم على الضرب في فجاج الأرض حيث قرن العمل بالعبـادة وسـوى بيـن الجهاد والسعي على الرزق وطالب اتباعه بالتخفيف من التبتل في الليل حتـــى لا يكون ذلك حائلاً بينهم وبين أداء العمل نهاراً.

إذا كان ذلك كذلك فما هو رأي الإمام الشعراني في العمل .. ؟ وما رأي رجـــال التصوف الصادقين .. ؟

لقد بينا أن الإمام الشعراني ﷺ سني محمدي . . يلتزم أوامر الدين ويحض علـى تعاليمه ، ويتبع سنه نبيه ، ومن هنا كان يحث كل من اجتمع به علـــى الاشــتغال بالحرف والصناعات ويطالب مريديه على دوام إقامتهم في حرفهم إن كانوا مـــن أصحاب الحرف قبل اجتماعهم به .

وهو بهذا يخالف بعض المتصوفة في عصره . حيث كانوا يطلبون ممن يجتمـــع بهم أن يترك الاشتغال بالحرف ويتفرع لأحزابهم وأورادهم. وهم بدعوتهم بعيدون عن التصوف النقي ومخالفون منهج الصوفية الصادقين في مزاولتهم لكل الأعمال. إن هؤلاء المريدين الذين زين لهم مشايخهم ترك أعمالهم لا يخلو حالهم من أمرين إما أن الشيخ يطعمهم من الصدقات "التي هو أوساخ الناس" فيتلف بواطنهم . وإمـا أن يصيروا يسألون الناس فيكون مصيرهم النار. لقول النبي ﷺ "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به"([1]) وكلا الأمرين لا يقره الإســـلام ، ويرفضـــه الصوفيـــة الصادقون في الطريق ممن أخذوا نفوسهم بمنهج الرسول ﷺ باعتباره أول صوفـي في الإسلام.

يقول سيدي إبراهيم المتبولى([2]) حكم الفقير الذي لا حرفة له حكم البومة الســاكنة في الخراب ليس فيها نفع لأحد [1]وهو يرى أن الله تعالى أكرم المؤمن المحـــترف

---

[1]- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في الحيلة عن أبي بكر.

[2]- إبراهيم بن على بن عمر ، برهان الدين الأنصاري البتولي كانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد له وله بر ومعروف وأنشأ أماكن منها جامع كبير بطنطا وبرج بدمياط قال ابن إياس : كان نادرة عصره وصوفي وقته توفي باسدود بالمنوفية عن نحو ٨٠عاماً وهو من أهل متبول بالغربية ٨٧٧ هـــ ١٤٧٣ م.

بسبعة أمور قلما توجد في هؤلاء ممن يريدون سلوك هذا الطريق . وأول هذه الأمور أنه يأكل من كسب يمينه ويطعم الناس غنيهم وفقيرهم ظالمهم ومحسنهم عالمهم وجاهلهم.

ثانيا : حمايته من أكل صدقات الناس وأوساخهم .

ثالثا : شهوده جهل نفسه وتذكره لسوء فعله وخوفه من قبيح معاصيه من غير وقوع في تأويل يخفف عنه الندم أو نظر إلي كونها صغيرة تكفر بالصلوات الخمس .

رابعا : شهوده حقارة نفسه على الدوام وأنه أدني الناس منزلة عند الله .

خامسا : كثرة تعظيمه العلماء العاملين لحسن ظنه بالمسلمين .

سادسا : أنه يأتي بعبادته بهمة وخشوع وذلة وانكسار وكثرة تضرع وابتهال .

سابعا : سلامته من الشبه العقلية والتحكمات الهوائية والاعتقادات الفلسفية والحجج الوهمية بل إيمانه إيمان الفطرة ([2]) .

ويكاد يتفق مع سيدي إبراهيم المتبولي وكل الصوفية ممن يلتزمون بالكتاب والسنة ويتبعون نهج الرسول ﷺ ، ومن هنا نري أيضا العارف بالله عليا الخواص يقول : " الكامل من يسلك الناس وهم في حرفهم لأنه ما ثم سبب مشروع إلا وهو مقرب للعبد من حضرة الله عز وجل ، وإنما يبعد الناس من الحضرة الإلهية عدم إصلاح نيتهم في ذلك الأمر ، سواء العلم والعمل وسائل الحرف المشروع " ([3]) .

إن العارف بالله إبراهيم المتبولي يشبه المريد المتعطل بالشيء الذي لا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره فهو في نظره كالبومة ، والبومة لا تبصر الضوء لأنه يعشي عينيها ولا تسعى في طلب الرزق في وهج النهار لأنها لا تقدر عليه ([4]) .

ويبين لنا أن هؤلاء المحترفين لهم الأجر والثواب لأنهم يعمرون الأرض ويضربون في فجاجها وهم في ذلك لا يهملون أوامر الدين ، بل خوفهم دائم وخشوعهم مستمر .

---

[1] - لطائف المنن والأخلاق ج جـ صـ

[2] - لطائف المنن ص٤٣ ج٢

[3] - لطائف المنن ص٤٤ ج٢

[4] - لطائف المنن والأخلاق ج٢ ص٣٧

ويأتي الخواص فيضع قاعدة عريضة لهؤلاء الجالسين للمشيخة والجالسين لتسليك المريدين .

إن الصادق في الطريق إلي الله هو من يدل الناس إليه وهم في حرفهم ، ويدخلهم طريق الحق وهم في أعمالهم ، لأن كل عمل قصد به وجه الله تعالي فهو عبادة .

إن هذين الشيخين الجليلين عندماناديا بهذه الدعوة لم يكونا مدعيين شيئا ولا مبتدعين طريقة جديدة بل هما في ذلك متبعين لنهج رسولهما .

لقد جاء الرسول ﷺ والصحابة في حرفهم وأعمالهم فلم يأمر أحدا منهم بترك حرفته التي بيده بل أقرهم على أعمالهم وأمرهم بالنصح فيها " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " ([1]) .

وإذا كان طريق الصوفية هو طريق الصفوة المختارة والنخبة المنتقاة ، فهو طريق الرجل الكامل ولن يستطيع المريد أن يتصف بهذه الصفة وهو في حاجة إلي الناس لأن المحتاج ناقص والناقص لا يكون كاملا .

والإمام الشعراني رضي الله عنه يقول : استغناؤكم بالشيء أحسن من ادعاؤكم الكمال في الطريق وأنتم محتاجون إلي الناس لأن الحاجة إلي الناس تنافي الكمال وقد منح الله تعالي قوما في الأسباب حيث لم تشغلهم أسبابهم عن ذكر الله عز وجل [2] بقوله تعالي ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ([3])

وعن أبي شعبة قال : جاء رجل إلي أبي ذر فعرض عليه نفقة فقال أبو ذر : أعندنا عنز نحلبها أو حمر تنقلنا ومحررة تخدمنا وفضل عباءة عن كسوتنا إني لأخاف أن أحاسب على الفضل ([4]) .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه رأي جماعة وهم جلوسا في المسجد فأمرهم بطلب الكسب ([5]) .

---

[1]- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عائشة وهو حديث ضعيف وفي رواية إن الله تعالي يحب من العامل إذا عمل أن يحسن عمله أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن كليب وهو ضعيف .

[2]- لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني ج١ ص .

[3]- سورة النور آية ٢٦ .

[4]- رواه الطبراني ورواه أبو نعيم في الحلية .

[5]- اللمع –تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .

وسئل أبو سفيان بن عيينه رضي الله عنه عن رجل يحترف ما يقوم بنفسه وبعياله ولو ذهب لصلاة الجمعة لتعطل عن ذلك فقال يحترف ما يقوم بنفسه وبعياله ويصلي وحده ([1]) .

وفي القرآن العظيم : " فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض " ، أي للقيام بالأسباب ﴿ وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾([2]) أي اذكروا الله تعالي حال انتشاركم في الأرض أي للقيام بالأسباب التي يعود عليكم نفعها .

إن المؤمن المحترف أكمل عند الإمام الشعراني من هؤلاء المجاذيب ومن مشايخ الزوايا الذين يأكلون بدينهم وليس بيديهم حرفة دنيوية تعفهم عن صدقات الناس التي هي أوساخهم .

يقول الرسول ﷺ : " من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له " ([3]) ويقول أيضا : " ليس الجهاد أن يضرب الرجل بسيفه في سبيل الله تعالي إنما الجهاد من عال والديه وعال ولده فهو في جهاد ومن عال نفسه فكفها عن الناس فهو في جهاد " ([4]) .

لقد عاش الإمام الشعراني في عصر اختلطت فيه الأمور اختلاطا يصعب التمييز بينها وكثر في عصره الأدعياء المتطفلون وشاهد كثرة الزوايا التي تحوى المئات والألوف من هؤلاء المتعطلين الذين يعيشون على صدقات الناس وعطاياهم وعلى ما يتبرع به الموسرون ، فآلمه هذا الوضع واقض مضجعه ، إن هذه ظاهرة ظاهرة التعطل باسم الدين والاستكانة باسم التصوف ، من أخطر النكسات التي تصاب بها المجتمعات الإسلامية هل هذا التعطل هو التصوف .. ؟

وهل ما يدعيه هؤلاء هو الحياة الروحية للإسلام .. ؟

إن الحقيقة تخالف ذلك وواقع الإسلام يكذبه ، إن التصوف ليس خمولا وتكاسلا والرضي بالدون من العيش ، إن التصوف النقي الطاهر قوة وبأس ونضال وعمل إنه تصعيد بالحياة إلي أعلى وارتفاع بالقيم الإنسانية إلي ما هو أرفع وأسمي .

---

[1] - لطائف المنن والأخلاق ص٣٢ ج٢

[2] - سورة الجمعة آية .

[3] - ابن عساكر عن أنس والجامع الصغير للسيوطي وهو صحيح .

[4] - ابن عساكر عن أنس وقيل ضعيف .

إن بقاء هؤلاء في الزاوية لقراءة الأوراد وتأدية الركعات وانتظار الصدقات ليس من الإسلام في شيء هؤلاء الذين تركوا الناس يعملون ويضربون في فجاج الأرض وهم نائمون ، وتركوا إخوانهم يكدحون وهم لاهون ، اعتمادا على أنهم مشغلون بالعبادة والصلاة ، لن يقبل الله أعمالهم وسيكون عليهم الوزر والعقاب يوم القيامة لأن عبادتهم هباء وصلاتهم لا خير فيها ويوم القيامة تكون لغيرهم لأنهم تركوا السعي والتكسب وقنعوا بالصدقة إن هؤلاء مبتدعون وليسوا متبعين لأنهم لو كانوا متبعين حقا وصدقا ما تركوا العمل ، ولكان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، إنهم خالفوا تعاليمه وأهملوا سنته ورفضوا قوله " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم " ([1]) .

إن هؤلاء هانت عليهم أنفسهم فهانوا على الله وقبلوا أن تكون أيديهم هي اليد السفلي التي تأخذ ولا تعطي ، واليد إذا كانت قادرة على العمل ولم تقم به ، هي أحط الأيدي وأهونها عند الله .

يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه أنه رأي فيما يري النائم أنه نزل في القبور " فرأيت القيامة قد قامت ورأيت جماعة واقفين وأعمالهم عنهم تصدر والناس ينتهبونها ، فقلت : من هؤلاء ؟

فقال لي ملك هناك ، هذه أعمال هؤلاء القوم الذين كانوا يأكلون أوساخ الناس ويسألونهم وهم قادرون على الكسب ، فحكم الله تبارك وتعالي أصحاب تلك اللقيمات في أعمالهم ، ويأخذ كل واحد منها ما يشاء في نظير ما أطعمه لأن تلك العبادات كلها نشأت من القوة الناشئة من ذلك الطعام فمن أكل من كسبه كان عمله له " ([2]) .

وهذه الرؤيا التي رآها الإمام الشعراني تتفق مع ما يروي عن الرسول ﷺ عندما سأل أحد المتعبدين عمن يعوله .. ؟

وعندما قال له الرجل : أخي قال له الرسول ﷺ ، أخوك خير منك .

---

[1]- سبق تخريج هذا الحديث انظر الرسالة .

[2]- لطائف المنن ج٢ ص٩

وكان ﷺ يدعو إلي الاتجار في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة ويجعل الأرض الموات لمن يحييها ويحث على العمل حتى آخر رمق في الحياة.

يقول الرسول ﷺ " إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل " ([1]) .

إن طريق الصوفية الصادقون هو طريق العمل لقد عمل إبراهيم بن آدهم واشتغل الإمام الجنيد واحترف أبو يزيد البسطامي وقد شجع السلف الصالح كلهم على عمل الحرفة ، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذا رأي فتي فأعجبه حاله سأل هل له من حرفة فإن قيل لا سقط من عينيه .

وصاحب المدرسة الشاذلية الإمام أبو الحسن رضي الله عنه ، كان يحث أصحابه على التسبب والسعي على العائلة وعلى أنفسهم ، ويقول من فعل ذلك وقام بفرائض ربه عز وجل ، فقد كملت مجاهدته ، وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول لأصحابه " عليكم بالسبب وليجعل أحدكم مكوكه سبحته أو قدومه سبحته أو تحريك أصابعه في الخياطة أو الضفر سبحته ([2]) .

وكان على هذا المذهب سفيان الثوري وسليمان بن يسار وأبو سليمان الداراني رضي الله تعالي عنه وأرضاهم ، فكان سفيان الثوري

يقول : أحب ألا يخلي بيتي من الذهب والفضة ليلة واحدة ، وكان يقول : لأن أخلف بعدي أربعين ألف دينار مع قلة الاهتمام بأمر رزقي ، أحب إليّ أن أموت خالي اليد من الدنيا وأمتعتها وأنا مهتم بأمر رزقي فإن ذلك يؤذن بالاهتمام للحق جل وعلا .

وكان رضي الله عنه تعالي عنه يكوم الذهب بين يديه يذريه في الهواء ويقول : لولا هذا الذهب لتمندل الناس بنا ([3]) .

هذا هو سفيان الثوري رضي الله عنه وتلك كانت طريقته ومذهبه الاستغناء عما في أيدي الناس ، وأما أبو سليمان الداراني رضي الله عنه تعالي يقول : ليس

---

[1] - المسند ج٢ ص١٩١ وأخرجه البخاري في الأدب وعبد الرزاق في الجامع عن أنس وهو ضعيف .

[2] - المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن لابن عطاء الله السكندري .

[3] - لطائف المنن ج١ ص١٦٧ +

الشأن أن تصف قدميك لعبادة وغيرك يفت لك وإنما الشأن أن تحرز عندك قوتك ثم تغلق بعد ذلك بابك ([1])

ويبين رضي الله عنه أن هؤلاء الذين تجردوا من الدنيا في الظاهر ولكنها بقيت في داخلهم تشغل فكرهم وتبعدهم عن حضرة ربهم فيقول : " قد غلط في هذا الأمر خلق كثير فتجردوا في الظاهر في الدنيا ثم تطلعوا لما في أيدي الخلائق ليطعموهم ويكسوهم وينفقوا عليهم ..

فأحرز يا أخي قوتك ثم أغلق بابك فحينئذ لا تبالي بأي داق دق الباب ، بخلاف ما إذا لم يكن في بيتك شيئا فإنك تصير تقول إذا دق داق الباب لعل مع هذا شيئا نأكله " ([2]) . ويؤيد هذا الذي يقوله أبو سليمان الداراني رضي الله عنه ما يقوله الإمام الشافعي رضي الله عنه لا تشاور من ليس في بيته دقيق لأن عقله مشتت وتدبيره ناقص ([3]) .

فإذا ما تركنا عصر الرسول ﷺ ، وعصر الصحابة والتابعين وعصر الصفوة المختارة على امتداد القرون لنصل إلي القرن العاشر الهجري

نري الإمام الشعراني يحدثنا عن رجال التصوف الصادقين في عصره ، يحدثنا عنهم حديث المعجب بهم المقدر لأفعالهم ، لأن سلوكهم الطريق لم يحل بينهم وبين العمل وهجرتهم إلي ربهم لم تباعد بينهم وبين الاحتراف.

يروي الإمام الشعراني عن الشيخ المحقق الصالح جلال الدين المحلي شارح المنهاج ، أنه كان يفتح حانوته من بكرة النهار فيبيع للناس ، ويقول : إنما أبكر للسوق اغتناما لدعائه ﷺ بالبركة لمن يبكر في طلب الرزق ودعائه عليه السلام لا يرد .

يقول الرسول ﷺ : " اللهم بارك لأمتي في بكورها " ([4]) .

وروى البزاز والطبراني مرفوعا " باكروا في طلب الرزق فإنه الجد وبركة ونجاح " .

---

[1]- لطائف المنن ج١ ص١٦٧

[2]- لطائف المنن ج١ ص١٦٧

[3]- لطائف المنن ج١ ص١٦٧

[4]- لطائف المنن ج١ ص١٦٧

ويبكر هذا الولي أيضا لقطع خاطر الاهتمام بأمر الرزق لا حبا في الدنيا من حيث هي دنيا ، فإذا تم له ما أراد أغلق حانوته ليعود إلي عمل آخر هو إقراء الناس في المدرسة المؤيدية ليبصر الناس بأمور دينهم .

وعلى هذا النهج أيضا كان يسير قطب العارفين علي الخواص فقد كان يفتح حانوته إلي آذان العصر فيغلقه ويقول : دخل وقت التأهب

لليل ، وكان إذا فتح حانوته قال : " بسم الله الرحمن الرحيم ، نوين نفع عبادك يا الله " ([1]) .

والإمام الورع جلال الدين المحلي يبكر في فتح حانوته لأن البركة في البكور كما يقول سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويفتح حانوته لا لطلب الدنيا ولا للمفاخرة بها وإنما لطلب الحلال المباح ، الذي يغنيه عن سؤال الناس ، وهناك في نفس كل إنسان تطلع إلي الرزق وحرص على ما فيه البقاء ، وهذا التطلع لا يستطيع الإنسان أن يلغيه أو يرفضه لأنه فوق طاقة الإنسان واحتماله ومن هنا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه كلمته السابقة : " لا تسألوا من ليس في بيته دقيق فإنه مدله العقل " .

ومن قبل جلال الدين المحلي كان الإمام أبو حنيفة خزازا يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف ، ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في التجارة ويقول : " أريد الثراء ولكني لا أريده من الظلم " ([2]) .

ويأتي الخواص أيضا فيفتح حانوته للأسباب السابقة ويضيف إليها سببا آخر جوهريا وهو نفع الخلق ونفع عباد الله .

إن كل إنسان في هذا الكون مطالب بعمل ولا يتم هذا العمل إلا بوجوده ولو أخل كل إنسان بما وكل إليه لأختل نظام العالم وفشل بالتالي ترتيب الكون .

إن كل فرد على ظهر البسيطة لبنة في الجدار وإذا أخلت هذه اللبنة بما وكل إليها كان ذلك مدعاة لانهيار الجدار وتهدمه وكل ميسر لما خلق له.

---

[1]- لطائف المنن ج١ ص ٢٦٢

[2]- أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح ص٣٢ عبد الحليم الجندي .

دعوة الشعراني للعمل ليست للتكاثر والمفاخرة

****

الإمام الشعراني عندما يطالب المريدين بالتكسب عن طريق البيع والشـــواء أو عن طريق الزراعات أو سائر الحرف إنما يقصد بذلك أن يساعدهم هذا العمـــل على القوت بطريقه الشرعي على وجه الإخلاص لا على وجه التكاثر والمفـــاخرة فمن لازمه عدم تعدى الحدود الشرعية في الحل لأن الحلال فـــي كـــل زمـــان لا يتحمل الإسراف ، هذه واحدة أما

الثانية ، فإن من لم يكتسب يأكل بدينه ومن يأكل بدينه يقع في الرياء والنفاق لمـــن يحسن إليه وإذا لم يعطه الناس سلقهم بالسنة حداد .

إن أخطر ما يصيب الدعوات أن تكون وسيلة للكسب وأفدح ما ينزل بالديانـــات أن يعتبرها أصحابها وسيلة للعيش ، إن الدين هو دعوة للمثل الإنسانية منفصل تمامـــا ومتجرد عن الدنيا وزينتها على معني أنه لا ينبغي أن يتكسب بها أو تتخذ تجـــارة للمزايدة عليها ، والمسلمون أيام عهدهم بالقوة والعزة قوة الإيمان وعزة الإســـلام كانوا لا يؤجرون على إمامة في الصلاة ولا على توضيح لدعوة الحق وما أنـــزل من عند الله ، وكانوا يتعشون من حرف أخري أبعد ما تكون عن الـــتردد علـــى المساجد أو على مجالس الوعظ ، ولكي يسجل القرآن الكريم البعـــد التـــام عـــن الاحتراف بالدين يطلب إلي الرسول ﷺ أن يعلنها واضحة في قوله تعالي ﴿ قل مـــا سألتكم من أجـــــر ، فـــهو لكـــم ، إن أجـــري إلا علـــى الله وهـــو علـــى كـــل شيء شهيد ﴾ [1]

وقد ورد أن الله تعالي علم آدم عليه السلام ألف حرفة وقال له : يا آدم قل لبنيـــك يتكسبون بهذه الحرف ولا يأكلون بدينهم وروى البخاري وغيره مرفوعا " ما أكـــل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود عليه السلام كـــان يأكل من عمل يده " [2] .

---

[1]- سورة سبأ آية ٤٧ .

[2]- أخرجه أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه عن المقداد رضي الله عنه .

وروي ابن ماجه مرفوعا " ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة " .

وروى الإمام أحمد والبزار والطبراني " أن رسول الله ﷺ سئل عن أفضل الكسب .. ؟

فقال : بيع مبرور وعمل الرجل بيده " .

وقد جعل العلماء بالله تعالي الكسب واجبا وجوبا مؤكدا ملحقا برتبة الإيمان وأشلو إلي ذلك في حديث " الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلي السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأني يستجاب له " [1] .

فجعل دعاء من يأكل الحرام يرد كما يرد دعاء الكفار ولو في الجملة .

ويري الإمام الشعراني أن كل ساعة تمر على الفقير وهو في عمل حرفة يعود نفعها عليه وعلى عياله أفضل من حضور ألف وليمه ، ويتفق مع رجال الطريق أن الأكل من صدقات الناس وولائمهم يقسي القلب وإن الورع أحد أركان الطريق حتى كان أحدهم يسافر في تعلم الورع الشهر وأكثر .

جاء رجل من بلاد بعيدة إلي الحسن البصري رضي الله تعالي عنه وقال جئت إليك لتعلمني الورع ، فقال له الحسن : يا أخي إذا أكلت من طعام الأمراء فما بقي يصلح أن يؤخذ عني ورع ولكن امض إلي فلان في الكوفة تراه في مزرعة له قد ورثها عن آبائه لا يأكل إلا منها ، فخذ عنه الورع ، فذهب إليه من البصرة إلي الكوفة فوجده كما وصف الحسن البصري ، فقال : من أرسلك إلي .. ؟

قال : الحسن البصري قال : كان عهده بشيء وقد زال فقلت له : وما ذاك .. ؟

فقال : اشتغلت يوما عن بقرة في صلاتي ، فذهبت إلي طين الجار على أثر مطر فرجعت وفي قوائمها طين فاختلط بطين أرضى فما بقي يصلح أن يؤخذ عني ورع [2] .

---

[1] - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ﴾ ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلي السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وتغذى بالحرام فأني يستجاب لذلك ؟ .

[2] - لطائف المنن ص١٥٢ ج٢ .

إنهم رجال الله في الطريق إليه ، رجل يفر إلي الله ويتلمس الوصول إليه ويلتقـــي بالحسن البصري وهو ما نعرف من تقوى وصلاح وورع ، ويطلب منه الرجل أن يعلمه الورع ، أن يدله على أقرب المسالك ، أن يوضح له ما غمض من أمرهـــا ولكن الحسن البصري ، يري أنه ليس أهلا ليعلم الناس الورع وأنه أقل من أن يدل على طريق الله ، لقد وقع فيما يجب أن يبتعد عنه وغلبته نفسه فتناول من طعـــام الأمراء وطعامهم لا يخلو من الشبهات ، ومن شروط الورع أن يبتعد عن كل مـــا فيه شبهة وأن يزين باطنه دائما بالحلال وهو ليس كذلك في رأي نفســـه ، ولكـــن يستطيع أن يدل على غيره عله يجد عنده طلبته ويحصل بجواره على بغيته والدال على الخير كفاعله .

ويسافر الرجل ويجد في الرحيل حتى يصل ، إلي الرجل ولكن لا يجد عنـــده مـــا يبتغيه ولا ينال في جواره ما يطلبه إن حوافر بقرته حملت من طين جاره فـــاختلط بطين أرضه ، فأصبح ما ينتجه من ثمار فيه شبهة وهو يقتات من حصيلـــة هـــذه الأرض فلا يصلح للورع ولا يستطيع أن يدل عليه .

إنها شفافية الإيمان وقوة اليقين والتزام النفس بمبدأ أولي العزم ممن صبروا علـــى البلاء ، وقنعوا بالقضاء وآمنوا بأن الحياة الدنيا مرحلة لابد أن تنقضي ورحلة لابد أن تنتهي وطريق عما قريب يصلون إلي نهايته ، حتى لا يقـــال لـــهم ﴿ أذهبتـــم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ (1)

---

[1]- سورة الأحقاف آية ١٩ .

الإمام الشعراني ينفر أتباعه ومريديه من المسألة

****

وإذا كان الإمام الشعراني يحث أتباعه على العمل فهو بالتالي ينهاهم عن المســـألة وينفرهم منها إقتداء بالرسول ﷺ الذي كان يقول : " لا تزال المسألة بأحدكم حتـــى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم " ([1]) .

يقول الإمام الشعراني وقد بايع الرسول ﷺ بعض أصحابه على أن يعبـــدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأن يأتوا الصلوات الخمس ولا يسألوا الناس شيئا .

ويؤكد هذا الذي يرويه الإمام الشعراني أن رسول الله ﷺ آبي أن يعطي سائلا سأله ودله على عمل يرتزق منه وفي هذا يقول أنس رضي الله عنه : " أن رجلا مـــن الأنصار أتي النبي ﷺ فقال عليه السلام أما في بيتك شيء .. ؟

قال : بلي حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء .

قال ﷺ : ائتني بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ،

وقال : من يشتري مني هذين .. ؟

قال الرجل : أنا أخذهما بدرهم .

قال الرسول ﷺ : من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا .. ؟

قال الرجل أنا أخذهما بدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال : اشتر بإحداهما طعاما فانبذه إلي أهلك واشتر بالأخر قدوما فائتني به

فأتاه به ، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال : اذهب فـــاحتطب ولا أرينـــك خمسة عشر يوما ، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشتري ببعضها ثوبـــا وببعضها طعاما فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة فـــي وجهك يوم القيامة " ([2]) .

---

[1] - أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما وهو حديث صحيح متفق عليه .

[2] - رواه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك وتتمه الحديث أن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو دم موجع ص٧٤١ ج٢ .

وإذا كان الرسول ﷺ فعل ذلك مع الرجل الأنصاري فإنه يرسلها عامة لجميع أمتـه ويبين لهم طريق الخير طريق العمل طريق الكفاح بقوله : " لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدوا إلي الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس " ([1])
ومن هذا يتبين أن الإمام الشعراني حبب لمريديه السعي والعمـل ونفرهـم مـن المسألة وانتظار عطايا الناس لأنه جاز لبعض المحتاجين انتظار الصدقات وتقبـل عطايا الموسرين ، فلا يجوز ذلك ولا يصح لهؤلاء الذيـن يرغبـون أن تشـف نفوسهم وتتطهر قلوبهم وتسمو ذواتهم ..

تقول إذا أجاز لعامة الناس التطلع إلي ما في أيدي الغير فلا يجوز ذلـك مطلقـا لرجال التصوف خاصة وأحباب الله عامة ، ويطيب لنا أن نختتم هذا الفصل برأي القطب الكبير علي الخواص وأستاذ الإمام الشعراني .

لقد كان يجتمع في مجلس الخواص الكثير من العلماء المخلصين علماء الشـريعة وعلماء الحقيقة وأيضا كان يضم مجلسه الأدعياء المفترين ، لقد كان يضـم هـذا المجلس من يبحثون عن المعرفة ومن يترقبون الفيض الإلهي وأيضا هؤلاء الذيـن يسيرون خلف كل ناعق ويتشبهون بكل داع ومن تراهم عند كل وليمة ، وينتـهز الإمام الشعراني فرصة هذا الجمع الحاشد فيسأل أستاذه هل الأفضل الأكـل مـن غير حرفة أم الأفضل عمل الحرفة .. ؟

إنه يريد بسؤاله أن يعلم الأدعياء المتطفلين ويوجه الخـاملين المتعطليـن ويبيـن للجميع أن التعطل ليس من شريعة الإسلام ولا يجوز ذلك

لبنيه ، وبالتالي لا يحق لرجال التصوف وليس من مبادئـهم الخمـول والكسـل ويجيبه أستاذه من لا عمل له لا أجرة له ، وبيانه أن الأعمـال والاكتسـاب مـن الأقوال و الأفعال والأنفاس المحمودة من سائر العالم مدبرة لفلك وموجبة للأثـر بحسب تلك الأحوال وبحسب نيات من ظهرت عنهم فإذا ظهرت الآثار تنزلت على كل إنسان بحسب رتبته من تلك الأحوال ، فكل من كان فعله أتقن وأكمل كان فعله أسرع دورانا للفلك وكل من كان عمله أتقن وأكمل كان تضاعف الحسنات له أكثر

[1]- رواه الإمام البخاري والإمام مسلم ورواه النسائي وهو صحيح .

ومن كان تاركا للأسباب أصلا دار الفلك بنصيب غيره ولم يحصل له شيء من الإمداد لكونه لم يعمل شيئا .

ومعلوم أن الحق تعالي لا نسبة بيننا وبينه في العطاء بلا عمل لبراءته تعالي عن أن ينفصل منه شيء لنا أو يتصل به شيء لنا أو يتصل به شيء منا وإنما الأمر راجع هنا لنا بحسب أعمالنا وهو الغني الحميد .

ومن هنا عتب موسي على الخضر عليه السلام حين أقام الجدار بغير أجر لعلمه بهذا الأمر ، والرسالة وهب لا كسب فأراد الخضر عليه السلام أن يجمع لموسي بين مرتبتي الكسب والوهب وهي مرتبة الكمل والأقطاب والله تعالي أعلم ([1]) .

نعم من لا عمل له لا أجرة له ، ورب الأرباب يوجه عبيده بقوله ﴿ قل اعملوا ﴾ ورجال الصوفية أحق الناس بالعمل ، لأنهم عملوا بما علموا ..

فأتاهم الله الفهم الجديد لكتابه وسنة رسوله فاتجهوا إلي العمل وحثوا اتباعهم به .

سأل بعضهم الإمام شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهرودي بقوله : يا سيدي إن تركت العمل أخلدت إلي البطالة وإن عملت داخلني العجب فأيهما أولي .. ؟

فكتب جوابه : " اعمل واستغفر الله من العجب " ([2]) .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود عند حديثه عن الصوفية والعمل : أما عن العمل والضرب في الأرض والكفاح في سبيل الله ، فيكفينا أن أبا الحسن الشاذلي ، وهو كما قلنا : من صفوة الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع ، ونقول : " مزارع " ولا نقول مزرعة ، لنتابع في هذا التعبير حديث المؤرخين عنه ، وكانت له ثيران وكان يتاجر .

ومما له مغزاه الواضح في هذا المقام الألقاب التي أطلقت على كثير من أئمة الصوفية .

لقد كان منهم " القصار " والوراق " والخزاز " والخواص "والحمال" والبزاز" والنساج " والكتاني والزجاج " والحصري " والصيرفي والفراء " .

---

[1] - درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص للإمام الشعراني ص ٣١ على هامش الإبريز .

[2] - عوارف المعارف تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف .

والفرق بين الصوفية وغيرهم – في هذا – هو أن الدنيا لا تستعبدهم وإنما تستعبد غيرهم ([1]) . قال تعالي ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ ([2]) .

وإذا كان هذا هو حال الصوفية ، فإن الأمر يقتضينا أن ندافع عنهم ونرد عنهم كيد الكائدين وحقد الحاقدين .

---

[1]- مقدمة عوارف المعارف للدكتور عبد الحليم محمود د.محمود بن شريف ص١٦ .

[2]- سورة النور آية ٣٧ .

الفصل الثالث

الدفاع عن الصوفية

الدفاع عن الصوفية

****

أوقف الأمام الشعراني قلبه للدفاع عن التصـــوف والصوفيـــة الصـــادقين وحاول جاهدا أن يجعل جل تأليفه لشرح كلماتهم وتوضيح إشاراتهم، وتفسير مـــا غمض من أسرارهم، ودعا إلى التصوف الصادق الملتزم بالكتاب والسنة، وطالب بالدخول إلى طريقهم – ماداموا ملتزمين بهذا – واستجاب إليه الكثـــيرون وعـــاد المنكر مؤمنا والجاهل عارفا والشاك موقنا، بأن طريقهم خير الطـــرق، وأفعالـــهم تزنها دائما قواعد الشريعة , وإذا كانت لهم أسرار واصطلاحات وإشارات تـــدق علي بعض الإفهام ، فان المريد الصادق، إذا دخل طريقهم عـــرف جميـــع مـــا اصطلحوا عليه من أول قدم في الدخول، حتى كأنه الواضع للإشارات والرامـــز للاصطلاحات، والدال علي ما أغلق واستعصي علي الإفهام .

ويري الأمام الشعراني، أن هناك أمورا قد تكون داعية للإنكار عليهم وعدم التسليم لهم، وأول هذه الأمور :

١) جهل المنكر بمصطلح القوم وعدم ذوقه لمقامهم، قال تعالي:﴿ بل كذبوا بما لـــم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ ([١]) .
وقال أيضا: ﴿ وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم ﴾ ([٢])
وقال علي بن أبى القيرواني " والجاهلون لأهل العلم أعداء " .

٢) ربما تكلم العارف في نظمه أو غيره علي لسان الحق تبارك وتعـــالي وربمـــا تكلم علي لسان رسوله، فيظن بعضهم أن ذلك علي لسانه هو فيبادر إلى الإنكـــار، ومن وصية شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله " إياك والإنكار علـــي الطائفة في كل ما يتحققون به وسلم لهم تسلم فإنهم تارة يتكلمون حال غيبتهم عـــن

[١]- سورة يونس آيه ٣٩
[٢]- سورة الأحقاف آيه ١١

نفوسهم بكلام لا يليق إلا بالحق تعالي أو برسوله ﷺ فيظن السامع انهم يشطحون بذلك وحاشاهم من سؤ الأدب مع الله تعالي أو مع رسوله ﷺ ([1]) .

وقد يكون الإنكار من العلماء العاملين – لازما للتصوف، ولا نيلا من رجاله ولكن خوفا من العوام والمحجوبين، من أن تزيغ عقولهم أو أن تدق إشارات الصوفية علي إفهامهم ([2]) ، ولكن مادام الصوفية علي الجادة سائرين ، وللشريعة ملتزمين ، ولأوامر ربهم فاعلين، فالواجب ترك الإنكار عليهم، ويحذر الأمام الشعراني من الإنكار علي أولياء الله تعالي، ويري أن العاقل من جعل ما لم يفهمه من جملة مجهولاته ، لا سيما وأن غالب الأولياء الصادقين لم يأمر أحدا من الناس بترك وضوء أو صلاة، أو صوم أوغيرها، مما يخالف الشريعة أبدا، بل نجد رسائلهم طافحة بالتقيد علي الكتاب والسنة ونراهم دائما يعملون علي علاج أخلاقهم وتجميل أعمالهم، وتنقيتها من الدسائس والعلل الفادحة في الإخلاص وتحمل الأذى والدعوة إلى الزهد والورع والخوف والخشية .

يقول سيدي على بن وفا " التسليم للقوم أسلم والاعتقاد فيهم أغنم والإنكار عليهم سم ساعة في ذهاب الدين " .

أما شيخ الإسلام زكريا الأنصاري فمن رأيه، أن كلام القوم وغيرهم لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يوافق صريح السنة فهذا لا كلام لأحد فيه، وإما أن يخالف صريح السنة فهذا لا يجوز لأحد العمل به علي صاحبه ، وإما أن لا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته فأحسن أحواله التوقف ([3]) ، ويقول سيدي علي الخواص رحمه الله تعالي : من كمال الفقير أن يحمل كلام الأكابر علي أحسن المحامل لخروجهم عن مقام التلبيس والرعونات النفسانية وإن عجز عن الجواب عنهم في قول قالوه أو فعل فعلوه فليسلم لهم وليكف عن الإنكار لأن منازعهم دقيقة عن عقول أمثالنا، لا سيما الأئمة المجتهدون وكبراء مقلديهم .

---

[1]- ص ٣٨ لطائف المنن والأخلاق ج١ ص٣٨

[2]- تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس مخطوط ج٤٠ والأجوبة المرضية مخطوط ج ٤٨

[3]- اليواقيت والجواهر ج١ ص٣

قال تعالي ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله ﴾ .

ويذكر الأمام الشعراني جملة من أقوال بعض الصوفية مما يدل ظاهرهـــا علـــى الخروج عن قواعد الشريعة، أو التحرر من ربقة الدين، فيؤولوها حتى تتمشى مع الشريعة أو يبين لنا قصدهم وغايتهم من التلفظ بهذه الكلمات .

فمن هذه الأقوال قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله " طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك " فيري " الشعراني " أن المقصود بذلك إجابتك لي يا رب فـــي نحـــو قول " أغفر لي وارحمني وأعفو عني ولا تؤاخذني " أعظم من إجابتي أنا لامتثـــال أمرك وأجبتنا بنهيك لأنك عظيم وأنا حقير، وأنت سيد وأنا عبد . فعلم من هـــذا أن ليس مراد أبي يزيد أن الحق تبارك وتعالي تحت طاعته تعالي الله عن ذلك علـــوا كبيرا (١) ومما يؤكد كلام أبي يزيد قوله تعالي :﴿ أدعونـــي أســـتجب لكـــم ﴾(٢) وأيضا ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعـــاني ﴾ (٣) وما نقل عن أبي يزيد أيضا [٤] قوله " بطشي أشد من بطش الله بي " لما سمع قارئا يقرأ ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ فصاح حتى طار الدم من أنفه وقال " بطشي أشـــد من بطشه بي " ومراده رضي الله تعالي عنه أن بطش الله عز وجل لا يكـــون إلا مخلوطا بالرحمة لأن رحمته بعبده غلبت غضبه عليه فهو أرحم بالعبد من والدتـــه الشفيقة، ولا هكذا بطش أبي يزيد فإنه محض انتقام لا تشوبه رحمة لأن غضبـــه

---

[١]- تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس مخطوط للشعراني .

[٢]- سورة غافر آية ٦٠

[٣]- سورة البقرة اية ١٨٦

[٤]- أبو يزيد البسطامي

كان جده مجوسيا أسلم – قيل مات سنة ٢٦١ه وقيل سنة ٢٣٤ه وذكر أبن عربي أنه كان القطب الغوث في زمانه .

ومن كلامه :- ليس العالم من يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظ صار جاهلا، بل من يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا تحفظ ودرس وهذا هو العلم الرباني .

وقال : أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت .

غلب رحمته لضيقه فكان بطشه بأخيه أشد من بطش الله جل وعلا بــــه لا ســـيما عدوه إذا قدر عليه فإنه لا يكاد يرحمه في الدنيا ولا في الآخرة ([1]) .

ومما نقل عن بعضهم أيضا قوله " ما في الجبة إلا الله " ولعل مراده ما ثــــم فـــي جسدي فاعل إلا الله تبارك وتعالي وما في الجبة إلا حب الله نظير قول بعضهم ما في الكونين إلا الله تعالي، فليس مراده نفي الكونين ولا أن الله سبحانه وتعالي يحل في خلقه، لأنه أثبت وجودهما كما تري ولكن الله تعالي خالقا لهم ولأ فعالهم ، وكم في الكتاب والسنة من كلام يحتاج إلي تقدير، كما في قوله تعالي ﴿ واشربوا فـــي قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ ([2]) أي أشربوا حب العجل، وفي الحديث عن الرسـول ﷺ قوله ﴿ أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد : ألا كل شيء مـــاخلا الله بـــاطل ﴾ ([3])

ومما نقل عن الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه، أنه قال :

" حدثني قلبي عن ربي أو حدثني ربي عن قلبي، أوربي عن نفسه تعالي ، بارتفاع الوسائط " ليس مراده أن الله تعالي كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصـــلاة والســـلام وإنما مراده أن الله تعالي يلهمه علي لسان ملك الإلهام، بتعريف ببعض أحوال فهو من باب قوله ﷺ ﴿ إن يكن في أمتي محدثون فعمر ﴾ ([4]) .

يقول الأمام الشعراني " الفرق بين وحي الإلهام الذي يكون للأوليـــاء رضـــي الله تعالي عنهم وبين وحي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتعلق بتشريعهم لأنفســـهم ولأممهم، أن النبي عليه السلام يشهد الملك ويسمع كلامه فيجمــــع بيـــن الرؤيـــة وسماع الكلام، ولا هكذا الولي، فإنه إن سمع كلام الملك لا يري شخصه وإن رأي شخصه لا يسمع منه كلاما، والسر في ذلك كون النبي مشرعا والولي تابعا يدعـــو بشرع نبيه ﷺ الثابت المقرر عنده فلا يحتاج إلي مزيد انكشاف أمر، وأما النبي فقد أرسله الله بشرع جديد لينسخ شرعا آخر فلذلك أحتاج إلي مزيد تأكيد وانكشـــــاف

---

[1] - الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية مخطوط ص٢٨٠ وتحفة الأكياس في حسن الظن بالناس ولطائف المنن والأخلاق ص١٢٩ ج١ .

[2] - البقرة أيه ٩٣

[3] - عن أبي هريرة وتتمة الحديث وكاد أمية ابن أبي الصلت أن يسلم رواه ابن ماجه في سننه أنظر ج٢ حديث ٣٧٥٧

[4] - سبق تخصيص هذا الحديث في فصل الكرامة باب " الطريق الصوفي " .

أمر، ومن هنا يتضح لنا الفرق بين وحي الإلهام ووحي الكلام ([1]) " لقد دافع الأمام الشعراني عن قضية التصوف، ودافع عن رجاله الصادقين ، دافـع عـن الأمـام الغزالي ، ومحيي الدين بن عربي وأبي يزيد البسطامي وسهل التستري، وغـيرهم وكما قلنا سابقا .. أوقف قلمه وجعل مؤلفاته وحياته لهذه الغاية النبيلة .. وإذا كـان الأمام الشعراني دافع ونافح عن رجال الشريعة ورجال الحقيقة فمـن قبلـه كـان العلماء الصادقون ينفرون من الإنكار علي المؤمنين ويتلمسـون لـهم الأعـذار ويحسنون الظن بالناس : وهم في ذلك يسيرون علي نهج الشريعة ويتبعون سـنة الرسول ﷺ جاء رجل إلي الأمام أبي حنيفة رحمه الله تعالي ، وقال له ، ما عـدت أعتقد في فلان : فقال له الأمام لماذا ... ؟ فأجابه بقوله : سـمعته يقـول غـالب علماء العصر يكرهون الحق ويحبون الفتنة وتتجلي سماحة الأمام ويظهر نور قلبه وصفاء سريرته، ويدافع عن شخص لم يره ولكنه سمع كلامه، ويتلمس له المعاذير ويقول للساخط المتهم، هون علي نفسك يحتمل أن يكون مراده بالحق الموت ، كما دل عليه القرآن قال تعالي ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ ([2]) وقـال ﴿ واعبـد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ([3]) ، وبالفتنة المال والولد، قال تعالي ﴿ إنمـا أموالكـم وأولادكم فتنة ﴾ ([4]) ، ويأتي أخر إلي الأمام عبد الله بن المبارك رحمه اله تعـالي ويقول له أنه منكر علي " فلان " فقال له الأمام الجليل : لماذا الإنكار .. ؟ فقـال سمعته يقول : غالب علماء العصر يعبدون المال : فقال له يحتمل أن يكون مـراده بعبادة المال قوة المحبة له، لينفقوه في وجوه الخير، ويعود المنكر راضيا والساخط محبا، ورجل يأتي إلي الأمام الشافعي، ويخبره بإنكاره علي بعض الناس ويطالبـه بأن ينكر عليهم مثله، لأن رأيهم فاسد وتفكيرهم مريض، ويتساءل الشافعي عـن جريرتهم حتى ينكر عليهم وعن حقيقة ذنبهم حتى يمكن أن يأخذهم بـه ، ويأتيـه بالرد، بأن هذا الرجل يقول غالب علماء العصر يحبون أولادهم وزوجاتهم وأنـا

---

[1]- لطائف المنن ج١ ص١٣١ للأمام الشعراني وانظر أيضا الأجوبة المرضية مخطوط

[2]- سورة ق أيه ١٩

[3]- سورة الحجر أيه ٩٩

[4]- سورة التغابن أيه ١٥

لست كذلك، وهل أحد يسلم من محبة الزوجة والولد .. ؟ فقال له الأمـــام الجليـــل والمربي الفاضل : لعل مراده أنهم يحبون أولادهم وزوجاتهم محبة شرعية وأنـــــا لست مثلهم، إنما أحب محبة نفسية فهنيئا لهم، ولعل مقصوده بذكر ذلك إشارة لـــك لتحذر ذلك فتخرج من ضيق المحبة الطبيعية إلي فضاء المحبة الشرعية، فتكـــون مؤمنا كاملا، ويأتي العصر العثماني عصر الأمام الشعراني وتتوالي التــــهم بـــلا ضابط وتنزل الادعاءات بلا حساب ويرمي بعضهم البعض بالكفر والزندقة ومـــا هو أكثر من ذلك، ويدخل علي الأمام الشعراني رجل من هؤلاء الذين يلقون القول علي عواهنه، ويتهمون الناس بغير سند ولا دليل، ويقول للأمام الشعراني : أنـــا لا أعتقد في فلان فإنه كافر .. ؟؟ هكذا بغير دليل ويتساءل الأمام الشعراني عما بـــدا من هذا الرجل حتى يلقي عليه هذا الاتهام الخطير ويأتيه الجواب، بأن هذا الرجـــل يقول بأن الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب، ويجيب الأمام الشعراني إجابة العـــــالم الجليل صاحب القلب الكبير العارف بدينه الملتزم بتعاليم ربه، وينقذ هذا المتهم من وصمة الكفر ومن صفة الزندقة التي كانت ستلصق به، ويقول للمنكر، ما قاله هذا الرجل حق وصدق، فإن الإكثار من ذكر النبي ﷺ، حجاب من الشيطان وحجـــاب من النار، ورجل يأتي " للشعراني " أيضا والرجل في هذه المرة ليس من البسطاء ولا هو من الجهلاء ممن يستغلق عليهم الكلام، ولكنه من علماء الأزهر يأتي إليـــه قائلا " انه ما عاد يعتقد في هذا العالم الفلاني أبدا " وتســـاءل الأمـــام الشـــعراني كعادته عن سر ذلك، فقال له عالم الأزهر : أن هذا الرجل يقول : " أنا أعلم مـــن جميع علماء مصر الآن بل أعلم من جميع من علي وجه الأرض مـــن العلمـــاء " فقال الأمام الشعراني للمنكر : يحتمل أنه يريد أنه أعلمهم بزلاته ومخالفاته أو بمـــا في بيته من الأمتعة وأعلمهم بملابس زوجه ونحو ذلك ، والقاعدة العامـــــة التـــي يعتقدها رجال التصوف، ويلزمون بها نفوسهم عدم الإنكار علي أحد إلا إن خـــالف صريح الكتاب والسنة، فمن هنا يجب الإنكار عليه، ولكن من هو الرجــــل الـــذي يحق له الإنكار .. ؟ وإذا أنكر نستمع إليه أله شروط معينة وأوصاف خاصـــة، إن تحققت فيه سمعنا لإنكاره ونفذنا أوامره .. ؟ أم أن هذا شيء عـــام يشـــترك فيـــه

الجميع وكل من يجد في نفسه القدرة على الإنكار ينكر، حتى لو كان إنكاره قائما علي غير أساس وادعاؤه لا يستند إلي دليل .

الحقيقة أن الأمام الشعراني يضع شروطا للمنكر يجب أن يتحقق بها وحتى نستمع لإنكاره، ونقبل اعتراضه، فإذا لم يتحقق فيه هذه الشروط فهو مدع جاهل ، يجب أن يقلع عن هذا، لأنه يحارب أولياء الله ويكيد لعباده، وقد توعد الله سبحانه وتعالي هؤلاء بقوله، ﴿ من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ﴾ ([1]) وهذا الكلام وإن كان في أولياء الاختصاص عند بعضهم، فحكمه يسري على أحاد المؤمنين ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ ([2]) .

شروط المنكر على رجال الله

****

ومن هذه الشروط معرفته بعلوم الصوفية، واصطلاحاتهم وإشاراتهم وأن يتخلى عن الرذائل حتى لا يصير في ظاهره ولا باطنه شيء يكرهه وأن يكون قد أطلع على معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وأن يكون ملازما لقراءة كتب تفسير القرآن الكريم وأسرار الكتاب والسنة وكثرة التأمل والنظر في معاني آيات الصفات وأخبارها واطلاعه على جميع ما قاله السلف والخلف في معانيها ومعرفة من أخذ بالظاهر ومن قال بالتأويل

ومن دليله أقوي وأرجح من غيره .

يقول الأمام الشعراني، ومن شروط المنكر كثرة الغوص على منازع الأئمة المجتهدين ومعرفة أدلتهم التي استندوا إليها من كتاب أو سنة أو إجماع ، ومنها وهو أهمها معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنه من التجلي الذاتي الصوري وما المراد بالذات وذوات الذات والصفات والأسماء والمشيئة والإرادة وحضرة الواحدية وحضرة الأحدية والإنسان الكبير، ومعني الظهور في النور والبطون والسر المكنون والمرآة الكبرى والعالم العلوي والعالم السفلي الروحاني والجثماني والخواطر والصفات الثمانية، وعالم الغيبة وعالم الحضور والنشوون والكمون

---

[1]- سبق تخريج هذا الحديث

[2]- سورة البقرة اية ٢٥٧

والإمكان والوجوب والمحال والحروف العلمية والرسمية والعينية والماهية والهوية والسكر والصحو والفص والخاتم وغير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ([1]) .

هذه هي أهم الشروط التي يجب أن يتصف بها من ينصب نفسه للإنكار تصفية للظاهر والباطن، والإيمان بوجود الأولياء، والتصديق بأن لهم كرامات ، و أن يكون ملتزما بالشريعة علما وسلوكا منهجا وطريقا عارفا بأصولها وفروعها وقواعدها محيطا بحديثها وتفسيرها عالما باللغة عارفا بعلوم الحقيقة بها ذائقا لمقامها فإذا كان كذلك، يقول فنسمع لقوله، ويشير فنتبع إشارته لأنه ينطق ودليله كتاب الله، ويشير ومرشده سنة رسوله ﷺ، ومن كان كذلك فهو يدل على أقوم الطرق ويرشد إلي أهدي السبل، ويكشف الأدعياء والمارقين ويبصر أمة محمد إن زاغ بصرها، ويدلها إن ضلت طريقها .

[1] – الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية للشعراني مخطوط صـ ٢١٤.

لماذا يرمز الصوفية .. ؟

****

يقول شيخ الصوفية أبي القاسم القشيرى : اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم، انفردوا بها عمن سواهم، تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها، من تقريب الفهم على المخاطبين والتسهيل على أهل الصنعة في الوقوف على معانيها بإطلاقها، وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيها لأنفسهم والأجمال والستر على من باينهم في طريقهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسوارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضوب تصرف، بل هي معان أودعها الله قلوب قوم وأستخلص لحقائقها أسرار قوم [1]
فإذا كان لأهل طائفة ألفاظ يستعملونها وإشارات تشيع فيما بينهم فقد سلك الصوفية هذا المسلك أسوة بطوائف الأطباء والمهندسين ، والفلكيين والكيميائيين وغير ذلك وهم إذا فعلوا ذلك وأتبعوا هذا الطريق ، لا يقال أنهم مبتدعون أو خارجون على نظام الكون وما تعارف عليه أهل كل ملة وأصحاب كل حرفة ، وهم باستعمالهم الرمز إنما يقصدون تقريب الفهم لمن سار سيرتهم واتبع طريقهم واستن سنتهم وستر هذه المعاني على من خالف هذا الطريق حتى تكون مستبهمة فلا تبين ومستغلقة فلا تظهر، شفقة على هؤلاء المنكرين ورحمة بهم أن ينالهم المقت، ويحل عليهم الغضب، بسبب الإنكار على أولياء الله والنيل من عباده المؤمنين، وعلوم القوم لن تأتى إليهم عن طريق الفكر والنظر، ولا عن طريق الدرس والتحصيل فتكون الحجة عليهم قائمة لمخالفتهم قواعد العقل وبعدهم عن الحجة والدليل لأنهم يقولون بعض ما لا يفهم ويشيعون بين الناس بعض ما لا تقبلها العقول، ولا تستريح إليه النفوس، لكون هذه العلوم وتلك المعارف تأتى إليهم عن طريق الفيض، عن طريق الملك الوهاب ، فهي معان أودعها الله قلوبهم وفيوضات أفاضها الله عليهم فلا يعرفها إلا من عرف، ولا يذوقها إلا من اجتباه ربه إليه وهداه إلي الخير ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي

---

[1]- الرسالة القشيرية ص١٨٧ ج١ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ودكتور محمود بن شريف

خيرا كثيرا ﴾ (1) ، ويري الأمام الشعراني، أن الأصل في رمز القوم ، مـــا روي في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ ﴿ قال يوما لأبي بكر الصديـــق رضـــي الله عنه : أتدري يوم ؟ فقال أبو بكر : نعم يا رسول الله لقد سألتني عن يوم المقـــادير وروي أيضا أنه قال له يا أبا بكـــر أتـــدري مـــا أريـــد .. ؟ أن أقـــول ؟ فقـــال أبو بكر : نعم يا رسول الله هو ذاك ... ﴾ حكاه الشيخ تاج الدين بـــن عطـــاء الله السكندري في بعض كتبه .. .

ويؤيد ما ذهب إليه " الشعراني " ما روي عن أبـــي هريـــرة رضـــي الله عنـــه قوله : " حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين : فأما أحدهما فبثثته وأما الأخر فلـــو بثثته، لقطع مني هذا البلعوم، وكذلك قول ابن عباس رضي الله عنـــه، لـــو أنـــي ذكرت لكم ما أعلم من تفسير قوله تعالي ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ لرجمتمونـــي أو قلتم أني كافر (2) .

ونقل الأمام الغزالي في الأحياء وغيره، عن الأمام زين العابدين علي بن الحســـين رضي الله عنه قوله :

يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن تعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يـــرون أقـــبح ما يأتونه حسنا(3)
أني لأكتم من علمي جواهره	كي لا يري الحق ذو جهل فيفتتنا

قال الأمام الغزالي رحمه الله مفسرا العلم في هذه الأبيات العلم اللدنى الذي هو علم الأسرار، ومن هنا نري أن الأولياء ورجال التحقيق عندما لجئـــوا إلـــي الرمـــز واستعملوا الإشارات ، كان ذلك مخوفا من الإنكار عليهم من أهل الجدال والحســـد ولهم في ذلك قدوة بمريم الصديقة رضي الله عنها حيث اتخذت الإشارات خوفـــا من أهل الإفك، والإلحاد فهم في ذلك مقتدين بسنن من قبلهم، وآيات المتشـــابهات في القران الكريم والحروف التي في أوائل السور كل هذه الأشياء تدل علـــي أن رجال التصوف ليسوا في ذلك مبتدعين ولا يقولون منكرا من القول وبـــاطلا، لأن

1- سورة البقرة ايه ٢٦٩

2- إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة .

3- راجع إيقاظ الهمم في شرح الحكم

هذه المتشابهات والحروف التي بدئت بها سور القرآن الكريم تحوى علوما جمة وأسرارا عالية .

يقول الأستاذ حسن عباس زكي " هي إشارات بين الحق ورسوله أو " شفرات " بالتعبير الحديث، بين المحبوب وحبيبه ولا يعرف حلها إلا من لديه مفتاحها ومفتاح تلك الشفرات وفهم تلك الإشارات في حوزة من لديه الفهم المراد المشير وهم بعد الرسول .

نقل عن بعض الصالحين أن الله تعالي لما نزل علي سيد العالمينﷺ قول " كهيعص" قال جبريل عليه السلام (ك) قال النبي ــ اللهم صلي علية

: علمت، قال جبريل عليه السلام (ه) قال – اللهم صلي عليه وآله – علمت : قال جبريل (ى) قال : علمت قال جبريل (ع) قال علمت قال جبريل (ص) قال النبي : علمت وأنا لم أعلم، سبحان من علمك، ومن هنا قال تعالي ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما﴾([1]).

فهم أبو بكر رضي الله عنه وحده مقالة الرسول ﷺ حين نظر إليه، وقال " أتذكر يوم " فقال نعم : ولم يفهمها غيره من الصحابة الحاضرين ، ولما سئل الصديق رضي الله عنه عن ذلك قال " إنه يوم الميثاق " ([2]) ولكن المكابرين يقولون ، من أين أتي هؤلاء العلم .. ؟ اعتقادا منهم أن العلم لا يأتي إلا علي يد معلم، والمعرفة لا تنال إلا بالتعلم، وهم في ذلك واهمون، لأنهم نسوا وتناسوا أن القوم لما علموا بما علموا، أعطاهم الله علما من لدنه، بإعلام رباني أنزله في قلوبهم مطابقا لما جاءت به الشريعة لا يخرج عنها قيد أنملة .

قال تعالي ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ ([3]) وقال أيضا ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ([4]) ، وقال في سيدنا الخضر عليه السلام ﴿ وعلمناه من

---

[1] سورة النساء آية ١١٣

[2] لطائف الإشارات للأمام القشيري المقدمة حسن عباس زكي ص٧ ج١

[3] سورة الرحمن ايه ٣،٤

[4] سورة القلم اية ٥

لدنا علما ﴾ ([1]) وقال الرسول ﷺ ﴿ من عمل بما علم علمـــــه الله علــم مــا لــم يعلم ﴾ ([2]) ، لقد صدق المنكرين فيما قـــالوا " أن العلــم لا يكــون إلا بواســطة معلم" وأخطئوا الفهم في اعتقادهم أن الله تعالي لا يعلم من ليس بنبي ولا رســـول وهم بذلك يضيقون رحمة الله، قال تعالي ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء، ومـــن يؤتـــي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ ([3]) ، وماذا تكون الحكمة غير العلم غير الفيـــض غير الإلهام، وليس في الآية تحديد أو قصر المعرفة علي الأنبياء والرسل .

يقول الأمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه " لو تكلمت لكم في تفسير ســـورة الفاتحة لحملت لكم منها سبعين وقرا "، مصداقا لقول الرسول ﷺ ﴿ أنا مدينة العلــم وعلى بابها ﴾ ([4]) ، فهل ذلك إلا من العلم اللدنى ، الذي أتاه الله تعالي لـــــه مـــن طريق الإلهام ، إذ الفكر المحدود لا يصل إلي ذلك، وكان الصوفي الجليل " أبـــو يزيد البسطامي " يقول لعلماء زمانه، أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت .

" علي أن أهل التحقيق لا يدعون أنه محال على غيرهم ما يفاض به عليهم ولكنهم يعتقدون أن كل إنسان لديه الاستعداد لما عندهم غير أنهم فتحوا عيـــــون قلوبـــهم فأطلعوا على ما أطلعوا من أسرار وغيرهم فتحوا نوافذ تفكيرهم فوقعوا في الحيرة والوهم، وقاسوا بعقولهم مذاقات تلك القلوب فأنكروها، ولو أنـــهم فتحـــوا عيـــون قلوبهم كأهل الله لكان أمرا عاديا ما استغربوه بل لاعتقدوا اعتقـــادا جازمـــا مـــا

---

[1]- سورة الكهف ايه ٦٥

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنسي وضعفه

[3]- سورة البقرة أيه ٢٦٩

[4]- أخرجه ابن جرير في تهذيب الآثار عن رواية محمد بن إسماعيل : أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها، وأما رواية محمد بن عبد الرحيم فأخرجها الحاكم في المستدرك علي الصحيحين أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد المدينة فليأت بابها، وأما رواية الحسن بن علي ومحمد بن الصايغ فأخرجها الطبراني في المعجم الكبير : أنا العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه، وأما رواية الحسين بن فهم فأخرجها الحاكم في المستدرك عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأت الباب .

انظر فتح الملك العلي – بصحة حديث باب مدينة العلم على تأليف الأمام المجتهد الحافظ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني .

أنكروه، فليع كل ذي لب قدر هؤلاء الصفوة من أهل التحقيق وليدرك أنهم ملهمون إن نطقوا فلا ينطقون بأنفسهم وإن أشاروا فمحرك الإشارة فيـــــهم مولاهــم " (1)
وهذا الأمر يقتضينا أن نلقي الضوء على معارك الأمام الفكرية، ومنهجه في مقابلة الخصوم والأعداء .

1- المصدر السابق ص8

معارك الأمام الشعراني ومحاربته من أهل عصره

****

دأب الناس في كل عصر ومصر على محاربة المخلصيـــن والكيـــد لـــهم والوقوف أمام كل من يجهر بكلمة الحق، لم يسلم من ذلك الرســـل والأنبيـــاء ولا الملوك والأمراء ولا الأولياء المخلصون ولا الأتقياء المؤمنون، والتـــاريخ ملـــيء بصور المآسي التي تحملها هؤلاء جميعا تحملوها في صبر وفي جلد وتقبلوها فـــي شجاعة وإيمان، وكأن هذا طبيعة الكون وسنة الوجود ودستور الحياة .

يقول الرسول ﷺ ﴿ أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون ﴾ ([1]) وأوحـــي الله تعالي إلي عيسي عليه السلام ﴿ لا يفقد نبـــــي حرمتـــه إلا فـــي بلـــده ﴾ ([2]) وروى البيهقي أن كعب الأحبار قال لأبي موسى الخولاني كيف تجد قومـــك .. ؟ قال : مكرمين مطيعين، قال ما صدقتني التوراة إذن وإيم الله ما كان رجل حليـــم في قوم قط إلا بغوا عليه وحسدوه .

ويطيب لنا أن نقدم صورة مصغرة لما ابتلي به هؤلاء الصـــالحون علـــى مـــدار التاريخ سواء أكانوا أنبياء ورسلا أم قادة مصلحين أم هداة مؤمنين، والداعي الـذي يدعونا إلي ذلك، أن الأمام الشعراني وهو أحد الأئمة الإجلاء – حورب بكل سلاح ورماه أعداؤه بكل نقيصة وتقولوا عليه ما لم يقله، فعلوا ذلك معه فلم ييئس ولـــم يستكن بل استمر قلمه مشرعا يحارب الزيف ويكشف الضلال ويرشد إلي أقـــوم السبل، وقد كانت عدته في ذلك إيمانه بعدالة ما يدعوا إليه ومن وسائل الصبر التي كان يتحصن بها اعتقاده أنه حلقة في سلسلة امتدت عبر التاريخ ونالت ما نالت من الكبد والدس والتنكيل وغير ذلك الشيء الكثير .

---

[1]- رواه الترمذي وقال : حسن صحيح، وابن ماجه وابن حيان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص والأمام أحمد والنسائي وابن ماجه والدارمي من حديث عاصم ومالك والآخرين، وابن حبان والحاكم وصححاه والطبراني من حديث فاطمة والحاكم عن أبي سعيد، وفي رواية أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء العبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة .

[2]- اليواقيت والجواهر للشعراني .

يروي لنا الأمام الفاضل جلال الدين السيوطي رحمه الله، مجموعة من المآسي التي ابتلي بها المصلحون بقوله : اعلم أنه ما كان كبير في عصر قط إلا كان له عدو من السفلة إذ الأشراف لم تزل تبتلي بالأطراف فكان لآدم عليه السلام إبليس وكان لنوح حام وغيره وكان لداود جالوت وإضرابه ، وكان لموسى فرعون وهكذا إلي خاتم النبيين محمد ﷺ، فكان له أبو جهل وعصابة الشرك وسدنة الجهل ومازالوا به حتى أخرجوه من بلده واتهموه بالسحر مرة وبالجنون أخري ([1]) قال تعالي ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفي بربك هاديا ونصيرا ﴾ ([2]) ، ثم كان أتباعه عليه السلام من بعده، لم يسلموا من الكيد والوقيعة ولا الإيذاء أو النيل منهم، نسبوا الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير إلي الرياء والنفاق في صلاته فصبوا على رأسه ماء حميما فزلع وجهه ورأسه وهو لا يشعر فلما سلم من صلاته قال ما شأني فذكروا له القصة فقال حسبنا الله ونعم الوكيل ([3])

هذا قليل من كثير مما تحفظه لنا كتب التاريخ وترويه الآثار والسير حتى كأن جبهة الدنيا حمراء قانية من كثرة ما أريق عليها من دماء، وتحمله الإنسان من أخيه الإنسان من تنكيل وتعذيب وبطش، وكأن الله تعالي يريد لعباده المخلصين ورجاله القانتين، أن يكونوا موضع الاختبار والابتلاء دائما حتى يتجهوا إليه ولا يبتعدوا عنه يطلبونه دائما في حركاتهم وسكناتهم في جميع أنفاسهم حتى يكونوا دائما معه، فيكون هو معهم ، ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ ، يكون معهم بالرعاية والعناية، بالحفظ والهداية، ويحول بينهم وبين كيد الكائدين وتقولات القائلين وحقد الحاقدين .

كابد الأئمة المجتهدون الشيء الكثير، وحوربوا من أعدائهم بكل سلاح وليس يخفي ما لقيه الأمام أبو حنيفة من الحكام وما كابده الأمام مالك واحتجابه عن الأعين فترة طويلة من حياته لا يخرج لجمعة ولا جماعة، وكذلك ما لقيه الأمام الشافعي

---

[1]- لطائف المنن والأخلاق ج٢ ص١٩٢

[2]- سورة الفرقان أية ٣١

[3]- لواقح الأنوار القدسية في الطبقات الكبرى للشعراني .

رضي الله عنه من أهل العراق خاصة ومن أهل مصر عامة ولا ننسي في زحمة تلك المحن محنة الأمام بن حنبل تلك المحنة التي وعتها ذاكرت التاريخ ومحال أن تنسي أو يتوالى عليها القدم، إنها تتكرر في كل عصر، وجد فيها حكام ظلمة مع رجال لا يخافون في الحق لومة لائم ، لقد كانت محنة ابتلي فيها العلماء ورجال الفكر من رجال الحكم مرة ومن الجهل المطبق وضيق الفكر مرات ، ولم ينسي هؤلاء الأعداء أحقادهم حتى في جلال الموت وروعته فوضعوا تحت وسادته عقائد زائفة اتهاما له بالكفر والزندقة والمروق عن قواعد الدين ، إن رهبة الموت وعظمته لم تنسي هؤلاء حقدهم وحسدهم ولم تذهب بغيظهم ومكرهم ([1]) ، ومن بعد هؤلاء الأمام الغزالي وابن تميمه ، وحسن الشاذلي ، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، سلسلة ممتدة عبر التاريخ ونخبة صادقة صالحة من رجال مخلصين عملوا لرفعة دينهم ودنياهم، ولكنهم لم يسلموا من الكيد ولم يفلتوا من الاتهام وبعضهم سجن وعذب والأخر نفي وشرد، والأمام الشعراني من هؤلاء الرجال حورب بكل الأسلحة، وكاد الأعداء له بكل وسيلة وتلمسوا السبل للنيل منه ودبرت له المكايد لنفيه خارج البلاد، ودس له الأعداء في كتبه ومؤلفاته ما لم يقله حتى اتهم بالزندقة والخروج عن قواعد الدين، فهل كان الأمام الشعراني كذلك .. كما وصفه الأدعياء وتقول عليه السفهاء ..؟

إن الحقيقة تشهد أن الأمام الشعراني كان سنيا محمديا يلتزم بالكتاب والسنة في كل عمل يقوم به، كان ينفذ تعاليم ربه، ويؤدي سنن نبيه لم ينحرف عن الجادة ولم يبتعد عن قواعد الدين .

جاء الأمام الشعراني وقد شاع في عصره أمران : انحلال الفكر عامة، وإشاعة الجهل والخرافات وسيطرة الخزعبلات والأساطير على تفكير العامة، فخبت شعلة العقول وطمست معالم الأفهام وعاش الناس يجترون المتون ويضعون عليها الحواشي، ويلفهم ظلام من الجهل وخزعبلات من الفكر المريض الجامد، ومن أجل ذلك فتح الأمام الشعراني جبهة كفاح ضد الجهل والجمود وضد الخرافات والخزعبلات، جبهة كفاح ضد هؤلاء الجامدين الذين يعيشون على موائد القدماء

[1]- راجع لطائف المنن والأخلاق للأمام الشعراني ج٢

يتطفلون على آثار بادت وعفا عليها النسيان، ورفع معول الهدم ليقوض ذلك البناء المتداعي ويهدم تلك الأكواخ ويكشف النقاب عن تلك التوابيت المحنطة ليبعث – على أرض صلبة من المعرفة والإيمان – الفكر الإسلامي المتفتح والمعرفة الجادة المستنيرة – حتى يعود هؤلاء العلماء إلي الينابيع الأولي لدينهم فيأخذوا بها مباشرة، ألا وهما الكتاب والسنة، وثاني الأمرين : انحراف الفكر الصوفي في عصره – وبعد رجاله عن الينابيع الأولي للتصوف وقصره على المكاشفات والمشاهدات واعتبار ذلك أصل التصوف، وشاع هذا اللون، حتى ادعاه كل مفلس وتصدي له كل أفاق وانحرف مفهوم الولاية عند هؤلاء فأخذوها بالوراثة وادعوها بالجهل والمظاهر من تكبير العمامة وإرخاء العذبة والجلوس لتسليك المريدين .

رأى الأمام الشعراني ذلك فتصدي لحركة الإصلاح ووقف في وجه الأدعياء يجابهم بكلمة الحق، ويجهر في وجوههم بكلمة الصدق، فيكشف الأدعياء والمتطفلين ويدل على الباطل واتباعه .

حارب الأمام الشعراني الجهل والإدعاء في التصوف، حارب المجاذيب والبهاليل والدراويش، وكانوا في هذا العصر، أصحاب الجاه والسطوة والنفوذ، وحارب الفقهاء المتزمتين، والعلماء الجامدين الذين عكفوا على أراء وكتب أغرمت بالافتراض وأولعت بالجدل والحوار أغرمت بكل غريب وشاذ، وطالب ببعدهم عن الألغاز والتعقيدات والأساطير، وتقديم الفقه الإسلامي في ثوبه الناصع وديباجته المشرقة، حتى يفهمه العامة ويمكن أن يطبق في الحياة العملية .

إن الفقه عنصر الحياة والدافع إلي تجديدها، وهذا الشيء الذي يعكفون عليه ويجترون أفكاره، معوق للحياة لأنه بعيد عن منابعه الأولي الكتاب والسنة، طالب بترك هذه المؤلفات التي وضعت في عصور الضعف والكسل والخمول، عصر ضعف الشعوب الإسلامية، والعودة إلي مؤلفات الأئمة الأربعة وأراء التابعين والسلف الصالح في هذا الشأن، وحارب رجال الكلام وذم رجاله عندما قالوا إنهم وحدهم سدنة الإيمان وحجابه، وأن الأيمان الحقيقي الذي يقبله الله، هو ما ابتكرته أقلامهم وما اشترطوا له من قيود وسدود وتعقيدات، وهتف مع الأمام مالك رضي الله عنه " الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو

الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل "، وقـول الأمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه " لا يفلح صاحب كلام أبدا "، ولا نكاد نـري أحدا نظر في الكلام إلي وفي قلبه دغل ([1])، وقال مالك أرأيت أن جاءه من هـو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد .. ؟ ([2]) ، وكما حارب الشعراني الجـهل في الفقه والجهل في التصوف، وحارب، الأدعياء والدخلاء فإنه حـارب أيضـا المتفلسفين من رجال التصوف ونازلهم منازلة قاسية .. حتى أننـا لـنراه يمنـع مريديه من قراءة بعض مؤلفات محي الدين بن عربي وهو المحـب الأكـبر لـه والتلميذ الأمين لمؤلفاته وآثاره، وكذلك بعض مؤلفات جمهرة من رجال التصـوف الصادقين مع احترامه لهم وتقديره لمؤلفاتهم، ولكن الأمام الشعراني في مصادرتـه لتلك المؤلفات كان يهدف إلي غاية أكبر من هذا الحب وهذا التقدير، كان يـهدف إلي حماية العقول العامية، وأشباه العامية في عهده وبعد عهده من صولـة الآراء الصوفية ومن شطحاتهم وهي صولة لا يعرفها إلا من ذاق وعرف، وهي شطحات أكبر من أن تطيقها العقول الضعيفة أو تتحملها القلوب التي تسبح في سـبحاتهم أو تشرب من كئوسهم، ومن أجل ذلك كله .. حورب الأمام الشعراني وناوشته السهام من كل جانب وتلقي الطعن من أكثر من ميدان، ولقد كانت وسيلته فـي معاركـه المتتالية كتبه ومؤلفاته، التي كان يذيعها وينشرها فيما حوله، يحارب بها الزيـف ويدعوا بها إلي الهدي يحارب بها الأدعياء ويدعوا بها إلي الصدق، ورأي الأعداء أن خير وسيلة للنيل منه الدس في كتبه وتشويه مؤلفاتـه ووضـع الخزعبـلات والأباطيل فيها، ولقد كانت هذه وسيلة سهلة في عصـر الأمـام الشـعراني، لأن المؤلفات تنشر عن طريق من يكتبوها الأمر الذي يجعل الـدس والتشـويه فيـها ميسورا لا يكلف هؤلاء الأدعياء إلا نسخ بعض الصور وإذاعتها علـى العامـة . يقول الأمام الشعراني، لما وضعت كتابي البحر المورود في المواثيق والعـهود، وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر وتسارع الناس إلى كتابته غار من ذلك الحسدة ، فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منهم نسخة وكتبـوا

---

[1]- شك .

[2]- انظر مقدمة المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود

لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقــائد زائفــة ومســاعل خارقــة لإجمــاع المسلمين، وحكايات سخريات عن جحا وابن الرواندي، وسبكوا ذلك في غضــون الكتاب في مواضع كثيرة حتى كأنهم المؤلف، ثم أخذوا تلك الكراريس وأرســلوها سوق الكتاب في يوم السوق، وهو مجمع طلبة العلم، فنظروا في تلك الكراريــس ورأوا أسمي عليها فاشتراها من لا يخشى الله تعالي ثم دار بها على علماء الأزهر ممن كتب على الكتاب ومن لم يكتب فوقع بذلك فتنة كبيرة ومكث الناس يلوثــون بي في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنه وأنا لا أشعر، وانتصــر لــي الشيخ ناصر اللقاني وشيخ الإسلام الحنبلي والشيخ شهاب الدين بن الحلبي كل ذلك وأنا لا أشعر، فأرسل لي شخص من المحبين في الجامع الأزهر وأخبرني الخــبر فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء فنظروا فيها فلم يجدوا شيئا مما دســه الحسدة (1)، الكتب هي الوسيلة لكشفهم وتعريتهم أمام العامة، فلتكن هــذه الكتــب وسيلتهم لتشويه سمعة صاحبها، فأخذوا يدسون فيها ما يخالف الشــريعة والديــن وينقلون من كتب المارقين عن الشريعة ويضعوها في تلك المنشورات التي يرسلها الأمام الشعراني لتبصر العامة وترشدهم إلي حقيقة دينهم، وهم فــي هــذا الــدس والتشويه يرمون إلي غاية ويهدفون إلي هدف ألا وهو إقنــاع النــاس البســطاء وأصحاب العقول الصغيرة – وما أكثرهم في ذلك العصر – أن الشعراني مــارق عن الدين، خارج عن الشريعة وهو بذلك ليس إماما يتبع ولا عالما يقتــدي بــه – حتى ينفروا عنه العامة ويألبوا عليه الحكام .. ؟ لقد شــاهد هــؤلاء الأعيــان أن الشعراني هو المقرب إلي العامة والمحبوب عندهم فالجميع يلتفون حوله ويطلبــون وده، ويستمعون إليه، حتى الحكام والولاة لا يعصون له أمرا ولا يردون له طلبــا ولا يرفضون له شفاعة وفي ذلك خطر عليهم لأنهم يتاجرون بــالدين ويشــترون الدنيا بالآخرة وتلك التجارة رابحة في ذلك العصر وسلعة لن تبــور، والشــعراني بعيد عن كل هذا ولا يتخذ الدين حرفة ولا شريعة ربه تجارة، بل يرشد ويوجــه

1- مقدمة كتاب الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية مخطوط – ومقدمة العهود المحمدية ص5 ولطائف المنن والأخلاق ص191 ج2

ويأمر وينهي، ﴿ قل ما أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الله ﴾ ([1]) وهو علـــى كل شيء شهيد فإن استمر على ذلك، بارت تجارتهم وكسدت بضاعتهم، فقـــاتلوه على الدنيا وهو كاره لها، وحاربوه لدعوته بشريعة ربه وهم عنها راغبون ولـــها تاركون، وتمر أزمة الدس حيث كشف الزيف وظهر الحـــق وبطـل مـا كـانوا يدبرون، وانتصر له العلماء الصادقون ووقف بجانبه الأتقيـاء الورعـون ولكـن معسكر الجهل لا يهدأ وطلاب الدنيا لا يستريحون، ويسافر الأمام إلي أداء فريضة الحج ويتجه إلي مكة، يطلب رحمة ربه، ورضاه ويظن هؤلاء الأدعياء أن الميدان خلا من فارسه والحلبة افتقدت بطلها فيخرجـون مـن جحورهـم – ليعلنـوا أن الشعراني يخالف الجماعة ويخرج على الشريعة ويعلن ويفتي بعض الناس بتقديـم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة، وأشاعوا ذلك فـي الحـج وأرسـلوا بعض المكاتبات إلي مصر ([2]) ، أعلن الأعداء ذلك وتقول عليه المتقولـون هـذه الفرية التي لا تفسير لها إلا أنها لون من ألوان الدس الرخيص الذي يلجـأ إليـه أصحاب النفوس الضعيفة لتشويه سمعة العلماء، أيقولون عليه أنه ليس بعـالم ولا يفقه أمور دينه، وجاهل بشريعة ربه .. ؟ إنه عالم بشهادة الجميع وسني محمـدي لا يخرج عن الشريعة مطلقا، أيقولون عليه أنه يزاحم على الدنيا ويتكـالب علـى جمعها وحيازتها وليس ذلك من صفات العلماء العالمين .. ؟ إن قالوا ذلك وجـدوا أن الواقع يكذبهم وحقيقة الأمام غير ذلك، لقد طلق الدنيا من حياته وسخر بالجـاه والمنصب، فهولا يطلب شيئا ولا يتطلع إلي شيء ولا يتهافت على أبواب الأمـراء والحكام كما يفعلون ولا يبحث عن الجاه والمنصب كما يبحثون فماذا يقولـون .. ؟ كيف ينفرون عنه الناس .. ؟ ما الوسيلة التي بها يبغضه الحكام ولا يعتقـد فيـه الولاة .. ؟ وهداهم التفكير إلي إشاعة أنه يخرق إجماع الأئمة الأربعة، ويخـالف رأي العامة ولا يلتزم برأي الجماعة، والعامة دائما سريعة التصديق وخصوصا إذا تعلق الأمر بدينهم أو كان هناك شيء ينال من معتقداتهم، ولكن الأمام الشـعراني كان مع ربه دائما يعتمد عليه ويكل إليه كل أموره ومن كان كذلك كانت عيـن الله

---

[1]- سورة سبأ آية ٤٧

[2]- لطائف المنن والأخلاق للشعراني ج٢ ص١٩١

ترعاه، وعنايته تحفظه، فرد كيدهم في نحورهم وأبطل ما نصبوه من شباك وما فكروا فيه من مكائد، وخمد الحسدة إلي حين ولكن نارهم لم تخمد وسكنوا فترة ولكن اللهب أخذ يتأجج في قلوبهم ويشتعل في أفئدتهم .

كيف تخمد نارهم وفارس الحلبة فيها .. ؟ كيف يزول حسدهم والشعراني يتربع على عرش الفقه والتصوف، ويصول في كل ميدان .. ؟ وكل يوم يزدادا اتباعه ويكثر أنصاره ويعمق إيمان معتنقيه، إن مما يملأ قلوبهم حقدا ونفوسهم مرارة أن الشعراني أصبح شيخ الصوفية حالا وعالما وإمام التحقيق حقيقة ورسما ومحيي علوم العارفين فعلا واسما إنها نعمة من الله وفيض من عنده والله يرزق من يشاء ويعطي من يشاء ويمنع من يريد ، إنهم يعرفون ذلك ولكنهم لا يستطيعون الصبر عليه، ولا تتحمل أن تري النعم عند غيرهم، يعرفون أن هذا من نعم الله ولا سبيل لهم إلي إزالة هذه النعم فماذا يفعلون فليبحثوا عن سلاح آخر ووسيلة أخري وهداهم تفكيرهم إلي أن يعملوا على نفيه خارج البلاد فإن تحقق لهم ذلك خلا الجولهم وصفت الحياة أمامهم، وعندها يبدءون تجارتهم للدين ويتربعون على عرش الإدعاء والكذب، وهم آمنون مطمئنون، وإذا كان الولاة في مصر لا يستمعون إليهم ولا يصدقون ما يشيعونه عن الشعراني لأن الولاة يعتقدون في ولايته ويثقون في زهده وورعه فليجربوا حظهم مع السلطان علـه يستمع لهم وتنطالي عليه اختلاقاتهم فلماذا لا يكتبون إليه .. ؟ ويجربون هذا السلاح الجديد .. ؟ وكتبوا قصة مضمونها أن شخصا في مصر ادعي الاجتهاد المطلق وكثرت اتباعه ويخاف على المملكة منه، والمطلوب من السلطان نفيه من مصر (1) ، وتقع الدسيسة في أيدي الوزراء سيدرسونها في عمق ويتبادلون الرأي فيها بحرص وحذر أن ما فيها يمثل خطرا على الدولة، وأشار بعضهم بكتابة منشور للنظر في أمره، وقال بعضهم بنفيه خارج البلاد، إلي مكة وكان هناك الشيخ أبو اللطف فأخبرهم بأن هذه القصة جور على الرجل وافتراء عليه .

إن هذا الرجل ادعي الاجتهاد المطلق وكثرت اتباعه ويخاف على المملكة منه، لقد صوروا للسلطان أن الشعراني في طريقه إلي أن يصبح زعيما شعبيا خطيرا

1- لطائف المنن والأخلاق ج٢ ص١٩١

والأمر ليس إلا أمر زمن، فكلما مر الزمن ازداد تمكننا وشعبية، إنه يدعي الشرف لأنه من نسل محمد بن الحنفية وغدا يطالب بالخلافة وذلك ميسور له لكثرة اتباعه ومريديه، ومعني هذا أن الولاية في مصر في خطر، وهذه الفكرة كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود " الملك في خطر " تعمل عمل السحر في نفوس الملوك أنها تقيمهم وتقعدهم وتجعلهم لا يتورعون عن أي عمل، ولكن الأعداء أرادوا شيئا وأراد الله غيره ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ ([1]) ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ ([2]) ، وقيض الله للأمام الشعراني رجلا ورعا فاضلا دافع عنه ورد غيبته، وبصر ولاة الأمر بأنها خدعة خسيسة ومكيدة مكشوفة ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ ([3]) والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، هل كف الأعداء عن محاربته ، وهل نفذت سهامهم، وفلت أسلحتهم .. ؟ الحقيقة أنه بقي في جعبتهم الكثير، فليفكروا في قتله وبذلك يريحون أنفسهم من شره فيخلوا الجولهم، وتصفوا الحياة أمامهم، وعقدوا النية على ذلك وبيتوا أمرهم، وأخذوا يعدون العدة ويهيئون الأسباب، واجتمعوا بجامع الغمرى حيث كان يتعبد، وأوقدوا كثيرا من القناديل وجلسوا اتجاهه وأخذوا يرفعون بالذكر أصواتهم ويشوشون عليه فانتقل إليهم وجلس في مجلسهم، وقال لهم كلنا في الخير سواء، فمنعوه من الذكر معهم، فلما طلب منهم أن يخفضوا أصواتهم أبو عليه ذلك ولكن الله أنقذه من شرهم وسلط عليهم النوم فناموا حتى الصبا ح وفشلت مؤامرتهم وردوا بغيظهم لأن الله ولي الذين آمنوا، فشلت مؤامرات الترصد والتربص، فدسوا له السم كما دسوا بعد ذلك لتلميذه الأكبر " المناوي " وذهب المناوي شهيد تدبيرهم ونجى الله الشعراني مما دبروا وقدروا، وأخيرا تحطمت أسلحة خصومه جميعا، ولم يتحطم الحقد في قلوبهم فأتوا أمرا إدً يدل على المرارة القاتلة التي يحملونها للشعراني لقد أشاعوا نبأ موته كذبا حتى يذهب ذلك غيظ قلوبهم ...؟

---

[1]- سورة ال عمران اية ٤٥

[2]- سورة فاطر اية ٤٣

[3]- سورة الأحزاب آية ١٥

يقول الشعراني ومما وقع لي أن بعض الأقران في الأزهـر غلـب عليـه الحسد حتى شاع في الجامع الأزهر وغيره أني مت، وقال أخبرني جماعة ثقـات أن فلان مات فجأة وأرسل بذلك كتبا إلي دمياط والمحلة والإسـكندرية فأرسـلت فبحثت عن سبب هذه الشائعة فأخبرني بعض من يجتمع على ذلك العـالم، فقـال سمعته يقول إنما فعلت ذلك لأنظر ما يقول الناس في فلان إذا مات، فبحمد الله لـم يقل الناس إلا خيرا، فأزداد ذلك الحاسد هما وغما وتمثل الشعراني في تلك الواقعة بما أنشده الشيخ برهان الدين البقاعي حيث وقع له مثل ما وقع للشعراني :

ألا رب شخص قد غدا لي حاسدا	يرجى مماتي وهومثلي فانى
ويا ليت شعري إن مات ما يناله	ومـاذا عليه لوأطيل زماني
ومـا يبتغي الحسـاد منى وأنني	لفي شغل عنهم بأعظم شأنـي
نـعم أنني عما قريب لميـت	ومن ذا الذي يبقي على الحدثان
كـأنك بي أنعى لديـك وعندها	تري مصرعا أصمت له الأذنان
فـلا حسـد يبـقي لديك ولا قلي	فتنطـق في مدحي بأي معان ([1]).

وذهب خصوم الشعراني، ذهبوا بحقدهم وغلهم لم ينالوا خيرا وبقي الشعراني حيـا خالدا في كتبه وأثاره التي ترشد الناس إلي دينهم وتعلمهم مكارم الأخلاق وترتفـع بهم إلي محاريب التقوى والإيمان، قال تعالي ﴿ يريـدون أن يطفئـوا نـور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون ﴾ ([2]) ، ولكن مـا موقـف الشعراني من هذه الخصومة ، وبأي سلاح كان يجابه هـؤلاء الأعـداء، ويقـابل الخصوم .. ؟ أكان يحاربهم بنفس أسلحتهم ويرميهم بمـا يرمونـه بـه .. ؟ إن الشعراني كان يرتفع بنفسه عن مثل تلك المهاترات ويبتعد عن هـذه المشـاحنات ويلجا إلي ربه ..

[1]- لطائف المنن والأخلاق ج٢ ص٢٠٣

[2]- سورة التوبة اية ٣٢

موقف الشعراني من الأعداء

****

عباد الرحمن لا يؤذون من آذاهم ولا يفكرون في الانتقام لأنفسهم أو الانتصار لذواتهم تنفيذا لقوله تعالي ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ([1]) وقوله تعالي ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ([2]) ، وحتى لا تصدر منهم السيئة لقوله تعالي ﴿ وجزاء سيئة مثلها ﴾ ([3]) وشوا بذي النون المصري وجيء به من مصر إلي بغداد مقيدا مغلولا فمروا به على عجوز فقالت ما هذه الكبكبة .. ؟ فقالوا لها : إنهم أتوا بذي النون المصري إلي الخليفة ليقتله لزعم أهل مصر أنه أتلف عقائد الناس، فقالت العجوز : ائتوني به، فأتوها به فقالت له : يا ذي النون إن أردت النصرة على من ظلمك بين يدي الخليفة فأستحضر عظمة ربك، ومثل نفسك والأخصام والخليفة بين يدي الله عز وجل، وهو الحاكم وإياك أن تخاف فيسلطه الله عليك وإياك أن تجيب عن نفسك فيكلك الله عليها، بل أسكت وأرض بعلم الله فيك وانتظر ما ينطق الله به الخليفة من شأنك : فقال لها : نعم . فلما مضوا به إلي الخليفة ادعي عليه أهل مصر بأنه زنديق اتلف عقائد الناس فقال له الخليفة ماذا تقول .. ؟ فقال ماذا أقول .. ؟ إن قلت نعم كذبت نفسي وظلمتها وطالبني الله بها، وإن قلت لا كذبتهم وأنا استحي أن أكذب مسلما وقد سافروا من مصر إلي هنا لتنصرهم على، فسكت الخليفة ثم قال : إن كان هذا زنديقا فما على وجه الأرض مسلم [4] والأمام الشعراني من أولئك النفر الذين تشربوا روح الإسلام وتتلمذوا في مدرسة القرآن، ولذلك كان لا يشتغل بمقابلة من أذاه أو تنقيص من أنقصه ولا يرد السيئة بمثلها بل كانت طبيعته الصفح والتسامح يقوم بتفتيش نفسه والإكثار من الاستغفار والتوبة إذا وقع عليه أذى أو أصيب بمكروه، ويشتغل بذكر الله حتى يشهد أنه جالس بين يديه يراه ويراقبه ويحصي

---

[1]- سورة الشورى اية ٤٠

[2]- سورة آل عمران اية ١٣٤

[3]- سورة الشورى آية ٤٠

[4]- الأنوار القدسية في العهود المحمدية للشعراني ولطائف المنن والأخلاق ج ص١٩٥

عليه أنفاسه يعلم ما توسوس به نفسه وما يضمره فؤاده ومن كان في حضـــرة الله حمل أذى الثقلين وهو مغتبط راض، ومن فلسفة الأمام الشعراني في هذا الشأن أن الله سبحانه وتعالي لا يسلط الخلق بالأذى على أحد، وهو حاضر بين يديه وأنه مــا سلط الخلق على أحد إلا لغفلته عن ربه ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ([1]) فكأن في تسليط الخلق على العبـــد نعمـــة فـــي صورة نقمة "حتى الشوكة يشاكها إلا كتب الله له بها حسنه وكفر عنه خطيئة " ([2]) فإذا أراد العبد أن يعيش آمنا مع نفسه آمنا في سرية لا يقع عليـــه أذى ولا ينالـــه مكروه، فعليه أن يكثر من الاشتغال بربه يصفي نفسه من أدرانها ويتوب ويستغفر ولذلك قالوا إذا اشتغل الناس بك فاشتغل أنت بربهم، فإن بيده زمـــام أمرهـــم ولا تقابلهم تتعب وتزدد من الأذى، ولقد أوحي الله سبحانه وتعـــالي إلـــي داود عليـــه السلام ﴿ يا داود لا تبغ على من بغي عليك، تتخلف عنك نصرتي، فإني لا انتصر إلا لمن رضي بعلمي ولم يقابل من آذاه بالأذى ﴾، والأمام الشـــعراني فـــي هـــذه الفلسفة مقتد برسول الله ﷺ، آذاه أهل مكة أغروا به صبيانهم وغلمانـــهم، ويـــنزل جبريل عليه السلام يقرئه السلام من رب السلام ويقول له يا محمـــد : مرنـــي أن أطبق عليهم الأخشبين فيجبه نبي الرحمة بقوله : يا جبريل عسي الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ويؤمن بمحمد، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمـــون وفـــي الحديث القدسي عن رب العزة ﴿ وعزتي وجلالى لا ينتصر بي عبد من عبـــادي اعلم ذلك من قلبه يقينا، فيكيدوه أهل السموات وأهل الأرض إلا نصرته عليـــهم ﴾ قال تعالي ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ ، وإذا كـــان الأمـــر كذلك فعلام الغضب ولأي شيء يضيق الإنسان بالأذى، مادام هذا الشيء قد يكون

---

[1]- سورة الأنفال آية ٣٣

[2]- يقول الرسول ﷺ : قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى، النكبة ينكبها والشوكة يشاكها، عن أبي هريرة، رواه الأمام أحمد في مسنده والأمام مسلم في صحيحه والترمذي وهو صحيح وعن أبي الدرداء قال عليه الصلاة والسلام : ما من رجل يصاب بشيء في جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه خطيئة .

رواه الأمام البخاري والأمام مسلم في صحيحهما، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ما من مسلم : يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة، رواه الأمام مسلم ص٦٣٠

بلاء واختبارا من الله سبحانه وتعالي، قد يكون تكفيرا لذنوب سبقت ارتكبها العبد في حق نفسه أوفي حق ربه أوفي حق المجتمع الذي يعيش فيه، وقد يكون ما يناله من أذى الناس وما ينزل عليه من بلائهم إنما هو لرفع درجاته في الآخرة، ولهذا كان الأمام الشعراني يري أن الأذى الذي كان يصب عليه من الأعداء المارقين عن الدين والجهلاء المتصدرين للتصوف إنما هو من باب تنبيهات الحق تعالي له فيتذكر ذنوبه ويستحضر خطاياه، فيأخذ في الندم والتوبة على ما فعل من الزلات أو على ما فرط في الطاعات أو على ما كان قد عزم عليه من المخالفات .

قال تعالي ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ ([1])

وإذا كان هذا هومبدأه، واعتقاده فقد كان يري أن إقامة العذر لمن يأتي منه الأذى واجب وتلمس المعاذير له من أخلاق الرجل المؤمن .. لاعتقاده اعتقادا جازما لا شبهة فيه أن الشخص لم يستطيع أن يؤذيه إلا بإرادة الله بعد وقوع هذا الشخص في الذنب في ذنب يوجب ذلك .

إذا شهد العبد ذلك إذا اعتقده وآمن به، إذا أصبح له عقيدة ودين، فلا يصح منه أن يتكدر ممن أذاه ولا يسخط علي مقدور من مقدرات الحق أما عدم التكدير فلكونه يشهد أن الخلق كلهم لا يتحركون ولا يسكنون إلا وهم تحت الإرادة الإلهية فهؤلاء الذين يقومون بالأذى وينكلون بالناس هم في الحقيقة كالسوط الذي يضرب به الضارب، وفي الحديث القدسي ﴿الظالم سيفي منه انتقم وبه انتقم ﴾ ([2]) وأيضا قوله تعالي ﴿ قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ ([3])

وأما عدم سخطه على مقدورات الحق فلكونه يشهد أن ذلك فعل عليم حكيم ارحم بالعبد من والدته، يقول الأمام الشعراني :

" وانظر يا أخي إلي الوالدة كيف تضر بولدها وتشكه بإبرتها إذا خافت عليه وقوعه فيما هو أشد من ألم من غرز الإبرة أو الضرب كل ذلك شفقة عليه ، إذا

---

[1]- سورة الشورى آية ٣٠

[2]- عن جابر عن النبي ﷺ قال : الظالم عدل في الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه، كشف الخفا ج٢ ص٤٩

[3]- سورة النساء آية ٧٨

كان هذا فعل الأم مع ضعف شفقتها فكيف بالحق جل وعلا ..؟"[1] ، وهولا يكتفي بالتماس الأعذار لهؤلاء الأعداء ولكنه يتأثر من أجلهم ويتألم لألمهم ويطلب الرحمة لهم إذا نزل عليهم بلاء لعلمه أن حالهم لا يخلو من أمرين، إما أن يكون هذا الإنسان الذي يبادئه بالعداوة ويلاحقه بالأذى مبتلي في دينه يؤذى الناس بغير حق ويغتابهم بدون سبب، فالواجب عليه مسامحته ورحمته والدعاء له، حتى يترك ضلاله، ويعود عن غوايته ويسلك طريق ربه، ولا يأكل لحوم إخوانه، فهذا الإنسان يستحق الرحمة وفي حاجة إلي أن نطلب له الاستغفار ونرجو له التوبة وأما أن يكون من وقع عليه الأذى يستحق هذه العداوة فهي جزاء له وعقوبة على أفعاله، فكراهيته لهذا الإنسان حمق ورعونة نفس لأن الله سبحانه وتعالي يعامل الخلق بحسب ما يصدر منهم، وما عرفه من الأول ذواتهم ﴿ كما تكونوا يول عليكم ﴾ ([2]) ، ولقد كان أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه يقول : لو جلس عن يميني أحب الناس إلي يكلمني بأطيب الكلام، ويبخرني بالند والعنبر ويطعمني أطيب الطعام ويسقيني ألذ الشراب ثم جلس عن يساري من كان بالضد من ذلك، وصار يقرض جسمي بمقاريض من نار ما زاد ما زاد عندي من على يميني ولا نقص عندي من على يساري، لشهودي كلتا الحالتين من الله عز وجل ([3]) ، ويري الأمام الشعراني، أن هذا المقام لا يثبت فيه إلا من كان مطمع بصره ببادئ الرأي أن كل شيء وقع لي من الله تعالي قبل شهود ذلك من الخلق وحينئذ لا يلتفت إلي الخلق، فكل شيء شاءه الله تعالي على يديهم من الأذى، هو فعل الله تعالي لا فعل الخلق ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ([4]) ، ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ ([5]) لقد فني اختيار الشعراني في اختيار ربه، فأصبح لا اختيار له ولا إراده وترك التدبير جملة، وماذا يفعل تدبيره وماذا يجدي رسمه وتخطيطه إذا كان الله سبحانه وتعالي قد كتب له غير ذلك، واختار له غير ما يريده، إنه يعلم : بأن لكل أجل

---

[1]- لطائف المنن والأخلاق ج٢ ص١٩٦

[2]- حكمه أو حديث

[3]- لطائف المنن والأخلاق للشعراني ج٢ ص٢٨٠ والأنوار القدسية في قواعد الصوفية .

[4]- سورة الصافات اية ٩٦

[5]- سورة القصص اية ٦٨

كتاب ولكل بلبله غاية ومنتهى ونفاذا ولا يتقدم شيء من ذلك ولا يتأخر وأوقـــات البلايا لا تنقلب عافية وأوقات البؤس لا تنقلب نعمة، فمن طلب ظلمة الليـــل فـــي النهار أو نور النهار في الليل فقد جهل ولم يعط ما طلب لأنه طلب الشـــيء فـــي غير وقته وحينه .

ومكلف الأشياء ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

فالعاقل من سلم لله تعالي أموره ولم يبق عنده في نفسه طلب لجلب مصـــــالح ولا دفع مفاسد، بل هو كالطفل الرضيع مع الضأن فتتولى القدرة تربيته وتجلـــب لـــه مصالحه، وترفع عنه مضاره من غير أن يكون له اختيار أو تدبير.

والشعراني تخلص من حظوظ نفسه جملة فصار يريد بإرادة الله عز وجل ويتدبـــر بتدبيره ويختار باختياره ، ويشاء بمشيئته ويرضي برضاه ، على الكشف والشهود ومن هنا لم ينتصر لنفسه ولم يدافع عن ذاته ، تركهم يدسون في كتبه ، ويدبـــرون له المكايد عند الولاة ويطلبون بنفيه ، ويدعون عليه الاجتهاد المطلق وأنه يقول في دين الله بالرأي ، ترك كل ذلك ولم ينصب من نفسه مدافعا ولا مناهضا لحججـــهم ولا مبطلا لادعاءاتهم ، ترك أموره لربه وأسلم إليه نفسه ، فقيض الله من انتصـــر له ، وهيأ له من رد كيدهم في نحورهم ﴿ إن الله يدافع عن الذيـــن آمنـــوا ﴾ [1] ، ولكن إذا كانت هذه فلسفة الأمام الشعراني ، وتلك طريقته فـــي مقابلـــة الأعـــداء والخصوم فكيف نوفق بين فلسفة تلك والنصوص القرآنية الدالة على رد الاعتـــداء والأخبار التي تثبت لنا أن الرسول ﷺ انتصر من أعدائه وطلـــب مـــن صحابتـــه حربهم ورد كيدهم في نحورهم ، لقد طلب الرسول عليه السلام من الشاعر حسان بن ثابت رضي الله عنه [2] ، أن ينافح الكفار وغير ذلك كثـــير ، ويجيبنـــا الأمـــام الشعراني : أن رسول الله ﷺ أمر حسان بن ثابت بالرد على الكفار مبـــادرة إلـــي نصرة الدين وخوفا من تزلزل قلوب حديثي العهد بالإسلام فالرد كان لغاية أكـــبر ولمهمة أعظم هو الدفاع عن الدين لا تشفيا للنفس لأنه ﷺ معصوم عن مثل ذلـــك

---

[1] سورة الحج آيه ٣٨

[2] حسان بن ثابت – هو الشاعر الصحابي أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري المخزومي شاعر النبي ﷺ وأحد فحول الشعراء وتوفي سنة ٥٤ ه

بالإجماع ، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ قالت : كان خلقه القرآن ([1]) ، وقال تعالي ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وكان لا يغضب لنفسه ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمة الله تعالي ، فأمره عليه السلام لحسان بن ثابت استئناسا لضعفاء أمته الذين لا يقدرون على سماع كلام في حقهم من غير أن يجيبوا عن أنفسهم ، بنفسهم أو وكيلهم ، وفيه أيضا فتح باب الإقتداء به ﷺ في مثل ذلك ، ليحصل لهم التأسي به بظاهر الفعل فقط دون قصدهم أمرا آخر ، وأما الجمع بين منهج الأمام الشعراني وبين قوله تعالي ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ ([2]) وقوله تعالي ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ([3]) وقوله ﴿ لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ ([4]) ونحو ذلك الآيات .

قد يكون المراد بالانتصار هنا ما يعم الانتصار بترك المقابلة اكتفاء بعلم الله تعالي فيه ، وانتصاره للمظلوم كما في قوله تعالي ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ﴾ ([5]) ، أو يحمل ما هنا من النهي والبغي ، على النهي عن البغي بزيادة ، على ما يستحقه الباغي كما أشير إليه في قوله تعالي :﴿ بمثل ما اعتدي عليكم ﴾ وقوله ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ ([6]) ولا يعترض معترض ، بأن آيات القرآن تفسير على خلاف ذلك لأن رجال التصوف الصادقين يرون في كتاب ربهم وأحاديث نبيهم إشارات وتنبيهات فيدلون عليها فلا يعترض عليهم ، لأنهم لا يقولون بأن آيات القرآن لا تحتمل غير هذا الوجه وإنما يؤيدون رجال الظاهر في وجهتهم لتفسير آيات القرآن ، وإنما كل ما يخالفونه فيه قولهم ، أن القرآن يحتمل وجوها أخرى من التفسير التي نادى بها رجال الظاهر .

---

[1]- رواه الأمام أحمد في مسنده ، عن عائشة رضي الله عنها .
[2]- سورة الشورى آية ٣٩
[3]- سورة البقرة آية ١٩٤
[4]- سورة الشورى آية ٤١
[5]- سورة الحج آية ٦٠
[6]- سورة الشورى آية ٤٠

يقول الدكتور عبد الحليم محمود ، ومن أجل ذلك فإن الهامات الصوفية في الآيات القرآنية فياضة دائما سيالة باستمرار ومـــع هــذا فينبغـــي أن نلاحــظ أمريــن الأول : أن هذه الإشارات لا تهدف في قليل ولا في كثير إلـــي أن تحــل محــل التفسير المألوف ، الثاني أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف إنـــها إشارات وليست تفسيرا ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفســـرين ومادمنا تناولنا معارك الأمام الفكرية فإننا لا نترك هذا الباب من غير أن نتنـــاول صلة الشعراني بالحكام حيث كانوا في كثير من الأمور المحركين لهذه المعارك أو الدافعين إليها .

الإمام الشعراني والولاة

تمهيد

صلة العلماء بالحكام قديمة، تقوم على النصح والإرشاد من العلماء وقبــول الحكام والولاة النصح مرة، وقيام الحزازات والخصومات بينهم في أكثر الأوقــات والتاريخ يحفظ لنا في جعبته الكثير من هذا وتلك، ويبين لنا أن الغلبة في النهايـــة كانت لكلمة الحق، للكلمة التي تمت بسبب إلي السماء والنصـــرة كـــانت للعلمـــاء مادامت نواياهم طيبة وقلوبهم صادقة ويقصدون بنصحهم وجه الله ونصرة الحـــق، ويسير الحكام على تعاليم الشريعة وتنفيذ أوامر الدين .

اختلفت وجهات النظر بين سعيد بن المسهب الإمام التابعي، وبين ملوك بني أميه ووقفت الدولة كلها بسلاحها وعتادها ترغى وتزبد وتهدد وتتوعد، تتوعد هـذا الإمام الجليل الأعزل من السلاح وتطالبه بالنزول على رغبتها وتنفيذ ما تدعــــوه إليه ولكن التابعي الجليل لم يرهبه الوعيد، ولم يفزعه السيف، بل سخر منهم ومـن قوتهم وصدع بكلمة الحق ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وعلى الله فليتوكـــل المؤمنون﴾ ([1]) وجابههم بصوت المؤمن القوي :

" لقد فرغت من دنياكم فلا تنزل سيوفكم مني على لحم حي " ويحدثنا التاريخ عـن محنة الإمام أحمد بن حنبل مع المأمون وقصة خلق القرآن، عندما طلب المقربـون من الإمام والمشفقون عليه أن يخفف من تشدده أمـــام إصـــرار المـــأمون قـــال لهم : " إن الأمة على رأي علمائها فإن كفروا كفرت الأمة وإن غـــيروا وبدلـــوا عاقبهم الله بعذاب من عنده، وخير لي أن يموت أحمد بن حنبل وحده من أن تموت معه الأمة الإسلامية كلها إن القول بخلق القرآن شيء لم يقله الرسولﷺ ولم يقلـــه الخلفاء الراشدون من بعده، فكيف يتأتي لي أن أقول شيء لم يقلـــه هـؤلاء .. ؟ ويقدم الإمام أحمد بن حنبل للمحاكمة ويضرب عساكر المأمون عنق اثنان أمامـــه لإرهابه، ولكن الإمام أمام هذا المنظر المروع يسال أحد أصحابه من تلاميذ الإمام الشافعي رضي الله عنه " أي شيء " تحفظ عـــن الشـــافعي فـــي المســح عــن

---

[1]- سورة التوبة اية ٥١

الخفين ؟ وقد أثار تسآله وعدم مبالاته فزع الخليفة حتى أن خصمه الأول أحمد بن داود قال للخليفة والحاضرين : انظروا رجلا يقدم لضرب عنقـــه فينـــاظر فـــي الفقه ([1])، ويضيق الحجاج بن يوسف بفقيه الكوفة وسيد التابعين سعيد ابن جبـــير فيقول له الطاغية، أنت شقي بن جبير فيرد عليه، أبي كان أعلم بأسمى منـــك وإذ ذاك يتضايق الحجاج فيصيح في تبرم وغيظ، لقد شقيت وشقي أبـــوك .. ويظـــن بذلك أنه قـــد قطـــع الـــرد عليـــه، ولكنـــه يســـمعه يجيـــب .. الغيـــب يعلمـــه غيرك .. فيستشري غيظه ويصيح لأبدلنك بالدنيا نار تتلظى فيقـــول ســـعيد فـــي هدوء : لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت إله غيرك ، ثـــم يســـير إلـــي مصرعـــه مستشهدا في سبيل الله ([2]) ، والإمام الفاضل صاحب مدرسة الرأي فـــي الإســـلام أبو حنيفة النعمان يضربه ابن هبيرة عامل الأمويين بالسوط ليتولي قضاء العـــراق فيأبي أن يكون كرة في أيدي الطغاة ثم أراده أبو جعفر المنصور كذلـــك فـــامتنع وحلف أبو جعفر ليفعلن، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، وقال إني لا أصلح للقضـــاء .. قال الخليفة : كذبت .. فأنطلق أبو حنيفة يقول قد حكم عليّ أمير المؤمنين أنـــي لا أصلح للقضاء لأنه ينسبني إلي الكذب، فإن كنت كاذبا فلا أصلح وإن كنت صادقـــا فقد أحبت أمير المؤمنين أني لا أصلح، وقالوا : إنه ضرب مائة سوط، حتى ســـال الدم على عقبيه، فقال عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة للخليفة : ســـللت على نفسك مائة ألف سيف ، هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل الشرق فأمر له أبـــو جعفر بثلاثين ألف درهم ، مكان كل سوط ألف درهم فلما وضعـــت بيـــن يديـــه رفضها فقيل له : لو تصدقت بها قال : أيوجد عندهم الحلال .. ؟ وكانت أمه إلي جواره تقول : يا نعمان إن علمك ما أفادك غير الضرب، والحبس لحقيق بـــك أن تنفر منه فأجابها " يا أمه لو أردت الدنيا لوصلت إليها ولكنني أردت أن يعلـــم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي فيه للتهلكة " .

---

[1]- التصوف الإسلامي عبد القادر محمود ص٩٥، حلية الأولياء ص٩، ١٨٦

[2]- قال عند قتله اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي فمات الحجاج بعده بخمس عشرة ليلة ووقعت الأكلة في بطنه ص٣٧- الطبقات الكبرى .

هذا هو أبو حنيفة صلابة في الرأي وإيمان بعدالة السماء .. وقوة عزيمة نابعة من التربية الدينية التي أخذ نفسه بها، يقول لتلميذه أبو يوسف عن السلطان إذا تفرس فيه وتنبأ أنه سيلي القضاء، " فكن منه كما أنت من النار تنتفع بها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق وتتأذي منها فإن السلطان لا يري لأحد ما يري لنفسه "، وادخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة، وبعث إلي ولده حماد يقول : قد علمت أن قوتي في الشهر " درهمان من سويق الناعم من الحنطة والشعير " وقد حبسته عني فعجله، ومكث في السجن أياما معدودات ثم صعدت روحه إلي بارئها رحمه الله رحمه واسعة .

كان هذا حال العلماء، وكان هذا حال الفقهاء، تعفف عما في أيدي الولاة والحكام وبذل النصح لهم، فإن أبو جابهوهم بالقول الصارم والتقريع الشديد، فلما كان العصر العثماني .. لاحظ الإمام الشعراني، وشاهد هتاف العلماء على حكام البلاد، ورأي إسفافهم في طلب الدنيا وتكالبهم عليها، الأمر الذي جعل الحكام والولاة يستهترون بهم ولا يذعنون لكلامهم، فإن طلبوا أن يعطوهم مما في أيديهم لبوا طلبهم مرة ورفضوه مرات .. ويروي الإمام الشعراني ضجر هؤلاء الحكام من تهافت الأدعياء على أبوابهم فيقول : " وقد بلغني عن بني بغداد أنهم يقولون سئمت نفوسنا من كثرة ما يسألنا الفقهاء والفقراء وبعضهم جعل نزواه كل سنه إلي مولد سيدي أحمد البدوي حجة في سؤالنا وطلب صدقتنا وربما أنه لم يدخل قبة سيدي أحمد مطلقا فيضرب خيمته خارج الملقة ويسير يأخذ ما يأكل هو وجماعته وبهائمه، ثم إذا انقضي الموسم يأتي إلي محلة المرحوم يسألنا بحاله ومقامه ويزعم أنه إنما نزل لزيارتنا شوقا إلينا وهو كاذب، فإننا لسنا من العلماء حتى يستفيد منا علما ولا من الصالحين، حتى ندعو له، ولا عندنا شيء من الحلال حتى يأخذ منه ما يطلبه فما بقي إلا أنه نصاب فاسق (1) .

لقد انكشف هؤلاء الأدعياء أمام الحكام الظلمة، وكل منهم تعري أمام الأخر، فالحكام يعترفون أنهم ظلمة وأموالهم حرام تؤخذ من أيدي الفقراء من

1- لطائف المنن ص٩٩ ج١

الفلاحين والعمال غصبا وقسرا وهم يعلمون أيضا بنوايا هؤلاء الأدعيـاء، فليـس الدين مطلبهم ولا نصح الحكام طريقتهم، وليست الآخرة هدفهم وإلا لعملوا لهـا، ولكنهم يطلبون الدنيا فتفر منهم، ويمرغون جباههم أمام الظلمة فلا يعطونهم، ولـو أنهم كانوا علماء حقا لالتزموا بمنهج رسـول الله ﷺ، واقتـدوا بسـيرة الخلفـاء والتابعين والعلماء من بعدهم .

يقول الإمام الشعراني أيضا " وسمعت جماعة الوزير علي باشا يقولون قـد سئمت أنفسنا من كثرة ما يسألنا هؤلاء المشايخ ونعطيهم مـن العـدس والعسـل " والفلوس " .. ثم يقولون عنا أننا ظلمة فلأي شيء يأخذون منا ..؟ ولو أن هؤلاء شموا رائحة الطريق لتعففوا عما فـي أيـدي الخلائـق فكـانوا يعظمـون فـي عيونهم " (١) .

أيترك الإمام الشعراني هؤلاء الأدعياء يشوهون وجه العلماء .. ؟ أيتركـهم يدعون – بالباطل– أنهم حملة الشريعة واتباع محمد بن عبـد الله ﷺ .. ؟ ليكـون هؤلاء الأدعياء حملة شريعة الرسول ﷺ .. ؟ الرسول الذي عرضت عليه جبـال الذهب والفضة فرفضها، وقال : أجوع يوما واشبع يوما حتى ألحق بإخواني أولـوا العزم من الرسل (٢) .. أ هؤلاء الأدعياء خلفاء سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب والإمام مالك وأبي حنيفة وابن شريك وطاووس اليماني وأمثالهم كابن سميه وعـز الدين بن عبد السلام والإمام الشاذلي وغيرهم .. ؟ الجواب لا .. ؟

ويلجأ الإمام " المربي الشعراني " إلي الرمز ويسوق إلي هؤلاء الأدعيـاء النصح على لسان الطيور مرة ولسان الحيوانات أخري .. علهم يرتدون عن غيهم أو يفهمون حقيقة وضعهم، أو يتركون ما هم سادرون فيه من غـي وضـلال .. يقول الإمام الشعراني " في الأمثال الثائرة أن كلب السوق تناظر مع كلب الصيـد وقال له مالك لا ترضي بالكسر التي على المزابل مثلي وتجتنب الملوك والأمـراء وأبناء الدنيا فقال كلب الصيد لكلب السوق : أنا وإن خالطت الملوك وغيرهم فأنـا

١- لطائف المنن ص٩٩ ج١
٢- انظر أخر الرسالة

متعفف عما في أيديهم ولا آكل منهم شيئا واصطاد لهم لا لنفسي، ولذلك عظموني وأكرموني وقربوني وأجلسوني على فراشهم ولم ينظروا إلي خساستي حين رأوا شرف همتي وأنت لما كنت كثير الشره والحرص على ما بأيديهم ولا تصطاد إلا لنفسك طردك الخلق إلى المزابل ([1]) .

لماذا لجأ الإمام الشعراني إلي هذا المثال : وكرره في أكثر من كتاب .. ؟ غالب الأمر، أن هؤلاء الأدعياء، قالوا له : إن كنا نذهب إلي الحكام فأنت تذهب، وإن كنا نقابلهم فأنت كذلك، فعلام تنزل علينا باللائمة وتترك نفسك .. ؟ ولماذا تطالبنا بالامتناع عن شيء أنت تفعله .. ؟ فضرب لهم الإمام الشعراني هذا المثل وقال لهم : إن الشرط الأساسي لمقابلة الحكام والجلوس معهم وطرق أبوابهم أن يعف الفقير عما في أيديهم، فإذا فقد هذا الشرط فلا تصح هذه المجالسة، لأن الفقير يمثل أمام الناس الرجل الذي فرغ من دنياهم واتجه بكليته إلي الله، والحاكم يمثل أمام الناس رجل الدنيا الحريص على جمعها وتعميرها، إن الدنيا في حاجة إلي الآخرة، ولكن الآخرة ليست في حاجة إلي الدنيا، ويروي لهم أيضا قصة هذا الولي، الذي نزل عن رأي الخليفة وذهب يعيش في قصره، ترك الفقر إلي الغني، وودع الآخرة إلي الدنيا وآثر صحبة الملوك على أن يعيش عابدا لله، فماذا كانت النتيجة .. ؟

يقول الإمام الشعراني، حكي أن شخصا من أولياء بغداد كان يسقي الناس الماء فما يشرب منه أحد به مرض إلا شفي فبلغ ذلك الخليفة فركب إليه وقال : اشتهي أن تسكب لنا الماء في دارنا فلم يزل به حتى دخل داره ، وصار كل من في الدار يتبرك ويحلف به، فسرق لجاريه من جواري الخليفة عقد جوهر فقالت ما أخذه إلا السقاء، فعظم ذلك على الخليفة فقال : خذي لك ما شئت ولا تذكري الشيخ بسوء فقالت : يحلف على مصحف عثمان فعظم ذلك على الخليفة : فتلطف بالشيخ وأرسل له الوزير فألان له القول فأجاب الشيخ على الحلف فعمى على الحال، وخرج أعمي وشاع الخبر في بغداد أن الشيخ حلف

---

[1] -الرسالة ص١٥ والبحر المورود والعهود المحمدية

باطلا فعمي ، والشيخ ساكت لا يتكلم فلم كان بعد أيام مرضت الجارية مرضا شديدا فلم ينجح فيها الدواء فورد عليهم طبيب حاذق فقال : أطعموها قلوب الطواويس تبرأ فذبحوا ثلاثة طواويس من التي في دار الخليفة فوجدوا القلادة في جوف طاووس، فشاع الخبر ببراءة الشيخ وزال عماه، وصار الخليفة يقبل أقدامه ويقول اجعلنا في حل، فقال الشيخ : لا أجعلك في حل حتى " تجرسني " على جمل وتنادي عليَّ في أزقة بغداد هذا جزاء من يصحب غير جنسه ويخالطه في داره على صحة وصدق ([1]) .

إننا لا نناقش ما في هذه القصة من صدق أو كذب .. لا نناقش ما فيها من كرامات وخلافه .. ولذلك لم نهتم باسم الخليفة ولا بزمن حدوثها، فقد تكون من القصص الرمزية أو التعليمية التي يلجأ إليها الإمام الشعراني ومنهجه في التربية وطريقته في إصلاح هؤلاء الأدعياء وتبصيرهم بأخطائهم، أتراهم يفهمون هذا المغزى ويعقلون ما ترمي إليه هذه الإشارات .. ؟ غالب الأمر أنهم لم يعوا هذا الكلام ولم يفهموا هذا الأسلوب الرمزي الذي لجأ إليه الإمام الشعراني ، وصموا آذانهم عن النصيحة، وأصروا واستكبروا استكبارا، ولكن الإمام الشعراني لم ييأس منهم، ولم يبال ما يلقي في سبيل ذلك من عنت واضطهاد ومن تجريح وتدبير للدسائس والمكائد ورميه بما لم يقله، ودسهم في كتبه الخزعبلات والأباطيل الأمر الذي يضطر معه أمامنا أن يؤلف كتابا يضع فيه الأسس والشروط التي يجب على الحكام أن يلتزموها مع العلماء والفقهاء والقواعد التي يجب أن يسير عليها الفقراء في اتصالهم بالحكام والأمراء إنها أصول وقواعد تحفظ للعلماء حرمتهم وتصون ماء وجوههم عن الابتذال، وتحدد لهم واجباتهم إزاء هؤلاء الحكام ، وهذه الأصول والقواعد، لم يخترعها الإمام من عند نفسه ولكنها تنبع من الكتاب والسنة وتسير على منهج التربية الإسلامية التي اتبعها الفقهاء والعلماء على مر العصور، فإذا ما خرجوا عن هذا المنهج وانحرفوا عن هذه القواعد، فقدوا صفتهم الأساسية كحملة للشريعة وكعلماء للمسلمين .

[1]- البحر المورود على هامش العهود المحمدية ص٢٣١

يقول الإمام الشعراني : في مقدمة هذا الكتاب .. " فهذا كتـــابي المســـمي بإرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلي شروط مصاحبـــة الأمـــراء مـــن غـــير معرفتهم بشروط الصحبة، حتى أن بعضهم صار يكره كل من شاركه في صحبـــة ذلك الأمير الذي سبقه إلي صحبته ولو أنهم كانوا يعرفون شروط صحبتـــه ومـــا يلزمهم من الواجبات لما تزاحموا على أمير قط .. ولكن كل ذلك تصديق لرســـول الله ﷺ في قوله ﴿ لا تقوم الساعة حتى يتغاير العلماء على صحبة الأمـــراء كمـــا يتغاير الناس على صحبة النساء ﴾ ([1]) وفي كلام الإمام عمر بـــن عبـــد العزيـــز رضي الله عنه " لا ينبغي لعالم أن يدخل على أمير ولو يقصد نصحه فإن الأمـــواء لا يصبرون على سماع النصح من العلماء "، وإنما خصصنا هذه الرسالة بإرشـــاد المغفلين لأنهم هم الذين يزاحمون على الأغراض الدنيوية، بخلاف الحذاق في أمر دينهم من الفقهاء والفقراء،، فإنهم لا يزاحمون على القرب من الأمراء فضلا عـــن صحبتهم، والأعمال بالنيات والحمد لله رب العالمين " ([2]) ، وتخرج مؤلفات الإمام الشعراني تترى، وفي كل منها دعوة صريحة للعلماء أن يجابهوا العلماء الظلمـــة ويقرعوا آذانهم بكلمة حق، ويحذروهم كي يعفوا عما في يد الولاة، وإلا لا فـــائدة في كلامهم لأنهم حينئذ لا يجدون آذانا صاغية لهم بـــل يصبحـــون مـــن الحكـــام كالمصوت في المغارة لا يسمع فيها الصدى أو المنقطع في المفازة لا يحس غـــير السكون، ويقص عليهم قصص العلماء العاملين قبلهم وكأنه يقول لهم افعلوا مثـــل هؤلاء واقتدوا بهم، فإن فعلتم كانت لكم الدنيا والآخـــرة، وإلا فـــأنتم الأخســـرون أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

لما قدم هشام بن عبد الملك مكة، طلب الاجتماع بطاوس اليماني فلم يجبـــه طاوس إلي ذلك ، فعمل عليه حيلة حتى اجتمع به فلما دخل عليه طاوس لم يســـلم عليه بسلام الخلفاء وإنما قال السلام عليكم يا هشام وكيف حالك ..؟ فقال له هشـــلم

---

[1]- انظر أخر الرسالة

[2]- مقدمة كتاب إرشاد المغفلين إلي شروط مصاحبة الأمراء المسمي بالمنن الصغرى مخطوط .

الفصل الرابع
الإمام الشعراني والنصح للولاه

لما خلعت نعلك بحاشية بساطي، ولم تجلس بين يدي، ولم تقبل يدي ولـــم تقـــل السلام عليكم يا أمير المؤمنين كما يقول غيرك وسميتني باسمي ولم تكن .. ؟

فقال طاووس : أما ما فعلت من خلع نعلي بجانب بساطك فإني افعل ذلك كل يـــوم خمس مرات بين يدي الله في بيته فلا يعاقبني ولا يغضب على، وأما عدم تقبيلـــي يديك فإني سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينهي عن تقبيل يد الملـــوك، إلا من عدل، وأنت لم يصح عندي عدلك، وأما عدم قولي لك يا أمـــير المؤمنيـــن حين سلمت عليك فليس كل المسلمين راغبين بإمرتك عليهم، فخشيت أن أقع فـــي الكذب، وأما كوني لم أكنك فإن الله تعالي قد كني أبو لهب لكونه عـــدوه ونـــادي أصفياءه بأسمائهم المجردة لكونهم أحبائه، فقال يا داود يا يحيي يا عيســـي، وأمـــا جلوسي بجنبك فإنما فعلته اختبارا لعقلك، فإني سمعت على بن أبى طالب رضـــي الله عنه يقول : يختبر عقل الأمير بجلوس أحاد الناس بجانبه، فإن غضـــب فـــهو متكبر من أهل النار فأخذت هشام الرعدة، وخرج طاوس من عنده بغير اســـتئذان فلم يعد إليه ([1]).

هل يستطيع العلماء أن يفعلوا ذلك .. ؟ وهل مجابهة هؤلاء الحكـــام فـــي مقدورهم أم أنهم جبناء .. لا يستطيعون ذلك .. ؟إن النساء في الزمن الماضي كن لا يجبن أمام الحكام، وكن لا يخشين أحد غير الله، أعجزتم أن تكونوا مثل هـــؤلاء النسوة أمام حكام أقوياء جبابرة إذا قيسوا بهؤلاء الحكام .. ؟ إنه ينصحهم بالابتعاد عن أبواب الحكام إذا لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا ما فعلته النسوة في الزمـــــن الماضي .

[1]- لطائف المنن والأخلاق ص١١٤ ج٢

الإمام الشعراني والنصح للولاة

****

تكلمنا عن منهج الإمام في مخالطة الحكام ، والشروط التي وضعها لذلـــك وهو أن يزهد العلماء فيما في أيدي الولاة، فإذا التزموا بهذا المبدأ، اســـتطاعوا أن يجابهوا الحكام بالقول الصادق والنصيحة الخالصة، وإذا رأي الـــولاة أن العلمـــاء زهدوا عما في أيديهم وتعففوا عما تحويه خزائنهم، أذعنـــوا لقولـــهم واســـتمعوا لنصحهم، من هنا كان الإمام الشعراني يصدع بكلمة الحـــق فـــي وجوهـــهم فـــلا يستطيعون أن يعارضوه، ويندد بأفعالهم فلا يقدرون أن يغضبوه لأنه زهد عما فـــي أيديهم ورغب فيما عند الله، فأعطاه الله القوة عليهم أرعبهم منه، ويخالف أســـتاذه إبراهيم المتبولي رضي الله عنه الذي كان يقول لأصحابه في ذلك الوقـــت، مـــن أدرك منكم الصف الثاني من القرن العاشر فلا يشدد في إزالة منكرات الولاة، لأن في ذلك الزمان تترادف علامات الساعة التي أخبر بها الشارع ﷺ، ومن شدد فـــي منع وقوعها أصلا فكأنه ساع في خلف ما وعد به الشارع، ويستدل علـــى ذلـــك بحديث الرسول ﷺ، ﴿ إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة، وإعجـــاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخويصة أنفسكم ودعوا عنكم أمر العامة ﴾ ([1]) إن الشح موجود في الطبيعة البشرية وهو من حيلة الإنسان وكذلك الهوى ولم يأت الإســـلام لإزالة الشح أو القضاء عليه، ولم يفكر الإسلام في استئصال الهوى من النفـــوس

---

[1] – اخرج أبو عيسي الترمذي عن سعيد بن يعقوب عن عبد الله بن المبارك عن عتبة بن أبي حكيم عن عمرو بن جارية اللخوي عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال أية آيه ؟ فقلت : قوله تعالي : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ أما والله لقد سألت عنه خبيرا سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : " بل ائتمروا بالمعروف وتناهدوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا، وهوي متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض علي الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم " قال عبد الله بن المبارك وزاد غير عتبة : قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم .. ؟ قال : " بل أجر خمسين منكم " ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك ورواه ابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم عن عتبة بن أبي حكيم، انظر تفسير ابن كثير ج٢ ص١٠٩ طبعة الحلبي .

الهوى ، قال تعالي : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هـم المفلحـون ﴾ (1) وقـال تعالي : ﴿ ونهي النفس عن الهوى ﴾ (2) وتاريخ الإسلام يبين لنا في وضـوح أن الصفوة المختارة هي التي كانت ترتفع في سخائم النفس وعن طبيعة الطين والحمأ المسنون، لقد أطاعت النفس هواها عندما قتلت الحسين واسـتطاع الأمويـون أن يغتصبوا الحكم ويحولوه إلي ملك عضوض وميراث يورث هذا إذا استثنينا بعضهم أمثال عمر بن عبد العزيز وخالد بن يزيد الذي رفـض الخلافـة – لقـد انتـهك الأمويون الحرمات وخالفوا تعاليم الشريعة ولم يقل حملة الشريعة في ذلك الوقـت " عليكم بخويصة أنفسكم " بل جابهوا الطغيان وصدعوا بكلمـة الحـق وقدمـوا أرواحهم قربانا من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى مدار التـاريخ والزمن كان العلماء دائما يؤدون واجبهم، ومن هنا رأي الإمام الشـعراني أن مـا يدعوا إليه أستاذه تعطيل لقواعد الشريعة لأن هذه القواعد تشهد لوجـوب الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلقا ولو كان ذلك الأمـر وتلـك المخالفـة مـن علامات الساعة، هناك أمر واحد يجب على المرء فيه، أن يلتزم بخويصة نفسـه ويترك أمر العامة – هذا الأمر أن يخاف الإنسان على نفسه مـن جـراء ذلـك حصول ضرر شديد في نفسه أو عرضه أو ماله – لا يحتمله في العادة، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسا مقيدين بزمان ولا محددين بوقت بل هذا واجب على كل فرد في الدولة الإسلامية بعامة لقوله تعالي :﴿ كنتم خير أمـة أخرجـت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (3) وعلـى العلمـاء لقوله تعالي : ﴿ ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (4) .

1- سورة الحشر آية ٩

2- سورة النازعات آية ٤١

3- سورة آل عمران آية ١٠٩

4- سورة آل عمران آية ١٠٣

إن تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعطيل لهذه الخيرية التي مـــن الله بها على أمة محمد ﷺ، ومن مبادئ رجال التصوف الصادقين " إذا تعارض كشفك مع الشريعة فأرم كشفك إن الله ضمن لي النجاة في الشريعة ولم يضمن لي النجــاة في الكشف "، ويستدل الإمام الشعراني لهذا الأمر بقول أستاذه في الطريق وشـــيخ الصوفية وأمام العارفين محي الدين بن عربي رضي الله عنه بقوله : " لو كشـــف أن فلانا لابد أن يزني بفلانة أو يشرب الخمر مثلا وجب عليه النــــهى لأن نـــور الكشف لا يطفئ نور الشرع .. لأن الله تعالي قد تعبدنا بإزالة المنكرات ولو شهدنا كشفا بأنها إرادته وخلقه تعالي " ([1]) ، وفي كلام الشيخ أبـــو المواهـــب الشـــاذلي رضي الله عنه، إياك أن تخرق سور الشرع يا من لم يخرج من عادة الطبع فـــإن الذي أشهدك أن كل شيء في الوجود خلقه هو الذي أمرك بإزالة المنكر .

لقد كان الإمام الشعراني أعمق نظرا وفهما لنصوص الشريعة عندما خالف أستاذه المتبولي في عدم تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالغيب يعلمه الله، وعندما سأل الرسول ﷺ جبريل عليه السلام عن القيامة، أجابه " ما المســئول بأعلم من السائل "([2]) وهو كل يوم في شأن وقد أمرت الأمة المحمدية بالعمل حتى آخر رمق والرسول ﷺ يقول ﴿ إذا قامت القيامة وفي أيد أحدكم فسيلة فلا يتركـــها حتى يغرسها ﴾ ([3]) ، ولقد مضي على كلام سيدي إبراهيم المتبولي أربعة قـــرون لم تقم القيامة ولم يقف الفلك عن الدوران، ولم تمتنع عجلة الزمان عن السير أكـلن يريد هذا العالم الجليل أن تتقوقع الأمة الإسلامية فلا تعمل .. ؟ وتغفـــوا إغفـــاءة الموت فلا تفيق .. ؟ وتحنط نفسها في توابيت الانتظار فلا تأمل، وتـــترك الحيـــاة فوضي فلا أمر ولا نهي .. ؟

---

[1]- لطائف المنن والأخلاق

[2]- أخرجه البخاري في صحيحه ومسلم في صحيحه أيضا وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس .. الخ . انظر جامع المعقول والمنقول شرح الأصول – لأحاديث الرسول ﷺ والأثير الجزري ج١ ص ١١٠

[3]- رواه الإمام أحمد في مسنده ج٣ ص١٩١ – وأخرجه الإمام البخاري في الأدب، وعبد الرازق في الجامع عن أنس وقيل ضعيف .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينافي التسليم لله تبارك وتعالي، فـــالعبد يسلم لربه من حيث تقديره على عباده ويقوم هو بما كلف به، وليس للعبد أن يقـف مع ظاهر الحديث السابق ويقول قد وجدت العلامات التي أخبر بها الشارع ﷺ وما بقي على أحد وجوب في أمر غيره بمعروف وإنما يترك العبد ذلك إذا خاف علـــى نفسه هذا في شأن العامة أما العلماء فلا يتركون الأمر بالمعروف والنـــــهي عــن المنكر مطلقا كما فعل الإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حنيفة وأمثالهم، ولعل مراد الرسول ﷺ بقوله ﴿ فعليكم بخويصة أنفسكم ﴾ ([1]) أي أنه لا يخاف عليكم حينئـــذ من الضرر الذي لا تطيقونه ولا تجدون معينا يعينكم عليه هذا لا يبعد، فليس فـــي الحديث تصريح بإسقاط أصل الأمر بالمعروف، وإنما فيه الأمر بعدم التشديد فيـــه لأن أمر الشارع ﷺ لا يترك اختيارا إلا إذا أنفسخ ولا ناسخ لأمره ﷺ بعـــده إلـــي قيام الساعة وفي حديث الرسول ﷺ ما يؤكد ذلك .

روى البخاري والترمذي مرفوعا ﴿ مثل القائم على حدود الله تعالي والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكـــــان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا إن خرقنـــا فـــي سفينتنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعـــا وأن أخـــذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا ﴾ ([2]) هكذا فهم الإمام الشعراني نصوص الشـــريعة وإذا كان الإيمان إحدى وسبعين شعبة أعلاها كلمة لا إله إلا الله وأدناهـــا إماطـــة الأذى عن الطريق ([3]) فإن أفضل إيمان كلمة حق عند سلطان جـــائر ([4]) ، لقـــد انتشر – كما بينا سابقا عند حديثنا عن العصر العثماني – الظلمة والولاة القســـــاة الذين كانوا يظلمون العباد ويجورون على حقوق الخلق ويأكلون أمـــــوال النـــاس بالباطل فاعتبر الإمام الشعراني نفسه مسئولا عن كل فرد في الأمة وقع عليه ظلـــم أو أصابه مكروه، واعتبر الشعب رعيته يدافع عنه إذا ظلم أحدها ويتألم لألمـــه إذا

---

[1]- سبق تخريج هذا الحديث

[2]- رواه البخاري والترمذي مرفوعا .

[3]- رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة حديث صحيح .

[4]- أخرجه الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير

نزلت به نازلة ويصبح عليل الجسم إذا حل به مكروه، ﴿ مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمي ﴾ ([1]) والتاريخ يحدثنا أن الوفود المرهقة كانت تفد علـــى زاويـــة تطلب الأمن بعد الخوف والاطمئنان بعد القلق وتطالب بحقوقها التي سلبت منـــــها ويستقبلهم الإمام بقلبه الطيب وروحه العالية مخففا عنهم مواسيا لهم، وتخرج رسله ورسالاته إلي حاكم البلاد مرة وإلي ولاة الأقاليم مرات، فكان كالرحمة المهداة إلي هؤلاء المظلومين الذين أرهقهم الظلم وأثقل كواهلهم الطغيان .

يقول الدكتور توفيق الطويل، مبينا مكانته لدي الحكام والجماهير " اســـتبد بـــهوي الجماهير وانتزع إعجاب الفقهاء واستل افتتان الأمراء ومن إليهم من الحكام حتـــى أضحت زاويته مركز الحكم السياسي في مصر " ([2]) ، ولعلنا نتساءل كيف افتتـــن به الأمراء وخضع له الحكام وأصبحت زاويتـــه مركـــز الحكـــم السياســـي فـــي مصر .. ؟ الجواب أن هؤلاء الولاة والحكام كانوا يعتقدون فــــي ولايـــة الإمـــام الشعراني ويؤمنون بصلاحه وورعه وتقواه ..

---

[1]- المصدر السابق .

[2]- الإمام الشعراني إمام التصوف في عصره توفيق الطويل ص١٤٢

اعتقاد الحكام في ولايته

****

إن الدولة العثمانية كانت تخشى بأس الشعراني وتعمل لـــه ألـــف حســـاب وكانت تخاف سلطانه الروحي، فكانت لا ترد له شفاعة ولا تتوانـــى فـــي إجابـــة مطالبه، والسبب في ذلك واضح، إنه فرغ من دنياه وصغرت في عينيـــه ملذاتـــها وزهد عما في أيديهم، فلم يقبل عطاياهم فإن ألحوا عليه أن يقبلها تناولـــها منـــهم بيمينه وطوحها على مرأى منهم بشماله .

يأتي السلطان التركي سليم الأول، يأتي فيستقبله جلة المصريين ويهرع إلي بابـــه العلماء والفقراء يقدمون الولاء والطاعة، ويبقي الإمام الشعراني في مكانه لا يـهتم بحاكم أو وزير – ويتساءل الحاكم الفاتح أبقي في مصر أحد من الأولياء لم يطلـــع إلينا .. ويأتيه الجواب بقى ولي صغير ولكنه كبير بقي الشعراني الذي ليس مـــن عادته الطلوع لأحد من الولاة أو الوقوف بباب أحد من الحكام، وتتطا مـــن رأس الحاكم الفاتح ويتصاغر في نفسه وينزل للرجل الرباني الملهم ينزل إليـــه ليقـدم الولاء والطاعة، ويطلب الدعاء والهداية، يطلب الهداية من الرجل الـــذي تربطـــه بالسماء عدة أسباب، لقد أدرك هذا الحاكم، أن هذا الرجل مادامت هـــذه طبيعتـــه وتلك عادته فلا شك أنه ولي كبير فهم دينه فعمل به وعرف ربه فـــاعتمد عليـــه، ويقول الحاكم القوي للرجل الصادق القوي الإيمان، يقول رجـــل الدنيـــا لرجـل الآخرة، آلك حاجة نقضيها لك قبل مغادرتنا البلاد، مرنا نلـــب طلبـــك ؟ وينطـــق الرجل المؤمن لسنا في حاجه إلي أحد مطلقا سوي الله تعالي .

ماذا يطلب الإمام الشعراني من هذا الحاكم .. ؟ وأي شيء يملكـــه هـــذا الحـــاكم يستحق أن يطلب .. أيطلب الدنيا وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضـــه أيطلـــب الجاه وما عند الله خير وأبقي ﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾ ([1]) .

إن الإمام الشعراني يطلب من الولاة رفع الظلم عن الرعية وإقامة العـــدل بين الناس ومراعاة حدود الله، والسير على قواعد الشريعة إنه يعتبر نفسه مســئولا

---

[1]- سورة النحل اية ٩٦

عن كل ظلم وقع على أحد من الناس وسمع به، ويعتبر نفسه أيضا مطالبا برفـــع هذا الظلم قبل أن يسأل عنه يوم القيامة، وتمضي الأيام وتتوالي الليـــالي ويعـــتزم نائب السلطان في مصر " علي باشا " الرحيل إلي تركيا ويذهب إلي الشعراني فـي زاويته – يريد أن يتقرب إليه، أن ينال رضاه، ويحظي بثقته فيقول " إننا مقربـون إلي السلطان فهل لك حاجة عنده "، فأجابه الشعراني إلى الفور قائلا : آلك حاجـة عند الله .. ؟ أننا مقربون إلي حضرته أكثر فسكت الوزير ولـم يحـر جوابـا " ويحكي صاحب المناقب أن بعض الحسدة دس لنـائب السـلطان وأوهمـه بـأن الشعراني يتآمر على عزله وتولية خصمه مكانه وأذعن الباشا لما سمع وأخذ يـهدد ويتوعد، وإذا به يتلقي أمرا من السلطان بالرحيل على عجل، فأشار عليه بعـض جلسائه بأن يترضي الشعراني ويستسمحه عما ارتكب في حقه من معصية فـامتثل مشورته وإذا به يتلقى من السلطان أمرا بالعفو عنه وإبقائه في مصر، فامتلأ إيمانا بالشعراني وقدرته على تنفيذ ما يريد حتى كان الشعراني إذا زاره خف لاسـتقباله وأكرم وفادته وجلس على كثب منه على مقعد متواضع أنصت لشفاعته وبادر إلـي قبولها من غير تردد [1].

أنقول هذا من قبيل الكرامة للأمام الشعراني .. ؟ إن كثيراً من المثقفين يرفضـون هذا النوع من الكرامات ويعتبرونه من قبيل المصادفة البحتة ليكن كذلـك .. فـإن الإمام الشعراني لم يدع الكرامات وكان يزهد فيها وكان يعتبر الكرامـة الحقيقيـة للرجل المؤمن، أن يوفقه الله لعمل بالكتاب والسنة والتزام أوامر الشرع ، وإنمـا الذي يهمنا أن نثبته هنا أن الإمام الشعراني كان صاب حظوة ومكانة لدي الحكـام والولاة في عصره، وقد مكنته هذه المكانة، من رفع الظلم عن كواهل المظلوميـن ورد الحقوق إلي أصحابها في وقت افتقد فيه الشعب العدالة فـي الأرض فـراح يتلمسها عند الشعراني وأمثاله ممن يهابه الولاة ولا يردون له طلبا، بل إن هـؤلاء الحكام كانوا يتتلمذون على يديه ويصبحون مريدين تحت أمرته ومن هؤلاء الأمير حسن بك صنجق الذي تتلمذ على الإمام الشعراني ويتمكن حب الإمام الشـعراني

---

[1]- المناقب الكبرى ص١٣٢

من قلبه فيواظب على حضور درسه ثم يلازمه في زاويته ليـــلا ونـــهارا تاركـــا الأمارة والحكم ، ولكن الإمام الشعراني رضي الله عنه لا يرضي عن تلك الصحبة لأن فيها استخفافا بمصالح الرعية وهي أمانة في عنق الأمير، وواجبـــة الأول أن يتخصص لها ويتفرغ لشئونها ولكن حب الأمير لشيخه الشعراني ومجالســـه ومـــا فيها من أنس وعلم وتقوي جعلته يعتزم أمراَ وهو أن يترك الأمارة والحكم، ففـوق أمواله واعتق عبيده ووقف أملاكه على وجه الخير واســـتبقي مـــن هـــذا الـــثراء العريض رخام بيت من بيوتاته وكان تحفة نادرة وقليلا من المال أما الرخام الفخـم النادر والمال القليل فقد اعتزم الأمير أن يبني بـــهما ضريحـــا ومـــزارا لشـــيخه الشعراني وفاء وحبا، واقبل الأمير على أستاذه فقيرا متجردا ليســـلك علـــى يـــده طريق الهدي واليقين بلا عائق من حكم ولا مانع من الأمارة، ومن قبـــل الأمـــير حسن صنجق – كان كثير من الأمراء والولاة ممن يستهويهم الطريـــق الصوفـــي ويأخذ بألبابهم العلم اللدنى والمعارف الإلهية، ومنهم يحيي بن يغان كان ملكا علـــى مدينة تلمسان وكان يعيش في زمنه رجل فقيه زاهد متبتل قد انقطع في مسجد يعبد الله فيه، وبينما كان هذا العابد سائرا في طريقه بين مدينتي تلمسان واقادير إذ لقيـه " يحيي بن يغان " وقد أحاط به خدمه وحشمه فسأل عن هذا الزاهد، فقالوا له هـــو أبو عبد الله التونسي عابد وقته فوقف بجواره وسلم على الشيخ فرد عليه الشـــــيخ السلام، ثم قال الملك وكان يرتدي ثيابا فاخرة، للشيخ، يا شيخ هل يجـــوز لـــي أن أصلى في هذه الملابس التي أرتديها .. ؟ ، فضحك الشيخ فقال له الملـــك .. مـــم تضحك .. ؟، فأجاب الشيخ .. من سخف عقلك وجهلك بنفسك مالك التشبيه عنـدي إلا بالكلب، يتمرغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول وأنت وعاء مليء حراما وتسأل عن الثياب ومظالم العباد في عنقـــك .. ؟ فبكي الملك " يحيي بن يغان " وخرج عن ملكه من حينه، ولزم خدمة الشـــيخ فالزمه الشيخ بأن يحتطب فكان يحمل الحطب على رأسه ويمضي به السوق ليبيعه فيقتات منه ويتصدق بالباقي وظل على ذلك حتى مات ودفن بجوار الشيخ، وكـــان الناس إذا جاءوا يقصدون الشيخ للتبرك، ويطلبون منه الدعاء يقول لهم : التمســـوا الدعاء من يحيي بن يغان فإنه ملك وزهد ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك ربمـــا

لم أزهد ([1]) ، ومن قبل يحيي بن يغان " أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور " كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو في طلبه فهتف به هاتف يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت .. ؟ ثم هتف به أيضا من " قربوس " سرجه والله ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فنزل عن دابته، وصادف راعيا لأبيه، فأخذ منه جبة الراعي من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ([2]) .

هؤلاء رجال اختارهم الله وحباهم بفضله ومنّ عليهم بسلوك هذا الطريق، وفي هذا مصداق لما رواه أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال ﴿ إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله، فقيل له كيف يا رسول الله .. ؟ قال يوقفه لعمل صالح قبل الموت ﴾ ([3]) ، والإمام الشعراني من رجال الله، وممن من الله عليه باستعماله فكانت زاويته مركز الدين والعلم، ومحور السياسة والحكم ومنها كان يخرج النور والإيمان ليهدي الحيارى والتائهين والمارقين عن طريق الحق، وتخرج أيضا الكلمة الصلبة القوية المؤمنة إلي صدور الحكام فيذعنون لها .. وينفذون ما بها وينزلون على حكم صاحبها .

يقول الإمام الشعراني " ومما منّ الله به عليّ قبول شفاعتي عند الأمراء والحكام لقد تشفعت عند السلطان الغوري، والسلطان طوماي باى وخاير بك، وغيرهم فقبلوا شفاعتي وذلك معدود من طاعة الملوك لي ولا أعلم الآن أحدا في مصر أكثر منى شفاعة عند الولاة – فربما يفني الدست الورق – في مراسلاتهم في حوائج الناس في أقل من شهر " ([4]) ويصادقهم ليمنعهم عن الظلم – ويراسلهم ليشفع عندهم للمرهقين والغارمين وأصحاب الحاجات إنهم كانوا يعتقدون في

---

[1]- ابن عربي حياته ومذهبه – ترجمة عبد الرحمن بدوي ص٦

[2]- الرسالة القشيرية ص٥١ ج١

[3]- هذا جزء من حديث رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن حيان والحاكم في المستدرك عن أنس رضي الله عنه ولفظه : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرا أستعمله، قيل كيف يستعمله .. ؟ قال يوقفه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه » .

[4]- لطائف المنن ج٢ ص ٢٣٦

ولايته ويؤمنون بكراماته – ويحاولون أن يغدقوا عليه من أموالهم وهداياهم فمـــــا موقف الإمام الشعراني من ذلك .. ؟

الإمام الشعراني وموقفه من هدايا الولاة

****

الإمام الشعراني لا يقبل عطايا الولاة ولا يتناول شيئا من هداياهم، لأن أموالهم لا تخلو من الشبهات والحرام، فإن ألحوا عليه في قبول هداياهم أخذها بيمينه وطوحها على مرأى منهم بشماله كما بينا سابقا، والأمير حسام الدين بن بغداد وأولاده كانوا يعتقدون في ولاية الإمام ويصدقون بكراماته، وقبلهم الإمام الشعراني مريدين عنده وأخذ يوجههم إلي الخير عليهم يفعلونه ويطالبهم بالرفق بالرعية أملا في أن يستمعوا لكلامه، يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه صحبت بحمد الله تعالي الأمير حسام الدين بن بغداد وأولاده فلم أقبل لهم هدية ولم أذق لهم طعاما أو شرابا ولا لبست منهم ثيابا ولا فراشا إلي وقتي هذا، وإن وقع أن أرسل أحدهم شيئا من العدس أو العسل إلي الزاوية مثلا لا أذوق من ذلك شيئا حماية لي من الله عز وجل لا بحولي ولا بقوتي وقد أدخلني محمد بن بغداد قاعته التي فيها عياله وأمرهم بتقبيل نعلي وفتح لي " قطرميزا " فيه شراب تفاح وقال اجبر بخاطر العيال وذق عندنا من هذا ولو مقدار درهم غذاء، فلم أوافقه على ذلك فطأطأ على يدى وقبلها، وقال اجبر بخاطرى أنا فقلت له : اسمع يا محمد إنا لم نصحبك لمثل ذلك، و إنما صحبناك لمصالح العباد .. فرجع عنى منذ ذلك اليوم ولم يطالبنى بقبول هديه إلى أن مات رحمه الله فاقتدوا بى أيها الأخوان فى مثل ذلك ([1]) ، إن الإمام الشعراني لا يرفض مصاحبه هؤلاء الولاة الظلمه بل يقربهم إليه ويحببهم فى الجلوس عنده، علهم يسمعون ما يدلهم على الخير فيفعلوه ويباعد بينهم وبين الشر فيجتنبوه ولكن ليس معنى هذا أن ينزل على حكمهم ويصغى لكلامهم ويتذوق طعامهم وهو يعلم أن هذا المال من سحت، وأخذ من أهله بغير حق، فإذا وصل الأمر إلى هذا الحد فلا يبيع دينه من أجلهم ولا يسمع كلامهم فيما يضره في خلقه، بل يجب أن ينزل هؤلاء على حكمه ويقول لهذا الأمير إنه لم يصحبه لمثل ذلك لم يصحبه للطعام أو للشراب . ولم يصادقه لقبول هداياه أو

---

[1]- المنن الصغرى ورقه ٦ مخطوط

عطاياه إن المهمة أعمق من ذلك وأكبر، إن مقاليد الحكم بأيديهم ورقـــاب العبـــاد تحت إمرتهم، فهو لهذا صحبهم، ليمنعهم عن الظلم إن أرادوا – ويحول بينهم وبين الرعية فى سلب أموالهم والجور عليهم، والإمام الشعرانى يذكر هذا فــــى كتــاب ويعلنه على رءوس الأشهاد وليس الفخر مقصده، ولا الدنيا والسمعة الحسنه مطلبه ولكن يعلنه فقط ليقتدى به الفقراء ويعفوا عما فى أيدى الولاة " فاقتدوا بــــى أيـــها الإخوان فى مثل ذلك "، ولكن هذا الأمير تمادى فى غيه وكثر ظلمه وجوره على الرعية وسد أذنيه عن النصيحة وكان يعتقد انه ما دام مع هـــذا الولـــى الصـــالح والإمام العارف فهو بعيد عن غضب الله إن الإسلام لا يعرف هذا النـــوع مـــن المحاباة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (١) ونبي البشرية رسولنا ﷺ يقول في صراحة لا لبس فيها ووضوح لا غموض فيه محذرا أهلـــه وعشيرته وأقرب الناس إليه " يا فاطمة بنت محمد أعملى لا أغنى عنـــك مـــن الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا " (٢) ، فهل يعتقد هذا الأمير وأمثاله أن اللقيمات التي يقدمها للفقراء أو الوقفات التي يقفها تحول بينه وبين غضب الله مادام يسلب العباد ويظلم الخلائق، هذا عبث وسوء تقديـــر مـــن هؤلاء الذين لا يحسنون صنعا، ولا نستطيع أن نحصي كل ما كان يلقي عليه مـــن أموال هؤلاء الولاة وهداياهم فيرفضها في إباء ويردها في شمم، وهذا النص الذي نسوقه الآن يدل على شيء آخر وهو أنه يريد أن يعلم هؤلاء أن النفع والضر بيد الله، وأنه لا معقب لحكمه ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٣) ﴿ وما تشـــاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (٤)، إن الله كان عليما حكيما، يرسل إليه الباشا مصطفي نـــايب مـــالاً جزيلاً حتى يمنع السلطان من نقله وسفره بعيدا عن مصر، ولكن الإمام الشـــعراني

١- سورة الشعراء ايه ٨٨، ٨٩

٢- عن عائشة قالت لما نزلت : وانذر عشيرتك الأقربين قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال : « يا فاطمة بنت محمد يا صفيه بنت عبد المطلب يا بنى عبد المطلب لا املك لكم من الله شيئا سلونى من مالى ما شئتم » رواه مسلم فى اكثر من حديث ج١ ص ١٩٢

٣- سورة القمر آية ٤٩

٤- سورة الدهر آية ٣٠

يرفض هذا المال ويرد هذا العطاء ويقول للباشا " إما أن يكون الحق تعالي كتب عليك السفر فلا أقدر على منعه، وإذا لم أقدر على ذلك فما عملت شيئا استحق به الجعل المذكور، وإما أن يكون عدم السفر معلقا على دعائي فإنما أفعل ذلك لله تعالي فلا ينبغي لمثلي قبوله، لأن قبولي يبطل عمل دعائي في حقك، فقال : أعطه الفقراء بالزاوية فقلت له إن ذلك يتلف قلوبهم فلا يصير يقبل لهم دعاء لك، فإن شئت فأعطه إياهم ولا تطالبهم بعد ذلك بقضاء حاجتك، وإن شئت فأعتقهم وطالبهم بقضاء حاجتك فأخذ ماله ورد به " ([1]) .

هل يستطيع الإمام الشعراني أن يقدم شيئا لهذا " الباشا " لم يرده الله .. ؟ الجواب محال لأنه لا يقع في ملكه تعال إلا ما يريده، ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ ([2]) إن الله كان عليما حكيما، والرسول ﷺ يقول ﴿ احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فأستعن بالله واعلم أن أهل الأرض جميعا لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما كتبه الله لك ما استطاعوا أن يضروك ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ما كتبه الله لك ما استطاعوا أن ينفعوك رفعت الأقلام وجفت الصحف ﴾ ([3]) ، فالضر والنفع والإعطاء والمنح بتدبير الله وإرادته، فكيف يأخذ الإمام الشعراني أجر شيء لم يفعله .. ؟ وكيف يقبل جعلا على أمر لا حيلة له فيه .. ؟ وعلى هذا المبدأ وهذا الاعتقاد رفض أن يأخذ شيئا ولكن وعد الباشا أن يدعو له عسي الله أن يستجيب دعاءه وفي الحديث ﴿ ثلاثة لا ترد دعوتهم، دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب ﴾ ([4]) ، فأباح الرسول ﷺ أن يدعو المسلم لأخيه المسلم عسي أن يفوج الله

---

[1]- المنن الصغرى ورقة ٣٤ مخطوط

[2]- سورة الإنسان آية ٣٩

[3]- رواه الترمذي عن ابن عباس

[4]- ثلاثة لا ترد دعوتهم، أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الكبير وعن عقبة بن عامر ولفظه : ﴿ ثلاثة تستجاب دعوتهم : الوالد والمسافر والمظلوم ﴾ وفيما أخرجه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ﴿ ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده، ودعوة المظلوم ﴾ وفيما أخرجه البزاز عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر

كربته أو أن يخفف عنه بلواه أو يحول بينه وبين أعدائه، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ : ﴿ لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب بذنبه ﴾ (1) ، وعنه أيضا أنه قال : ﴿ لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل و مما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلتقي بالدعاء فيختلجان إلي يوم القيامة ﴾ (2) ، والإمام الشعراني : يفعل ذلك أيضا في سبيل الله ومن أجل الأخوة الإسلامية التي أمرنا الله تعالي بمراعاتها والحفاظ عليها ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ (3) فلا يستحق أجرا أو مقابلا على ما يفعل، ولا يجد هذا الباشا حيلة في ذلك فيعود بحاله من حيث جاء، وفي أوائل الشباب يلتقي الإمام الصغير بالسلطان الغوري حاكم مصر في ذلك الوقت يلتقي به مع سيده، وشيخه أبي الحسن الغمري فيعجب السلطان بالولي الصغير سنا، تعجبه طريقته ويبهره سمته وزهده وورعه فيتقدم إليه بهدية، هذه الهدية حبيبة إلي قلب الغوري نفيسة عنده قريبة إلي نفسه فقد أرسلها له سلطان الهند في ذلك الوقت، ولكن الغوري عندما بهرته أنوار الولي الصغير لم يبخل به عليه، يقول صاحب طبقات الشاذلية " كان الأمراء وأصحاب الجاه يحبونه محبة شديدة ويعتقدون فيه اعتقادا جازما وأهدي له مرة سجاده وشاشا عرضه سبعة أذرع وطوله ثلاثون ذراعا أهداه له سلطان الهند في قشرة الجوزة فأعطي رضي الله عنه الشاش لأخيه سيدي ومولانا عبد القادر وأبقي السجادة ولم يستعملها مدة حياته، ولم يردها على السلطان أدبا منه وكان هذا ديدنه ومشربه الأدب مع ولاة الأمور ومن دونهم يراعي حرمة الفقير والغني

والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع ﴾ وفيما أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حيان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين ﴾ وفيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ كان يقول : ﴿ دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك آمين ولك مثله ﴾ .

[1]- رواه ابن حيان في صحيحه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد مرفوع .

[2]- رواه البزاز والحاكم وقيل صحيح الإسناد مرفوع .

[3]- سورة الحجرات آية ١٠

الأدب مع ولاة الأمور ومن دونـــهم يراعـــي حرمـــة الفقـــير والغنـــي والكبـــير والصغير ([1]) .

هذا هو الإمام الشعراني عفيف تقي ورع زاهد في الدنيا مقتد بقـــول الرســـولﷺ ﴿ مالي وللدنيا ما أنا في الدنيـــا إلا كراكـــب اســـتظل تحـــت شـــجرة ثـــم راح وتركها﴾ ([2]) . إن الإمام الشعراني حير بعض الولاة والأمراء وأخذوا يتســـاءلون إن كثيرا من أرباب الطريق يتهافتون على أبوابهم ويلحون في طلب عطايـــاهم إلا هذا الرجل عفيف لدرجة الزهد .. قوى قوة الإيمان ورع مع ربه متواضع لخلقـــه لا يتكبر إن الكبر ذنب كبير اخرج به إبليس من الجنة ولا يختال لأن الله لا يحـــب المختالين ولا يفتخر لأن كل ما يملكه هو عارية مـــن الله وأمانـــة عنـــده فلمـــاذا يفتخر .. ؟ وهو لا يمتلك شيئا هو يعتقد أنه أقل الناس صلاحا وأضعفـــهم إيمانـــا ويخشى الحساب ولقاء ربه أن يلحقه بهم إنه ينظر إلي أبي حنيفة ومـــالك وابـــن حنبل والشافعي وينظر إلي الجنيد سيد العارفين وإبراهيم ابن أدهم الأمير الزاهـــد وبشر الحافي وأبي يزيد وذي النون المصري وغيرهم وغيرهم .. ينظـــر إليـــهم ويريد أن يتبع طريقتهم وينهج نهجهم إنه يـــري أنـــهم فـــي القمـــة وهـــو فـــي السفح .. ولكن بعض الأمراء يشكون في ورعه ويرتابون في زهده ويفكر بعضهم أن يضعه بنفسه تحت الاختبار فليحمل إليه المال الجزيل ليبهره به ويأخذ به لبـــه ويقدم إليه أحمد الدفتردار ألف نصف، ولكن الرجل المؤمن يرد نقوده فـــي شـــمم ويرفضها في إباء وعفه، فيخرج هذا الأمير خائبا ولكن لا ييأس ـــ مهزوما لكنـــه مكابر ويعطي النقود لغلامه ويأمره أن يدسها للشعراني في الخفاء بحيث لا يـــراه أحد، لاعتقاده أن الشعراني لم يردها إلا حياء من الناس أو ريـــاء ونفاقـــا ويـــأتي الغلام متجسسا ويضع المال متلصصا ولكن الإمام الشعراني يقول لـــه بأســـلوب

---

[1]- طبقات الشاذلية ص١٤١ المناقب الكبرى ص١٥١

[2]- أخرجه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك والضياء عن ابن مسعود، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده وابن حيان عن ابن عباس رضي الله عنهم .

الإسلام وبأدب القرآن " يا أخي شيء لم أقبله من أستاذك أقبله من غلامه .. ولم أقبله علانية فكيف أقبله خفية وردها عليه ثانيا " ([1]) .

إن هؤلاء كان هدفهم من الحكم جباية الأموال بأي طريقة وجمع الضرائب بكل وسيلة، وكانت غايتهم الغني من أقصر طريق، وكثيرا ما كان الحاكم يشتط في جمع هذه المبالغ حتى يرضي نهمه ويدفع ما يطالبه به السلطان المقيم في تركيا حتى يضمن استمراره في الولاية وكان من جانب أخر يخشى بأس – الفقراء ويخاف دعاء الصوفية فكانت طريقتهم أن يرضوا بعض الأدعياء بالهدايا ويشتروا سكوتهم ببعض النقود، وكثيرا ما كانت تلك الحيلة تصلح مع الأدعياء ومحترفي التصوف، أما الإمام الشعراني فالذي يهمه أولا الرعية .. والذي يقلق باله هؤلاء الفلاحون الذين تجبي منهم الأموال وتسلب منهم الحاصلات، حتى لا يجد الواحد منهم قوت نفسه وقوت عياله، فهل يساعد في الظلم ويقبل هذه الأموال .. ؟ إنه يشترط على هؤلاء الولاة إن طلبوا الولاية والحكم أن يدخلوه وهم أغنياء ويخرجوا منها وهم فقراء، قياسا على ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه في القاضي فإنه قال : " من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص " ويطالب الفقراء ألا يساعدوا هؤلاء الأمراء في تولية هذا الحكم، إذا ما كانوا راغبين فيه أو ساعين إليه، لأن الرسول ﷺ نهي عن ذلك وقال لعبد الرحمن ابن سمرة ﴿ لا تطلب الأمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ﴾ ([2])

ولا ينبغي لهؤلاء الأولياء أن يكونوا شركاء في الإثم الحاصل من جراء تلك الولاية، بل إن الإمام الشعراني يثور على مبدأ جباية الأموال جملة، ويري أن أهل أي محلة أحق بما يجبي منها من أموال تؤخذ من أغنيائهم فترد إلي فقرائهم، إلا إذا كانت هناك بعض البلاد الإسلامية في حاجة إلي القوت، فيرسل إليهم وإن مبدأ

---

[1]- لطائف المنن ج١ ص١١١

[2]- عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الأمارة، فإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وأن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خير منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك، رواه الشيخان البخاري ج٨ ص٥٣ ومسلم ج٣ ص١٤٥٦

تولية الولاة الحكم، هو الرعية وملاحظة مصالح الرعية وتأمين الثغــور وحفـظ الأمن في الداخل، لا لجباية الأموال كما كان يحدث في ذلك العصر، وكأنه يقـول للسلطان إن ما تفعله ينافي نصوص الشريعة ومبادئ الإسلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون .

لقد أرسل عبد الله بن زياد زيادة في خراج مصر إلي عمر بن الخطاب لمـا ولاه إمارة مصر بعد عمرو بن العاص، يطلب بذلك الحظوة عند عمر وزيادة المحبـة فأرسل إليه عمر رضي الله عنه ما وليناك لمثل هذا ولكن وليناك لتكون أشفق علي رعيتك من والديهم، وأما زيادة المال الذي أرسلته فنحن نعلم ما وصلت إلي ذلـك إلا بعد أن أهزلت سمينهم وأجعت فصيلهم وسلكت في ذلك مسلك الجبارين، وقـد استخرت الله تعالي في عزلك فعزله وأعاد الإمارة إلي عمرو بن العاص ([1]) .

لقد وضح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبدأ يجب أن يلتزمه الحاكم وهـو أن يكون كالوالد بالنسبة للأبناء وعندما أراد عمر بن الخطـاب أن يطمئـن الجيـش المحارب على الأهل والأقارب قال لهم كلمته سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا،، والإمام الشعراني يطالب الولاة أن يلتزموا بهذا المبدأ ويسيروا على هذا النهج وإلا فهو يطالب بعزلهم لأنه لا يهابهم .

الإمام الشعراني لا يهاب الحكام

****

الإمام الشعراني لا يهاب الولاة، ولا يخاف الحكام، أيخشى الناس والله أحق أن يخشاه .. ؟ أيخاف أن يسجنوه وهو يري أن سجنه عباده، أيرهب القتل وهـو يعتقد أن قتله في سبيل كلمة حق شهادة، أيزعجه أن ينفي من مصر كما كان يقول القائلون ويتخرص المرجفون وهو يري أن نفيه سياحة في سبيل الله، فهو لهذا كان يقول ما يعتقد أنه الحق، ويؤمن أنه الصواب، وإن في ذلك منفعة للعباد، فإن كـان غير ذلك فهو عاكف في زاويته، عابد ربه مؤمن بقضائه مسلم له وجهه، وإنمـا

---

[1] - إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلي شروط صحبة الأمراء ص٧٥ مخطوط

كان الإمام الشعراني لا يخاف من الظلمة ولا يرهب الولاة لاعتقاده الجازم أنـــهم " لا يسلطون إلا على من يحب الدنيا بقلبه وأنا أعلم من نفسي أنها لا تحـــب الدنيـــا وليس فيها بحمد الله إلا محبة الله عز وجل ومحبة رسوله ﷺ، ومحبـــــة الأوليـــاء الصالحين رضي الله عنهم وساكن البيت يحميه من كل ظالم واعتقادي في رســـول الله ﷺ أنه يحميني بإذن الله عز وجل من كل سوء في الدنيا والآخرة، فعلم أن من لا يحب الدنيا فلا يسلط عليه أحد من الظلمة سواء أكان خالي اليد منها بالكليـــة أو عنده مال لكن في يده لا في قلبه " ([1]) .

إن الدنيا ابنة إبليس فمن خطبها كثر تردد أبيها عليه فمن تزوجها أقام عنـده بالكلية، إن القلوب المؤمنة هي القلوب القوية التي لا تخاف ولا تهاب وإذا امتــــلأ قلب العبد بالإيمان تصاغر لديه كل شيء وحقر في عينيه كل موجــــود ورأي الله أكبر من كل شيء يحرس عباده ويحميهم ويطمئن قلوبهم ويهديهم، أمـــــا القلـــوب الخربة التي تعشقت الدنيا وأغرمت بحطامها فهي القلوب الوجلـــة التـــي يملؤهـــا الرعب ويحيط بها الخوف .

يلتقي الأمير خضر الكاشف حاكم الشرقية والقليوبية في ذلك الحين بــــأحد المجاذيب ممن فرغوا من الدنيا وعرفوا حقارتها فصار يصفع الأمير على رأســـه وجسمه والأمير لا يستطيع أن يبدى حراكا وحوله حشمه وحرسه وجنـــوده وقـــد أسقط في أيديهم، وملأ الرعب قلوبهم فليس لديهم القدرة للدفــــاع عـــن أمـــيرهم، أيستطيع هؤلاء الولاة أن يقفوا أمام عبد من عبيد الله تقرب إليه فأحبه وآمـــن بـــه فأعانه اخلص وجهه فأصبح ربانيا " يقول للشيء كن فيكـــون "، وفـــي الحديـــث القدسي ﴿ ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنـــت ســـمعه الذي يسمع به ويده التي يبطش بها وبصره الذي يبصر به ولئن سألني لأعطينــــه ولئن استعاذني لاعيذنه ﴾ ([2]) .

---

[1]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية للأمام الشعراني مخطوط ص٩٦

[2]- سبق تخريج هذا الحديث .

إن هذا الولي ضرب هذا الأمير الضرب المبرح بعد أن اعتمد على الله فأعانه وتوكل عليه فأعطاه الله القوة وسلب من قلب الأمير شجاعته وعزة صولجانه .

يقول الإمام الشعراني حاكيا قصة الأمير على لسانه " لقيني مرة الشيخ علي البرلسي المجذوب في طريق قليوب ومعي العسكر فقبض على طوقي وأنزلني من فوق الفرس وصار يصفعني ويضربني على عمامتي حتى هدمها في عنقي بحضرة عسكر السلطان وصرت أرعد من هيبته وأنا خائف منه ثم سألني أن أطيب خاطره عليه " [1] هذه حكايته عن نفسه فلو أن أحد من المحبين للدنيا أراد أن يفعل بالكاشف مثل ذلك لم يقدر ولو قدر أنه فعل ذلك لكانوا يضربونه ويحبسونه أو يقتلونه أصلا .. فعلم أن كل من تحقق بالزهد في الدنيا حكمه الله تبارك وتعالي في الولاة، ولم يقدر للولاة أن يتحكموا فيه .

إن التاريخ يحدثنا دائما أن الغلبة في النهاية للحق، ينتصر الحق على الباطل ويتغلب الإيمان على الكفر وتنتصر السماء في النهاية وما استبد الحكام على مدار التاريخ وركبوا أهوائهم إلا في غفلة من العلماء، ينسون أن لهم رسالة وأنهم مطالبون بأداء الأمانة وهي إرشاد الضال ونصح المعوج وتنبيه الغافل، ما استبد الحكام إلا والعلماء على أخلاق العبيد، وما دنست أرض الإسلام إلا والعلماء بأسهم بينهم شديد يتركون الجوهر إلي القشور ويهملون كتاب الله إلي عقولهم الفجة وينسون سنة الرسول الكريم ونورها الساطع إلي فلسفة الأرض وخزعبلات العقول " جاء التتار وحطموا بغداد وقضوا على أنفس تراث عرفته البشرية والفتنة على أشدها بين الشيعة وأهل السنة بل إن بعض المراجع التاريخية تقول إن أحد الوزراء (ابن العلقي) من الأطراف المتنازعة استعان بالتتار وعجل هذا بدخولهم بغداد نكاية في الطرف الأخر، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ... فأصبحوا هملا لكل فاتح وبوقا لكل ناعق وتابعين ومنقادين بعد أن كانوا قادة الدنيا وأساتذة الوجود .

---

[1]- لطائف المنن والأخلاق ج١ ص١٠١

جاء الغزالي والعالم الإسلامي، أرهقه الجدل، استبدت به الفلسفة اليونانية، وسار مفكروا الإسلام على نهجه واعتسفت النصوص الإسلامية لتتمشى مع التفكير اليوناني والفكر العقيم، الفكر الذي لا يورث أهله إلا الهزيمة والدمار، جاء الإمام الغزالي العالم الجليل فوجد المسلمين قد بعدوا عن تعاليم دينهم وأهملوا كتاب ربهم واغفلوا سنة نبيهم واعتمدوا على عقولهم، فحمل معوله ليهدم ما أشاده هؤلاء على الباطل ويحطم ما أقاموه على غير أساس، ونادى بالمسلمين أن يعودوا إلي كتابهم وأن يلتزموا سنة نبيهم، وأن يزهدوا عن حطام الدنيا وأن يرغبوا فيما عند الله فهو خير وأبقي .

يقول الإمام الغزالي في إحدى قصصه الرمزية، إن أحد العباد الصالحين علم أن شجرة في مكان ما يعتقدها الناس ويذهبون إليها، ويتبركون بها ويطوفون حولها كما يطوف المسلمون بالكعبة، وتألم الرجل الصالح أشرك بعد الإيمان .. ؟ وأصنام بعد التوحيد .. ؟ وعزم على قطع الشجرة فسار إليها وفي الطريق التقي بالشيطان في صورة رجل، فسأله إلي أين تريد .. ؟ فقال : أريد قطع الشجرة التي افتتن بها الناس وأوشكوا أن يقدسوها بعد الإله ، ولكن الشيطان لم يمكنه من قطعها وحال بينه وبينها، ولم يلبث أن تشابكا وتعاركا وإذا بالشيطان تحت الرجل يطلب السماح والمغفرة وأن يتركه يفعل بالشجرة ما يريد، لقد صرع الرجل المؤمن الشيطان ــ ولكن الشيطان تحايل عليه ألا يقطع الشجرة في مقابل أن يمده في كل يوم بدينار من الذهب وقبل الرجل الصالح الشرط، وعاد من حيث أتي واستمر الشيطان في تنفيذ شروطه حتى جاء يوم لم يوف بشرطه ولم يدفع للرجل ديناره، فغضب الرجل وحمل فأسه وخرج يريد قطع الشجرة فاعترضه إبليس مرة أخري وتحاوروا وتصارعوا ولكن إبليس استطاع أن يصرع الرجل في هذه المرة بسهولة، حتى لم يستطع الرجل أن يبدي حراكا وتعجب الرجل من نفسه وسأل إبليس في ذلك كيف صرعتني .. ؟ وجاء الرد لقد صرعتني في الأول لأن غضبك كان لله وفي سبيل الحق ، فكان الله معك والوجود كله يؤيدك .. ولله جنود السماوات والأرض ولكن الآن غضبك للدينار غضبك للدنيا فالله أهملك والوجود أبغضك وتركت لنفسك وأصبحت مع هواك " ألا ترمز هذه القصة إلي تاريخ

المسلمين انتصارهم وهزيمتهم " فئة قليلة تنهد من الصحراء فتتجه شرقا وغربـــا وتصل إلي كروسيكا وقبرص وتمتد حتى تصل إلي سور الصين العظيم فتنشر من ورائه اسم الله الأعظم .. فئة قليلة مؤمنة تخرجت في مدرسة النبوة تحمل مصحفا بيد وسيف بالأخرى فتحطم الفرس والروم وتقضي على البهتان والكفر وتزهد فـي الدنيا ومتاعها فأصبح دويها يسمع في أربعة أركان الأرض، ثم خلف من بعدهـم خلف، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أهملوا كتابه وأتبعوا الهوى، واغرقوا في اللـذات فضاعت قوتهم وتبدد كيانهم وصرعهم الشيطان وجاء الإمام الشـعراني والعـالم الإسلامي طحنته الحروب المتوالية وذهب بقوته الطامعون والغاصبون، وشـاهد ضعف المسلمين وتخاذلهم وتخلفهم عن ركب الحياة .

جاء الإمام الشعراني، فنصح للحكام وأرشد للولاة وصدع بالحق في وجوههم لـم يغتبهم لأن الغيبة لا تليق بالرجل المسلم ولم يتملقهم لأن المؤمن سوي ولم يمـرغ نفسه في أعتابهم لأنه في غني عنهم ولكنه مع ذلك ألتزم الأدب معـهم ومحـض النصح لهم، وأطاعهم ما أطاعوا الله ورسوله والتزموا بتعاليمه .

الإمام الشعراني والأدب مع الحكام

****

يقول الرسول ﷺ ﴿ اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشـــي ﴾ ([1]) فالسـمع والطاعة واجب على الرعية للولاة واحترامهم واجب وتقديرهم فرض عليهم ماداموا يحكمون بالشريعة وينفذون الحدود ويحفظون الثغور ويطيعون الله ، فإذا خرج الولاة عن ذلك وعصوا الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وطاعة الولاة واجبة على الرعية لأن الله سبحانه وتعالي أمرنا بطاعتهم ما أطاعوا الله ورسوله لقوله تعالي ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ([2]) والخليفة أبو بكر يقول للرعية " أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم "، والإمام الشعراني يعظم الولاة ويطالب بالأدب معهم ويري أن ذلك مطلوب من الرعية شرعا، وأستاذه الخواص كان يلتزم الأدب مع الولاة ويعظمهم ويطالب الرعية باحترامهم أدبا مع الله تعالي الذي أمرنا بطاعتهم ومن هنا نري الإمام الشعراني ينزل باللائمة على أولئك الفقراء الذين يدعون الطريق ويطلبون من الولاة كل ما يحتاجون إليه من طعام وكساء لهم ولفقرائهم فإذا نزل الولاة إليهم أساءوا استقبالهم وادعوا أنهم يتشاءمون منهم .. وهو يري أن الوالي أو الحاكم إذا نزل من برجه العالي لزيارة الفقير فمعني ذلك أنه خلع كبرياءه وعظمته وصولجانه وقوته، وتجرد من كل شيء ورأي نفسه دون ذلك الفقير –ولو أن هذا الحاكم نظر إلي عظمة نفسه وإلي قوة ملكه، وأن ذلك الفقير من جملة رعيته لما نزل إليه، فما نزل هذا الحاكم إلا وهو فقير من كل شيء ومتجرد عن كل شيء، فالواجب إذن على الفقراء أن يكرموهم تقديرا لنعم الله التي أسبغها عليهم والله تعالي يقول ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع

---

[1]- نص الحديث أن أمرت عليكم قريش عبدا حبشيا مجدعا فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه فإن خير بين إسلامه وضرب عنقه فليقدم عنقه رواه الحاكم في مستدركه ورواه البيهقي في السنن عن على .

[2]- النساء اية ٥٨

الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كـــل شـــيء قدير ﴾ ([1]) ، ويري الإمام الشعراني أن الحكام والولاة في حاجة دائمة إلي العلماء ليدلوهم إلي طريق الله ويرشدوهم إلي حسن سياسة الخلق والرفق بالرعية، وليـس للفقراء الصادقين حاجة إلي الحكام لأنهم زهدوا عما في أيديهم، ويكرر دائمـا ولا يمل من التكرار أن الحكام لا تعظم العلماء إلا بالزهد عما في أيديهم فلا يـــأكلون لهم طعاما ولا يقبلون لهم صدقة ولا هدية إلا إن كان هؤلاء الحكام صادقين فـــي محبة هؤلاء العلماء ويفرق الإمام الشعراني بين المحبة والاعتقاد، فإذا أكل الفقـير من مال الأغنياء الذين يعتقدون فيه الصلاح فهو يأكل بدينه وصلاحه وهذا حـرام، أما المحب فإنه يعطي الفقير أمواله سواء اعتقد فيه الصلاح أو غـــيره وهـذا لا حرمة فيه، يقول الإمام " الفرق بين المحب والمعتقد أن المحب يطعمــك كـالوالد سواء أكنت صالحا أو غير صالح وأما المعتقد فـلا يطعمـك إلا لاعتقـاده فيـك الصلاح فإذا أكلت طعامه كأنك أكلت بدنيك " ([2]) ، وهو يكره أن يتردد عليه أحـد من الأمراء والحكام لغير العبادة والتفقه في أمور الدين – لأن في ذلك تكليفه بـود الزيارة، وهو لا يحب أن يخرج إليهم، وينشرح كثيرا إذا تركه الأكـابر والحكـام والولاة الذين كانوا يترددون عليه وترددوا إلي أحد من أقرانه وينقبض خـلطره إذا تركوا أقرانه وإذا ترددوا إليه فإن الصادق يحب غفلة الناس عنه ونســـيانهم لـــه خوفا من أن يشتغل بهم عن ربه عز وجل، والكاذب بالعكس، وليس هو في ذلـــك مبتدعا فغن رجال الطريق الصادقين قبله كانوا يحبون العزلة ويفرون من النـــاس لقد رفض أستاذه الخواص قصور الملوك وفضل أن يعيش بعيدا عنه في كوخـــه يجوع يوما ويشبع يوما من كسب يده، وأستاذه الشيخ شاهين أنقطع في الجبل وفر إلي الله بعيدا عن هؤلاء المعوقين الغافلين الذين شغلتهم الدنيـــا واســتولت علـــى قلوبهم، ومن قبله الشيخ الدمرداش انقطع في الصحراء وغير هؤلاء كثيرون ممـن سلكوا الطريق واثروا الآخرة على الدنيا، وإذا كان الإمام الشعراني لا يحـــب أن

---

[1]- سورة آل عمران آية ٢٦

[2]- لطائف المنن ص٩٩ ج١

يزوره هؤلاء الحكام الصالحون حتى لا يتكلف برد زيارتهم ويشغله ذلك عن ربــه فهو من باب أولي لا يفكر في زيارة الولاة العصاة ، حتى لو كـــانوا مرضـــي أو مصابين ويمنع العلماء والفقراء أيضا من زيارتهم ويري أن مرضهم هذا عقوبـــة لهم وجزاء لما يقترفونه في حقوق العباد والعباد، يقول الإمام الشعراني راويا عـن نفسه " ومما أنعم الله به على قلة عيادتي للظلمة إذا مرضـــوا لأن الغـالب فـــي مرضهم أنه عقوبة لذنوب سلفت ولا ينبغي لنا التحمل عنهم وأيضا ففي العيادة لهم إيناس لهم ولا ينبغي إيناس الظلمة والفسقة الذين يشربون الخمر ويزينوا ويـأكلون أموال الناس بالباطل ويحبسونهم ويضربونهم إذا لم يزنوا لهم تلك المغـارم التـي طلبوها منهم " ([1]) ، وبعد .. لقد تكلمنا في هذا الفصل عـــن العلمـاء العـاملين وصلاتهم بالحكام وأنهم كانوا لا يتركون ظلما إلا وحاربوه ولا باطلا إلا وأبطلـوه وإنهم وقفوا في وجوه الحكام ينصحونهم بالكلمة ويرشدونهم بالقدوة ويخرجون لهم المثل من كتاب الله وسنة رسوله، ثم تكلمنا عن الإمام الشـــعراني ومنهجـه فـــي الاتصال بهؤلاء الحكام وطريقة النصح لهم وأن الأمر بالمعروف والنـــهي عـن المنكر واجب العلماء ومن صميم عملهم وإلا فهم مقصرون في أداء واجبهم غـير مقتدين بسنة نبيهم، ثم تكلمنا عن اعتقاد الحكام في ولايته وموقفه من هدايا هـؤلاء الولاة وبينا أن أمامنا لا يهاب الحكام ولا يخاف ولكنه مع ذلك يلتزم الأدب معـــهم ويطالب العلماء باحترام الولاة تنفيذا لأوامر الله تعالي هذا إذا أطاعوا أوامـــر الله ونفذوا تعاليمه والتزموا بكتابه وسنة نبيه وإلا فلا طاعة لمخلـــوق فـــي معصيـــة الخالق، والآن يطيب لنا أن نختتم هذا الفصل برأي بعض الكتاب المعاصرين فـــي الإمام الشعراني وصلته بالحكام لنناقش أراءهم حتى يظهر الحق وينجلي الظـــلام عن العيون وعلى الله قصد السبيل .

[1]- لطائف المنن ص٢٠ ج٢

الإمام الشعراني وموقف الكتاب المعاصرين منه

****

يقول الدكتور توفيق الطويل في كتابه إمام التصوف في عصره وتحت عنـــوان " استخفاف الشعراني بالحكام " رفض الشعراني أن يلتمـــس لـــه بعضـــهم معونـــة السلطان في تركيا وتعاظم في صدر شبابه على هؤلاء الجبـــابرة، وهـــذا الكـــلام واضح لا لبس فيه أن أمامنا لا يطلب معونة من أحد سوي الله تعالي ويرفـــض أن تقدم إليه المعونة حتى ولو كانت من السلطان نفسه، بل نراه يستخف بهم ولا يعبـــأ بهؤلاء الجبابرة ولكنا لا نمض مع الدكتور سوي صفحات قليلة من كتابـــه حتـــى نراه يهدم ما قاله أولا وينقض ما ذكره سابقا .

يقول الدكتور : " إن الشعراني يخشى الدولة العثمانية ويخاف قوانينها وقد أشـــار الشعراني إلي هذا القانون والجزع منه لا يخفي في حديثه ولعل فرط جزعه مـــن هذا القانون هو الذي دفعه إلي الإسراف في الدعوة إلي طاعة الحكـــام وامتثـــال أوامرهم "، وفي نفس الصحيفة نري الدكتور يقول : " إن الدولة العثمانية نفســـها كانت تخشى بأس الشعراني " .

أيهما نصدق ما ذكره الدكتور في أول الصحيفة من أن الدولة العثمانية تخشى بأس الشعراني أو ما ذكره الدكتور في نهاية نفس الصحيفة من كتابه من " أن الشعراني لا يخفي جزعه وخوفه من الدولة العثمانية ومن قوانينـــها .. ؟ "، ونمضـــي مـــع الدكتور الطويل فيقول " إن الشعراني يفاخر بأن أوقاف زاويته بمأمن من الظلمـــة الحكام فلا يعارضه أو يعترض له أحد منهم رغم أنـــه لا يحمـــل مرســـوما مـــن السلطان بهذا الأمان "، ويقول الدكتور أيضا " في ولاية على باشا الوزيـــر ســـنة نيف وخمسين وتسعمائة اكتشف أولوا الأمر فساد الوقف الذي حبس على زاويتـــه وذريته ولكن سرعان ما أرسل السلطان بعدم التعرض له وطلب الدعاء منه فـــي مجالي ذكره وأوقات عبادته " .

إننا نفهم من هذه النصوص التي أوردها الدكتور أن ظلمة الحكام في الدولة العثمانية لا يستطيعون التعرض للأمام الشعراني وهو يخـــالف قوانيـــن الدولـــة

ومراسيمها ، ولكن الباب العالي والسلطان في تركيا يطالب نوابه في مصر بعـــدم التعرض له بل يطلب منه رضاه ويرجوه أن يدعو له في صلاته ومجالس ذكره .

إن هذا الكلام الذي ذكره الدكتور موجود في المراجع وكتب المناقب ونقلـه الدكتور مقتنعا به ولم يحاول أن ينفيه ويفنده وإذا كان ذلك كذلك فكيف يدل ذلـــك على أن الشعراني يجزع من الدولة العثمانية ويعيش في خوف ورعب منـــها .. ؟ الأمر الذي يدعوه لطاعة الحكام وامتثال أوامرهم وعدم التعرض لمناوأتهم حتـــى ولو كانت أعمالهم ظلما صارخا .. ؟ .

إن الثابت من تاريخ الإمام ومن حياته ومن مؤلفاته ومواقفه أنه لـــم يطـــع الحكام إلا إذا التزموا بطاعة الله، فإذا كانت أعمالهم ظلما صارخا كما يقول السـيد الدكتور نزل عليهم باللائمة وأعلنها عليهم حربا لا تهدأ، والدكتور الطويل يؤكـــد هذا الكلام ويقول عن الإمام الشعراني " كان يأبى أن يقبل ما يقدمونه إليـــه مـــن أموال والهدايا حتى إذا ألحوا ولجوا في الطلب تقبل المال بيد وطـــوح بـــه علـــى مرأى منهم ومشهد من الناس وقد رفض أن يلتمس له بعضهم معونة السلطان فـــي تركيا وتعاظم في صدر شبابه على هؤلاء الجبابرة ومن شواهد هذا أنه لما اعـتزم الوزير الأعظم علي باشا الرحيل إلي تركيا فقال للشعراني إننـــا مقربـــون إلـــي السلطان فهل لك عنده من حاجة ...؟ فأجابه الشعراني على الفور قائلا لـــه آلـك حاجة عند الله .. ؟ إننا مقربون إلي حضرته فسكت الوزير ولم يحر جواباً " ([1]) .
إن الواضح من هذه الرواية كما رواها الدكتور نقلا عن صاحب المناقب وغـــيره أن الوالي هو الذي ذهب إلي الشعراني في زاويته ولم ينتقل إليه الشعراني، وكـان هدف الباشا من ذلك واضحا وهو أن ينال حظوة عند الحاكم في تركيا ينال الباشـا حظوة عند السلطان، لأنه يحمل رسالة من الولي الكبير والعالم الجليل الشـــعراني حتى لو كانت هذه الرسالة مطالب ضخمة أو أعباء مرهقة، لقد كان يكفي أن يكون نائب السلطان في مصر قريبا من الشعراني حتى يرضي عنه الحاكم في تركيا ولا يفكر في عزله، والدليل على ذلك من كلام الدكتور نفسه حيث يقول " لقد ســـعت

[1]- الشعراني أمام التصوف في عصره ص٨٧

إليه الزعامة في الفقه والتصوف حتى انفرد بها أواخر عمره، وعند هذين كـــانت تلتقي وجوه العلم في عصره، وبهما أستبد بهوى الجماهير وانتزع إعجاب الفقــهاء واستل افتتان الأمراء ومن إليهم من الحكام حتى أضحت زاويتــه مركــز الحكــم السياسي في مصر " ([1]) .

إذا كانت زاويته مركز الحكم السياسي في مصر – فلمـــاذا – يجبــن .. ؟ ولماذا يخاف وممم يخاف .. ؟ لقد كان الإمام الشعراني في تلك الفترة أقــوي مــن الحكام مجتمعين أقوي منهم بدينه وإيمانه أقوي منهم بخلقه وتمسكه بشريعة ربـــه، ولكن الدكتور الطويل يصف الإمام الشعراني بأنه رجل " مدع "، يبيع دينـــه مــن أجل دنياه .. ؟، يهمل تعاليم ربه من أجل إرضاء الناس ويفطر في رمضان عشرة أيام " بالتمام " ابتهاجا بشفاء السلطان .. يقول الدكتور الطويل " إن في بعض مـــا يرويه الشعراني عن نفسه ما يثير كل حيرة، فهو رغم دعوته العريضة التي يؤكـد فيها حرصه على التزام ظاهر الكتاب والسنة يعترف مرة من غير استحياء بأنـــه أفطر في رمضان عشرة أيام ابتهاجا بشفاء السلطان سليمان ابن عثمان مـــن ألــم أصاب رجله ويقول أنه أفطر في فرص أخرى منها ما كان بشأن الوزيـــر علـــي باشا حين كان نائبا في مصر، ولكن هذا المروق فيما يلوح لنا مزده إلـــي مبالغـــة الشعراني في إظهار الولاء للحكام فقد كان على ما عرفنا يخشى بأسهم ويخطـــب ودهم "، والدكتور الذي قال هذا الكلام هو نفسه الذي يقول أن السلطان نزل إلـــي الشعراني وقال له آلك حاجة نقضيها لك قبل ذهابنا إلي تركيا ويرد عليه الشعراني بأنه ليس في حاجة لأحد سوي الله، والدكتور الذي يقول أنه أفطر من أجل نـــائب السلطان هو نفسه الذي يقول أن هذا النائب نفسه هو الذي قال للأمام الشعراني إننا مقربون إلي السلطان فرد علينا إننا مقربون إلي الله أكثر والدكتور هو الذي يقــول أن زاوية الشعراني كانت مركز للحكم السياسي في مصر، فكيـــف يفطــر فـــي رمضان لمجاملة هؤلاء الولاة، وهل المعصية تدل على الابتهاج والانشـــراح .. ؟ إن الإمام الشعراني لا يفطر في رمضان من أجل أحد ولا يعص الله فـــي ســـبيل

[1]- المصدر السابق ص١٤٢

إرضاء مخلوق مهما كان هذا المخلوق، والحقيقة كما يرويها التـــاريخ ويرويـــها الإمام الشعراني نفسه أن هذا الباشا نائب السلطان مرض مرضا شـــديدا وخـــرج العلماء والفقراء إليه يقدمون واجب المجاملة ويطلبون إليه الشفاء العاجل مـــاعدا الإمام الشعراني لم يطلع إليه القلعة ولم يفكر في عيادته حتى كان يـــوم، ولنـــترك الإمام يروي تلك الواقعة بنفسه يقول " ولما مرض الوزير علي باشا بمصر وشفي طلعت له وسلمت عليه ولكن بعد حصول مقتضى، وذلك أن بعض المحبين ذكـــر الباشا أنني عازم على زيارته بكرة النهار وقصد بذلك إظهار المحبة وليس لي أنـا عام بذلك فانتظرني الباشا بكرة النهار ويقول فلان ما جاء فبلغني ذلك لزمني عـن طريق المعروف مداواة صاحبي الذي كذب في قوله إني عازم على زيارة الباشـا ومداواة الباشا أيضا في إظهار محبتي له اعتنائه بي وانتظاره لـــي، فخشـيت أن يترتب على ظهور كذب هذا الرجل للباشا من الضرر له أكثر مما يترتب عليه من منفعة بتأديبي له عن الكذب بعدم طلوعي لزيارة ذلك الباشا، وقلت يمكـن تأديبـه بشيء أخر، وإلا فأنا بحمد الله ليس لي حاجة عند أحد من هؤلاء الولاة في الدنيـا أبدا فاعلم يا أخي ذلك واعمل علي التخلق به ترشد والله يتولى هداك والحمـــد لله رب العالمين ([1]) ، ماذا نفهم من هذا النص .. ؟ نفهم منه أن الإمام الشعراني لـــم يفكر في عيادة الباشا مطلقا لأنه بحمد الله كما يقول : ليس لي حاجة عند أحد مـن الولاة في الدنيا أبدا " والأمر الذي دفعه إلي عيادته إنقاذ أحد المسلمين أن يقع عليه ضرر من جراء كذبه على هذا النائب، والضرر الذي كان يوقعونه علـــى أفـراد الرعية ليس بالشيء اليسير فقد يكون السحل أو وضع الخوذة المحماة على رأســه أو جلده أو مصادرة أملاكه، ومن هنا رأي الإمام أن يعود هذا النائب منعـــا مـن وقوع ضرر لا يتحمله الفرد عادة فالمسألة إذن ليس فيها مخالفة للقواعد الشـرعية وإهمال أوامر الدين وتعطيل ركن من أركان الدين وإفطار في رمضان أو غـــير ذلك كما تصور الدكتور الطويل، وكنا نود من السيد الدكتور أن يذكر لنا حادثـــة تدل على استهتار الإمام الشعراني بأوامر الدين غير هذه الحادثة المدسوسة عليــه

---

[1]- لطائف المنن ص٢١ ج٢

وعنصر الاختلاق ظاهر فيها، وإذا أردنا أن نناقش هذا الكلام فلا يجـــوز لنـــا أن نسأل الدكتور هل الإفطار في رمضان يدل على الابتهاج .. ؟ من يقول ذلـك .. ؟ وهل إذا فعل الشعراني ذلك يرضي السلطان عنه ويحس أن الشعراني " مسرور " لشفائه وهل جري العرف عند المصريين في ذلك العصر أن إهمال ركـــن مـــن أركان الدين يدل على الانبساط .. ؟ وهل حدث أن قرر حاكم من الحكـــام الذيـــن توالوا على مصر – أن فرض على المصريين أن يتركوا الصلاة أو يمتنعوا عـــن الحج أو يفطروا رمضان ابتهاجا بأي حدث سعيد كانتصار في معركة أو بشـــرى بولي العهد الجديد أو بزيادة الإيراد والدخل أو غير ذلك من الحوادث السعيدة التي تمر بالدولة .. ؟ الجواب لا .. والدكتور نفسه يقول إن المصريين في ذلك الوقـت كانوا متعصبين لدينهم أكثر من أي وقت مضى .. .

إن السلطان لم يهب الشعراني ولم يطلب الدعاء منه في صلاته ومجالس ذكـوه إلا لأنه متمسك بأهداب الدين محافظ على قواعد الشريعة فإذا أفطر في رمضـــان .. وأهمل شئون الدين فأي شيء يبقي عنده حتى يخشاه السلطان ويرهبه النـائب .. ؟ الجواب لا شيء وكيف يتفق هذا مع ما يردده الدكتور عن الشعراني، بأنه ملـــتزم بالكتاب والسنة ويروي الدكتور عنه بأن هذا الكلام يردده في أكـــثر مؤلفاتـــه إن الإمام الشعراني سني محمدي يلتزم بقواعد الدين ويتمسك بأصول السنة ويـــهتف مع الصوفية الصادقين .. إذا رأيتم من يطير في الهواء أو يمشي فـــي المـــاء ولا يلتزم بأحكام الشريعة فهو شيطان رجيم، ولعل سائلا يقول إذا كان ذلك هو حقيقـــة الإمام الشعراني فكيف وجدت هذه الفرية طريقها إلي كتبه ومؤلفاته، حتـــى جـــاء الدكتور الطويل وأظهرها للناس، فهل يلام على ذلك .. ؟، والحقيقة أن الشـــعراني كان يحارب بكل سلاح، يحارب من الصوفية الأدعياء ومـــن الفقـــهاء الجـــهلاء ويحارب من الحسدة ومن المارقين عن تعاليم الدين ومن أساليب الحـــرب التـــي كانت تعلن عليه دسهم في كتبه كلاما لم يقله وتشويه مؤلفاته حتـــى ينطلـــي هـــذا الكلام على البسطاء وممن ليس لهم معرفة بالإمام فينفرون منه ويبتعـــدون عنـــه والإمام الشعراني احتاط لذلك في اغلب مؤلفاته وكان دائما ينوه بدس الدساســـين ولؤم الحاقدين يقول في مقدمة أحد مؤلفاته " وأسأل الله تعالي من فضله وكرمه أن

يحميه من كل عدو أو حاسد يدس فيه ما ليس من كلامـــي ممـــا يخـــالف ظـــاهر الشريعة لينفر الناس من المطالعة فيه حسدا أو عدوانا على وعلى الشـــريعة كمـــا فعلوا ذلك في كتابي المسمي بالبحر المورود في المواثيق والعهود .. ومـــن تلـــك الواقعة ما ألفت كتابا إلا وتعرضت فيه لما دسه الحسدة وأني سني محمدي ما ألفت كتابا إلا بعد قراءتي كتب الشريعة على مشايخ الإسلام لأزيل ما لعله بقـــي فـــي نفوس بعض الناس من أثر ذلك الكلام المدسوس " ([1]) ، والاعتقاد الحق أن اتبـــاع محمد ﷺ لا يفطرون في رمضان ولا يعتبرون ذلك ابتهاجا بشفاء مريض – بـــل طريقتهم إذا ما من الله عليهم بنعمة أن يقبلوها بالشكر وكثرة العبادة مـــن صـــلاة وصيام وقيام ليل واستغفار، والرسول ﷺ كان يقابل النعم بالشكر الذي هـــو قمـــة العبادة " تروي السيدة عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ أنه كان يقوم الليـــل حتى تورمت قدماه وعندما طلبت منه أن يرفق بنفسه لأن الله قد غفر له ما تقـــدم من ذنبه وما تأخر قال ﴿ أفلا أكون عبدا شكورا ﴾ ([2]) .

كنا نعتقد أن بعض أساتذتنا ينقلون عن المستشرقين هجومهم على رجالات الإسلام والمستشرقين – كما نعلم – دائما يحاولون أن يغمزوا هؤلاء الصفوة المختارة التي تتلمذت في مدرسة الإسلام وتربت في رحاب النبوة، كنا نقول ذلك، ولكـــن مـــاذا نفعل وهؤلاء المستشرقون ينصرون الإمام الشعراني أكثر من إنصـــاف الدكتـــور الطويل له، لم يقل أحد منهم أن الشعراني كان يفطر في رمضان ابتـــهاجا بشـــفاء السلطان، لأنهم يعلمون من هو الشعراني، لم يقل أحد منهم أن الشـــعراني كـــان يخشى بأس الدولة العثمانية ويوالي الحكام الظلمة إن الدكتور الطويل قال مـــا لـــم يستطع أن يقوله هؤلاء المعروفون بتحاملهم على الإسلام ورجـــالات الإســـلام . يقول المستشرق ماكدونالد عن الشعراني أنه رجل أخـــلاق تـــهزه أنفـــة خلقيـــة عالية ([3]) ويقول أيضا في كتاب له " إن الشعراني كان رجلا دراكا نفاذا مخلصـــا

---

[1]- الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية ص٧ + مخطوط

[2]- سبق تخريج هذا الحديث

[3]- الشعراني إمام التصوف وتوفيق الطويل ص١٤١

واسع العقل " ويقول أيضا " إنه يجمع بين أعظم المميزات تضادا وأنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ كان عقله من العقول النادرة الخلاقة في الفقه بعد القرون الأولـــي في الإسلام " ([1]) ولكن الدكتور لا ينتهي من كتابه عن الشعراني حتـــى يفاجئنـــا بقوله " إن الشعراني لا يسكت على ظلمة الحكام ممن خالفوا أحكام الشــريعة " ([2]) وقرر مولاه نصحهم وعدم تمكينهم من ظلم الرعية والجور على الناس ([3]) وعـــدم الركون إلي تملقهم لأن في جهنم واديا يقال له " هبهب " أعده الله للظلمة والفقــواء المداهنين الذين يتملقون الأمراء ويصادقونهم لغير مصلحة أو نصيحـــة ([4]) كمـــا يقول الرسول ﷺ، ويعلن الدكتور على ذلك بقوله " وواضح من هذا أنـــه يخـــالف الدعوة للرضا بمسلك الحكام الظلمة سرا وجهرا ([5]) لأنه يروي في طبقاته الكبرى أنه قال إن الفقير الذي لا يقتل من الظلمة عدد ما في رأسه من شعر لا ينتظم فـــي سمط الصادقين من الفقراء " ([6]) .

أتجدون دعوة إلي محاربة الظلم أكثر من ذلك .. ؟ إن الإمام الشـــعراني تجـــاوز النصح والزجر وتجاوز الثورة على هؤلاء الحكام الظلمة إلـــي المطالبـــة بقتلـــهم واغتيالهم، أليس هذا ما يمكن أن نفهمه من نصوص الإمام الشعراني السابقة والتي توجد في كتبه وينقلها الدكتور الطويل مقتنعا بها غير مكذب لها وإلا لحاول نفيـــها أو تمريضها، والإمام الشعراني لم يكن ينشر ذلك في منشـــورات ســـرية تـــؤدي مهمتها وتتلاشى أو يقرأها البعض دون الأخر ولكن كان يعبر عـــن آرائـــه تلـــك ويعلن ثورته في كتبه ومؤلفاته التي كانت تنتشر في مصر وغير مصر، ولكن هذه الثورة والدعوة إليها المنتشرة في كتب الإمام الشعراني لا ترضي الدكتور الطويل

---

[1]- المرجع السابق ص١٤٤

[2]- بهجة النفوس والإحراق ص٥٦ مخطوط

[3]- العهود المحمدية ص٣٣٨

[4]- رواه الحاكم في المستدرك عن أبي موسي وهو حديث صحيح : وفي رواية في جهنم واد وفي الوادي بور يقال لها هبهب حق على الله أن يسكنها كل جبار .

[5]- الشعراني إمام التصوف ص ١٢٢

[6]- الطبقات الكبرى ج٢ ص٧٧

ويعتبرها : " أنها دعوة نحيلة " وأنه هو الذي هون على الناس احتمالهم للظلم ومهد لإذعانهم للاستعباد وليس هذا بالهين اليسير " ([1]) إن من يستقرئ النصوص السابقة التي أوردها الدكتور الطويل ومن يتتبع مواقف الإمام الشعراني يستطيع أن يقول إن الإمام الشعراني فعل كل ما يمكن أن يفعله العالم والتي تنحصر مهمته الأساسية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبصير الرعية بحقوقها ومطالبة الحكام أن يكفوا عن الظلم وأن يرفقوا بالرعية .. إن كل منصف يستطيع أن يحكم هذا الحكم وهو مطمئن أنه بعيد عن المحاباة والمجاملة، لأن الإمام الشعراني تجاوز ما يطلب منه وهو تأليب الرعية على الحكام ومطالبتهم بالثورة على الطغاة، ولولا أن الإمام كان يتمتع بمكانة قوية وأتباعه كثر وخشيت الدولة العثمانية منهم لكانت طوحت به بعيدا عن الديار المصرية وألقت به في إحدى الجزر النائية، إن الإمام الشعراني يلقن الرعية ليل نهار قول الرسول ﷺ ﴿ الساكت عن الحق شيطان أخرس ﴾ والراضي عن الظلم أعد الله له واديا في جهنم هذا الوادي خاص بالخانعين والمداهنين والعلماء الذين لا ينطقون بكلمة الحق ويتملقون الأمراء، ولا يجابهونهم بكلمة صدق، إنه يقول للرعية ثوروا على الحكام الظلمة، طالبوا بحقوقكم ادفعوا عن أنفسكم ظلم الظالمين واستغلال الطامعين ويقول للعلماء بصروا الأمة بينوا الحقوق قفوا في وجه الظلمة ، ولكن الكثير من العلماء لم يتحركوا وفضلوا السكوت على القول والخنوع على المجابهة ، واستكان الشعب للظلم وخضع للقيد ولم يثر على جلاديه إذا كانت الرعية والعلماء فعلوا ذلك، ولكن الإمام الشعراني لم يسكت ولم يهدأ بل دعا الصوفية الصادقين والعلماء العاملين إلي تخليص الأمة من الظلمة وليس بالنصح والإرشاد هذه المرة بل بالثورة الحمراء بالخلاص من الحكام الظلمة، ولم يستطع الشعب أن يتخلص من جلاديه ولكن تلاميذ الشعراني والقارئين لكتبه ومؤلفاته وقفوا في وجهه الظلم وبصروا الأمة ونادوا بالحرية فاستجاب الله لهم وحق حقهم وأبطل باطل غيرهم

---

[1]- الشعراني إمام التصوف ص١٢٢

وذهب الحكام الظلمة ذهبوا في فيافي النسيان، وبقي الشعراني خـــالدا فـــي كتبـــه ومؤلفاته ينير طريق السالكين ويرشد الحيارى إلي أقوم الطرق وأسلم السبل .

تــذيـيـــــــــل

****

أتراني قطعت هذا الشوط الكبير مع قطب العارفين لأصل معه إلي تلك النهايـــة ؟ الحقيقة أنه ليست نهاية لكنها بداية البدايات مع إمامنا وقدوتنا والإمام الشعراني نعم بداية البدايات .. لأننا إذا كنا قد تناولنا في بحثنا " الشعراني " الصوفي الذي عرف ربه ففر إليه، وفهم دينه فعمل به، وعاش حياته مجاهدا في سبيل تلك الغاية، حتـى سمي بحق إمام التصوف في عصره وإذا كنا قد تناولنـا " الشـعراني " المربـي الخبير بالنفوس وأمراضها والنطاسي بالقلوب وأوجاعها، والـذي خـرج أبطـالا وربي رجالا كانوا لدينهم حصنا وعونا، ولإخوانهم عزا وركنا، ولمجتمعهم نـورا وأملا وإذا كنا قد تحدثنا عن الشعراني وصلاته بالحكـام والـولاة فـي عصـره ووضحنا أنه كان القامع لظلمهم والناصح لظالمهم ، وبينا أنه كـان عفيفـا عمـا بأيديهم من متاع الدنيا وزينتها حتى افترقوا فيه إلي فريقين فريق يخشـاه ويملـؤه الرعب لرؤيته، وفريق محب له خادم له ومطيع حتى أن بعـض الأمـراء تـرك إمارته وملكه، وجاهه وعزه، وتابع الشعراني في العز الدائم والجاه الخالد، واللـذة التي لو عرفوها الملوك لقاتلوهم عليها بالسيوف كما يقول العارف إبراهيم بن أدهم رحمه الله، وإذا كنا قد عايشناه في أفكاره وآرائه، وجلينا تلك الأفكـار وأوضحنـا تلك التعاليم وبينا كيف أعاد لعصره صورة المسلم الملتزم بتعاليم ربـه وصـورة الإسلام الصادق كما أنزله ربه وكما بلغه رسوله وكما سار عليه المؤمنـون مـن عباده من بعده، ولم نكتف بذلك بل ترجمنا حقيقة فهمه للحياة ومدى معرفته بـها وانتهينا في النهاية إلي رؤيته لها بأنها مرحلة انتقال من حياة فانية إلـي أخـرى باقية، وعندما تحقق بهذا الفهم قسم أوقاته بين العمل والعبادة والجـهاد والـهجرة والاستعداد لما بعد الموت بالتقوى والعمل هذه بعض الجوانب المشرقة عند إمامنـا الشعراني، وما أكثر الجوانب الأخرى التي هي أكثر نورا وإشراقا ويجب أن تجلى وتظهر لتثري أفكارنا وتجدد حياتنا وتملؤنا بالنور والإشراق، ومن هذه الجوانب " للشعراني " الفقيه المجدد الذي يري أن الفقه هو روح الإسلام وجوهـر الرسـالة المحمدية ومن هذا كان الفقه تشريعا وخلقا وعلما وعملا وبذلك مزج الفقه بحرارة

الإيمان فأنقذه من الجفوة والجفاف، وحببه إلي الجماهير ونقله من كونـــه أحكامـــا شرعية إلي حقائق روحية مشرقة .

إن الفقه الإسلامي " كما يقول الشعراني " ليـــس حيـــلا شـــرعية ولا تفريعـــات افتراضية، ولا ألاعيب بالألفاظ التي تقتضي الرخص وتستهدف الغلبة في ميـــادين الجدل والحوار، ولكن الفقه والتصوف هما جناحا الشـــريعة الإســـلامية أو همـــا وجهان لفكرة الإسلام، لا تكمل معانيه تشريعا وخلقا وروحا وجسدا إلا باتحادها .

يقول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : من تصوف ولم يفقه فقد تفسق، ومـــن تفقه ولم يتصوف فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، وانعطافا مع هذا القـــول طالب الشعراني بفتح باب الاجتهاد حتى يمكن أن نستفيد من التشريع فـــي تجديـــد الحياة، وذلك لمرونته وتوافقه مع الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليـــها وهـــل الفقه في الحقيقة إلا فهما جديدا ورأيا سديدا لكتاب الله وسنة رسوله .

يقول المستشرق " نيكلسون " موضحا جهود الإمام الشعراني في هذا الشأن، " إنـــه أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله، وإنه منذ فتح المغول للعالم الإســـلامي، ركدت الحركة الفكرية في الإسلام، واقتصر علماؤه علي الجمع والتقليد، فلا نجـــد بوادر انطلاق أو إنتاج أو أي أثر لتفكير أصيل وضئ باستثناء شخصيتين هما ابن خالدون المؤرخ والشعراني الصوفي وكان الشعراني بالذات مفكرا مبدعا أصيـــلا أثر تأثيرا واسع المدى في العالم الإسلامي " ويقول المستشرق " فلورز " في دائرة معارف الدين والأخلاق إن الشعراني في كتابه البحر المورود كـــان جريئـــا فـــي مهاجمة الفقهاء والتنديد بطمعهم وزهوهم، وأيضا " الشعراني " المفسر : الواقـــي لكلام ربه، الدارس له والفاهم لمعانيه، والبعيد في تفسيره له عن تعقيدات المعقدين وتهافت بعض المفسرين ودس الحاقدين، والشعراني يري أن القـــرآن كتـــاب الله يفسر بعضه بعضا ويفسره أيضا سنة الرسول ﷺ، قال تعالي ﴿ وأنزلنا إليك الذكـــر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾، فإذا وجدت الفطرة الصافية أنتجت الفهم لكتـــاب الله وسنة رسوله، ولن توجد الفطرة الصافية إلا بالإيمان والتقوى قال تعالي ﴿ اتقـــوا الله ويعلمكم الله ﴾ وهناك الشعراني الدارس لعلم الكلام الموضح لبعض العقـــائد لا

علم الكلام الذي أصاب المجتمع الإسلامي في الصميم وقسمه إلي شيع وأحـــزاب، فأصبح أبناء العقيدة الواحدة على عداء دائم وبأسهم بينهم شديد .

يقول الإمام الغزالي من أشد الناس غلولا وإسرافا طائفة من المسلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم ولم يفرق بين العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر، ولقد عمل الشعراني على تحرير علم الكلام مـــن نزوات الملحدين وأهواء المجادلين وأعاده إلي نوره ورونقه الإيماني، ومن أجـــل تلك الغاية أخرج كتابيه : اليواقيت والجواهر، والقواعد الكشفية الموضحة لمعـــاني الصفات الإلهية، محاولا بذلك إنقاذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار والجـــري وراء الأوهام والخيالات فإذا تخلصت من ذلك عادت إلي كتاب ربها وسنة نبيـــها، وهناك الشعراني المصلح الديني والزعيم الشعبي، مصلح ديني بما قدم لأبناء دينــه من أخلاق ومثاليات .. وبما حبر وألف من مؤلفات وزعيم شعبي لدفاعـــــه عــن المظلومين والمغلوبين على أمرهم أمام الحكام الجشعين .

يقول طه عبد الباقي سرور، في الشعراني تأملت خصائص الزعيم الديني الملـــهم على أوضح ما تكون الخصائص من قوة إيمانها لا يرهبها الظلم ولا ينـــال منـــها الإغراء، وقوة أخلاقية لا تلين للشهوات ولا تميل مع الأهواء، وقل بيـــن رجـــال التاريخ من جمع بين هذين اللونين من ألوان الزعامة فلا غرو إذا رأينا الشـــعراني يظهر بين معاصريه بالقيادة العامة التي لا تطاولـــها زعامـــات ولا تدنـــو منـــها مقامات، ومصداقا لهذا الذي يردده عبد الباقي سرور يقول الدكتور توفيق الطويـل : سعت إليه الزعامة في الفقه والتصوف حتى انفرد بها أواخر عمره وعند هذيـــن كانت تلتقي وجوه العلم في عصره وبها استبد بهوي الجماهير وانـــتزع إعجـــاب الفقهاء واستل افتتان الأمراء ومن إليهم من الحكام حتى أصبحت زاويتـــه مركـــز الحكم السياسي في مصر .

هذا هو الشعراني : عملاق جيله وما بعده من أجيال، وعلم من أعلام الإســـــلام " وأكاديمية " لكل العلوم والمعارف تخرج في مدرسة القرآن وتربى فـــــي رحـــاب النبوة، وعاش حياته لدينه حتى وفاه أجله رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قــــدم من خير للإسلام والمسلمين . **((تم بحمد الله))**

ثبت بالمراجع

(١) القرآن الكريم .

(٢) صحيح الإمام البخاري .

(٣) صحيح الإمام مسلم – شرح النووي .

(٤) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير
جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي .

(٥) كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق
للأمام عبد الرؤوف المناوي .

(٦) جمع الجوامع – المعروف بالجامع الكبير
للأمام جلال الدين السيوطي .

(٧) كتاب اللمع، لأبي نصر سراج الطوسي
تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور .

(٨) الرسالة القشيرية الإمام أبي القاسم القشيري
تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن شريف .

(٩) عوارف المعارف، للعارف بالله الإمام السهروردي
على هامش الأحياء للأمام الغزالي .

(١٠) التعرف لمذهب أهل التصوف .. للكلاباذي .

(١١) إحياء علوم الدين ٤ أجزاء للأمام أبي حامد محمد الغزالي .

(١٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم،
للعارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبه الحسني .

(١٣) التنوير في إسقاط التدبير
للشيخ الإمام القطب الرباني بن عطاء الله
تحقيق موسي محمد علي الموشي، وعبد العال أحمد .

(١٤) كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه .
(١٥) كتاب مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح
للعالم تاج الدين أحمد بن عطاء الله .
(١٦) المنقذ من الضلال، للغزالي
تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .
(١٧) لطائف المنن والأخلاق .
(١٨) الطبقات الكبرى .
(١٩) الطبقات الصغرى .
(٢٠) الأنوار القدسية في العهود المحمدية .
(٢١) الأنوار القدسية في آداب العبودية .
(٢٢) الأنوار القدسية في قواعد الصوفية .
(٢٣) كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر .
(٢٤) الكبريت الأحمر .
(٢٥) كشف الغمة عن جميع الأمة .
(٢٦) كتاب كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان .
(٢٧) كتاب الجواهر والدرر الكبرى .
(٢٨) كتاب الجواهر والدرر الصغرى .
على هامش كتاب الإبريز .
(٢٩) كتاب تنبيه المغترين في القرن العشرين .
(٣٠)كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود .
(٣١) كتاب الميزان .

كتب الإمام المخطوطة

(٣٢) كتاب الأجوبة المرضية عن الإمام والصوفية .
(٣٣) كتاب آداب المريد الصادق .

(٣٤) كتاب إرشاد الطالبين إلي مراتب العلماء والعاملين .
(٣٥) كتاب الأنوار في ذكر آداب السادة الأخيار .
(٣٦) كتاب بهجة النفوس والإحداق فيما يميز به القوم بين الآداب والأخلاق .
(٣٧) كتاب تربية المريدين .
(٣٨) كتاب تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا .
(٣٩) كتاب الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم .
(٤٠) كتاب القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية .
(٤١) كتاب القول المبين في الرد على الشيخ محي الدين .
(٤٢) كتاب مدارج السالكين إلي رسوم طريق العارفين .
(٤٣) كتاب منح السنية على الوصية المتبولية .
(٤٤) كتاب إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلي صحبة الأمراء وهي المعروفة بالمنن الصغرى
(٤٥) كتاب تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس .
(٤٦) كتاب أخوة الإسلام .
(٤٧) كتاب الدرر المنثورة في زبدة العلوم المشهورة .
(٤٨) كتاب الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع .
(٤٩) كتاب الفتح المبين .

بعض المراجع الأخرى

(٥٠) التصوف في مصر أبان العصر العثماني
الدكتور توفيق الطويل .
(٥١) تاريخ الجبرتي .
(٥٢) خطط المقريزي .

(٥٣) الخطط التوفيقية ج١٤ علي مبارك .
(٥٤) المناقب الكبرى للمليحي .
(٥٥) طبقات الشاذلية .
(٥٦) طبقات المناوي الكبرى .
(٥٧) شذرات الذهب .
(٥٨) مقدمة ابن خالدون .
(٥٩) الشعراني إمام التصوف في عصره
الدكتور توفيق الطويل .
(٦٠) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام . عبد الحليم الجندي .
(٦١) من أعلام التصوف في الإسلام ج٢ طه عبد الباقي سرور .
(٦٢) محي الدين بن عربي طه عبد الباقي سرور .
(٦٣) التصوف الإسلامي ج٢ الدكتور زكي مبارك .
(٦٤) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني طه عبد الباقي سرور .
(٦٥) رابعة العدوية طه عبد الباقي سرور .
(٦٦) التفكير فريضة إسلامية العقاد .
(٦٧) عبقرية عمر العقاد .
(٦٨) عبقرية خالد العقاد .
(٦٩) التفكير الفلسفي في الإسلام د.عبد الحليم محمود .
(٧٠) ابن عربي حياته ومذهبه ترجمة عبد الرحمن بدوي .
(٧١) السيد أحمد البدوي د. عبد الحليم محمود .
(٧٢) العارف بالله أبو العباس المرسي
د.عبد الحليم محمود .
(٧٣) فاذكروني أذكركم د.عبد الحليم محمود .
(٧٤) المدرسة الشاذلية د.عبد الحليم محمود .
(٧٥) الإيمان والإسلام د.عبد الحليم محمود .
(٧٦) الإسلام والعقل د.عبد الحليم محمود .

(٧٧) كتاب الصدق أو الطريق إلي الله أبو سعيد الخراز
تحقيق د.عبد الحليم محمود .
(٧٨) رمضان شهر القرآن د.عبد الحليم محمود .
(٧٩) محمد رسول الله د.عبد الحليم محمود .
(٨٠) العبادات في الإسلام د.عبد الحليم محمود .
(٨١) السيد البدوي شيخ وطريقة د.عبد الفتاح عاشور.

****

فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوع

تابع فهرس الموضوع

تابع فهرس الموضوعات